الأخلاق
بين الطبع والتطبع

تأليف
أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

طبعة جديدة منقحة ومزيدة

دار الإيمان
الإسكندرية

دار القمة
الإسكندرية

الأخلاق بين الطبع والتطبع
لأبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي
دار الإيمان



طبعة جديدة منقحة ومزيدة

٢٠٠٨

رقم الإيداع

١٣٤٦٢/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولي

977-331-210-0





١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤١١٩١٠ - ٥٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com



طبعة جديدة منقحة ومزيدة

تأليف

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي







طبعة جديدة منقحة ومزيدة
٢٠٠٨

رقم الإيداع
٢٠٠٣ /١٣٤٦٢

الترقيم الدولي
977-331-210-0





١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤١١٩١٠ - ٥٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمْدَ لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله منْ شُرور أنفُسنَا، وسيِّئات أَعْمَالنَا، مَنْ يَهْـده اللهُ فَلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَه، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ، فإنَّ مَكَارِمَ الأَخْـلاق تَعْشقُهَا القُلُوبُ، وتهفو إليـها النُّفوسُ، فهي صفةٌ منْ صـفات الأنبياء، والصِّدِّيقين، والصَّـالحين، بهَا تُنَالُ الدَّرَجاتُ، وتُرْفَعُ المَقَامَاتُ، وَقَدْ بعثَ اللهُ نبيَّنا محمَّدًا - ﷺ - ليُتمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاق وَصَالحَهَا، فَكَانَ يَدْعُو النَّاسَ بِلِسَانِ مَقَالِه، ويَدْعُوهُم - أَيْضًا - بِأَخْلاقِه، وكَرِيمِ فِعَالِه.

قَالَ الشَّاعِرُ:

خُلُقٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَحْسُدُهُ على ... كَـرَمِ الطِّبَـاعِ، وزينةِ الأوصـافِ
ضَمِنَتْ لَهُ الدُّنيا الثَّناءَ، فكُلَّما ... ذكَـرُوهُ جَـادَ النَّاسُ بالإِتْحَـافِ[1]

فَمَنْ رُزِقَ الأَخْلاقَ ترأَّسَ وَسَـادَ، وأَحَبَّهُ العِبَادُ، وفُـتِحَتْ لَهُ القُلُوبُ؛ لأنَّه صَاحِبُ أخلاقٍ.

قال شاعرُ النِّيلِ حافظُ بنُ إبراهيمَ:

فـإذا رُزِقْتَ خَلِيـقَـةً[2] مـحـمـودةً ... فَـقَـدِ اصْطَفَـاكَ مُـقَـسِّمُ الأرزَاقِ
فـالنَّاسُ هذا حَظُّهُ مَـالٌ، وذا ... عِلـمٌ، وذَاكَ مَـكَارِمُ الأَخْـلاَقِ

(١) الإتحاف: الإهداء.
(٢) الخَلِيقَة: الخُلُق، والجمعُ خلائقُ.

وَالمَالُ إنْ لَمْ تَدَّخِـرْهُ مُحَصَّنًا ... بالعِلْم، كَانَ نهايةَ الإمْلَاقِ[1]
والعِلْمُ إنْ لم تَكْتَنِفْهُ شَمَائِلٌ[2] ... تُعْلِيهِ، كَانَ مَطِيَّةَ الإخْفَاقِ
لا تَحْسَبَنَّ العِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ ... مَا لم يُتَوَّجْ رَبُّهُ[3] بِخَلَاقِ[4][5]

وَلما لمكَارِمِ الأَخْلاقِ مِنْ مكَانَة عَظِيمَة، وَمَنْزِلَة عَالِيَة مِنَ الدِّينِ - بَلْ هي الدِّينُ كُلُّهُ -؛ فَقَدْ حَاوَلْتُ فِي هَذه الصَّفَحَات الآتِيَة أَنْ أُسلِّطَ الضَّوءَ عَلَى مكَارِم الأَخْلاقِ فِي ضَوْءِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّة، مُسْتَرْشِدًا بِفَهْمِ سَلَفِنا الصَّالِح، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ، مُذَكِّرًا نَفْسِي أوَّلاً، وَإِخْوَاني المُسلمينَ ثانيًا بِهَذِه العِبَادَة المُبارَكَة في الدُّنيا وَالآخرَة.

وكِتَابِي هَذَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّة مُقْتَبَسٌ، وَفِيه لِمَنْ رَامَ الأَخْلاقَ نِعْمَ المُلْتَمَس، وَلَنْ أتحدَّث عنْهُ، فَهُوَ أَوْلَى بالحَديثِ عَنْ نَفْسه.

وأَسأَلُ اللهَ أَنْ يُحَسِّنَ أَخْلاقَنَا، ويُوَفِّقَنَا لمكارِمِ الأخْلاقِ في أَقْوَالِنَا، وأفْعَالِنَا، ونيَّاتنا، إنَّه نِعْمَ المولَى، ونِعْمَ النَّصِيرُ.

وَصَلَّى اللهُ وبارك على نبيِّنا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا، وَالحَمْدُ لله ربِّ العَالمين.

كَتَبَهُ

أبو عبد الله

فيصل بن عبده قائد الحاشدي

---

(١) الإملاق: الفقر، يُقَال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ: إذا افتقر.

(٢) الشَّمائل: الأخلاق، مُفردها شِمَالٌ - بالكسر -.

(٣) رَبُّهُ: صاحبُهُ، والجمعُ أرْبابٌ.

(٤) بِخَلَاقٍ - بفتح الخاء -: أيْ بنصيبٍ منَ الخَيْرِ وَالصَّلاحِ وَمَكارِمِ الأخْلاقِ.

(٥) «جواهر الأدب» (ص٤٩٥).

تعريف الأخلاق

الأَخْلاقُ: السَّجَايا والطِّباع.

قَالَ ابْنُ الأَثِيرِ:

«الخُلُقُ - بِضَمِّ اللاَّمِ وَسُكُونِهَا -: الدِّيْنُ، والطَّبْعُ، والسَّجِيَّةُ، وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّهُ صُورَةُ الإِنْسَانِ الْبَاطِنَةُ، وهِيَ نَفْسُهُ وأَوْصَافُهُ»[1].

وقَالَ ابْنُ منظورٍ:

«وفِي التَّنزيل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة القلم:٤). والجَمْعُ أَخْلاقٌ، لا تُكَسَّرُ[2] عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَالخُلُقُ: السَّجِيَّةُ»[3].

وَقَالَ - أَيْضاً -:

«الخُلُقُ - بضم اللاَّم وسكونها -: هُوَ الدِّيْنُ، وَالطَّبْعُ، وَالسَّجِيَّةُ»[4].

وَقَالَ القَسْطَلانِيُّ:

«اعْلَمْ أَنَّ الأَخْلاقَ جَمْعُ خُلُقٍ بِضَمِّ الخَاءِ واللاَّم، وَيَجوزُ إِسْكَانها (خُلْق).

---

(١) «النِّهاية» (٢/ ٧٠).

(٢) لا تُكَسَّرُ: أي لا تُجمعُ جَمْعَ تكسيرٍ.

(٣) «لسان العرب» (١٠/ ٨٦-٨٧).

(٤) المرجع السابق.

قَالَ الرَّاغِبُ:

الخَلْقُ وَالخُلْقُ ـ بالفَتْحِ وَبِالضَّمِّ ـ في الأَصْلِ بمعْنىً وَاحِدٍ كَالشَّرْبِ وَالشُّرْبِ، وَلَكِنْ خُصَّ الخَلْقُ الَّذِي بِالْفَتْحِ بِالْهَيْئَاتِ وَالصُّوَرِ الْمُدْرَكَةِ بِالْبَصَرِ، وَخُصَّ الَّذِي بِالضَّمِّ بالقوى والسَّجَايا الْمُدْرَكَةِ بِالْبَصِيرَةِ»[1].

وَقَالَ الجَاحِظُ:

«الخلقُ: هُوَ حالُ النَّفْسِ، بِهَا يَفْعَلُ الإِنْسَانُ أَفْعَالَهُ بِلا رَوِيَّةٍ، وَلا اخْتِيَارٍ، وَالخلقُ قَدْ يكُونُ فِي بَعْضِ النَّاسِ غَرِيزَةً وطَبْعًا، وفِي بَعْضِهِمْ لا يَكُونُ إلاَّ بِالرِّيَاضَةِ وَالاجْتِهَادِ»[2].



(١) «شرح المواهب اللدنيَّة» (٤/ ٢٤٣).
(٢) «تهذيب الأخلاق» (ص١٢).

الأَخْلاقُ بينَ الطَّبعِ والتَّطَبُّعِ

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ في حَقِيقَةِ الأَخْلاقِ، فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا طَبَائِعُ، جُبِلَ الإنْسَانُ عَلَى التَّحَلِّي بِهَا، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهَا اكْتِسَابٌ، يَكْتَسِبهَا الإنْسَانُ بِالْمُمَارَسَةِ، والدُّرْبَةِ، وَالمرونَةِ.

والصَّوَابُ أَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ طَبْعٌ، يَتَفَضَّلُ اللهُ - عزَّ وجلَّ - عَلَى بعْضِ خَلْقِه، فَيَجْبِلَهُمْ عَلَيْهَا، ويَطْبَعُهُمْ بِهَا مِنْ غَيْرِ كَسْبٍ مِنْهُمْ، وَلا جهْد، وَمَنْ لَمْ يُؤْتِه فَهُوَ مُكَلَّفٌ بِمُجَاهَدَةِ نَفْسِه، وَحَمْلِهَا عَلَى مكَارِمِ الأَخْلاقِ، فَإِنَّ النَّفْسَ قَابِلَةٌ لِذَلِكَ.

قَالَ أبو ذُؤَيْبٍ الهُذَليُّ:

والنَّفْسُ راغِبةٌ إذا رَغَّبْتَهَا ▪▪▪ وإذا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ[(١)]

ومِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأَخْلاقَ الفَاضِلَةَ تكُونُ طَبْعًا، وَتَكُونُ تَطَبُّعًا - قَوْلُ النَّبِيِّ - ﷺ - لأشَجِّ عَبْدِ القَيْسِ: «**إنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ، يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ، والأَنَاةُ**». قال: «يا رسولَ اللهِ، أهما خُلُقَانِ تَخَلَّقْتُ بهما، أم جَبَلَني اللهُ عليهما؟». قَالَ: «**بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا**». قَالَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ ورسولُهُ»[(٢)].

قَالَ الشَّيْخُ مُحمَّدُ بْنُ صَالحٍ العُثيمين - يرحمهُ اللهُ - في شَرْحِهِ لِهَذَا الحَدِيثِ:

«فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأَخْلاقَ الحميدةَ تَكُونُ طَبْعًا، وَتَكُونُ تَطَبُّعًا، وَلَكِن

(١) «عُيونُ الأخبار» (٢/ ٥٨٨).
(٢) رواه أبو داودَ (٥٢٢٥)، وأحمدُ (٤/ ٢٠٦)، وأخرج شَطْرَهُ الأوَّل مسلمٌ (١٧)، والتِّرمذيُّ (٢٠١١) عن ابن عبَّاسٍ.

الطَّبْعَ - بِلاشَكٍّ - أَحْسَنُ مِنَ التَّطَبُّعِ؛ لأَنَّ الخُلُقَ الحَسَنَ إِذَا كَانَ طَبِيعِيًّا صَارَ سَجِيَّةً للإِنْسَانِ، وَطَبِيعَةً لَهُ، لا يَحْتَاجُ فِي مُمَارَسَتِهِ إِلَى تَكَلُّفٍ، وَلَا يَحْتَاجُ فِي اسْتِدْعَائِهِ إِلَى عَنَاءٍ وَمَشَقَّةٍ، وَلَكِنْ هَذَا فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ حُرِمَ هَذَا - أَيْ مَنْ حُرِمَ الخُلُقَ عَنْ سَبِيلِ الطَّبْعِ - فَإِنَّهُ يُمكنه أَنْ يَنَالَهُ عَنْ سَبِيلِ التَّطَبُّعِ، وَذَلِكَ بِالْمُرُونَةِ وَالْمُمَارَسَةِ»[1].

وَقَالَ - أَيْضًا -:

«وَهُنَا مَسْأَلَةٌ: وهِيَ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ، رَجُلٌ جُبِلَ عَلَى خُلُقٍ حَمِيدٍ، وَرَجُلٌ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ عَلَى التَّخَلُّقِ بِهِ، فأَيُّهُمَا أَعْلَى مَنْزِلَةً مِنَ الآخَرِ؟.

وَنَقُولُ جَوَابًا عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَةِ: إِنَّهُ لا شَكَّ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي جُبِلَ عَلَى الخُلُقِ الحَسَنِ أَكْمَلُ مِنْ حَيْثُ تَخَلُّقه بِذَلِكَ، أَوْ مِنْ حَيْثُ وُجودِ هَذَا الخُلُقِ الحَسَنِ فيه؛ لأَنَّهُ لا يَحْتَاجُ إِلَى عَنَاءٍ ولا إِلَى مَشَقَّةٍ فِي اسْتِدْعَائِه، ولا يفُوته في بَعْضِ الأَمَاكِنِ والمواطنِ، إِذْ أَنَّ حُسْنَ الخُلُقِ فيه سَجِيَّةٌ وَطَبْعٌ، فَفِي أَيِّ وقت تَلْقَاهُ تَجده حَسَنَ الخُلُقِ، وفِي أَيِّ مكَان تَلْقَاهُ تَجده حَسَنَ الخُلُقِ، وعَلَى أَيِّ حَالٍ تَلْقَاهُ تجده حَسَنَ الخُلُقِ، فَهُوَ فِي هَذِه النَّاحِيَةِ أَكْمَلُ بِلا شَكٍّ.

وَأَمَّا الآخَرُ الَّذِي يُجَاهِدُ نَفْسَهُ، ويُرَوِّضُها علَى حُسْنِ الخُلُقِ - فَلا شَكَّ أَنَّه يُؤْجَرُ على ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ مُجَاهَدَةِ نَفْسِه، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ هَذِهِ الجِهَةِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ حَيْثُ كَمَال الخُلُقِ أَنْقَصُ بِكَثِيرٍ مِنَ الرَّجُلِ الأَوَّلِ.

فإِذا رُزِقَ الإِنْسَانُ الخُلُقَيْنِ جَمِيعًا طَبْعًا وتطبُّعًا، كَانَ ذَلِكَ أَكْملَ»[2].

---

(١) «مكارم الأخلاق» لابن عثيمين (ص١٣).
(٢) المرجع السابق (ص١٤).

أهميةُ الأخلاقِ

١ . أنَّها امتثالٌ لأمرِ اللهِ - سبحانه وتعالى -.

٢ . أنَّها طاعةٌ لرسولِ الله - ﷺ -.

٣ . أنَّها سببٌ لمحبَّةِ اللهِ - سبحانه وتعالى -.

٤ . أنَّها سببٌ لمحبَّةِ رسول الله - ﷺ -.

٥ . أنَّها أعظمُ سببٍ لدخولِ الجنَّةِ بَعْدَ تقوى اللهِ - تعالى -.

٦ . أنَّ كمالَ الدِّين . بَعْدَ التَّوحيدِ . في حُسْنِ الخُلُقِ.

٧ . أنَّها أثقلُ شَيْءٍ في الميزانِ.

٨ . أنَّها عبادةٌ عظيمةٌ.

٩ . حصولُ الخَيْريَّةِ.

١٠ . أنَّها مِنْ خَيْرِ أعمالِ العبادِ.

١١ . أنَّها سببٌ لتعميرِ الدِّيارِ وزيادةِ الأعمارِ.

١٢ . أنَّها مِنْ أَعْمَالِ أهلِ الجنَّةِ.

١٣ . أنَّها سَبَبٌ في تَأْييدِ اللهِ ونَصْرِهِ.

أهَمِّيَّةُ الأخْلاقِ

١ ـ أنَّها امتثالٌ لأمرِ اللهِ - سبحانه وتعالى -:

قَالَ اللهُ -سبْحَانَهُ وتَعَالَى-: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٩٩).

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ - رضي الله عنه -: «أمَرَ اللهُ نبيَّهُ - ﷺ - أنْ يأْخُذَ العَفْوَ مِنْ أَخْلاقِ النَّاسِ»[(١)].

٢ ـ أنَّهَا طَاعَةٌ لرسولِ اللهِ - ﷺ -:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَمُعَاذٍ -رضي الله عنهما- قَالا: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[(٢)].

٣ ـ أنَّها سببٌ لمحبَّةِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى -:

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «أَحَبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ أحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[(٣)].

(١) رواه البخاريُّ (٤٦٦٣)، و (٤٦٤٤).
(٢) رواه أحمدُ (٥/ ١٣٥-١٥٨)، والتِّرمذيُّ (١٩٨٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٩٧).
(٣) رواه الطَّبرانيُّ في «الكبير» (٤٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٩٩-٤٠١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٧٩)، و«الصَّحيحة» (٤٣٣).

٤ ـ أنَّها سببٌ لمحبَّة رسول الله - ﷺ - :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله - ﷺ - : «إنَّ مِنْ أحبِّكُمْ إليَّ، وأقربِكُمْ منِّي مجلسًا يومَ القيامة - أحاسنَكُمْ أخلاقًا»[(١)].

٥ ـ أنَّها أعظمُ سببٍ لدخولِ الجنَّةِ بَعْدَ تقوى الله - تعالى -:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: سُئِلَ رسولُ الله - ﷺ - عَنْ أكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجنَّةَ، قَالَ: «تَقْوَى الله، وحُسْنُ الخُلُقِ»[(٢)].

٦ ـ أنَّ كمالَ الدِّين - بَعْدَ التَّوحيدِ - في حُسْنِ الخُلُقِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله - ﷺ - : «أَكْمَلُ المُؤْمنين إيمانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[(٣)].

وَيَقُولُ ابنُ القَيِّمِ ـ يرحمه اللهُ ـ: «الدِّينُ كُلُّهُ خُلُقٌ، فَمَنْ زاد عليك في الخُلُقِ، زاد عليك في الدِّينِ»[(٤)].

٧ ـ أنَّها أثقلُ شيءٍ في الميزانِ:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رسُولُ الله - ﷺ - : «مَا مِنْ شَيْءٍ أثقلُ في ميزانِ العبدِ المؤمنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ»[(٥)].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٠١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢٢٠١)، و«صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٢/ ٢١٥).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٠٠٤)، وابن ماجَة (٤٢٤٦)، وأحمدُ (٢/ ٢٩١، ٣٩٢، ٤٤٢)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٤٤٢)، وحسَّنَ إسنادَهُ الشَّيخُ سليمٌ الهلاليُّ في كتابه «مكارم الأخلاق» (ص٥٠).

(٣) رواه أبو داودَ (٤٦٨٢)، والتِّرمذيُّ (١١٦٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٢٣٠ و١٢٣٢)، و«الصَّحيحة» (٢٨٤).

(٤) «مدارج السَّالكين» (٢/ ٢٩٤).

(٥) رواه أبو داودَ (٤٧٩٩)، والتِّرمذيُّ (٢٠٠٢) و(٢٠٠٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٧٢١)، و«الصَّحيحة» (٨٧٦).

٨ ـ أنَّها عبادةٌ عظيمةٌ:

عَنْ عَائشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: قَالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ العبدَ ليَبلُغُ بحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائمِ القائمِ»[(١)].

٩ ـ حصولُ الخيريَّةِ:

عَنْ عبدِ اللهِ بْنِ عَمْرو -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ مِنْ خِيارِكُمْ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاقًا»[(٢)].

١٠ ـ أنَّها مِنْ خَيْرِ أعمالِ العبادِ:

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شريكٍ -رضي الله عنه- قَالَ: سُئِلَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- فقيلَ لَه: يا رَسولَ اللهِ، ما خيرُ ما أُعْطِيَ الإنسانُ؟، قَالَ: «خُلُقٌ حَسَنٌ»[(٣)].

وَقَالَ رَسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «يا أبا ذرٍّ، أَلاَ أَدُلُّكَ على خَصْلَتَيْنِ، هما أخفُّ على الظَّهْرِ، وأثقلُ في الميزانِ مِنْ غَيْرِهِمَا؟». قَالَ: «بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ». قَالَ: «عليكَ بحُسْنِ الخُلُقِ، وطُولِ الصَّمْتِ؛ فوالذي نَفْسُ محمَّدٍ بيدِهِ، ما عَمِلَ الخَلائقُ بِمِثْلِهِمَا»[(٤)].

١١ ـ أنَّها سببٌ لتعميرِ الدِّيارِ، وزيادةِ الأعمارِ:

عَنْ عَائشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «صِلَةُ الرَّحِمِ، وحُسْنُ الخُلُقِ، وحُسْنُ الجِوَارِ ـ يُعَمِّرْنَ الدِّيارَ، ويَزِدْنَ في الأعمارِ»[(٥)].

---

(١) رواه أبو داودَ (٤٧٩٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٦٢٠)، و«الصَّحيحة» (٧٩٥).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٥٥٩) و (٣٧٥٩) و (٦٠٢٩) و (٦٠٣٥)، ومسلمٌ (٢٣٢١).

(٣) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٩١)، وأحمدُ في «المسند» (٤/ ٢٧٨)، وابن ماجَة (٣٤٣٦)، وهو صحيح الإسناد.

(٤) رواه البزَّار في «كشف الأستار» (٤/ ٢٢٠) عن أنسٍ، وأبو الشَّيخ عن أبي ذرٍّ وأبي الدَّرْدَاءِ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٤٠٤٨)، وهو في «الصَّحيحة» (١٩٣٨).

(٥) رواه أحمدُ (٦/ ١٥٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٣٧٦٧)، و«الصَّحيحة» (٥١٩).

١٢ - أنَّها مِنْ أعمالِ أهلِ الجنَّة:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «أَنَا زعيمٌ[(١)] ببيتٍ في رَبَضِ[(٢)] الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ[(٣)]، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وببيتٍ في وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ، وإنْ كَانَ مَازِحًا، وببيتٍ في أعلى الجنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ»[(٤)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - عَنْ أَكْثَرِ ما يُدْخِلُ النَّاسَ الجنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ». وسُئِلَ عَنْ أكثرَ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فقال: «الفَمُ، والفَرْجُ»[(٥)].

١٣ - أَنَّهَا سببٌ في تأييدِ اللهِ ونَصْرِهِ:

وَصَفَتْ خديجةُ بنتُ خُوَيْلد - رضي الله عنها - رسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - عِنْدَمَا أَخْبَرَهَا بنُزُولِ الوَحْيِ، ويقـولُ: «لَقَدْ خَشِيْتُ على نفسي». فَقَالَتْ: «كلاً، أبشرْ فواللهِ، لا يُخْزِيكَ اللهُ أبداً - ثُمَّ ذكرتْ سببَ ذلك بقولها - واللهِ، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ[(٦)]، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ[(٧)]، وَتَقْرِي الضَّيفَ[(٨)]، وتُعِينُ على نوائبِ الحقِّ»[(٩)].

---

(١) زعيمٌ: ضامنٌ، وكفيلٌ، والجمعُ زُعَمَاء.

(٢) رَبَضُ الجنَّةِ - بفتحتين -: أدناها. ورَبَضُ المدينة: ما حَوْلَهَا، والجمعُ: أَرْبَاضٌ، ورُبُوضٌ.

(٣) المِرَاء: أصله مِنْ مريتُ النَّاقةَ: إذا استخرجتُ ما في ضَرْعِها، وهو المنازعةُ في القولِ والعَمَلِ بقصدِ الباطلِ، فإذا كان بقصد الحقِّ فهو جِدَالٌ.

(٤) رواه أبو داودَ (٤٨٠٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٤٦٤)، و«الصَّحيحة» (٢٧٣).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) الكَلّ - بالفتح -: العيال. وتحملُ الكَلَّ: أي عن صاحب العَيْلَةِ والفَاقَةِ، فَتُعطيه ما يُرِيحُهُ مِنْ ثِقَلِ مُؤْنَةِ عِيَاله.

(٧) تَكْسِبُ المَعْدُومَ: تُبَادِرُ إلى إعطاء الفقير، فتكسبُ حسَنَتَهُ قبْل غيْرك. سُمِّيَ الفقيرُ معدومًا؛ لأنَّ حياته ناقصة، فوجوده وعدمُهُ سواءٌ.

(٨) تَقْرِي الضَّيْفَ: تُكْرِمُهُ في تقديم قِرَاهُ، وإحسانِ مَأْوَاهُ.

(٩) رواه البخاريُّ (٣)، و(٤٩٥٣)، و(٦٩٨٢)، ومسلمٌ (١٦٠).

قَالَ النَّوويُّ - يرحمه اللهُ -:

«قالَ العُلَمَاءُ - رضي الله عنهم -: مَعْنى كلام خديجةَ - رضي الله عنها - أنَّكَ لا يُصيبُكَ مكروهٌ؛ لما جَعَلَ اللهُ فيكَ مِنْ مكَارِمِ الأَخْلاقِ، وكَرَمِ الشَّمائلِ، وذَكَرَتْ ضُرُوبًا[1] مِنْ ذلك، وفي هَذَا دلالةٌ على أنَّ مَكَارِمَ الأخْلاقِ، وخِصَالَ الخيرِ سَبَبُ السَّلامةِ مِنْ مَصَارِعِ السُّوءِ»[2].

إنَّ البَرِيَّةَ يَوْمَ مَبْعَثِ أَحْمَدَ ... نَظَرَ الإلهُ لَهَا، فَبَدَّلَ حَالَهَا

بَلْ كَرَّمَ الإنسانَ حِينَ اخْتَارَ مِنْ ... خَيْرِ البَرِيَّةِ نَجْمَهَا وهِلالَهَا

ووصَفَ ابنُ الدَّغِنَة أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ بِمِثْلِ مَا وَصَفَتْ به خديجةُ - رضي الله عنها - رسُولَ الله - صلى الله عليه وسلم - مِنْ مكَارِمِ الأَخْلاقِ.

عَنْ عَائشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: «خَرَجَ أبو بَكرٍ مُهَاجرًا نَحْوَ أرضِ الحَبَشَةِ، حتَّى بلغ بَرْكَ الغِمَادِ، لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ. وهو سيدُ القَارَةِ. فقال: أين تريد يا أبا بَكْرٍ؟.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأريدُ أَنْ أَسِيحَ في الأرضِ[3]، وأَعْبُدَ ربِّي.

قال ابنُ الدَّغِنَةِ: إنَّك تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيفَ، وتُعِينُ على نوائبِ الحقِّ؛ فَأَنَا لك جَارٌ[4]؛ ارْجِعْ واعْبُدْ رَبَّكَ ببلدِكَ. فَرَجَعَ»[5].

قَالَ الحَافظُ ابنُ حَجَرٍ - يرحمه اللهُ -:

«وفي مُوَافَقَةِ وَصْفِ ابْنِ الدَّغِنَةِ لأَبِي بَكْرٍ بمثلِ ما وَصَفَتْ به خَدِيجَةُ النَّبيَّ - صلى الله عليه وسلم - مَا يدُلُّ عَلَى عظيمِ فَضْلِ أَبِي بَكْرٍ، واتِّصَافه بالصِّفَات البَالِغَة في أنواعِ الكَمَالِ»[6].

---

(١) ضُرُوبًا: جَمْعُ ضَرْبٍ - بالفَتْحِ - وَهُوَ الصِّنْفُ والنَّوْعُ، وَيُجْمَعُ - أيضًا - علَى أَضْرُبٍ، وأَضْرَابٍ.

(٢) «شرح مسلم» (٢/ ٢٠٢).

(٣) سَاحَ في الأَرْضِ يسيحُ سَيْحًا وسُيُوحًا وَسِيَاحَةً وَسَيَحَانًا: أَيْ ذَهَبَ.

(٤) جَـارٌ: أي مُجيرٌ، أمنعُ مَنْ يُؤْذيك.

(٥) رواه البخاريُّ (٣٩٠٥).

(٦) «الفتح» (٧/ ٦٤٠).

وقال - أيضًا -:

«وَمِنْ أَعْظَمِ مَنَاقِبِهِ[(١)] - أَيْ أَبِي بَكْرٍ - رضي الله عنه - أَنَّ ابْنَ الدَّغِنَةِ سَيِّدَ القَارَةِ وَصَفَهُ بِنَظِيرِ مَا وَصَفَتْ بِهِ خَدِيجَةُ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - لَمَّا بُعِثَ، فَتَوَارَدَا عَلَى نَعْتِ وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَوَاطَآ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا غَايَةٌ فِي مَدْحِهِ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - مُنْذُ نَشَأَ كَانَتْ أَكْمَلُ الصِّفَاتِ»[(٢)].

أبو بَكْرٍ والشَّدْوُ الجميلُ بكَ ابْتُكِر ▪▪▪ وَذِكْرَاكَ قَدْ طَافَتْ عَلَى البَدْوِ والحَضَرْ
هُمَامٌ[(٣)] كأنَّ الشَّمسَ أَصْغَتْ لفَضْلِهِ ▪▪▪ وحَنَّتْ لَهُ الجَوْزَا[(٤)] وشَيَّعَهُ القَمَرْ
تَفَرَّدَ بالعَلْيَاءِ عَنْ كُلِّ فَاضِلٍ ▪▪▪ مناقبُهُ زَانَتْ رَبِيعَةَ[(٥)] أو مُضَرْ[(٦)]



(١) المناقبُ: جمعُ مَنْقَبَة - بوزنِ المَتْرَبَة - وهيَ الفَضيلَةُ.
(٢) «الإصابة» (٤/ ١٠٤).
(٣) الهُمَامُ: السيِّدُ الشُّجاعُ، أو المَلِكُ العظيمُ الهِمَّةِ.
(٤) الجَوْزاءُ: بُرْجٌ في السَّماء.
(٥) رَبيعة: قبيلةٌ عربيَّةٌ، كانت مع قبيلةِ مُضَرَ من أقوى القبائلِ في الجاهليَّةِ، رَحَلَتْ مِنَ اليَمَنِ إلى شَمَالِ الجزيرةِ العربيَّةِ، ثُمَّ إلى شمالِ بلادِ الفُرَاتِ.
(٦) مُضَر: قبيلةٌ عربيةٌ، كانت ديارُهُم فيما بين النَّهرين على الفُرَات، كان رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - منها من بَنِي النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ.

أسباب اكتساب مكارم الأخلاق

١ ـ الإخْلاصُ.

٢ ـ الْعِلْمُ.

٣ ـ العقيدةُ الصَّحيحةُ.

٤ ـ النَّظَرُ في كتابِ اللهِ ـ تعالى ـ.

٥ ـ التَّأسِّي بالنَّبيِّ ـ ﷺ ـ.

٦ ـ الدُّعاءُ.

٧ ـ العمَلُ الصَّالحُ.

٨ ـ الرُّفْقَةُ الصَّالحةُ.

٩ ـ المحاسبةُ.

١٠ ـ المجاهدةُ.

١١ ـ الاستفادةُ مِنَ الآخرين.

١٢ ـ عُلُوُّ الهمَّةِ.

١٣ ـ النَّظَرُ في عواقبِ سُوْءِ الخُلُقِ.

أسبابُ اكتسابِ مكارم الأخلاقِ

الإخْلاصُ

إنَّ لإخْلاصِ الْعَمَلِ تأْثيرًا عَظيمًا في مكَارِمِ الأَخْلاق؛ فَهُوَ يَمُدُّ قَلْبَ صَاحبه بقُـوَّة، تجعله يَنْهَضُ للمكارمِ ابتـغَاءَ وجْـه الله، غَيْـرَ مُنْتَظِرٍ منْ أَحَـد جزاءً وَلَا شُكُورًا، يَشْرَحُ صَدْرَهُ للْحلْمِ، والعَفْوِ، ومَعَالِيَ الأَخْلاقِ امْتِثَالاً لأَمْرِ الله، وَطَلَبًا لرضَاهُ، والفَوْز بنعيمِ الآخرَة.

ومَنْ تَكُنِ العَلْيَاءُ همَّةَ نَفْسِهِ ▫▪▫ فَكُلُّ الذي يَلْقَاهُ فيهَا مُحَبَّبُ[1]

فَهُوَ إنْ أَعْطَى فَعَطَاؤُهُ لله، وَإنْ مَنَعَ فَمَنْعُهُ لله، وَإنْ أَحَبَّ فَحبُّهُ لله، وَإنْ أَبْغَضَ فَبُغْضُهُ لله، وإنْ صبرَ فَصَبْرُهُ لله، وإنْ غَضبَ فَغَضَبُهُ لله، وَهكَذَا في شَأْنه كُلِّه.

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى-: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهليِّ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ أحبَّ لله، وأَبْغَضَ لله، ومَنَعَ لله - فَقَد اسْتَكْمَلَ الإيمَانَ»[2].

---

(١) «جواهر الأدب» (ص٥٢٨).

(٢) رواه أبو داودَ (٤٦٨١) بإسناد حَسَنٍ، وله شاهدٌ عند التِّرمذيِّ (٢٥٢١)، وأحمد (٣/ ٤٤٠) من حديث مُعَاذ الجُهَنيِّ بزيادة: «وأَنْكَحَ لله»، وقد صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٩٦٥)، و«الصَّحيحة» (٣٨٠).

قَالَ الإمامُ أبو طَاهرٍ السِّلفيُّ:

واعْلَمْ بأنَّ الأجرَ ليس بحاصلٍ ▫▪▫ إلاَّ إذا كانتْ لَهُ صِفَتَانِ

لابُدَّ مِنْ إخلاصِهِ ونقائِهِ ▫▪▫ وخُلُوِّهِ مِنْ سائرِ الأَدْرَانِ[1]

وكذا متابعةُ الرَّسولِ فحكمُهَا ▫▪▫ نصٌّ بحُكْمِ نبيِّنا العَدْنَانِ



(١) الأَدْران: جمع دَرَنٍ - بفتحتين - وهو الوَسَخُ، وبَابُهُ فَرِحَ.

العِلْمُ

العِلْمُ أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ الأَخْلاقِ، فَهُوَ يُثْمِرُ التَّدَيُّنَ الصَّحِيحَ، فَكَمْ مِنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ تَقْرَؤُهَا، فَتُرَقِّقُ قَلْبَكَ للهِ، والإحسان، والرَّحمة، والحنَانَ!، وَكَمْ مِنْ حَدِيثٍ تَتَخَلَّقُ بِهِ مَعَ النَّاسِ، يَجْلِبُ لكَ مَحَبَّةَ اللهِ، ثُمَّ مَحبَّةَ النَّاسِ، فتعيش سعيدًا!.

قَالَ عَبْده مُحَمَّد العِمَاد:

الجَهْلُ جِسْرٌ لِلْمَذَمَّةِ والخَنَا ▫▪▫ وَالْعِلْمُ جِسْرُ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ
فَتَعَلَّمِ الْعِلْمَ الشَّرِيفَ؛ فَإِنَّهُ ▫▪▫ يُنْجِيكَ مِنْ زَلَلٍ وَمِنْ إخْفَاقِ

قَالَ ابنُ القَيِّمِ - يرحمه اللهُ -:

«كُلُّ مَا كَانَ فِي الْقُرآنِ مِنْ مَدْحٍ لِلْعَبْدِ فَهُوَ مِنْ ثَمَرَةِ الْعِلْمِ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ ذَمٍّ لِلْعَبْدِ فَهُوَ مِنْ ثَمَرَةِ الجَهْلِ».

وَقَالَ - أَيْضًا -:

«وَلَو لَمْ يَكُنْ فِي الْعِلْمِ إِلاَّ القُرْبُ مِنْ رَبِّ العَالمِينَ، والالتحَاقُ بِعَالَمِ المَلائكَةِ، وَصُحْبَةُ المَلإِ الأَعلَى - لَكَفَى بِهِ شَرَفًا وفَضْلاً، فَكَيْفَ وَعِزُّ الدُّنْيَا والآخِرَةِ مَنُوطٌ[1] بِهِ، مَشْرُوطٌ بِحُصُولِهِ؟!»[2].

ليس الأصَمُّ ولا الأعْمَى سِوَى رَجُلٍ ▫▪▫ لم يَهْدِهِ الهاديانِ: السَّمْعُ والبَصَرُ
فَاجْعَلْ صديقَكَ عِلْمًا تستقيمُ بِهِ ▫▪▫ فَإِنَّهُ النُّورُ، لا يَنْأَى بِهِ خَطَرُ

(١) مَنُوطٌ: مُعَلَّقٌ.
(٢) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ١٠٨).

وَالْعِلْمُ المقْصُودُ هُنَا هُوَ عِلْمُ الكِتَابِ والسُّنَّة بفَهْمِ سَلَفِ الأُمَّة، فَأَجَلُّ العُلُومِ - كَمَا قَالَ ابْنُ حَـزْمٍ يرحمُهُ اللهُ -: «ما قَرَّبَكَ مِنْ خالقِكَ -سُـبْحَانَهُ وتَعَالَى-، ومَا أَعَانَكَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى رِضَاهُ»[1].

وقَالَ - أيضًا - في بيانِ مَا للعلْمِ مِنْ أهميَّةٍ في الأَخْلاقِ:

«مَنْفَعَةُ العِلْمِ في استِعْمَالِ الفَـضَائِلِ عظيمةٌ، وهُوَ أَنَّهُ يُعَلِّمُ حُسْنَ الفَضَائِلِ، فَيَأتيها -ولَوْ في النَّدْرَةِ- ويُعَلِّمُ قُبْحَ الرَّذائلِ، فَيَجْتنبها -ولَوْ في النَّدْرَةِ-، ويَسْمَعُ الثَّنَاءَ الحَسَنَ، فَيَـرْغَبُ في مِثْلِه، والثَّنَاءَ الرَّديَّ، فَيَنْفِرُ منْهُ، فَـعَلَى هَذِه المُقَدِّمَاتِ يَجِبُ أَنْ يكُونَ للعِلْمِ حِصَّةٌ فِي كُلِّ فَضِيلَةٍ، ولِلْجَهْلِ حِصَّةٌ فِي كُلِّ رذيلةٍ.

وَلا يَأْتِي الْفَـضَـائِلَ مَنْ لَمْ يَتَـعَلَّـمِ الْعِلْمَ إلاَّ صَـافِيَ الطَّبْعِ جِـدًّا، فَـاضِلَ التَّرْكِـيبِ، وَهَذِه مَنْزِلَةٌ خُصَّ بِهَا النَّبِيُّـونَ - عليهمُ السَّلام -؛ لأنَّ الله -سبـحانه وتعالى- عَلَّمَهُمُ الخَيْرَ كُلَّهُ، دُونَ أَنْ يَتَعَلَّمُوهُ مِنَ النَّاسِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ غِمَارِ العَامَّةِ[2] مَنْ يَجْرِي مِنَ الاعْتِدَالِ، وَحَمِيدِ الأَخْلاقِ إلى مَا لا يَتَقَدَّمُهُ فِيهِ حَكِيمٌ عَـالِمٌ رَائِضٌ لِنَفْسِه، ولَكِنَّهُ قَلِيلٌ جداً، ورَأَيْتُ مِمَّنْ طَالَعَ الْعُلُومَ، وعَـرَفَ عُهُودَ الأَنْبِـيَاءِ - عَلَيْـهِمُ السَّلام -، وَوَصَايَا الحُـكَمَاءِ، وَهُوَ لاَ يَتقَـدَّمُهُ فِي خُبْثِ السِّيـرَةِ، وفَسَادِ العَلانِيَـةِ وَالسَّرِيرَةِ - شِرَارُ الخَلْقِ، وَهَذَا كَـثِيرٌ جداً، فَعَلِمْتُ أَنَّهَا مَوَاهِبُ، وَحِرْمَانٌ مِنَ اللهِ - تَعَالَى -»[3].

---

(١) «الأخلاق والسِّير» (ص٨٩).
(٢) غِمَار: جمعُ غَمْرٍ - بالفَتْحِ - وَهُوَ الكَثِيرُ. وغِمَار العامَّة: جماعتهم ولفيفهم.
(٣) «الأخلاق والسِّير» (ص ٩٢ -٩٣).

وَأَخِيراً قَالَ إبراهِيمُ الألبيريُّ - يحثُّ وَلَدَهُ على طَلَبِ العِلْمِ -:

جَعَلْتَ المالَ فَوقَ العِلْمِ جَهْلاً ▫▪▫ لَعَمْرُكَ، في القَضِيَّةِ ما عَدَلْتَا
وبَيْنَهُمَا - بنصِّ الوَحْيِ - بَوْنٌ[1] ▫▪▫ سَتَعْلَمُهُ إذا طهَ قَرَأْتَا[2]
لَئِنْ رَفَعَ الغَنِيُّ لِوَاءَ[3] مَالٍ ▫▪▫ لأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا
لَئِنْ جَلَسَ الغَنِيُّ عَلَى الحَشَايَا[4] ▫▪▫ لأَنْتَ عَلَى الكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا
وإنْ رَكِبَ الجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ[5] ▫▪▫ لأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا
ومهما افْتَضَّ أَبْكَارَ الغَوَانِي[6] ▫▪▫ فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الحِكَمِ افْتَضَضْتَا
وليس يَضُرُّكَ الإقتارُ[7] شَيْئًا ▫▪▫ إذا ما أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا[8]



(١) بَوْنٌ: فَرْقٌ وتَفَاوتٌ في الفَضْلِ وَالمَزِيَّةِ.
(٢) يريد قوله - تعالى -: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه:١١٤).
(٣) اللِّوَاءُ: العَلَمُ والرَّاية، وجمعه أَلْوِيةٌ.
(٤) الحَشَايَا: جمعُ حَشِيَّةٍ، وهي الفِرَاشُ المَحْشُوُّ.
(٥) الجِيَاد: جمع جَوَادٍ، وهو الفرس. والجِيَادُ المُسَوَّمات: أَيْ المُعَلَّمَات، يُقال: سَوَّمَ الفَرَسَ، إذا أعلمه بِسُومةٍ، والسُّومةُ: السِّمةُ والعلامةُ.
(٦) الغواني: جمع غَانِيةٍ، وهي المرأة الجميلة، سُمِّيَتْ غانيةً لاستغنائها بحسنها وجمالها عَنِ الحُلِيِّ ونحوه.
(٧) الإقتارُ: الفقرُ وضيقُ المعيشة، يُقَالُ: أَقْتَرَ الرَّجُلُ: أي افْتَقَرَ.
(٨) «عشرون قصيدةً في الزُّهْدِ» (ص٤٨).

العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ

العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ هِيَ أَصْلُ الأَخْلاقِ وَمَصْدَرُهَا، فَإِذَا ثَبَتَتْ وَاسْتَقَرَّتْ أَثْمَرَتِ الأَخْلاقَ الطَّيِّبَةَ.

فَالاعْتِقَادُ الصَّحِيحُ يَحْمِلُ عَلَى مَحَاسِنِ الأَخْلاقِ، وَالاعْتِقَادُ الفَاسِدُ يَحْمِلُ عَلَى مَسَاوِئِ الأَخْلاقِ، فَإِذَا اعْتَقَدَ الشَّخْصُ أَنَّ هُنَاكَ جَنَّةً وَنَارًا، عَمِلَ لِمَا يَكُونُ سَبَبًا لِدُخُولِهِ الجَنَّةَ، وَتَرَكَ مَا يَكُونُ سَبَباً لِدُخُولِهِ النَّارَ، أَلاَ تَرَى أَنَّ الصَّحَابَةَ -ﷺ- كَانُوا قَبْلَ البعثَةِ كَسَائِرِ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ مِمَّنْ يتَّصِفُونَ بالشِّدَّةِ، والْقَسْوَةِ، والْغِلْظَةِ، ولَمَّا دَخَلُوا في الإِسْلامِ، وَخَالَطَتْ بَشَاشَةُ الإِيمَانِ قُلُوبَهُمْ - رَقَّتْ طِباعُهُمْ، وحَسُنَتْ أخلاقُهُمْ، بَلْ إِنَّهُمْ أَصْبَحُوا مِثَالاً في مكَارِمِ الأَخْلاقِ.

جَزَاهُمُ اللهُ عَنْ دِينِ الرَّسولِ فما ... أَحْلَى مآثِرَهُمْ في سَالِفِ الحِقَبِ![1]

لولا لطائفُ صُنْعِ اللهِ ما نَبَتَتْ ... تِلْكَ المَكَارِمُ في لَحْمٍ، ولا عَصَبِ

فَالعَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ هِي الأَسَاسُ التي انطلَقَ مِنْهَا الرُّسُلُ -صَلَوَاتُ اللهِ عليهم- لإِصْلاحِ سُلُوكِ النَّاسِ، وَتَقْوِيمِ أَخْلاقِهِمْ، فَالتَّغْيِيرُ لابُدَّ أَنْ يَكُونَ ـ أوَّلاً وَقَبْلَ كُلِّ شيءٍ ـ تغييراً عَقِيدياً، مبنيّاً عَلَى الاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ في اللهِ -سُبْحَانَه وَتَعَالى-، وتوحيدِه، وَمَعْرِفَةِ أَسْمَائِه وَصِفَاتِه، وآثارِها في الكونِ والحياةِ.

---

(١) الحِقَبُ: جمعُ حِقْبَةٍ، وهي مُدَّةٌ مبهمة طويلةٌ من الزَّمن.

تَأمَّلْ في نَبَـاتِ الأرضِ، وانْظُرْ ... إلى آثارِ مَـا صَنَعَ الَمليكُ[1]

عُـيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ[2] شاخِصَاتٌ ... بأحْداقٍ[3] هيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ[4]

عَلَى قَضبِ الزَّبَرْجَدِ شاهداتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

فَالإصْلاحُ مَبْدَؤُهُ مِنَ القَلْبِ، وكَذَلِكَ الفَسَادُ، ثُمَّ يَتَّسِعُ لِيَشْمَلَ إرادات الإنْسَانِ وأفْعَاله.

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ - رضي الله عنه - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله - صلى الله عليه وسلم - يقُولُ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ: أَلاَ وهي القَلْبُ»[5].

قَالَ الغَزَالِيُّ - يرحمه اللهُ -:

«آدَابُ الظَّواهِرِ عُنْوَانُ آدَابِ البَوَاطِنِ، وحَرَكَاتُ الجَوَارِحِ ثَمَرَاتُ الخَوَاطِرِ، والأَعْمَالُ نَتِيجَةُ الأَخْلاقِ، وَالآدَابُ رَشْحُ المَعَارِفِ، وَسَرَائِرُ القُلُوبِ هي مَغَارِسُ الأَفْعَالِ وَمَنَابِعُهَا، وأَنْوَارُ السَّرائِرِ[6] هي الَّتي تُشْرِقُ عَلى الظَّواهِرِ، فَتُزَيِّنُهَا وتُجَلِّيهَا، وتُبَدِّلُ المحاسنَ بمكارِهِهَا ومَسَاوِيهَا، وَمَنْ لم يَخْشَعْ قلبُهُ، لم تَخْشَعْ جَوارِحُهُ، ومَنْ لَمْ يكُنْ صَدْرُهُ مِشْكَاةَ[7]. الأَنْوَارِ الإلَهِيَّةِ، لم يُفِضْ على ظَاهِرِهِ جَمالَ الآدَابِ النَّبويَّةِ»[8].

---

(١) المليكُ: المالكُ. (٢) اللُّجَيْنُ: الفضةُ.

(٣) أحداق: جمع حَدَقَةٍ، وهي سواد العين الأعظم، وتجمع - أيضًا - على حَدَقٍ، وحِدَاقٍ.

(٤) السَّبِيك: المُذاب.

(٥) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلمٌ (١٥٩٩).

(٦) السَّرائر: القلوب، مفردها سريرةٌ.

(٧) المشكَاة: فجوةٌ في الجدار، لا تصلُ فتحته إلى الطَّرَفِ الثَّاني منه، شَبَّهَ الصَّدْرَ بها.

(٨) «الإحياء» (٢/ ٣٥٧).

وَدَعْنِي - أَخِي - أَضْرِبُ لكَ مثَالاً، وهُوَ الإيمانُ بالقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه، فَهُوَ رُكْنٌ مِنْ أركانِ الإيمان، وَهُوَ يُوَرِّثُ كُلَّ خُلُقٍ حَمِيدٍ، وَيَبعَثُ الطُّمَأْنِينَةَ، وَالرَّاحَةَ النَّفْسيَّةَ بما يجري عَلَيْه مِنْ أَقْدَارِ الله، فَلا يَقْلَقُ بفَـوَاتِ مَحْبُوبٍ، أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ؛ لأنَّ ذلكَ بقَدَرِ الله الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وهُوَ كَائنٌ لا مَحَالَةَ.

يَقُولُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في ذلكَ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (سورة الحديد: ٢٢-٢٣).

فَمِنْ ثَمَرَاتِ الإيمانِ بالقَدَرَ الصَّبْرُ والثَّباتُ.

عَنْ صُهَيْبٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ، إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خيرٌ، وليسَ ذلكَ لأَحَدٍ إلاَّ للمؤمنِ، إنْ أَصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خيراً لَهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فكان خيراً لَهُ»[(١)].

وَشَأْنُ البَشَرِ الصُّعودُ والنُّزولُ.

عَنْ أَنسٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «مَثَلُ المؤمنِ مَثَلُ السُّنْبُلَةِ، تميلُ أحيانًا، وتَقُومُ أحيانًا»[(٢)].

وَمِنْ ثَمَرَاتِ الإيمانِ بالقَـدَرَ - أيْضًا - أَنْ يقـولَ المرءُ الحَقَّ، لا يخافُ في الله لَوْمَةَ لائمٍ، ويُـنكرُ المُنكَرَ، ويُقرَّ المعـروفَ، فيحِـبُّهُ اللهُ، ثُمَّ يُحِبُّـهُ النَّاسُ؛ لأنَّه استقـرَّ في قَلْبِهِ قولُ الله -سُبْـحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (سورة التوبة: ٥١).

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).
(٢) رواه أبو يَعْلَى، والضِّياء، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٨٤٥)، و«الصَّحيحة» (٢٢٨٨).

قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هيبةُ النَّاسِ أَنْ يقول بحقٍّ إذا عَلِمَهُ، أو شَهِدَهُ، أو سَمِعَهُ»[(١)].

وإذا عَلِمَ المرءُ أنَّ الأَرْزَاقَ مُقَدَّرةٌ[(٢)]، فَلا يَحْمِلهُ استِبْطَاءُ رِزْقِهِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيةِ اللهِ، بَلْ لا يَطْلبه إلاَّ مِنْ حَلالٍ، فَلا يَظْلِمُ، ولا يَسْرِقُ، ولا يَغشُّ، ولا يَخُونُ، ولا يُخْلِفُ الوَعْدَ، ولا يسومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ، ولا يبيعُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ.

عَنْ أبي أُمَامَةَ الباهِلِيِّ -رضي الله عنه- أنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ-: «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي[(٣)] أنَّ نَفْسًا لن تموتَ حتَّى تستكملَ أَجَلَهَا، وتَسْتَوْعِبَ رزقَهَا، فاتَّقوا اللهَ، وأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ، ولا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمْ استبطاءُ الرِّزقِ أنْ يَطْلُبَهُ بمعصيةِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ - تعالى - لا يُنَالُ ما عِنْدَهُ إلا بطاعتِهِ»[(٤)].

وَمَا أَجمل مَا قالَهُ الإمَامُ إسماعيلُ المقري - مِنْ عُلَمَاءِ الشَّافعيَّةِ - في قصيدةٍ لَهُ وعظيَّةٍ بليغةٍ، فَقَالَ - وأَجَادَ -:

تقولُ مَعَ العِصْيَانِ: رَبِّيَ غَافِرٌ ... صَدَقْتَ، ولكنْ غافِرٌ بالمَشِيْئَةِ
ورَبُّكَ رزَّاقٌ كَمَا هو غَافِرٌ ... فَلِمَ لَمْ تُصَدِّقْ فيهما بالسَّوِيَّةِ؟!
فإنَّك تَرْجُو العَفْوَ مِنْ غَيْرِ توبةٍ ... ولست براجي الرِّزقِ إلاَّ بحيلَةِ!
عَلَى أنَّهُ بالرِّزقِ كَفَلَ نَفْسَهُ ... لِكُلٍّ، ولَمْ يَكْفُلْ لِكُلٍّ بجنَّةِ[(٥)]

---

(١) «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٦٨).

(٢) أخرج مسلمٌ (٢٦٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- مرفوعًا أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- قال لأمِّ حبيبةَ: «لقدْ سألتِ اللهَ لآجالٍ مَضْرُوبةٍ، وأيَّامٍ مَعْدُودةٍ، وأرزاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شيئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أو يُؤَخِّرَ شيئًا عَنْ حِلِّهِ». ومعنى حِلِّه: أي نزوله.

(٣) الرُّوع - بضمِّ الرَّاء -: القلب والعقل.

(٤) رواه أبو نُعَيْم في «الحلية»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢٠٨٥).

(٥) «إيثار الحقِّ عَلَى الخَلْقِ» (ص٢٥٨).

وإذا عَلِمَ أنَّ خَزَائِنَ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدَيْهِ[(١)]، تواضعَ لله، ولَمْ يَستكْبِر علَى الخَلْقِ، ولَمْ يُنزِلْ حَاجَتَهُ بِهِمْ، ولَمْ يُذِلَّ نَفْسَهُ، ولَمْ يَحْسُدِ النَّاسَ عَلَى مَا رَزَقَهُمُ اللهُ.

إذا المَرْءُ لَمْ يَقْنَعْ بِعَيْشٍ، فَإنَّهُ ... وإنْ كَانَ ذَا مَالٍ - مِنَ الفَقْرِ مُوْقَرُ[(٢)]

إذا كان فَضْلُ النَّاسِ يُغْنِيك بَيْنَهُمْ ... فأَنْتَ بِفَضْلِ اللهِ أَغْنَى وأَيْسَرُ[(٣)]

وإذا عَلِمَ أنَّ الذُّنُوبَ مُقَدَّرَةٌ علَى العِبَادِ[(٤)]، وكَذَلكَ الابْتِلاء - لم يُعَيِّرِ الَّذين أَخطئُوا خَطَأً غَيْرَ مُتَعمَّد، ولَنْ يَشْمَتَ بِمَنِ ابْتَلاهُ اللهُ.

قَالَ الْعَلاءُ بْنُ قرضَةَ:

إذا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أُنَاسٍ ... حَوَادِثَهُ[(٥)]، أَنَاخَ بِآخَرِينَا

فقلْ للشَّامِتِينَ بنا: أَفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامِتُون[(٦)] كما لَقِينا[(٧)]

وإذا أَيْقَنَت المرأةُ أنَّ لَها مَا قُدِّر لها، حَسُنَتْ أخلاقها، ولَمْ تَسأَلْ زَوْجَها طلاقَ ضَرَّتِها[(٨)].

---

(١) قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (سورة الحجر:٢١). وقال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة المنافقون:٧).

(٢) الوِقْرُ - بكسر الواو -: الحِمْلُ، يُقال: أَوْقَرَت النَّخْلَةُ: أي كَثُرَ حَمْلُهَا.

(٣) «روضة العقلاء» (ص١٥١).

(٤) أخرج البخاريُّ (٣٤٠٩) و(٤٧٣٦) و(٤٧٣٨) و(٦٦١٤) و(٧٥١٥)، ومسلمٌ (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ، أنت أبونا، أنت خَيَّبْتَنَا، وأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجنَّةِ. فقال له آدمُ: أنت موسى، اصطفاك اللهُ بكلامِهِ، وخَطَّ لك بيدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بأربعينَ سَنَةً؟». فقال النبيُّ -ﷺ-: «فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى».

(٥) حوادث الدَّهْر: نوازِلُهُ ومصائبُهُ، والمفرد حادثة.

(٦) الشَّماتة: الفَرَحُ ببليَّةِ العدوِّ وحُزْنِه، وبابه سَلِمَ.

(٧) «الآداب الشَّرعية» (١/٤١٢).

(٨) أخرج البخاريُّ - واللَّفظ له - (١٢٤٠) و(٢٧٢٣) و(٥١٥٢) و(٦٦٠١)، ومسلمٌ (١٤١٣) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعًا أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- قال: «لا يَحِلُّ لامرأةٍ تسألُ طلاقَ أُخْتِهَا؛ لتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَهَا، فإنَّما لها ما قُدِّرَ لَهَا».

قَالَ ابْنُ الزُّبيرِ - رضي الله عنه -:

هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإنَّ الأُمُورَ ... بِكَفِّ الإلهِ مَقَادِيرُهَا
فليس بآتيك مَنْهِيُّهَا ... ولا قاصرٍ عَنْكَ مَأْمُورُهَا[1]

وإذا واعَدَ المرءُ رَجُلاً، وجَلَسَ بانتظَارِه، فحَالَ بينَهُ وبينَ الوَفاءِ حائلٌ خَارجَ إرَادَته، وجاءَ يَشْكُو عُذْرَهُ إلَى أخِيه، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بالقَدَرِ فَسَيَرْضَى، ويُسَلِّم أنَّهُ ما فَاتَهُ شَيْءٌ كَتَبَهُ اللهُ لهُ، فحينئذ سَيُقِلُّ عِتَابَهُ ولَوْمَهُ، وتَثْرِيبَهُ عَلَى أخيه، وَسَيُطَيِّبُ خَاطِرَهُ، ويُطمئنُ قلبَه علَى مَا قَدْ فَاتَ، وهكَذَا في سَائِرِ أبوابِ الإيمان[2].

هِيَ المَقَادِيرُ فَلُمْنِي أوْ فَذَرْ ... إنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَأَ القَدَرْ[3]

وإنما ذكرنا هنا مثالاً واحدًا ليتَّضح البيان.

قَالَ أبُو الحَسَن التُّهَامِيُّ - يَرْثِي وَلَدَهُ الصَّغِير-:

بَيْنَا تَرَى الإنسانَ فيها مُخْبِرًا ... أَلْفَيْتَهُ خَبَرًا مِنَ الأَخْبَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وأنت تُرِيدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الأقذارِ والأكْدَارِ
ومُكَلِّفُ الأيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا ... مُتَطَلِّبٌ في الماءِ جَذْوَةَ[4] نارِ

---

(١) «روضة العقلاء» (ص١٥٨).
(٢) انظر «فقه الأخلاق والمعاملات بين المؤمنين» (٤/ ١٢).
(٣) «الآداب الشّرعيّة» (١/ ٣٨٨).
(٤) الجذوة - بتثليث الجيم - : الجَمْرَةُ، والجمعُ جُذًى - بتثليث الجيم -.

النَّظَرُ في كتابِ اللهِ - تَعَالَى -

كتابُ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ـ جَمَعَ مكَارِمَ الأَخْلاقِ خَيْرَ جَمْعٍ، وَنَظَمَهَا خَيْرَ نَظْمٍ، مَا فَرَّطَ اللهُ فيه مِنْ شَيْءٍ.

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وتعالى -: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (سورة الإسراء: ٩). وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (سورة فصلت: ٤١-٤٢).

فَمَنْ أرادَ مكَارِمَ الأَخْلاقِ، فليَعْتَمِدْ على كتاب اللهِ، وسُنَّة رسولِ اللهِ - ﷺ -، ويُحَاوِلُ جاهدًا أَنْ يتَخلَّقَ بأخْلاقِ القرآن، فَقَدْ كَانَ خُلُقُ رسولِ اللهِ - ﷺ - القُرْآنَ، كَمَا وصَفَتْهُ بذَلِكَ زَوْجُهُ عائشةُ بنتُ الصِّدِّيقِ - رضي الله عنهما -.

عَنْ سَعْد بنِ هشَامٍ قَالَ: قُلْتُ: «يا أُمَّ المؤمنينَ، أَنْبِئيني عَنْ خُلُقِ رسولِ اللهِ - ﷺ -». قالتْ: «أَلَسْتَ تقرأُ القرآنَ؟». قلتُ: «بلَى». قالتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نبيِّ اللهِ - ﷺ - كان القُرْآنَ». قَالَ: «لقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أقومَ، ولا أسألُ أحدًا عَنْ شيءٍ حتَّى أَموتَ»[1].

قَالَ الإمامُ ابنُ حَزْمٍ - يرحمه اللهُ -:

«مَنْ جَهِلَ معرفةَ الفَضَائلِ، فليعتمدْ على مَا أَمَرَهُ اللهُ -تعالى- ورسولُهُ - ﷺ -؛ فإنَّهُ يحتوي علَى جَميعِ الفَضَائلِ»[2].

(١) رواه مسلمٌ (٧٤٦).
(٢) «الأخلاق والسِّير» (ص١٧٦).

وَقَالَ الإِمَامُ السَّلفيُّ صـديق حسن خان - يرحمه اللهُ - بَعْـدَ ذكرِ جُمْلَةٍ مِنَ الكُتُبِ الَّتي سَارَ فيها أصحابها لاكتسابِ مكارمِ الأخلاقِ:

«وقَدْ قَـضَتِ الشَّرِيعةُ المُصطفـوِيَّةُ حَقَّ علم الأخلاق، فَلَمْ تَدَعْ لأحد مَـقَالاً يَقُولُهُ، وكَلامًـا يتكلَّمُ بِهِ، فالكتَابُ والسُّنَّةُ يكْفـيَان ـ لِمَنْ يُرِيْدُ إدْرَاكَ هَذَا العِلْمِ، والتَّحلِّي بِهِ عَنْ تِلْكَ الكُتُبِ المُشَارِ إليها، فإنَّ الصَّبَّاحَ يُغْنِي عَنِ المصْبَاحِ»[1].

سَـمِـعْـتُكَ - يا قـرآنُ - واللَّـيلُ واجِمٌ[2] ■ سَرَيْتَ[3] تَهُزُّ الكَوْنَ، سُبْحَانَ مَنْ أَسْرَى!

فَـتَــحْنَا بِكَ الدُّنيـا، فـأشْـرَقَ نُوْرُهَا ■ فَـسَلْ دَوْلَةَ الأَخْـبَـارِ يَـرْمَـوْكَ أو بَـدْرَا



(١) «أبجد العلوم» (١/ ٣٧).
(٢) واجمٌ: هادئٌ صامتٌ، وبَابُهُ وَعَدَ.
(٣) سَرَيْتَ: مِنَ السُّرَى، وهو السَّيْرُ لَيْلاً.

التأسي بالنبي ﷺ

النَّبيُّ -ﷺ- هُوَ الأُسْوَةُ الحَسَنَةُ، الَّذي أَمَرَنَا اللهُ بالتَّأسِّي بِهِ في أَقْوَالِه، وأَفْعَالِه، وأَحْوَالِه.

قَالَ اللهُ - تَبَارَكَ وتَعَالَى -: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (سورة الأحزاب: ٢١).

فهَذِه الآيَةُ تُؤَكِّدُ اتِّباعَ النَّبيِّ -ﷺ- والاقتداءَ بِه، واعتبارِ ذَلكَ الأصلُ الَّذي يَجِبُ للإنْسَانِ أَنْ يَنْطلِقَ منه لتَصْحِيحِ أَخْلاقِه، وتقويمِ سُلُوكِه.

وقَد امْتَنَّ اللهُ علَى عبدِه وخليلِه -ﷺ- بِمكارِمِ الأخلاقِ، وجَمَعَ فيه أَشْتاتَ الفَضَائلِ بتَمَامِهَا، وأبعَدَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، ثُمَّ أثنَى علَيْهِ، ونَوَّهَ بذكْرِ مَا يَتَحَلَّى بِهِ مِنْ مكَارِمِ الأَخْلاقِ.

قالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وتَعَالى-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤).

وَوَصَفَتْهُ زوجُهُ خديجةُ بنتُ خُوَيْلد -رضي الله عنها- بأصُولِ مكارمِ الأخلاقِ عِنْدَمَا أخْبرَها بنزولِ الوحْيِ علَيْه، ويقولُ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسي». فَقَالَتْ: «كلاً، أَبْشِرْ فوالله، لا يُخْزِيكَ اللهُ أبداً؛ إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِيْنُ على نَوَائِبِ الحَقِّ»[1].

(١) تقدَّم تخريجه.

ووصفته زوجه عائشة بنت الصديق -رضي الله عنها- بأنه كان خلقه القرآن.

عن سعد بن هشام قال: قلت: «يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله -ﷺ-». قالت: «ألست تقرأ القرآن؟». قلت: «بلى». قالت: «فإن خلق نبي الله -ﷺ- كان القرآن»[1].

كَيْفَ تَرْقَى رُقِيَّكَ الأَوْلِيَاءُ؟ ❖ يَا سَمَاءً مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
إِنَّمَا مَثَّلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ ❖ كَمَا مَثَّلَ النُّجُومَ المَسَاءُ
حَنَّ جِذْعٌ إِلَيْكَ وَهُوَ جَمَادٌ ❖ فَعَجِيبٌ أَنْ يَجْمُدَ الأَحْيَاءُ!

فَانظُرْ إلى مَا وَصَفَتْهُ بِهِ نساؤُهُ أَقْرَبُ النَّاس إليه -عليه الصلاة والسلام- مِنْ أُصُول مكارم الأخلاق، وصفته خديجة وذلك قبل نزول القرآن، ووصفته عائشة بأنه كان خلقه القرآن، نعم كان خلقه القرآن؛ لأنه يحتوي على جميع الفضائل التي سار بها رسول الله -عليه الصلاة والسلام- خير سيرة، وقام بها خير قيام.

يا مُدَّعِيَ حُبِّ أَحْمَدَ، لا تُخَالِفْهُ ❖ فَالخُلْفُ يَحْرُمُ فِي دُنْيَا المُحِبِّينَا
أَرَاكَ تَأْخُذُ شَيْئًا مِنْ شَرِيعَتِهِ ❖ وَتَتْرُكُ البَعْضَ تَدْوِينًا وَتَهْوِينَا
خُذْهَا جَمِيعًا فَوْزًا تَفُوزُ بِهِ ❖ وَإِلَّا طَرِيحًا وَاسْلُكْ سَبِيلَ الشَّيَاطِينَا

فعلينا بالتأسي برسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وطاعته، وإدامة النظر في سيرته -عليه الصلاة والسلام-[2]؛ لنقتطف منها مكارم الأخلاق، ففي ذلك عز الدنيا وشرف الآخرة.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) لَعَلَّ أحسن كتاب في السِّيرة النبويَّة ـ من وجهة نظري ـ هو «زاد المعاد في هَدْي خير العباد» للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة، وقد طُبع مؤخرًا طبعةً رائعةً في ستَّة مجلَّدات بتحقيق شعيب الأرناؤوط، فلو باع المرء ما يقتنيه من ملبوسٍ، ومركوبٍ، وأثاثٍ، واشترى هذا الكتاب ـ ما كان ذلك كثيرًا!.

قَالَ ابنُ حَزْمٍ - يرحمه اللهُ -:

«مَنْ أَرَادَ خَيْرَ الدُّنيا والآخِرَةِ، وحكْمَةَ الدُّنيا، وعَدْلَ السِّيرَةِ، والاحتواءَ على مَحَاسِنِ الأخْلاقِ كلِّها، واسْتِحْقَاقَ الفضَائلِ بأَسْرِهَا - فَلْيَقْتَدِ بمحمَّدٍ رَسُول الله - ﷺ -، ولْيَسْتَعْمِلْ أخلاقَهُ وَسِيَرَهُ ما أَمكنه، أعَانَنَا اللهُ علَى الاتِّسَاء به بمنِّه، آمين»[1].

إذا كان هذا الجيلُ أتباعَ نَهْجِهِ

وقَدْ حَكَمُوْا السَّاداتِ[2] في البَدْوِ والحَضَرْ

فَقُلْ: كيف كان المُصْطفى وهو رَمْزُهُمْ

مَعَ نُورِهِ لا تُذْكَرُ الشَّمْسُ وَالقَمَرْ؟!



(١) «الأخلاق والسِّيَر» (ص٩١).

(٢) **السَّادات**: جمع سيِّد.

الدُّعَـاءُ

الدُّعَاءُ سَبَبٌ عَظِيمٌ لنيلِ مكَارِمِ الأَخْلاقِ، فَمَنْ أَرَادَ مكَارِمَ الأخلاقِ فعَلَيْهِ بالدُّعَاءِ، فَهُوَ أَشْرَفُ وأَكْرَمُ شَيْءٍ عِنْدَ اللهِ -سبحانه-.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعاءِ»[(١)].

والمُسلِمُ دَعْوتُهُ مُسْتَجَابَةٌ، فقد أَمَرَ اللهُ - تبارك وتعالى - بالدُّعاءِ، ووَعَدَ بالإجَابَةِ.

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سورة غافر: ٦٠).

وَعَنْ أَبي سَعِيدٍ الخُدْريِّ -رضي الله عنه- أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو اللهَ بدَعْوةٍ، ليس فيها إثْمٌ، ولا قطيعةُ رَحِمٍ - إلاَّ أعطاهُ بها إحدى ثلاثِ خِصَالٍ: إمَّا أَنْ يُعَجِّلَ له دعوتَهُ، أو يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الخيرِ مِثْلَهَا، أو يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا». قالوا: «يا رسولَ اللهِ، إذًا نُكْثِرَ». قال: «اللهُ أَكْثَرُ»[(٢)].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٧٠)، وابن ماجَهْ (٣٨٢٩)، وأحمدُ (٢/ ٣٦٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٣٩٢).

(٢) رواه أحمدُ في «المسند»، وصحَّحه الحاكم والذَّهبيُّ، ووافقهما الألبانيُّ، انظر «شرح العقيدة الطَّحاويَّة» بتحقيقه (٦٥٦)، وقد رواه التِّرمذيُّ (٣٦٠٤) من حديث أبي هريرةَ، إلاَّ أنَّه قال في الخَصلَةِ الثَّالثة: «وإمَّا أنْ يُكَفِّرَ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بقَدْرِ ما دَعَا». وهو منكرٌ بهذا اللَّفظ، قاله الألبانيُّ -وقد خرَّجه في «الضَّعيفة» (٤٤٨٣) - وذكر تحته ما صحَّ منه كحديث أبي سعيدٍ هذا.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثمٍ، أو قطيعةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قيل: «يا رسولَ اللهِ، ما الاستعجالُ؟». قال: «يقولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وقَدْ دَعَوْتُ، فلم أرَ يستجيبُ لي، فَيَسْتَحْسِرُ عند ذلك، ويَدَعُ الدُّعاءَ»(١).

وَعَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كريمٌ، يَسْتَحِيي مِنْ عَبْدِهِ إذا رَفَعَ يَدَيْهِ إليه أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا(٢)»(٣).

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- كَثِيرَ الضَّرَاعَةِ إلى ربِّهِ أَنْ يَرْزُقَهُ حُسْنَ الخُلُقِ، فَكانَ يَقُولُ في دُعَاءِ الاسْتِفْتَاحِ مِنْ صلاةِ اللَّيلِ: «اللَّهُمَّ، اهدني لأحْسَنِ الأخلاقِ، لا يهدي لأحْسَنِهَا إلاَّ أنت، واصْرِفْ عنِّي سيِّئَهَا، لا يَصْرِفُ عنِّي سَيِّئَهَا إلاَّ أنت»(٤).

وورد أنَّه -صلى الله عليه وسلم- كان يدعو بهؤلاء: «اللَّهُمَّ، جَنِّبني مُنْكَرَاتِ الأخلاقِ، والأعمالِ، والأهواءِ، والأدْواءِ»(٥).

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٧٣٥)، وهو عند البخاريِّ بلفظ: «يُسْتَجابُ لأحَدِكُمْ ما لم يَعْجَلْ، يقول: دَعَوْتُ، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لي». والاستحسارُ: الإعياء والانقطاع عن الشَّيء، والمراد هنا أنَّه ينقطع عن الدُّعاء، ومنه قوله -تعالى-: ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (سورة الأنبياء :١٩). أي لا ينقطعون عنها. وفيه طلب دوام الدُّعاء، وعدم استبطاء الإجابة، وهذا لا ينافي الدُّعاء بتعجيل الطَّلَب، فقد صحَّ عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- في حديث الاستسقاء قولُهُ: «عاجلاً غَيْرَ رَائِثٍ» صحيحٌ رواه ابن ماجَهْ (١٢٦٩). وقوله: «غير رائثٍ»: أي غير آجلٍ. والاستعجال المنهيُّ عنه هو المذكور في الحديث، وهو قوله: «دَعَوْتُ، فلم يُسْتَجَبْ لي».

(٢) صِفْرًا: فارغةً.

(٣) رواه أبو داودَ (١٤٨٨)، والتِّرمذيُّ (٣٥٥٦)، وابن ماجَهْ (٣٨٦٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٧٥٧).

(٤) رواه مسلمٌ (٧٧١).

(٥) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٩١)، والحاكم في «المستدرك» (١/٢٣٢)، وابن حِبَّانَ في «الصَّحيح» (٢٤٢٢) عن عمِّ زياد بن عِلاقةَ قُطْبَةَ بن مالكٍ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٢٩٨).

فأكثرْ - أخِي الحبيب - في كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ منَ الدُّعَاء والضَّرَاعَةِ إلى ربِّكَ أَنْ يَهْدِيَكَ لأَحْسَنِ الأَخْلاق، ولاسِيَّمَا في اللَّيلِ؛ عَلَّكَ أَنْ تُصَادفَ سَاعةَ الإجابةِ، والتَّي تتأكَّد في ثُلُثِ اللَّيلِ الآخرِ وَقْتِ النُّزولِ الإلَهِيِّ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

عَنْ جَابرٍ -رضي الله عنه- قَالَ: سَمِعْتُ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: «إنَّ في اللَّيلِ لَسَاعةً، لا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مسلمٌ يسألُ اللهَ خيراً منْ أَمْرِ الدُّنيا والآخرةِ، إلاَّ أعطاهُ إيَّاهُ، وذلك كُلَّ ليلةٍ»[(١)].

وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ -رضي الله عنه- أنَّ رَسُولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كُلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، فيقولُ: مَنْ يَدْعُوني فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟، ومَنْ يسأَلُني فَأُعْطِيَهُ؟، ومَنْ يستغفرُني فَأَغْفِرَ لَهُ»[(٢)].

قُلْتُ: يَا لَيْلُ، هَلْ بِجَوْفِكَ سِرٌّ ▫▪▫ عَامِرٌ بالحديثِ والأَسْرَارِ؟
قال: لَمْ أَلْقَ في حياتي حديثًا ▫▪▫ كحديثِ الأحبابِ في الأَسْحَارِ

وَلله دَرُّ الإمامُ الشَّافعِيِّ القَائلُ:

أَتَهْزَأُ بالدُّعَاءِ وَتَزْدَرِيهِ ▫▪▫ وَمَا تَدْري بِمَا صَنَعَ الدُّعَاءُ؟!
سِهَامُ اللَّيْلِ لا تُخْطِي[(٣)]، وَلَكِنْ ▫▪▫ لَهَا أَمَدٌ[(٤)]، وَلِلأَمَدِ انْقِضَاءُ[(٥)]

---

(١) رواه مسلمٌ (٧٥٧).
(٢) رواه البخاريُّ (١١٤٥) و (٦٣٢١) و(٧٤٩٤)، ومسلمٌ (٧٥٨).
(٣) لا تخطي: لا تُخْطِئُ، فَخُفِّفَت الهَمْزَة تسهيلاً.
(٤) الأَمَد - بفتحتين -: الغاية والنهاية، جمعه آماد.
(٥) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص٢٣).

العَمَلُ الصَّالِحُ

العَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الأَسَاسُ الَّذِي يَقُومُ عليهِ علْمُ الأَخْلاقِ، والسَّبَبُ الأَعْظَمُ لتيسـيرِ الأُمُورِ، والحُصُولِ عَلَـى البرَكَاتِ فِي الأَخْلاقِ، والأَعْمَـالِ، والأَعْمَارِ، فالمُتَدَيِّنُ تدينًا صَحِيحًا يَجْتَهِدُ في الْـعَمَلِ بطَاعَةِ اللهِ، وَيَجْتَنِبُ مَعَاصِيهِ، وَيَتَقَرَّبُ إلى اللهِ بالعِـبَادَاتِ ومِنْهَـا الأخلاقُ، بَلْ إنَّ الأَخْـلاقَ أعظمـهَا أجـرًا، وأيسـرها مـؤنةً، وأحمـدها عاقبةً.

قَالَ اللهُ -سُـبْحَـانَهُ وتَعَالَى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (سورة مريم:٩٦). أَيْ: مَوَدَّةً في قُلُـوبِ عِبَادِهِ عَلَى قَـوْلِ كثـيرٍ مِنَ المفسِّرين.

قَالَ عبدُ الرَّحْمن بن ناصرِ السَّعْديّ - يرحمه اللهُ - في تفسيرِ هَذِهِ الآيةِ:

«هَذَا مِنْ نِعَمِهِ على عِـبَادِهِ، الَّذِينَ جَمَعُوا بـينَ الإيمانِ والعملِ الصَّالِحِ، أَنْ وَعَدَهُمْ أنَّه يَجْعَـلُ لَهُمْ وُدًّا، أَيْ: مَحَبَّةً وَوِدادًا في قُلوبِ أوليَـائِه، وأهلِ السَّماءِ والأَرْضِ، وإذَا كَانَ لَهُمْ في القُلُوبِ وُدٌّ، تيـسَّرَ لهم كَثِيرٌ مِـنْ أُمُورِهِم، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الخيرَاتِ، والدَّعَـوَاتِ، والإرْشَادِ، والقَبُولِ، والإمَامَةِ مَـا حَصَلَ، ولِهَذَا وَرَدَ في الحديثِ الصَّحيحِ: «إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً، نادى جبريلَ: إنِّي أُحبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جبريلُ، ثُمَّ يُنادي في أهلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيحبُّهُ أهلُ السَّماءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ»[1].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٠٩) و (٦٠٤٠) و (٧٤٨٥)، ومسلمٌ (٢٦٣٧) عن أبي هريرة.

وإنَّما جَعَلَ اللهُ لهم وُدّاً؛ لأنَّهم ودُّوه، فودَّدهم إلى أوليائه وأَحْبابِه»[١].

قَالَ الألْبِيرِيُّ:

كَـمَـا الطَّاعـات تُبْـدِلُكَ الدَّراري ▫▪▫ وتجـعـلُكَ القـريـبَ، وإنْ بَعُـدْتَا

وتنشـرُ عَنْكَ في الدُّنيا جميلاً ▫▪▫ وتَلْقَى البِرَّ فيها حيثُ شِئْتَا

وتمشي في مَنَاكِبِهَا[٢] عزيزًا ▫▪▫ وتَجْني الحَمْدَ فيما قَدْ غَرَسْتَا[٣]

فَالإيمانُ بالله، والعَمَلُ الصَّالحُ يبعثانِ على مكارمِ الأخْلاقِ، وهُمَا النِّظامُ الدَّاخليُّ الذي يُقَوِّمُ أخلاقَ المرءِ ويُوَجِّهُهَا.

وإنِّي لَيُثْنِيني عَنِ الجَهْلِ والخَنَا[٤] ▫▪▫ وعَنْ شَتْمِ ذي القُرْبى - خلائقُ أربعُ:

حَيَاءٌ، وإسلامٌ، وتقوى، وطاعةٌ ▫▪▫ لربِّي، ومَثْلي مَنْ يضرُّ وينفعُ[٥]

وَقَدْ تجدُ المتديِّنَ تَدَيُّنًا صحيحًا - إذا كَانَ على عَقيدة صَحيحَة - لا يصدُرُ منْهُ ما يَثْلمُ مُرُوءَتَه، ويَشِينُ أخلاقَه في أَغْلَبِ الأَحْيانِ، ألاَ تَرَى أنَّ المتديِّنَ إذا عَمِلَ ما يَخْرِمُ مُرُوءَتَهُ اتَّجَهَتْ إلَيْهِ الأَنْظَارُ، واسْتَغْرَبَ النَّاسُ أَنْ يَصْدُرَ ذلكَ منْهُ، أمَّا غيرُ المتديِّنِ فكما قيلَ: «الشَّيءُ مِنْ مَعْدِنِهِ لا يُسْتَغْرَبُ».

ولله درُّ أبِي العَتَاهِيَة القَائل:

ليس دُنْيا إلاَّ بدينٍ، ولَيْسَ الدِّ ▫▪▫ ينُ إلاَّ مَكارمَ الأخلاقِ[٦]

---

(١) «تيسير الكريم الرَّحْمَن» (ص١٠٥).
(٢) مناكب الدُّنيا: أرجاؤها ونواحيها، والمفردُ مَنْكِبٌ.
(٣) «عشرون قصيدةً في الزُّهْد» (ص٥٣).
(٤) الخَنَا: الفُحْش في النُّطق.
(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥٠ - ٢٥١).
(٦) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٩٩).

وقَالَ ابنُ حَزْمٍ - يرحمه اللهُ - : «لا مُرُوءَةَ لِمَنْ لا دِينَ لَهَ»[١].

وقـال - أيضـًا - : «ثِقْ بالمتـدِّينِ، وإنْ كَـانَ علـى غَـيْـرِ دِيـنِكَ، ولا تَثِقْ بالمُسْتَخِفِّ، وإنْ أَظْهَرَ أنَّه عَلَى دِينِكَ»[٢].

---

(١) «الأخلاق والسِّير» (ص٨٠).

(٢) المرجع السابق (ص١٠٠). وهنا فائدةٌ تناسب هذا المقام:

سُئِلَ ابن عثيمين ـ يرحمه الله ـ: «يورد كثيرٌ من النَّاس أنَّ أهلَ الغرب أحسن أخلاقًا منَّا في تعاملهم، وبيعهم، وشرائهم، بينما تجد الغشَّ، والكذبَ، وإنفاق السِّلْعَةِ بالحَلِفِ الكاذبِ منتشراً بين صفوفنا ـ نحن المسلمين ـ؟!».

فقال: «هم لا يفعلون ذلك لأنَّهم كاملو الأخلاقِ؛ لكن لأنَّهم أصحاب مادَّة، ويرون من أكبر الدِّعاية لتنمية أموالهم أنْ يُحسنوا المعاملة من أجل أن يجذبوا الأعدادَ الكبيرةَ، وإلا فهُم كما وصفهم الله -عزَّ وجلَّ- بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (سورة البينة:٦). ولا أظنُّ أحدًا أصدقَ وصفًا من الله - عزَّ وجلَّ - للكافرين، فإنَّهم شَرُّ البَرِيَّةِ، وكيف يُرْجَى خيرٌ مقصودٌ لذاته من قوم وصفهم اللهُ بأنَّهم شرُّ البريَّةِ؟!، لا أعتقد أنْ ذلك يكون أبدًا، لكن ما يوجد فيهم من الصِّدقِ، والبيانِ، والنُّصْحِ في بعضِ المعاملات - إنَّما هو مقصودٌ لغيره عندهم، وهو الحصول على المادَّة والكسب، وإلاَّ فمَنْ رأى ظُلْمَهم، وغَشْمَهم، واستطالَتَهُمْ عَلَى الخَلْق في مواطن كثيرة ـ عرف مصداق قوله - تعالى -: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ . وأمَّا بالنسبة لما وقع مِنْ كثيرٍ من المسلمين مِنَ الغشِّ والكَذبِ والخيَانَة في المُعامَلات، فإنَّ هؤلاء المسلمين نقصوا من إسلامهم وإيمانهم بقدر ما خالفوا الشَّريعة فيه من هذه المعاملات». إلى أنْ قال: «فلابُدَّ أنْ نُبَيِّنَ للنَّاس أنَّ من كمال الدِّينِ كَمَالَ الخُلُقِ، كما صحَّ عنِ النَّبيِّ - ﷺ - أنَّه قال: «أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهُمْ أخلاقًا». وعَلَى هذا فكُلُّ مَنْ كان ناقصَ الخُلُقِ فهو ناقصُ الدِّينِ؛ فكمالُ الدِّين بكمال الخُلُقِ؛ ولذلك فإنَّ تأثيرَ كاملِ الخُلُقِ على غيره من جَلْبِه إلى الإسلامِ وإلى الدِّين ـ أكبرُ من تأثير ذي الدِّيانة السَّيِّئِ الخُلُقِ، فإذا وُفِّقَ مَنْ كان قويًّا في العبادةِ إلى كمالِ الخُلُقِ، كان ذلك أحسنَ وأكملَ». عن كتاب «مكارم الأخلاق» لابن عثيمين (ص٥٠-٥٢) باختصار.

وقصَدَ ابـن حَزْمٍ ـ يرحمه اللهُ ـ أنَّ هناكَ أُمَـمًا عندها قِيَمٌ موروثةٌ، تُغـذِّيها بَقَـايا الخيـر مِنْ دينها، دَلَّ علَى ذلكَ عَـرَبُ الجاهليَّـةِ، كانوا مِنْ أَحْـسَنِ الأُمَمِ أَخْـلاقًـا؛ لأنَّ عندهم بَعْضَ مكـارمِ الأخْلاقِ، وهِـيَ الَّتي وَرِثُوهَا مِنْ شـريعـةِ إبراهيم - عليه السلام -، وكانوا قد ضلُّوا بالكُفْرِ عَنْ كثيرٍ منها، فَبَعَثَ اللهُ نبيَّنا محمَّدًا - صلى الله عليه وسلم -؛ لِيُتمِّمَ مَحاسنَهَا، ويُبيِّنَ ما ضَلُّوا عَنْهُ، وَمَا قَضَى بِهِ في شَرْعِهِ، فكَانَ في مُسْتَهَلِّ دعوتِه إلى التَّوحِيدِ يَأْمُرُ بِمكَارِمِ الأَخْلاقِ.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَـنِ النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّهُ قَـالَ: «**إنَّمَـا بُعِـثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ** - وفي روايةٍ: **صَالِحَ** - **الأَخْـلاقِ**»[(١)].

وقَال أبو ذرٍّ لأخـيه لَمَّا بلغه مَـبْعَثُ النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم -: «**اركبْ إلى هذا الوادي، واسْمَعْ مِنْ قولِهِ**». فَرَجَعَ فقَالَ: «**رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأخلاقِ**»[(٢)].

وإذا بَحَـثْتَ عَنِ التَّـقِيِّ وَجَـدْتَهُ ... رَجُـلاً يُصَـدِّقُ قَـوْلَهُ بِفِـعَـالِ
وإذا اتَّقَى اللهَ امْـرُؤٌ وأَطاعَـهُ ... فَـيَـدَاهُ بَيْنَ مَكَارِمٍ ومَـعَـالِ
وعلى التقيِّ - إذا تَرَاسَخَ في التُّقَى - ... تَاجَـانِ: تاجُ سَكِينَةٍ وجَـمَـالِ
وإذا تَنَاسَـبَتِ الرِّجَـالُ فَـمَـا أَرَى ... نَسَبًا يَكُونُ كَصَالِحِ الأَعْمَالِ[(٣)]



(١) رواه أحمدُ في «المسند» (٢/٣١٨)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٦١٣٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/٢٣٤٩)، و«الصَّحيحة» (٤٥).
(٢) رواه البخاريُّ (٣٥٢٢) و(٣٨٦١)، ومسلمٌ (٢٤٧٤).
(٣) «روضة العُقلاء» (ص٢٩).

الرُّفْقَةُ الصَّالحةُ

الرُّفْقَةُ الصَّالِحَةُ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ المُعِينة على محاسنِ الأخلاق؛ وذلكَ لأَنَّ الطَّبْعَ لِصٌّ يَسْرِقُ مِنَ الطَّبْعِ الخيرَ والشَّرَّ، فَمَنْ كَانَ جليسُهُ صَالحًا، اسْتَفَادَ مِنْهُ صَلاحًا وأَخْلاقًا، ويُؤيِّدُ ذلكَ قولُ النَّبيِّ - ﷺ -: «إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصَّالحِ، وجليسِ السُّوءِ كحاملِ المِسْكِ، ونافخِ الكِيرِ[1]، فحاملُ المسكِ إمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ[2]، وإمَّا أَنْ تَبْتَاعَ منه[3]، وإمَّا أَنْ تجدَ منه ريحًا طيِّبةً، ونافخُ الكيرِ إمَّا أَنْ يُحرِقَ ثيابَكَ، وإمَّا أَنْ تجدَ ريحًا خبيثةً»[4].

وقولُهُ - ﷺ -: «الرَّجلُ عَلَى دينِ خَليلِهِ[5]؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[6].

ومعْنَى الحديثِ أنَّ الإنْسَانَ في الدِّينِ والأخلاقِ على قَدْرِ مَنْ يُصَاحِبُ، فلينظرْ مَنْ يُصَاحِب، فإنْ صَاحبَ الصَّالحين صَارَ منهم، وإنْ صَاحبَ سِواهم صار مثلهم، كما قيل:

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ، وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ▫▪▫ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارِنِ يَقْتَدِي
وَصَاحِبْ أُولِي التَّقْوَى تَنَلْ مِنْ تُقَاهُمُ ▫▪▫ وَلا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي[7]

---

(١) الكِيْر - بكسر الكاف -: زِقٌّ ينفخ فيه الحدَّادُ.
(٢) يُحْذيك: يُعْطيك بدون بيعٍ.
(٣) تبتاع منه: تشتري منه.
(٤) رواه البخاريُّ (٢١٠١) و (٥٥٣٤)، ومسلمٌ - واللَّفظ لَهُ - (٢٦٢٨) عن أبي موسى الأشْعَرِيِّ.
(٥) «الخليل»: هو الذي أحبَّك، وتحبُّه حُبّاً جمّاً، حتَّى يتخلَّلَ حبُّه جميعَ البَدَن، كما قال بشَّارٌ:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ منِّي ▫▪▫ وَلِذَا سُمِّيَ الخليلُ خَلِيلاَ

(٦) رواه أبو داودَ (٤٨٣٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، عن أبي هريرةَ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٥٤٥/١)، و«الصحَّيحة» (٩٢٧).
(٧) «الآداب الشَّرعيَّة» (٢٢٥/٤).

وقديمًا قيل: «قُلْ لي: مَنْ تُصاحِبُ؟، أُخْبِرْكَ مَنْ أنت».

وفي ذلك يقولُ الشاعرُ:

أنت في النَّاسِ تُقَاسُ ... بالذي اخْتَرْتَ خَلِيلا
فاصْحَبِ الأَخْيَارَ تَعْلُ ... وتَنَلْ ذِكْرًا جَمِيلا[1]

فَتبينَ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ أثرَ الصَّديق في صَديقه خَطيرٌ وكَبيرٌ، ومِنْ ثَمَّ كَانَ لزَامًا علَى الإنسَانِ أنْ يَنْتَقي أَصْدقَاءَهُ، وأَنْ يَخْتَبرَ مَعْدنَهُمْ، حَتَّى يَأْنَسَ إلى أَصَالَته، فلا يُصاحبَ إلاَّ قُرَنَاءَ الخير؛ لأنَّهُمْ يُعينُونَهُ على أَدَاء الوَاجبَات، وحفْظ الحقُوق، ويُبْعدونَهُ عَنِ السُّوء، واقْترَاف الآثَامِ، وبالجُملَة فَهُمْ يقودُونَهُ إلى النَّجَاحِ في الدُّنيا، والفَلاحِ في الأُخْرَى، فهو - وإنْ لَمْ يَعْمَلْ عَمَلَهُمْ - وَاحدٌ منهم بِمَحَبَّته وَصَدَاقَته لَهُمْ.

فعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ الله -صلى الله عليه وسلم-، فَقَالَ: «يا رسولَ الله، كَيْفَ تقولُ في رجلٍ أحبَّ قومًا، ولمْ يلحقْ بهم؟». فقال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أحبَّ»[2].

أمَّا قُرَنَاءُ السُّوءِ فَإِنَّهُمْ يكونونَ وَبَالاً عَلَيْه، وَهَلْ مَنَعَ أَبَا طَالِبٍ مِنَ التَّلَفُّظ بِكَلِمَةِ التَّوحيدِ الَّتي بها نَجَاتُهُ وَفَلاحُهُ - إلاَّ الرُّفقةُ السَّيِّئةُ؟!.

إنَّ رُفَقَاءَ السُّوءِ يَضَعُونَ رَفِيقَهُمْ - دَائمًا - على شَفَا[3] جُرُفٍ[4] هَارٍ، وسُرْعَانَ ما ينهارُ بِهِ - والعياذُ بالله!- في نَارِ جَهَنَّمَ، فيقرعُ حينَها سِنَّ النَّدَمِ، ولاتَ سَاعةَ مَنْدَمٍ، وَصدقَ اللهُ القائل: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ

---

(١) «نفح الطيب» (٨/ ٦٧).
(٢) رواه البخاريُّ (٦١٦٨) و (٦١٦٩)، ومسلمٌ (٢٦٤٠).
(٣) شَفَا كُلِّ شَيْءٍ: حَرْفُهُ وطرفُهُ.
(٤) الجُرُف - بضمِّ الرَّاءِ وسكونها -: ما تَجَرَّفَتْهُ السُّيُولُ وأكلَتْهُ مِنَ الأرضِ.

الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ (سورة الفرقان: ٢٧-٢٩).

وهناك ستُّ صِفَاتٍ ذَكَرَهَا أَهْلُ العِلْمِ، يَنْبَغِي تَوَافُرُهَا فِيمَنْ تُؤثر صُحْبَتُه ومَحَبَّتُه:

أولها ـ أنْ يكُونَ مُؤْمِنًا، فَعَنْ أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ -رضي الله عنه- أنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: «لا تُصاحِبْ إلاَّ مؤمناً، ولا يأكُلْ طَعَامَكَ إلاَّ تقيٌّ»[1].

ثانيها ـ أَنْ يكُونَ مِنْ ذَوِي العُقُولِ الرَّاجِحَةِ، فالْعَقْلُ رأسُ المالِ، ولا خَيْرَ في صُحْبَةِ الأَحْمَقِ. لأنَّ الأَحْمَقَ يوردُ نَفْسَهُ وغَيْرَهُ مَوَاطِنَ الهَلاكِ والفَسَادِ، ويركَبُ رأْسَهُ، ولا ينْصَاعُ للرَّأي السَّديدِ، ويغْضَبُ لأتْفَهِ الأَسْبَابِ، وشَرُّ الأصدقَاءِ مَنْ تَكَلَّفَ لَكَ، وأَحْرَجَكَ إلى اعْتذارٍ، وأَلْجَأَكَ إلى مُدَارَاةٍ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

لا تَيْأسَنَّ مِنَ اللَّبِيبِ[2] وإنْ جَفَا[3] ▫▪▫ واقطعْ حِبَالَكَ مِنْ حِبالِ الأَحْمَقِ

فعَدَاوةٌ مِنْ عاقلٍ مُتَجَمِّلٍ ▫▪▫ أَولى وأَسْلَمُ مِنْ صَدَاقَةِ أَخْرَقِ[4]

قَالَ ابنُ القَيِّمِ ـ يرحمُهُ اللهُ ـ في سِيَاقِ كَلامِه عَمَّنْ مخالطَتُهُ كَالدَّاءِ عَلَى اخْتِلافِ مَرَاتِبِه وأَنْوَاعِه، وقُوَّتِه وَضَعْفِه ـ:

---

(١) رواه أبو داودَ (٤٨٣٢)، والتِّرمذيُّ (٢٣٩٥)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٧٣٤١).

(٢) اللَّبيب: العاقل، والجمعُ أَلِبَّاءُ.

(٣) جَفَا: هَجَرَ.

(٤) «جواهر الأدب» (ص٧٢٣).

«وَمِنْهُمْ مَنْ مُخَالَطَتُهُ حُمَّى الرُّوحِ، وهُوَ الثَّقِيلُ البَغِيضُ العَقْلُ الَّذي لا يُحسنُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فيفيدَكَ، ولا يحسنُ أَنْ يُنْصِتَ فيستفيدَ منْكَ، ولا يعرِفُ نفْسَهُ فيضعُها في مَنْزِلَتِهَا، بَلْ إنْ تَكَلَّمَ فكلامُهُ كالعَصَا تَنْزِلُ على قُلُوبِ السَّامعينَ مَعَ إعْجَابِهِ بِكَلامِهِ، وفَرَحِهِ بِهِ، فهُوَ يُحَدِّثُ من فِيهِ كلَّما تحدَّث، ويظنُّ أنَّه مسكٌ يَطيبُ بِهِ المجلسُ، وإنْ سكَتَ فأثقلُ مِنْ نصْفِ الرَّحَى[1] العظيمةِ الَّتي لا يُطاقُ حَمْلُها، ولا جَرُّها على الأَرْضِ».

ويذكر عن الشَّافعيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - أنَّه قال: «ما جَلَسَ إلى جانبي ثقيلٌ إلاَّ وجدتُ الجانبَ الذي هو فيه أَنْزَلَ من الجانبِ الآخرِ»[2].

قَالَ الشَّاعِرُ:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ ▫▪▫ إلاَّ الحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا[3]

ثالثها ـ أنْ يكُونَ حَسَنَ الخُلُقِ، طيِّبَ السَّمْتِ[4]، فَلا خَيْرَ في صُحْبَةِ مَنْ يَغْلِبَهُ الغَضَبُ، أو الكَذِبُ، أو البُخْلُ، أو الجُبْنُ، أو أَطَاعَ هَوَاهُ، ولَمْ يتَهذَّبْ بالأَخْلاقِ الفَاضِلَةِ؛ لأَنَّ أَخْلاقَهُ سُرْعَانَ مَا تَنْتَقِلُ إلَى مَنْ يُصَاحِبَهُ، فَلِلْعَدْوَى قَانُونُهَا الَّذِي يَسْرِي في الأَخْلاقِ كَمَا يَسْرِي في الأَجْسَامِ.

---

(١) الرَّحى: حجر الطَّاحون، جمعها أَرْحَاءٌ، وَرُحِيٌّ.

(٢) «التفسير القيِّم» (ص٦٢٩).

(٣) «جواهر الأدب» (ص٧٢٣).

(٤) السَّمْت: الهيئة والمظهر.

قَالَ صالحُ بنُ عبدِ القدُّوس:

واحْـذَرْ مُـؤَاخـاةَ الدَّنيِّ؛ فـإنَّهُ ▫▪▫ يُعْدي كما يُعْدي الصَّحيحَ الأجْرَبُ
واخترْ صديقَكَ، واصطَفِيْهِ تَفَاخُرًا ▫▪▫ إنَّ القـرينَ إلى المُقَـارِنِ يُنْسَبُ
ودَعِ الكَذُوبَ، ولا يَكُنْ لَكَ صاحبًا ▫▪▫ إنَّ الكَذوبَ لَبِئْسَ خِلاً[1] يُصْحَبُ[2]

وقَالَ الشَّافعيُّ - يرحمه الله -:

صَافِ الكِرَامَ، فخيرُ مَنْ صَافَيْتَهُ ▫▪▫ مَنْ كانَ ذا أدَبٍ، وكانَ ظَرِيفَا
واحـذرْ مُـؤَاخـاةَ اللَّئيمِ؛ فـإنَّهُ ▫▪▫ يُبْدي القبيحَ، ويُنْكِرُ المَعْروفَا[3]

وقال - أيضًا -:

اجعلْ قَرِينَكَ مَنْ رَضِيْتَ فِعَالَهُ ▫▪▫ واحذرْ مُقَارَنَةَ اللَّئيمِ الشَّائِنِ
كَمْ مَنْ قَرينٍ شائنٍ لقرينِهِ[4] ▫▪▫ ومُهَجِّنٍ[5] منْهُ لكُلِّ مَحَاسِنِ[6]

رابعها - ألاَّ يكُونَ حَرِيصًا عَلَى الدُّنيا؛ لأَنَّ صُحْبَةَ الحَرِيصِ على الدُّنيا تُوَرِّثُ الحِرْصَ؛ لأنَّ الطِّبَاعَ مَجْبُولةٌ على التَّشبُّه والاقْتداء، فَالطَّبعُ - كَما سبق - لصٌّ يَسْرِقُ مِنَ الطَّبعِ الخيرَ والشَّرَّ، وسرَقَتُهُ للشَّرِّ أَكْثَرُ وأَسْرَعُ مِنْ سَرِقَته للْخَيْرِ، ألا ترى - مثلاً - أَنَّ غَيْرَ المُدَخِّنِ سُرْعَانَ مَا تَنْتَقِلُ إليه عَدْوَى التَّدخينِ مِنَ المُصابِ بِهَا إذا جَالَسَهُ، ويَنْدُرُ أَنْ يقَعَ العَكْسُ.

---

(١) الخِلُّ - بالكسر -: الصَّديق.
(٢) «جواهر الأدب» (ص٦٦٩).
(٣) المرجع السابق (ص٧١٩).
(٤) شائن: اسم فاعل من شَانَ يَشِيْنُ، وشائن لقرينه: أي يَحُطُّ من قَدْرِ صاحبِهِ.
(٥) مُهَجِّن: مُقَبِّح.
(٦) «جواهر الأدب» (ص٧٢٠).

فَعَلَى المرْءِ أَنْ يَتْرُكَ مُجَالَسَةَ طُلاَّبِ الدنْيا، ويُجَالِسَ الزُّهَّادَ والعُلَمَاءَ، فَهَؤُلاءِ مُخَالَطَتهُمْ ـ كَمَا قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ كَالغذَاءِ.

قَالَ حكيمٌ لابنه: «يا بُنَيَّ، جَالِسِ العُلَماءَ، وزَاحِمْـهُمْ برُكْبَتِكَ؛ فإنَّ الْقُلُوبَ لَتَحْيَا بالحِكْمَةِ، كَمَا تَحْيَا الأَرْضُ الميِّتةُ بِوَابلِ المَطَرِ».

خامسها ـ أنْ يكُونَ عَدْلاً غيرَ فاسقٍ؛ لئلاَّ يَجُـرَّك إلى فِسْقِه، فَقَدْ قيلَ: «وَدَّ صَاحِبُ الفِسْقِ والمَعْصِيَةِ لو فَسَقَ النَّاسُ جميعًا؛ لئَلاَّ يُصْبِحَ نَشَازًا بيْنَهُمْ».

ولأنَّ صُحْـبةَ الفَاسِقِ تُهَـوِّنُ أَمْرَ المَعْـصِيَةِ عَلَى النَّفْسِ، وتُبْطِـلُ نُفْرَةَ القَلْبِ عَنْهَا، وَمَنْ لا يخَافُ اللهَ لا تُـؤْمَنُ غائِلَتُهُ [(١)]، ولا يُوثَقُ بِصَدَاقَـتِه؛ لأنَّهُ يَتَغَـيَّرُ بِتَغَيُّرِ الأَغْرَاضِ والأَحْوَالِ.

سادسها ـ أَنْ يكُونَ غيرَ مُـبْتَدِعٍ؛ لِئلاَّ يُلْقِي عليكَ الشُّـبَهَ، فيتشـرَّبها قلبُكَ، والقُلوبُ ـ كَمَا يقولُ العُلَمَاءُ ـ ضَعِيفَةٌ، والشُّبَـهُ خَطَّافةٌ.

وَهَذِهِ الصِّفَةُ مِنْ أَهَمِّ الصِّفَاتِ في الصَّديقِ؛ فَإِنَّ في مُخَالَطَةِ المبتدعِ الهُلْكَ كُلَّهُ.

قَالَ ابنُ القيِّمِ ـ يرحمهُ اللهُ ـ فيمَنْ مـخالطته الهُلْكُ كُلُّهُ: «ومُخالطَتُهُ بِمَنْزِلَةِ السُّمِّ، فَإِنِ اتَّفَقَ لآكِلِه ترياقٌ [(٢)]، وإلاَّ فَأَحْـسَنَ اللهُ فيه الـعَزَاءَ، ومَا أَكْـثَرَ هذا الضَّرْبَ في النَّاسِ ـ لا كَـثَّرَهُمُ اللهُ! ـ وهُمْ أَهْلُ البِدَعِ والضَّـلالَةِ، الصَّادُّونَ عَنْ سُنَّةِ رسُولِ اللهِ -ﷺ- ويَـبْغُونَهَـا عِوَجًـا، فَيَجْـعَلونَ الْبِدْعَـةَ سُنَّةً، والسُّـنَّةَ بِدْعَةً، والمعروفَ مُنْكَرًا، والمُنكرَ مَعْرُوفًـا!».

(١) الغائلة: الشَّرُّ والدَّاهية، جمعها غَوَائل.
(٢) التِّرْيَاقُ - بكسر التَّاءِ -: دواءُ السُّمُومِ.

إنْ جَرَّدْتَ التَّوحيدَ بينهم قالوا: تَنَقَّصْتَ جَنابَ الأوْلِيَاء والصَّالحين، وإنْ جَرَّدتَ المتابعَة لرَسُول الله -ﷺ- قَالُوا: أَهْدَرْتَ الأئمَّةَ المتبوعينَ، وإنْ وَصَفْتَ اللهَ بما وَصَفَ به نَفْسَهُ، وبِمَا وَصَفَهُ به رسولُهُ من غَيْرِ غُلُوٍّ ولا تَقْصيرٍ - قالوا: أَنْتَ منَ المُشَبِّهِينَ، وإنْ أَمَرْتَ بمَا أَمَرَ اللهُ به ورَسُولُهُ منَ المعْرُوف، ونَهَيْتَ عَمَّا نَهَى اللهُ عنه ورسولُهُ منَ المُنْكَرِ - قالوا: أنْتَ منَ المفتونين، وإن اتَّبعتَ السُّنَّةَ، وتركْتَ مَا خَالَفَهَا، قَالُوا: أنْتَ منْ أهلِ البِدَعِ المُضلِّينَ، وإن انْقَطَعْتَ إلى الله - تعالى -، وَخَلَّيْتَ بينهم وبَيْنَ جيفةِ الدُّنْيَا - قالوا: أنْتَ منَ المُلَبِّسينَ، وإنْ تركْتَ مَا أنتَ عَلَيْهِ، واتَّبعْتَ أهواءَهُم، فأنت عندَ الله من الخاسرين، وعِنْدَهُم منَ المُنَافقينَ.

فالحَزْمُ كُلُّ الحَزْمِ التماسُ مرضاةِ الله - تعالى - ورسوله بإغْضابِهِم، وألاَّ تشتغلَ بِأَعْتابِهِمْ، ولا باسْتِعْتَابِهِمْ، ولا تُباليَ بِذَمِّهِم ولا بُغْضِهِم؛ فَإنَّه عَيْنُ كَمَالِكَ، كَمَا قَالَ:

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتي مِنْ ناقصٍ ▫▪▫ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لي بأنّي فَاضِلُ

وقال آخر:

وقد زادني حُبًّا لنفسي أنَّني ▫▪▫ بغيضٌ إلى كُلِّ امْرِيءٍ غَيْرِ طَائِلِ[1] [2]

فَعَلَيْكَ - أَخي الحبيب - أَنْ تُرَاعِيَ هَذِهِ الصِّفَاتِ السِّتَّ فِيمَنْ تَتَّخِذَهُ صَدِيقًا، ولا تَتَسَاهَلْ في واحِدَةٍ مِنْهَا.

---

(١) رجُل غير طائلٍ: حقيرٌ خسيسٌ.
(٢) «التَّفسير القيِّمُ» (ص٦٣٠ - ٦٣١).

قَالَ أبو سُلَيمانَ الدَّارانيُّ - يرحمه اللهُ - :

«لا تَصْحَبْ إلاَّ أَحَدَ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ تَرْتَفِقُ بِهِ فِي أمرِ دُنْـيَاكَ، أو رَجُلٍ تزيدُ معه، وتنتفعُ به في أمرِ آخرتِكَ، والاشتغالُ بغيرِ هَذَيْنِ حُمْقٌ كَبيرٌ».

وَقَالَ ابنُ المُقَفَّعِ :

«عَلَى الْعَاقِلِ ألاَّ يُخَادِنَ[1]، ولا يُصَاحِبَ، ولا يُجَاوِرَ مِنَ النَّاسِ مَا استَطَاعَ، إلاَّ ذَا فَضْلٍ في العِلْمِ، والدِّينِ، والأَخْلاقِ؛ فيأخُذُ عَنْهُ، أو مُوَافِقًا لَهُ عَلَى إصْلاحِ ذَلِكَ؛ فَيُؤَيِّدُ ما عِنْدَهُ، وإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ فَضْلٌ؛ فَإنَّ الخِصَالَ الصَّالحةَ مِنَ البِرِّ[2] لا تحيا، ولا تَنْمَى إلا بالْمُوافِقِينَ والْمُؤَيِّدِينَ، وليسَ لذي الفَضْلِ قَرِيبٌ ولا حَمِيمٌ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِمَّنْ وافقَهُ عَلَى صَالِحِ الخصَالِ، فَزَادَهُ وَثَبَّتَهُ؛ ولذلكَ زَعَمَ بَعْضُ الأوَّلِينَ أنَّ صُحْبَةَ بليدٍ نَشَأَ مَعَ العُلَمَاءِ أَحبُّ إليهم مِنْ صُحْبَةِ لَبِيبٍ نَشَأَ مَعَ الجُهَّالِ»[3].

وقَالَ ابنُ حَزْمٍ - يرحمهُ اللهُ -:

«مَنْ طَلَبَ الفَضَائِلَ لَمْ يُسَايِرْ إلاَّ أَهْلَهَا، وَلَمْ يُرافِقْ في تلك الطَّريقِ إلاَّ أَكْرَمَ صَديقٍ مِنْ أهْلِ المواسَاة، والبِرِّ، والصِّدْقِ، وحُسْنِ العِشْرَةِ، والصَّبْرِ، والوفاء، والأَمَانَةِ، والحِلْمِ، وصَفَاءِ الضَّمَائِرِ، وصِحَّةِ المودَّةِ. ومَنْ طلبَ الجاهَ، والمالَ، واللَّذَّاتِ، لَمْ يُسَايِرْ إلاَّ أمثَالَ الكلابِ الكَلِبَةِ[4]، والثَّعَالبِ الخَلِبَةِ[5]، ولَمْ يُرَافِقْ في تلك الطَّريقِ إلاَّ كُلَّ عَدُوٍّ في المعتقدِ، خبيثِ الطَّبِيعَةِ»[6].

---

(١) يُخَادن: يُصَادق.

(٢) البِرُّ: الطَّاعة، والصَّلاح، والصِّدق، وقد يُـرَادُ به الأخلاقُ كما في الحديث: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ». رواه مسلمٌ (٢٥٥٣) عَنِ النَّواس بن سمعانَ الأنصاريِّ.

(٣) «الأدب الصَّغير» (ص٢٠ - ٢١).

(٤) الكلاب الكَلِبَة: هي التَّي أُصيبتْ بداء الكَلَب، وهو السُّعَار.

(٥) الثعالب الخَلِبَة: هي المخادعة التي تسلكُ سلوكَ المكرِ والخديعة؛ لتَظْفَرَ بحاجتها.

(٦) «الأخلاق والسِّير» (ص٩٢).

وَمَا أَجْمَلَ ما قَالَهُ أمينُ الدِّين:

عَلَيْكَ بأربابِ الصُّدُورِ، فَمَنْ غَدَا ▪ جليسًا لأرباب الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وإيَّاك أنْ تَرْضَى بصُحْبَةِ ساقطٍ ▪ فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِنْ عُلاَكَ، وتُحْقَرَا

ولعلَّ مِنْ أَجْمَلِ الوَصَايا في اخْتِيَارِ الرَّفيقِ الصَّالِحِ وَصِيَّة عَلْقَمَةَ لابْنِه، حيثُ قَالَ فيها:

«يا بُنَيَّ، إذا عَرَضَتْ لَكَ إلى صُحْبَةِ الرِّجَالِ حَاجَةٌ، فَاصْحَبْ مَنْ إذَا خَدَمْتَه صَانَكَ[1]، وَإِنْ صَحِبْتَهُ زَانَكَ[2]، وإنْ قَعَدَتْ بك مُؤْنَةٌ[3] مَانَكَ، اصْحَبْ مَنْ إذا مَدَدْتَ يَدَكَ بِخَيْرٍ مَدَّهَا، وإنْ رَأَى منْكَ حَسَنَةً عَدَّها، وإنْ رَأَى سَيِّئَةً سَدَّهَا، اصْحَبْ مَنْ إذَا سَأَلْتَهُ أَعْطَاكَ، وإنْ سكَتَّ ابْتَدَاكَ، وَإِنْ نَزَلَتْ بِكَ نَازِلَةٌ[4] وَاسَاكَ، اصْحَبْ مَنْ إذَا قُلْتَ صَدَّقَ قَولَكَ، وَإِنْ حَاوَلْتَ أَمْرًا آزَرَكَ، وإنْ تَنَازَعْتُمَا آثَرَكَ».

ثُمَّ قَالَ:

إنَّ أَخَاكَ الحَقَّ مَنْ كَانَ مَعَكْ ▪ ومَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ
ومَنْ إذا رَيْبُ الزَّمَانِ[5] صَدَعَكْ[6] ▪ شَتَّتَ فِيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ

(١) صانك: حفظك.
(٢) زَانَكَ: احترمك وقدَّرك.
(٣) مُؤْنة: حاجة، وتجمعُ على مُؤَن كَحُجَّة وحُجَج.
(٤) نازلة: مُصيبة، وتجمعُ على نَوَازِلَ.
(٥) رَيْبُ الزَّمان: حوادثُ الدَّهرِ وَمَصَائبُهُ.
(٦) التَّصدعُ: التَّشقُّق، والمراد تأثير حوادث الدَّهر وإصابتها للمرء.

المُحَاسَبَةُ

لابُدَّ للْمَرْءِ مِنْ مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ، وإيقَافِهَا عِنْدَ عُيُوبِهَا، فَإِنْ وَقَعَتْ في سيِّئِ الأَخْلاقِ اسْتَدْرَكَهَا، وتَعَاهَدَهَا، وحَمَلَهَا عَلَى جَمِيلِ الأَخْلاقِ، وأَنْ يَجْعَلَ ذلكَ وَقْتَ اخْتِلائِهِ بنفْسِهِ في اللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ أرْوَحُ للخَاطِرِ، وأَجْمَعُ لِلْفِكْرِ.

إنَّ زَكَاةَ النَّفْسِ وطَهَارَتَهَا مَوْقوفٌ على مُحاسَبَتِهَا، فلا تَزْكُو، ولا تَطْهُر، ولا تصلُحُ البتَّةَ إلا بِمُحَاسَبَتِهَا.

قَالَ عبْده محمَّد العماد:

وَحَاسِبِ النَّفْسَ تَظْفَرْ باسْتِقَامَتِهَا ... وَعَدِّلِ السَّيْرَ قَبْلَ العَضِّ والنَّدَمِ

وعلى المَرءِ أَنْ يَصْدُقَ في مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ، وَلا يَلْتَمِسَ لها الأعذارَ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يُسِيءَ الظَّنَّ بها؛ فإنَّ ذلكَ يُمكِّنُهُ مِنْ إمَاطَةِ اللِّثام عَنْ مَسَاوِيهَا وَعُيُوبِهَا.

يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ - يرحمه اللهُ -:

«وأمَّا سُوءُ الظَّنِّ بالنَّفْسِ فَإِنَّمَا احْتَاجَ إِلَيْهِ؛ لأَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بالنَّفْسِ يَمْنَعُ مِنْ كَمَالِ التَّفتيشِ، ويُلَبِّسُ عَلَيْهِ، فَيَرَى المَساوئَ مَحَاسِنَ، والْعُيُوبَ كمالاً، فَإِنَّ المُحِبَّ يَرَى مَسَاوِئَ مَحْبُوبِهِ وَعُيُوبَهُ كَذَلِكَ.

فَعَيْنُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ ... كما أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدي المَسَاوِيَا

وَلا يُسِيءُ الظَّنَّ بِنَفْسِهِ إلاَّ مَنْ عَرَفَهَا، وَمَنْ أَحْسَنَ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِنَفْسِهِ»[1].

والمرءُ حَظُّهُ مِنَ الْمُحَاسَبَةِ بِقَدْرِ حَظِّهِ مِنْ نُورِ الحِكْمَةِ الَّذِي نَوَّرَ اللهُ بِهِ قُلُوبَ أَتْبَاعِ رُسُلِهِ - صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهم -.

يقولُ ابنُ القيِّمِ - أيضًا - :

«ونورُ الحِكْمَةِ هاهُنَا هُوَ العِلْمُ، الَّذِي يُمَيِّزُ بِهِ الْعَبْدُ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ، والهُدَى والضَّلالِ، والضَّارِّ وَالنَّافِعِ، والكَامِلِ والنَّاقِصِ، والخَيْرِ والشَّرِّ، ويُبْصِرُ به مَرَاتِبَ الأَعْمَالِ، رَاجِحَهَا وَمَرْجُوحَهَا، ومقبولَهَا وَمَرْدودَهَا، وَكُلَّمَا كَانَ حَظُّهُ مِنْ هذا النَّورِ أَقْوَى، كَانَ حظُّهُ مِنَ الْمُحَاسَبَةِ أَكْمَلَ وأَتَمَّ»[2].

وَمِنْ جميلِ مَا قِيلَ في المُحاسَبةِ قولُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّاب - رضي الله عنه - :

«حَاسِبُوا أَنفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وإنَّمَا يَخِفُّ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ في الدُّنيا»[3].

ويُرْوَى عن مَيْمُونِ بنِ مِهْرَانَ قولَه:

«لا يكونُ العَبْدُ تَقِيّاً حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ، كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ، مِنْ أينَ مَطْعَمُهُ ومَلْبَسُهُ؟»[4].

---

(١) «تهذيب مَدَارج السَّالكين» (ص١٧٧-١٧٨).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٧٧).
(٣) «سنن التِّرمذيِّ» (٢٤٥٩) موقوفًا على عُمَرَ، انظر «تحفة الأحوذيِّ» (٧/ ١٥٥).
(٤) «سنن التِّرمذيِّ» (٢٤٥٩).

ومُحَاسَبَةُ المرءِ لِنَفْسِهِ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ البرَاءَةِ مِنَ النِّفَاقِ، والتَّرقِّي في مَعَالِي الأَخْلاقِ.

قَالَ إبراهيمُ التَّيميُّ:

«مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إلاَّ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذَّبًا»[1].

وقَالَ ابنُ أبي مُلَيْكَةَ:

«أَدْرَكْتُ ثلاثينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبيِّ -ﷺ- كُلُّهُمْ يخافُ النِّفَاقَ على نَفْسِهِ»[2].

وتعليقًا عليه نقَلَ الحافظُ ابنُ حجرٍ عَنِ ابن بطَّال - يرحمهم اللهُ - قولَه:

«إنَّهُمْ خَافُوا؛ لأنَّهُمْ طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ، حَتَّى رَأَوْا مِنَ التَّغْيِيرِ مَا لَمْ يَعْهَدُوهُ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى إِنْكَارِهِ، فَخَافُوا أَنْ يَكُونُوا دَاهَنُوا بِالسُّكُوتِ»[3].

قَالَ الشاعرُ:

هي النَّفسُ، إنْ أنت سَامَحْتَهَا ... رَمَتْ بِكَ أَقْصَى مَهَاوِي الخَدِيعَهْ
فإنْ شِئْتَ فَوْزًا فناقِضْ هَوَاها ... وإنْ واصَلَتْكَ أَجْزِها القَطِيعَهْ[4]

وقال ابن المُقَفَّع:

«لِيَحْسُنْ تعاهُدُكَ لنفسكَ، بِمَا تَكُونُ به للخيرِ أَهْلاً؛ فَإِنَّك إنْ فعلْتَ ذلكَ، أَتَاكَ الخيرُ يَطْلُبُكَ، كَمَا يَطْلُبُ الماءُ السَّيلَ إلى الحُدُورَةِ[5]»[6].

---

(١) رواه البخاريُّ في «الإيمان»، بابُ خَوْفِ المؤمنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ، وهَوَ لا يَشْعُرُ.
(٢) التَّخريج السَّابق.
(٣) «فتح الباري» (١/ ١١١).
(٤) «نفح الطيب» (٧/ ٣٦٢).
(٥) **الحُدُورة**: المنخفض من الأرض.
(٦) «الأدب الصَّغير، والأدب الكبير» (ص٢٠).

وَقَالَ - أيضاً -:

«وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يُحْصِيَ علَى نَفْسِهِ مَسَاوِيهَا في الدِّينِ، وفي الأَخْلاقِ، وَفِي الآدَابِ، فَيَجْمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ في صَدْرِهِ، أَوْ في كِتابٍ، ثُمَّ يُكْثِرَ عَرْضَهُ علَى نَفْسِه، ويُكَلِّفَها إِصْلاحَهُ، ويُوَظِّفَ ذلكَ علَيْهَا تَوْظِيفًا مِنْ إِصْلاحِ الخَلَّةِ، وَالخَلَّتين، وَالخِلالِ في اليَوْمِ، أو الجُمعةِ، أو الشَّهْرِ.

فَكُلَّمَا أَصْلَحَ شَيْئًا مَحَاهُ، وَكُلَّمَا نَظَرَ إلى مَحْوٍ اسْتَبْشَرَ، وَكُلَّما نَظَرَ إلى ثَابتٍ اكْتَأَبَ»[1].

وأخيراً يقولُ أبو الفَتْحِ البُسْتِيُّ:

يا خَادِمَ الجِسْمِ، كَمْ تَسْعَى لخِدْمَتِهِ؟! ... أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ مِمَّا فِيهِ خُسْرَانُ؟!

أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ، واستكملْ فَضَائِلَهَا ... فأنت بالنَّفْسِ - لا بالجسمِ - إنسانُ»[2]



(١) المرجع السَّابق.

(٢) «جواهر الأدب» (ص٦٧٠).

المُجَاهَدَةُ

قَدْ مَرَّ مَعَنَا أَنَّ الأَخْلاقَ إذا لَمْ يُطْبَعْ عليها المرْءُ نالَهَا بالمُجَاهَدَةِ، فمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ في الله بِصِدْقٍ، فَإِنَّهُ يَحْصلُ لَهُ ـ مِنَ الهِدَايَةِ، والمعونةِ، والتَّوفيقِ على تَحْصِيلِ مطلوبِهِ ـ أمورٌ إلهيَّةٌ خَارِجَةٌ عَنْ مدركِ اجْتِهَادِه، ويُؤَيِّدُ ذلكَ قَوْلُ الله -سُبْحَانَهُ وتعَالَى- : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩).

وَمِنْ دُرَرِ الإمام ابن عقيلٍ الحَنْبَليِّ - يرحمه اللهُ - قولُهُ:

«ولو لَمْ يكُنْ مِنْ بَرَكَاتِ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ في حقوقِ الله، والانْتِهَاءِ عَنْ مَحَارِمِ الله إلاَّ أنَّهُ يعطفُ عليكَ، فَيُسَخِّرها لكَ، ويُطَوِّعُهَا لأَمْرِكَ، حَتَّى تَنْقَادَ لكَ، ويُسْقِطُ عَنْكَ مَئُونَةَ النِّزاعِ لها والمجاهدة، حتَّى تَصِيرَ طَوْعَ يَدِك وأمرك ـ تعاف المستطاب عِنْدَهَا، إذا كَانَ عِنْدَ الله خبيثًا، وتؤثرُ العملَ لله، وإنْ كانَ عِنْدَهَا بالأَمْسِ كريهًا، وتستخفُّهُ وإنْ كانَ عليها ثَقِيلاً، حتَّى تصيرَ رِقّاً لك، بعدَ أَنْ كَانَتْ تسترقُّكَ»[1].

ومُجَاهَدَةُ النَّفْسِ يَسِيرَةٌ على مَنْ يَسَّرَهَا اللهُ عليه، ولكِنَّها عَزِيزةٌ على الكَسْلاَنِ.

---

(١) «كتاب الفنون» (٢/ ٤٩٦).

قَالَ الإمامُ ابنُ حَزْمٍ - يرحمهُ اللهُ -:

«واعْلَمْ أنَّ رياضَةَ النَّفسِ أَصْعَبُ مِنْ رياضَــةِ الأَسَدِ؛ لأَنَّ الأُسْدَ إذا سُجِنَتْ في البُيُوتِ الَّتي تَتَّخِذُ لها الملوكُ، أُمِنَ مِنْ شرِّها، والنَّفس - وَإنْ سُجِنَتْ -، لَمْ يُؤْمَنْ شَرُّهَا»[1].

وَقَالَ - أيضـاً -:

«كَانَتْ فِيَّ عُيُـوبٌ، فَلَمْ أَزَلْ - بالرِّيَاضَـةِ، واطِّلاعي عَلَى ما قَـالَت الأَنبيَـاءُ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْـهِم -، والأَفَـاضِلُ مِنَ الحُكَمَـاءِ المتَـأَخِّـرِينَ والمتَـقَـدِّمِينَ في الأَخْلاقِ، وفي آدابِ النَّفْـسِ - أُعَانِي مُدَاوَاتِهَـا، حَتَّى أَعَـانَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - على أكثرِ ذلكَ بتوفِيقِهِ وَمَنِّهِ»[2].

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ أبي تَمَّامٍ الطَّائيِّ:

فَلَمْ أَجِـــدِ الأَخْـــلاَقَ إلاَّ تَـخَلُّقــاً ○■○ ولَمْ أَجِـدِ الأَفْـضَـالَ إلاَّ تَفَـضُّـلا[3]



(١) «الأخلاق والسِّير» (ص١٦٧).

(٢) المرجع السابق (ص١٠٧).

هنا فائدةٌ: قال العلاَّمة ابْنُ قُـدَامَةَ المقدسيُّ: «وقَدْ زَعَمَ مَنْ غَلَبَتْ عليه البَطَالَةُ، فَاسْـتَثْقَلَ الرِّيَاضَةَ أنَّ الأخلاقَ لا يتصوَّرُ تغييرها، كما لا يتصوَّر تغيير صورةِ الظَّاهرِ!.

والجواب: أنَّه لو كانتِ الأخلاقُ لا تقبل التَّغييرَ، لم يكنْ للـمواعظ والوصايا معنىً، كيف تنكر تغيير الأخلاق، ونـحن نرى الصيـدَ الوحشيَّ يسـتأنسُ، والكَلْـبَ يُعَلَّمُ تَرْكَ الأكْلِ، والفرس تُعَلَّمُ حُـسْنَ المَشْيِ، وجودةَ الانقيادِ، إلاَّ أنَّ بعضَ الطِّباعِ سريعةُ القَبُولُ للصَّلاحِ، وبعضها مستصعبةٌ؟!». «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٥٢).

(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٢).

الاسْتِفَادَةُ مِنَ الآخَرِينَ

اللَّبيبُ يستفيدُ مِنْ كُلِّ مَنْ يُخالطُهُ، سَوَاءٌ أكانَ نَاقِصاً أَمْ كَامِلاً، وأَكْثَرُ العُقَلاءِ والحُكَمَاءِ يتعلمونَ مكارمَ الأَخْلاقِ مِنَ الموصُوفِينَ بأضدادِها!.

قَالَ ابنُ القيِّمِ - يرحمه اللهُ -:

«وَكثيرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَعَلَّمُ المروءةَ، ومكَارِمَ الأَخْلاقِ مِنَ المَوصُوفينَ بأضدادِها، كما رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الأَكَابِرِ أنَّهُ كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ سيِّءُ الخُلُقِ، فَظٌّ، غليظٌ، لا يُناسِبه، فَسُئِلَ عَنْ ذلكَ، فقالَ: إنِّي أدرسُ عليه مكَارِمَ الأَخْلاقِ!.

وهَذا يكُونُ بمعرفَةِ مكَارِمِ الأَخْلاقِ في ضِدِّ أَخْلاقِه، ويَكُونُ بتمرينِ النَّفْسِ علَى مُصَاحَبَتِهِ، ومُعَاشَرَتِهِ، والصَّبرِ عَلَيْه»[1].

قَالَ الشَّاعِرُ:

إنَّ الرِّجالَ إذا اختبرْتَ طِباعَهُمْ ... أَلْفَيْتَهُمْ شَتَّى على الأَخْبَارِ
لا تَعْجَلَنَّ إلى شريعةِ مَوْرِدٍ ... حتَّى تَبَيَّنَ خُطَّةَ الإصدارِ[2]

وقَالَ ابنُ حَزْمٍ - يرحمُهُ اللهُ -:

«لِكُلِّ شَيءٍ فَائِدَةٌ، ولَقَدِ انْتَفَعْتُ بمحكِّ أهلِ الجَهْلِ[3] منفعةً عظيمةً، وهي

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣٥).
(٢) «عيون الأخبار» (٣/ ١٧٢).
(٣) أيْ: بالتَّعرُّضِ لشرِّهم والتَّمرُّس بهم.

أنَّه توقَّدَ طَبْعِـي، واحتَدَمَ خَاطري، وحَميَ فكْري، وتَهَـيَّجَ نشاطي، فكَانَ ذَلكَ سَبَبًا إلَى تَوَاليفَ لي عظيمة المَنْفَعَة، ولَوْلا استثَارُهُمْ سَاكني، واقتدَاحُهُمْ كامني، مَا انْبَعَثَتْ لتلكَ التواليف»[١].

قَالَ الشَّاعـرُ:

مَـتَـى تَصْـفُـو لَكَ الدنيـا بخَـيْـرٍ ... إذا لَمْ تَـرْضَ مِـنْـهَـــا بـالمِزَاجِ؟!

أَلَمْ تَرَ جَـوْهَرَ الدُّنْيَـا المُصَـفَّى ... ومَـخْـرَجُـهُ مِنَ البَحْـرِ الأُجَـاجِ؟![٢]

وَرُبَّ مُـخِـيـفَـةٍ فَـجَـأَتْ بِهَـوْلٍ ... جَـرَتْ بِمَـسَـرَّةٍ لَكَ وابْتِـهَـاجِ!

وَرُبَّ سَـلامَـةٍ بَعْـدَ امـتـنـاعٍ ... ورُبَّ إقَـامَـةٍ بَعْـدَ اعْـوِجَـاجِ!

ولا يَقِفُ الأمرُ هَاهُنا، بلْ إنَّ كَـثيرًا منَ العُـقَلاء يَتَعَلَّمُ منَ الحَيَـوَانَاتِ أُمُورًا تنفعُهُ في مَعَاشه، وأَخْلاقه، وَصنَاعته، وَحَرْبِه، وَحَزْمِه، وَصَبْرِه.

قيلَ لرجلٍ: مَنْ علَّمك البُكُورَ في حوائجكَ أوَّلَ النَّهار، لا تُخلُّ به؟!.

قالَ: مَنْ عَلَّمَ الطَّيرَ تغدُو خِمَاصًا[٣] كُلَّ بُكْرَةٍ[٤] في طَلَبِ أَقْوَاتِهَا على قُرْبِهَا وبُعْدِهَا، لا تَسْأَمُ ذلكَ، ولا تَخَافُ ما يَعْرِضُ لها في الجَوِّ والأرْضِ؟!.

وقيلَ لآخر: مَنْ علَّمك السُّكونَ، والتَّحفُّظَ، والتَّماوتَ حتَّى تَظْفَرَ بأَرَبكَ[٥]، فَإذَا ظَفِرْتَ به وَثَبْتَ وُثُوبَ الأسدِ على فريسَته؟!.

---

(١) «الأخلاق والسِّيَر» (ص١٢٨). (٢) الأُجاج: المالح.

(٣) تغدو خِماصًا: تذهب صباحًا جائعةً ضامرةَ البُطُون، ومفرد خِماصٍ خُمْصَان للمذكَّر، وخُمْصَانَةٌ للمؤنَّث.

(٤) بُكْرَة: صباح، والجمعُ بُكَرٌ.

(٥) الأَرَبُ: الحَاجَة.

قَالَ: الَّذي علَّمَ الهرَّةَ أَنْ تَرْصُدَ جُحْرَ الْـفَأْرَةِ، فلا تتحرَّك، ولا تتلوَّى، ولا تختلجُ، كَأَنَّهَا ميتةٌ، حتَّى إذا بَرَزَتْ لَهَا الفَأْرَةُ، وَثَبَتْ عليها كَالأَسَدِ!.

وقيل لآخَر: مَنْ علَّمك حُسْنَ الإِيثَارِ، وَالسَّمَاحَةَ بِالْبَذْلِ؟.

قَالَ: مَنْ علَّم الدِّيكَ يُصَادفُ الحبَّةَ في الأرْضِ، وَهُوَ يَحْتَاجُ إليهـا، فَلا يَأْكُلُهَا، بَلْ يستدعـي الدَّجاجَ، ويَطْلُبُهنَّ طَلَبًا حَثِيثًا، حتَّى تَجِيءَ الوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ فَتَلْقُطُها، وهو مَسْرُورٌ بذَلِكَ، طيِّبُ النَّفْسِ بِهِ؟!.

قَالَ بَشَّارُ بنُ بُرْدٍ:

لیس يُعْطيكَ للرَّجَاءِ، ولا الخَـو ... فِ ولكـنْ يَلَـذُّ طَعْـمَ العَـطَاءِ

يَسْقُطُ الطَّيْرَ حَيْثُ يَنْتَثِرُ الحَـ ... بُّ، وتُغْشَى مَنَازِلُ الكُرَمَاءِ

وكذلكَ كِـرَامُ الأُسُودِ وأَشْرَافُـهَا يتعَلَّمُ مِنْـهَا الأَنَفَةُ، وَعِـزَّةُ النَّفْسِ؛ فَهِيَ لا تَأْكُلُ إلاَّ مِنْ فَـرِيسَتِـهَا، وَإِذَا مَرَّتْ بِفَـرِيسَةِ غَـيْرِها، لَمْ تَدْنُ مِـنْهَا وَلَوْ جَـهدَها الجوعُ[1].

وكُنْتُ إذا صَـحِبْتُ رِجَالَ قَـوْمٍ ... صَحِبْتُهُم وشِيمَتِي[2] الوَفَاءُ

فأُحْسِنُ حِينَ يُحْسِنُ مُحْسِنُوهُمْ ... وَأَجْتَنِبُ الإِسَاءةَ إنْ أَسَاءُوا

وأُبْصِرُ مـا يَعِيبُهُمُ بعَـيْنٍ ... عليهـا مِنْ عُيُوبِهِمُ غِطَاءُ

أُرِيدُ رِضَاهُمُ أَبداً، وآتـي ... مَشِيئَتَهُمْ، وأَتْرُكُ ما أَشَاءُ[3]



(١) الشِّيمَةُ: الخُلُقُ، والجمعُ شِيَمٌ.
(٢) انظر «شفاء العليل» (ص١٦٢ - ١٦٣) بتصرُّف.
(٣) «المروءة الغائبة» (ص٤٢).

عُلُوُّ الهِمَّةِ

الهِمَّـةُ أَصْلٌ مُهِمٌّ مِنْ أُصُولِ الأَخْـلاقِ الحَمِيـدَةِ، والْهِمَّةُ مَـا هُمَّ بِهِ مِنْ أَمْرٍ لِيُفْعَلَ[١]. وَمَحَلُّهَا الْقَلْبُ.

قَالَ الجُرْجَانِيُّ:

«الهَمُّ: هُوَ عـقد القلب على فـعل شيءٍ قَـبْلَ أَنْ يُفْعَلَ من خـيرٍ أو شـرٍّ. والْهِمَّـةُ: تَوَجُّهُ القَلْبِ وقَصْـدُهُ بجميعِ قُوَاهُ الرُّوحَـانيَّةِ إلى جانبِ الحَقِّ لحـصولِ الكَمَالِ لَهُ، أو لغَيْرِهِ»[٢].

وقيل: «عُلُوُّ الهِمَّةِ: هُوَ اسْتِصْغَارُ مَا دُونَ النِّهايةِ مِنْ معالِي الأُمورِ»[٣].

وتَعْلُو أخلاقُ المرءِ وتَسْمُو بقَدْرِ نصيـبِهِ مِنْ عُلُوِّ الهِمَّةِ، فهي لا تَزَالُ تضربُ صَاحِبَهَا بِسِـيَاطِ اللَّوْمِ والتَّأْنِيبِ، حَتَّى ترفَعَهُ إلى معـالي الأُمُورِ وأَشْرَافِهَا، وَهَلْ تَنْشَأُ معالي الأَخْلاقِ إلاَّ مِنْ عُلُوِّ الهِمَّةِ؟!.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ - يرحمُهُ اللهُ -:

«فَمَنْ عَلَتْ هِمَّتُـهُ، وخَشَعَتْ نَفْسُهُ، اتَّصَفَ بِـكُلِّ خُلُقٍ جميلٍ، ومَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ، وطَغَتْ نَفْسُهُ، اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ»[٤].

---

(١) «القاموس المحيط» (ص١٥١٢).
(٢) «التَّعريفات» (ص٣٢٠).
(٣) «رسائل الإصلاح» (٢/٨٦).
(٤) «الفوائد» (ص٢١١).

وقالَ - أيضاً - :

«فالنُّفوسُ الشَّـريفةُ لا ترضى منَ الأشياءِ إلاَّ بأَعْلاهَا، وأَفْضَلِهَـا، وأَحْمَدِهَا عَاقِبَةً، والنُّفُوسُ الدَّنِيْئَةُ تَحُـومُ حَوْلَ الدَّنَاءَاتِ، وَتَقَعُ عَلَيْهَا كَمَا يَقَعُ الذُّبَابُ على الأَقْذَارِ، فالنُّـفُوسُ العَلِيَّةُ لا تَرْضَى بالظُّلْمِ، ولا بِالْفَوَاحِشِ، ولا بِـالسَّرِقَةِ، ولا بالخِيَانَةِ؛ لأنَّهَا أَكْبَرُ مِنْ ذلكَ وأَجَلُّ، والنُّفُوسُ المَهِينَةُ بِالضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ»[١].

عَنِ الحُسَيْنِ بن عليٍّ -رضي الله عنهما- قَـالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: **«إنَّ اللهَ يُحِبُّ معالِيَ الأُمورِ وأَشْرَافَهَا، ويَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»**[٢].

وعَنِ ابْنِ عـبَّـاسٍ -رضي الله عنهما- عَنِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- فـيمـا يَرْوي عَنْ ربِّهِ -عـزَّ وجلَّ- قَالَ: **«إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كتبها اللهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كاملةً، فإنْ هَمَّ بها وعَمِلَها، كَتَبَهَا اللهُ له عنده عَشْرَ حسناتٍ إلى سَبْعِمِائَةِ ضِعفٍ إلى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، ومَنْ هَمَّ بسيئةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كاملةً، فإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سيئةً واحدةً»**[٣].

وقَالَ في حَقِّ المتخلِّفينَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُـوكَ مِنَ الحريصين على الخُروجِ مَعَهُ: **«إنَّ بالمدينَةِ لَرِجَالاً، ما سِرْتُمْ مَسِيْراً، ولا قَطَعْتُمْ وادياً، إلاَّ كَانوا مَعَكُمْ**[٤]**، حَبَسَهُمُ**[٥] **المَرَضُ»**. وفي روايةٍ: **«حَبَسَهُمُ العُذْرُ»**[٦].

---

(١) المرجع السابق (ص٢٦٦).

(٢) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبيـر» (١٣/ ١٣١)، وصحَّحـه الألبانيُّ في «صـحيح الجـامع» (١/ ١٨٩٠)، «والصَّحيحة» (١٣٧٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٤٩١)، ومسلمٌ (١٣١).

(٤) يعني: في إدْراك الأَجْرِ والثَّوابِ.

(٥) حَبَسَهُمْ: مَنَعَهُمْ.

(٦) رواه البخاريُّ (٢٨٣٩) و(٤٤٢٣)، عَنْ أَنَسٍ، ومسلمٌ (١٩١١) عَنْ جابرٍ.

يا رَاحِلِينَ إلى البيتِ العَتيقِ لَقَدْ ... سِرْتُمْ جُسُومًا، وسِرْنَا نحنُ أرْوَاحا
إنَّا أقَمْنَا على عُذْرٍ، وعَنْ قَدَرٍ ... ومَنْ أقَامَ على عُذْرٍ فَقَدْ رَاحا

فحريٌّ بالمرءِ ألاَّ تَقِفَ به همتُهُ دُونَ الجنَّة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مالكٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ كَانَتِ الآخرةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ في قَلْبِهِ، وجَمَعَ له شَمْلَهُ، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهي رَاغِبَةٌ، ومَنْ كانتِ الدُّنيا هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وفَرَّقَ عليه شَمْلَهُ، ولَمْ يَأتِهِ مِنَ الدُّنيا إلاَّ ما قُدِّرَ لَهُ»[1].

وعلَّمنا نبيُّنا -صلى الله عليه وسلم- عُلُوَّ الهِمَّةِ في كُلِّ شَيْءٍ حتَّى في الدُّعَاءِ، فَأَمَرَنَا أَنْ نسألَ اللهَ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- مِنْ فَضْلِهِ، ولا نَسْتَعْظِمُ شَيْئًا في قدرِ اللهِ وجُودِهِ.

عَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: قَالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إذا سَأَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَكْثِرْ؛ فإنَّما يسألُ ربَّهُ»[2].

وفي لفظ: «إذا تمنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَكْثِرْ؛ فإنَّما يسألُ ربَّهُ -عزَّ وجلَّ-»[3].

وعَنِ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «إذا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فإنَّهُ سِرُّ الجنَّةِ[4]»[5].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٦٥)، ورَوَى ابْنُ مَاجَة نَحْوَهُ من حديث زيد بن ثابتٍ (٤١٠٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٥١٠، ٦٥١٦)، و«الصَّحيحة» (١٣٢٥).

(٢) رواه ابن حِبَّانَ في «صحيحه»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٥٩١)، و«الصَّحيحة» (١٣٢٥).

(٣) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الأوسط» عن عائشة، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٤٣٧)، و«الصَّحيحة» (١٢٦٦).

(٤) سِرُّ الجنَّةِ: أفضلُ موضعٍ فيها. والسِّرُّ: جَوْفُ كُلِّ شَيْءٍ ولُبُّهُ وخَالِصُهُ.

(٥) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٥٩٢).

وَعَنْ أَبي هريرةَ -رضي الله عنه- قـال: قَـالَ رسـولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «إذا سَألْتُمُ اللهَ فَاسألُوهُ الفِرْدَوسَ؛ فإنَّهُ أَوْسَطُ الجنَّةِ، وأَعْلَى الجنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومنه تُفَجَّرُ أَنْهارُ الجنَّةِ»[1].

قَالَ عَبْدُ اللهِ البَرْدونِيّ:

يا صاحبَ الهِمَّةِ العُلْيَا، وهَلْ حَمَلَتْ ... رُوْحَ الرِّسالاتِ إلاَّ رُوْحُ مُخْتَارِ[2]؟

أعلَى المناصِبِ ما شَادَتْ[3] لصَاحِبِهَا ... منَ العُلَى والمعَالي نَصْبَ تذْكَارِ[4]

في كَفِّهِ شُعْلَةٌ تَهْدي، وفي دَمِهِ ... عقيدةٌ تَتَحَدَّى كُلَّ جَبَّارِ

ومِنْ دُرَرِ ابن القيِّم - يرحمه اللهُ - قولُهُ:

«الهِمَّةُ العاليَةُ على الهِمَمِ كالطَّائرِ العالي عَلَى الطُّيُورِ، لا يَرْضَى بمساقطِهِمْ، ولا تَصِلُ إليه الآفَاتُ الَّتي تَصِلُ إليهم؛ فإنَّ الهِـمَّةَ كلَّما عَلَتْ بَعُدَتْ عَنْ وُصُولِ الآفَاتِ إليـها، وكُلَّمَا نزلتْ قصـدتْها الآفَاتُ مِنْ كُلِّ مكَانٍ، فَإِنَّ الآفَـاتِ قَواطِعُ وَجَوَاذِبُ، وهيَ لا تعلُو إلى المكَانِ العَالِي فَتَجْتَذِبُ منه، وإنَّما تجتذبُ منَ المكانِ السَّافلِ، فَعُلُوُّ هِمَّةِ المرءِ عُنْوَانُ فَلاحِهِ، وسُفُولُ هِمَّتِه عُنْوَانُ حِرْمانه»[5].

قُلْتُ للصَّقْرِ - وهو في الجَوِّ عالٍ - ... اهْبِطِ الأَرْضَ؛ فالهواءُ جَدِيْبُ

قال ليَ الصَّقْرُ: في جَنَاحي وعَزْمي ... وعَنَانِ السَّماءِ[6] مَرْعًى خَصِيْبُ[7]

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٩٠) و(٤٧٢٣).

(٢) روح مختار: محمد - صلوات الله وسلامه عليه -. (٣) شَادَتْ: بَنَتْ وَكَوَّنَتْ.

(٤) النصب التّذكاريُّ: ما رُفع من الحجارة وغيرها تخليداً لذكرى العظماء.

(٥) «مدارج السَّالكين» (٣/ ١٧١ - ١٧٢).

(٦) عَنَان السَّماء: هو السَّحاب، الواحدة عَنَانَةٌ. (٧) «ديوان المثاني» (ص٣٥).

وقالَ أبو فِراسٍ الحَمْدَانيُّ - مُفْتخرًا بعُلُوِّ همتِه، عَائِبًا على مَنْ سَفُلَتْ همّتُه، واسْتَرْقَاهُ هَوَاهُ -:

لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَحْوِي هَوَاهُ خَرِيدَةٌ[1] ▫▪▫ وقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقْضِي عليه كَعَابُ[2]

ولكنَّني - والحَمْدُ للهِ - حَازِمٌ ▫▪▫ أعِزٌّ إذا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَابُ

ولا تَمْلِكُ الحَسْنَاءُ قَلْبِي كُلَّهُ ▫▪▫ وَإِنْ مَلَكَتْهَا رَوقَةٌ[3] وشَبَابُ

وأَجْرِي ولا أُعْطِي الهَوَى فَضْلَ سُؤْدَدِي ▫▪▫ وَأَهدي، ولا يَخْفَى عليَّ صَوَابُ[4]

وعالي الهمَّة قَدْ يشتدُّ حِرْصُهُ على مَعَالِي الأَخْلاقِ وأَشْرَافِهَا، حتَّى لا يَكَادُ يَشْعُرُ بِمَا يُلاقِيهِ مِنَ جَهْلِ الجاهلينَ، وَعِنَادِ المُعَاندِينَ.

قَالَ مَحْمُود سامي البَارُودِيّ:

ومَنْ تَكُنِ العَلْيَاءُ هِمَّةَ نفْسِهِ ▫▪▫ فكُلُّ الذي يَلْقَاهُ فيها مُحَبَّبُ[5]

وقال أبو الطَّيِّب:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأتي العَزَائِمُ[6] ▫▪▫ وتَأْتي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

وتَكْبُرُ في عَيْنِ الصَّغيرِ صِغَارُهَا ▫▪▫ وتَصْغُرُ في عَيْنِ العَظِيمِ العظائِمُ[7]

---

(١) **خريدة**: الحَسْنَاءُ، والجمعُ خُرَّدٌ، وخَرَائِدُ.

(٢) **كَعَاب** - بالفتح -: وهي ناهدةُ الثَّدْيِ مستديرتُه، والجمعُ كَوَاعِبُ.

(٣) **الروقة**: حسن المنظر.

(٤) «ديوان أبي فراسٍ الحمدانيِّ» (ص١٣).

(٥) «جواهر الأدب» (ص٥٢٨).

(٦) **العزائم**: جمعُ عزيمةٍ، وهي الإرادةُ.

(٧) «ديوان أبي الطَّيِّبِ» (٣/٣٧٨ - ٣٧٩).

وَعَالي الهِـمَّة لا يرضى بالدُّونِ مِـنَ الأخْلاقِ، ولا يَقْنَعُ بِمَـا دُونَ النُّجُومِ، يَنْهَضُ إِلَى المقاصِـدِ الجَلِيلَةِ، ويرمي إلى الغايةِ البَعِـيدَةِ، يقومُ بِجَلائِلِ الأَعْـمَالِ الَّتِي تَسْـتَعْـصِي على أُولِي القُـوَّةِ مِنَ الرِّجالِ، فـلا يَتَبَـرَّمُ [١]، وَلا يَقْلَقُ، ولا يَشْكُو، ولا يَتْعَبُ.

قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:

إذا غَـامَـرْتَ في شَـرَفٍ مَـرُومٍ [٢] ◻◼◻ فـلا تَقْنَعْ بما دُونَ النُّجُـومِ

فَطَعْمُ الموتِ في أَمْـرٍ حَـقِـيـرٍ ◻◼◻ كَطَعْـمِ الموتِ في أَمْـرٍ عظيمِ [٣]



(١) التَّبَرُّمُ: التَّضَجُّرُ.

(٢) مروم: مقصود ومطلوب من رَامَ يَرُومُ الشَّيءَ، إذا قصده وطلبه.

(٣) «ديوان أبي الطَّيِّب» (٣/ ٣٧٨ - ٣٧٩).

النَّظرُ في عَواقِبِ سُوءِ الخُلُقِ

سيِّءُ الخُلُقِ مذكورٌ بالذِّكْرِ القَبيحِ، يَمْقُتُهُ اللهُ - عزَّ وجلَّ -، ويُبْغِضُهُ الرَّسُولُ - ﷺ -، ويُبْغِضُهُ النَّاسُ علَى اختِلافِ مَشَارِبِهِمْ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إليَّ، وأَبْعَدَكُمْ منِّي في الآخرةِ، أَسْوَؤُكُمْ أخلاقاً»[1].

وَسَيِّءُ الخُلُقِ هُوَ مَنْ مَلأَ اللهُ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ شَرّاً، وهو يسمعُهُ.

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «أهلُ الجنَّةِ مَنْ مَلأَ اللهُ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ خيراً، وهو يسمعُ، وأهْلُ النَّارِ مَنْ مَلأَ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ شرّاً، وهو يسمعُ»[2].

بَلْ إنَّ سَيِّءَ الخُلُقِ يجلبُ لنَفْسِهِ الهَمَّ، والغَمَّ، والكَدَرَ، وضِيقَ العَيْشِ، ويجلبُ لِغَيْرِهِ الشَّقَاءَ.

قَالَ أبو حازمٍ سَلَمَةُ بْنُ دينارٍ - يرحمه اللهُ -:

«السيِّءُ الخُلُقِ أشقَى النَّاسِ به نفسهُ التي بَيْنَ جَنْبَيْهِ، هي مِنْهُ في بَلاءٍ، ثُمَّ زَوْجتُهُ، ثُمَّ وَلَدُهُ، حتَّى أنَّه لَيَدْخُلُ بيتَهُ، وإنَّهم لَفي سرورٍ، فيسمعونَ صَوْتَهُ،

---

(١) رواه أحمدُ (٤/ ١٩٣ - ١٩٤)، وابنُ حبَّانَ (٤٨٢)، وابن أبي شيبةَ (٨/ ٥١٥)، والبغويُّ (٢٠١٨)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٨/ ٢١): رجالُهُ رجالُ الصَّحيحِ، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٧٩١).

(٢) رواه ابن ماجَة (٤٢٢٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢٥٢٧)، و«الصَّحيحة» (١٧٤٠).

فَيَنْفِرُونَ مِنْهُ فَرَقًا[١] منه، وحتَّى إنَّ دابَّتَهُ تَحيد[٢] ممَّا يرميها بالحجارة، وإنَّ كلبَهُ لَيَرَاهُ فينزو[٣] على الجدارِ، حتَّى إنَّ قِطَّهُ لَيفرُّ منه»[٤].

قَالَ الشَّاعِرُ:

إذا لم تَتَّسِعْ أخلاقُ قومٍ ... تضيقُ بهم فسيحاتُ البلادِ[٥]

وَقَالَ يحيى بن مُعَاذٍ:

«سُوءُ الخُلُقِ سيِّئةٌ، لا تَنْفَعُ معها كَثْرَةُ الحَسَنَاتِ، وحُسْنُ الخُلُقِ حَسَنَةٌ، لا تضرُّ معها كَثْرَةُ السيِّئاتِ»[٦].

وَصَدَقَ يحيى بن مُعَاذ؛ فَإِنَّ رسُولَ الله -ﷺ- يقُولُ: «إنَّ سُوْءَ الخُلُقِ لَيُفْسِدُ العَمَلَ، كما يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ»[٧].

وقال صاحبُ الإحياء:

«الأخلاقُ السيِّئةُ هي السُّمومُ القاتلةُ، والمُهْلكاتُ الدَّامِغَةُ، والمخازي الفَاضِحَةُ، والرَّذائلُ الوَاضِحَةُ، والخَبَائثُ المُبْعِدَةُ عَنْ جِوَارِ ربِّ العَالمينَ،

---

(١) الفَرَقُ- بفتحتين- : الخَوْفُ، وبَابُهُ فَرِحَ.
(٢) تَحِيدُ: تَمِيلُ عنه وتُعْرِضُ.
(٣) ينزو: يثب.
(٤) «السِّيَر» (٦/ ٩٩).
(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٣).
(٦) «الإحياء» (٣/ ٥١).
(٧) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير» عن ابْنِ عُمَرَ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٧٦)، و«الصَّحيحة» (٩٠٦).

الْمُنْخَرِطَةُ بِصَاحِبِهَا فِي سِلْكِ الشَّيَاطِين، وهِيَ الأبْـوَابُ المفتوحـةُ إلـى نَـارِ اللهِ - تَعَالى - الْمُوْقَـدَةِ، التَّي تطَّلعُ علـى الأفئدةِ»[١].

وقال - أيضاً -:

«الأَخْلاقُ الخـبيثةُ أَمْـراضُ القُلُوبِ، وأسقامُ النُّفوسِ، إلاَّ أَنَّهُ مَـرَضٌ يُفَوِّتُ حَيَاةَ الأَبَدِ»[٢].

وقال الأحنفُ بنُ قَيْسٍ:

«ألاَ أُخْبِـرُكُمْ بأَدْوَءِ الدَّاءِ؟». قـالوا: «بلى». قال: «الخُلُقُ الدَّنيُّ، واللِّـسانُ البَذِيُّ»[٣].

وقالَ بعضُ الحُكَماءِ:

«مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ ضاقَ رِزْقُهُ»[٤].

وَقَالَ بَعْضُ البُلَغَاءِ:

«الحَسَنُ الخُلُقِ مِنْ نفـسه في راحةٍ، والنَّاسُ منه في سَلامَـةٍ، والسَّيِّئُ الخُلُقِ النَّاسُ منه في بَلاءٍ، وهو مِنْ نَفسِهِ في عَنَاءٍ»[٥].

وإذا أُصـيْبَ القَـوْمُ في أَخْـلاَقِـهِمْ ◦▪◦ فَـأَقِمْ عَلَيْـهِمْ مَـأْتَمـاً[٦] وعَـوِيلا[٧][٨]



(١) و (٢) «الإحياء» (٣/ ٤٧).
(٣) و (٤) و (٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٢).
(٦) المأْتَمُ: اجتماع النِّسَاء للنِّيَاحَة، والجمعُ مآتمُ.
(٧) العَوِيل - بالفتح -: رفعُ الصَّوْتِ بالبُكَاءِ، تقول منه: أَعْوَلَ إعْوَالاً.
(٨) «الشوقيَّات» (١/ ١٨٣).

صُورٌ من الأخلاق

١ ـ الحياء.

٢ ـ بِرُّ الوَالدَيْنِ.

٣ ـ صِلَةُ الرَّحِمِ.

٤ ـ حُسْنُ الجِوَارِ.

٥ ـ حُسْنُ السَّمْتِ.

٦ ـ الوَقارُ.

٧ ـ الرِّفْقُ.

٨ ـ الرَّحْمَةُ.

٩ ـ التَّواضُعُ.

١٠ ـ الحِلْمُ.

١١ ـ الكَرَمُ.

١٢ ـ إكرامُ الضَّيفِ.

١٣ ـ المُرُوءَةُ.

١٤ ـ الصَّبْرُ.

١٥ ـ الانتصارُ.

١٦ ـ الإنصافُ.

١٧ ـ المُدَاراةُ.

١٨ ـ الصِّدقُ.

١٩ ـ حُسْنُ الظَّنِّ.

٢٠ ـ تَجَنُّبُ الغَضَبِ.

٢١ ـ تَجَنُّبُ الحِقْدِ.

٢٢ ـ تَجَنُّبُ الحَسَدِ.

٢٣ ـ غَضُّ البَصَرِ.

٢٤ ـ الغَيْرَةُ.

٢٥ ـ عَدَمُ الانشغالِ بعُيُوبِ النَّاسِ.

٢٦ ـ حِفْظُ اللِّسَانِ.

٢٧ ـ تَجَنُّبُ آفاتِ اللِّسانِ، ومنها:

(أ) الغِيْبَةُ. (ب) النَّمِيْمَةُ.

(جـ) الكَذِبُ. (د) اللَّعْنُ.

(هـ) السُّخْرِيَّةُ. (و) البَذَاءةُ والتَّفَحُّشُ في القَوْلِ.

(ز) شَهَادَةُ الزُّورِ. (حـ) إفْشَاءُ الأسْرارِ.

(ط) المَدْحُ المَذْمُومُ.

صور من الأخلاق

الحَيَــاءُ

الحياءُ في اللُّغةِ: تغيُّرٌ وانكسارٌ يَلْحَقُ الإنسانَ مِنْ خوفِ مَا يُعَابُ بِهِ.

وفي الشَّرعِ: خُلُقٌ يبعثُ على فِعْلِ الجميلِ، واجْتِنابِ القَبيحِ، ويمنعُ مِنَ التَّفريطِ والتَّقْصيرِ في حَقِّ ذِي الحَقِّ.

▪ أنواعُ الحياءِ:

«الحيـاءُ قِسْمَانِ: غَريـزيٌّ، ومُكْتَسَبٌ. والحيـاءُ المكتسبُ: هو الـذَّي جعله الشَّارعُ مِنَ الإِيمانِ، وهُوَ المُكلّفُ به دُونَ الغَريزيِّ، وقد ينطبعُ الشَّخصُ بالمُكْتَسَبِ حتَّى يَصيرَ كَالغَريزِيِّ، وقَدْ كَانَ رسولُ اللهِ -ﷺ- في الغَريزيِّ أَشَدَّ حياءً مِنَ العَذْرَاءِ[(١)] في خِدْرِهَا[(٢)]، وكَانَ في المُكْتَسَبِ في الذِّرْوَةِ[(٣)] العُلْيَا»[(٤)].

«وينقسمُ - أيضًا - إلى قسمين: شَرْعـيٌّ، وَغَيْرَ شَرْعِيٍّ. فَالشَّرْعِيُّ الَّذي يقَعُ على وَجْهِ الإِجْلالِ والاحْتِرَامِ للأَكَابِرِ، وهُوَ مَحْمُـودٌ، وأَمَّا مَا يقَعُ سَبَبًا لترك أَمْرٍ شرعيٍّ، فهو مَذْمومٌ، وليسَ بِحَيَاءٍ شَرْعِيٍّ، وَإِنَّمَا ضَعْفٌ ومَهَانَةٌ»[(٥)].

---

(١) العَذْراءُ: البِكْرُ، والجَمْعُ العَذَارَى - بفتح الرَّاء وكَسْرِهَا -، والعَذَرَايُّ - بتشديد الياء -، والعَذْرَاوَات.

(٢) الخِدْرُ: سِتْـرٌ تجعلُهُ البِكْرُ في جنبِ البيتِ، والمعنى: أيْ أشدّ حياءً منَ البِكْرِ حَالَ اختلائها بالزَّوج الذي لم تَعْرِفْهُ قَبْلُ، واستحيائها منه.

(٣) ذِرْوَةُ الشَّيْءِ - بضمِّ الذَّال وكَسْرِهَا -: أَعْلاهُ ونِهَايَتُهُ، والجَمْعُ ذُرًا.

(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٥) المرجع السابق (١/ ٢٢٩).

■مكانةُ الحياءِ ومنزلتُهُ في الدِّين:

وصَفَ الرَّسولُ -ﷺ- الحياءَ بِأَوْصَافٍ تدلُّ على خُطُورَتِهِ، وسُمُوِّ مَنْزِلَتِه، منها:

١ ـ أنَّه صفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ - سبحانه وتعالى -:

عَنْ يَعْلى بْنِ أُمَيَّةَ أنَّ رسول الله -ﷺ- رَأَى رَجُلاً يغتسلُ بالبَرَازِ[١] بلا إزارٍ، فَصَعِدَ المِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه، وقَالَ: «إنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - حليمٌ، حَيِيٌّ، ستِّيرٌ[٢] يُحِبُّ الحياءَ والسَّتْرَ؛ فإذا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ»[٣].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالك -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسولُ الله -ﷺ-: «إنَّ اللهَ رحيمٌ، حَيِيٌّ كريمٌ، يستحي منْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إليه يَدَيْه، ثُمَّ لا يَضَعُ فِيهِمَا خَيْراً»[٤][٥].

٢ ـ أَنَّهُ أَبْرَزُ ما يتميَّزُ به الإسلامُ من مكارمِ الأخلاقِ، فهو الخُلُقُ المُمَيِّزُ لأتباعِهِ:

عن أنسٍ وابنِ عبَّاسٍ -رضي الله عنهم- قالا: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «إنَّ لكُلِّ دينٍ خُلُقًا، وإنَّ خُلُقَ الإسلامِ الحياءُ»[٦].

---

(١) البَرَاز - بالفتح -: الفَضَاءُ الوَاسِعُ.

(٢) قال صاحبُ بذل المجهود (٨/٣٢٨) ـ بتصرُّف ـ: «ومعناه على هذا: المُبَالغُ في الحياء، والغَرَضُ والغايةُ من وَصْفِ الله - تعالى - بِهِ فِعْلُ ما يَسُرُّ، وتَرْكُ ما يَضُرُّ، والعَطَاءُ مِنْ غَيْرِ سُؤال».

(٣) رواه أبو داودَ (١٢ ٠١)، والنَّسائيُّ (٤٠٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٧٥٦).

(٤) قال الفَيروزأبَادي ـ يرحمه الله ـ في «بصائر ذوي التَّمييز» (٢/٥١٧): «وأمَّا حياءُ الرَّبِّ - تبارك وتعالى- من عبده فنوعٌ آخرُ، لا تُدْرِكُهُ ولا تُكَيِّفُهُ العقولُ، فإنَّه حياءُ كَرَمٍ، وبرٍّ، وجُودٍ، فإنَّه كريمٌ، يستحيي من عبده إذا رَفَعَ إليه يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفرًا، ويستحيي أَنْ يُعَذِّبَ شَيْبَةً شابتْ في الإسلامِ».

(٥) رواه الحاكمُ في «المستدرك»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٧٦٨).

(٦) رواه ابنُ ماجَة (٤١٨١) و (٤١٨٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/٢١٤٩)، و«الصَّحيحة» (٩٤٠).

٣ ـ أنَّهُ منَ الإيمـان:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «الحَيَاءُ منَ الإيمان، والإيمانُ في الجنَّة، والبَذَاءُ[1] منَ الجفَاءِ، والجَفَاءُ في النَّار»[2].

وعَنِ ابْنِ عُـمَـرَ -رضي الله عنهما- «أنَّ رَسُـولَ الله -صلى الله عليه وسلم- مَـرَّ عَـلَى رجلٍ من الأنصارِ، وهو يَعظُ أخَـاهُ في الحياءِ[3]، فقـال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «دَعْهُ؛ فإنَّ الحياءَ منَ الإيمان»[4].

وعنْهُ ـ أيضًا ـ قَالَ: قَالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «الحياءُ والإيمانُ قُرِنَا جميعًا، فإذا رُفعَ أحَدُهما رُفعَ الآخَر»[5].

فهَـذا يعني أنَّ الحيَاءَ إذَا ذَهَبَ ذَهَبَ مَعَـهُ الإيمانُ، ولا غَرْوَ[6] فإنَّ مَنْ فَـقَدَ حَـيَاءَهُ هَبَطَ من رذيلةٍ إلى أُخْـرَى أَشَدَّ نُـكْرًا، ولا يزالُ هَاوِيًا حَتَّى يَنْحَـدِرَ إلى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ.

٤ ـ أنَّهُ مَلاَكُ[7] الخير:

عن عِـمْرَانَ بْنِ حُـصَيْنٍ رضي الله عنهما قـال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «الحياءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»، أو قال: «كُلُّهُ خَيْرٌ»[8].

---

(١) البَذَاءُ: الفُحْشُ في الكلام.

(٢) رواه أبو داودَ (٢٠٠٩)، ورواه ابْنُ ماجَـة (٤١٨٤) عَنْ أبي بَكْرَةَ، وصحَّـحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣١٩٩)، و«الصَّحيحة» (٤٩٥).

(٣) أيْ يُعَاتِبُهُ فيه.

(٤) رواه البخاريُّ (٢٤) و(٦١١٨)، ومسلمٌ (٣٦).

(٥) رواه الحاكم في «المستدرك»، وأبو نُعَيْمٍ في «الحِلْيَةِ»، والبيهقيُّ في «الشُّعَب»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٢٠٠).

(٦) لا غَرْوَ: لا عَجَبَ.

(٧) مَلاَكُ الخَيْرِ - بفتح الميم وكَسْرِهَا -: قَوَامُهُ وعمَادُهُ.

(٨) رواه البخاريُّ (٦١١٧)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ لَهُ ـ (٣٧).

٥ ـ أنَّهُ مِنْ سُنَنِ المُرْسَلِينَ :

عَنْ أَبِي سَعِيـد الخُدْرِيِّ -رضي الله عنه- قال : «كَانَ رسولُ اللهِ - ﷺ - أشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ في خِدْرِها»[(١)] .

وعَنْ عائشةَ -رضي الله عنها- أَنَّ امْـرأَةً مِنَ الأنْصَارِ قَالَتْ للنَّبيِّ -ﷺ- : «كيف أَغْتَسِلُ مِنَ المَحِيْضِ؟» . قـال : «خُذي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً[(٢)] ، وتَوَضَّئي ثلاثًا» . ثُمَّ إنَّ النَّبيَّ -ﷺ- استحيا ، فَأَعْرَضَ بوَجْهِه ، أو قـال : «تَوَضَّئي بها» . فأَخَذْتُها فَجَذَبْتُها ، فأَخْبَرْتُها بما يريدُ النَّبيُّ - ﷺ -[(٣)] .

٦ ـ أنَّهُ عُنْصُرُ النُّبْل في كُلِّ عَمَلٍ يَشُوبُهُ :

عَنْ أَنَسٍ -رضي الله عنه- قَالَ : قَالَ رسولُ الله -ﷺ- : «ما كَانَ الفُحْشُ في شَيْءٍ ـ قَطُّ ـ إلاَّ شَانَهُ[(٤)] ، ولا كان الحياءُ في شَيْءٍ ـ قَطُّ ـ إلاَّ زَانَهُ»[(٥)] .

■ حَيَاةُ القَلْبِ فِي الحَيَاءِ :

قَالَ ابنُ القَيِّمِ ـ يرحمُهُ اللهُ ـ : «الحَيَاءُ مِنَ الحَيَاة ، ومنه الحَيَا للمَطَرِ ، لكنْ هو مَقْصُورٌ ، وعَلَى حَسَبِ حَيَاة القَلْبِ يَكُونُ فيه قُوَّةُ خُلُق الحيَاء ، وقِلَّةُ الحياء مِنْ مَوْتِ القَلْبِ والرُّوحِ ، فَكُلَّمَا كَانَ القلبُ أَحْيَا ، كَانَ الحياءُ أَتَمَّ»[(٦)] .

فالأَخْلاقُ الفَاضِلَةُ ـ ولاسيَّمَا خُلُقُ الحياءِ ـ تتناسبُ تناسُباً طردِيّاً مَعَ قُوَّةِ حَيَاةِ القَلْبِ والرُّوحِ .

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٥٦٢) و (٦١٠٢) و(٦١١٩)، ومسلمٌ (٢٣٢٠).
(٢) فِرْصَة مُمَسَّكَة : قِطْعَة من قُطْنٍ أو صُوْف بها طِيبُ المِسْك.
(٣) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ لَهُ ـ (٣١٤) ،(٣١٥) و(٧٣٥٦)، ومسلمٌ (٣٣٢).
(٤) شَانَهُ : عَابَهُ.
(٥) رواه التِّرمذيُّ (١٩٧٤)، وابن ماجَهْ ـ واللَّفظ لَهُ ـ (٤١٨٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٦٥٥).
(٦) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٢٠).

وَقالَ ابْنُ القيِّم - أيضاً -:

«وكُلَّما كَانتْ هذه الأخـلاقُ في صَاحِبها أكْمَلَ، كانـتْ حياتُهُ أَقْوَى وأتمَّ؛ ولهذا كَانَ خُلُقُ الحياء مُشتقًا منَ الحيَاة اسمًا وحقيقةً، فأَكْمَلُ النَّاسِ حياةً أكملُهُمْ حياءً، ونُقْصَـانُ حَياءِ المَرْءِ منْ نُقْصَانِ حيـاته؛ فإنَّ الرُّوحَ إذا مَاتَتْ لم تُحِسَّ بما يُؤْلمها منَ القَبَائحِ، فـلا تستحي منها، فإذا كانتْ صَحيـحَةَ الحياة أَحَسَّتْ بذلك، فاسْتَحْيَتْ منه، وكَذَلكَ سَائرُ الأخلاق الفـاضلَة، والصِّفَات الممدوحة تابعَةٌ لقُوَّة الحياة، وضِـدُّها منْ نُقْصَانِ الحيَـاة، ولهَذا كانَتْ حيـاةُ الشُّجَاعِ أكملَ مِـنْ حياة الجبَانِ، وحَـيَاةُ السَّخيِّ أكملَ منْ حَـيَاةِ البَخيلِ، وَحَيَـاةُ الفَطِنِ الذَّكيِّ أَكْمَلَ من حياة الفَدْمِ[1] البليد؛ ولهـذا لَمَّا كان الأنبياءُ - صَلَوَاتُ الله عليـهم - أكملَ النَّاسِ حَيَاةً - حَتَّـى إنَّ قُوَّة حَيَاتهمْ تمنعُ الأرضَ أَنْ تُبْلِيَ أَجْسَامَـهُمْ - كَانُوا أَكْمَلَ النَّاسِ في هَذِهِ الأَخْلاقِ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ من أتباعِهِمْ»[2].

قال السَّرِيُّ:

«إنَّ الحياءَ والأُنْسَ يَطْرقَانِ القلبَ، فإنْ وَجَدَا فيه الزُّهْدَ والورَعَ، وإلاَّ رَحَلاَ»[3].

وَقَالَ الفُضَيْلُ بْنُ عِياضٍ:

«خَمْسٌ مِـنْ عَلامَاتِ الشِّـقوة: القَـسْوَةُ في القَلْبِ، وجُـمُودُ العَـيْنِ، وقِلَّةُ الحَيَاءِ، والرَّغْبَةُ في الدُّنيا، وَطُولُ الأَمَلِ»[4].

قَالَ مُحَمَّد بن عبد الله البغداديُّ:

إذا قَلَّ مَـاءُ الوَجْـهِ قَلَّ حَـيَـاؤُهُ ▫▪▫ فَـلا خَـيْـرَ في وَجْـهٍ إذَا قَلَّ مَـاؤُهُ
حَـيَـاءَكَ فَـاحْـفَظْهُ عليك، فَـإنَّمـا ▫▪▫ يَدُلُّ عَلَى وَجْـهِ الكَرِيمِ حَـيَـاؤُهُ[5]

---

(١) الفَدْم - بالفتح - : العَيِيُّ الثَّقيلُ البيِّنُ الفَدَامَة والفُدُومَة.

(٢) «تهذيب مدارج السّالكين» (٢/ ٩٤٨).

(٣) و (٤) المرجع السّابق (٢/ ٦٢١).

(٥) «روضة العُقلاء» (ص٥٧).

■ أَوْجُهُ الحَيَاءِ:

الحياءُ يكونُ من ثلاثةِ أَوْجُهٍ:

الأوَّل ـ حيَاءُ المرءِ منْ خَالقه -جلَّ وعـلا-، والحياءُ منَ الله منْ أَسْمَى مَنَازِل الحيَاءِ وأكرَمِهَا، ولا غَرْوَ فَإنَّ الإنسانَ لَيَسْتَحْيِي أَنْ يُقَدِّمَ إلى مَنْ أَحْسَنَ إليه منْ بني جِنْسه ـ ولو نعمةً صغيرةً ـ أدنى إساءة، فكَيْفَ لا يستحيي منْ خالقه الَّذي لَهُ عَلَيْه حَقٌّ عَظِيمٌ، فَقَدْ أَسْبَغَ عَلَيْه نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً؟!.

لَوْ أَنَّ العبادَ قَدَرُوا خَالِقَهُمْ حقَّ قَدْرِه، لَسَارعوا ـ بغَضِّ النَّظَرِ عَنِ الثَّوابِ والعقَابِ ـ إلى الخيرَات، يفعلونها منْ تلْقَاءِ أَنْفُسَهُمْ، ولَتَبَاعَدُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ حياءً وخَجَلاً مِنْ مُقَابَلَةِ خَيْرِهِ المَحْضِ بالجُحُودِ والكُفْرَانِ.

يقولُ ابنُ القيِّمِ - يرحمه اللهُ -:

هَبِ[1] البَعْثَ لَمْ تَأْتِنَا رُسُلُهُ ▪▪▪ وجَاحِمَةَ النَّارِ[2] لَمْ تُضْرَمِ[3]
أَلَيْسَ مِنَ الوَاجِبِ المُسْتَحَقِّ ▪▪▪ حَيَاءُ العِبَادِ مِنَ المُنْعِمِ؟!

عَنِ ابنِ مسعودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: **«اسْتَحْيُوا منَ اللهِ حَقَّ الحياءِ»**. قُلنا: **«يا نبيَّ اللهِ، إنَّا لَنَسْتَحْيِي، والحَمْدُ للهِ»**. قَالَ: **«لَيسَ ذاكَ، ولكنَّ الاستحياءَ منَ اللهِ حقَّ الحياءِ أَنْ تحفظَ الرَّأسَ وما وَعَى، وتحفظَ البَطْنَ وما حَوَى، وتتذكَّرَ الموتَ والبِلَى، ومَنْ أراد الآخرةَ تَرَكَ زينةَ الدُّنيا، فمن فَعَلَ ذلك فَقَدِ استحيا منَ اللهِ حَقَّ الحياءِ»**[4].

---

(١) هَبْ: بمعنى ظُنَّ وافترِضْ، وهو فعلٌ جامدٌ ملازمٌ للأمريَّة.
(٢) **جاحمة النَّار**: جهنَّم ـ أعاذنا الله منها ـ.
(٣) **تُضْرَم**: تُوْقَد.
(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٥٨)، وحسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٩٣٥).

وعَنْ بَهْزٍ عن أبيه عَـنْ جَدِّه عَنِ النَّبيِّ -ﷺ- قَالَ: «فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ»[(١)].

وَقَـالَ أبو بَكْرٍ الصِّـدِّيقُ -رضي الله عنه- وهو يخطبُ النَّاسَ: «يا مَـعْشَـرَ المسلمينَ، استحيُوْا مِنَ اللهِ، فوالذي نفسي بيدِهِ، إنِّي لأظلُّ - حِينَ أذهبُ الغائِطَ في الفَضَاءِ - مُتَقَنِّعًا بثوبي استحياءً مِنْ رِبِّي - عزَّ وجلَّ -»[(٢)].

وَقَالَ يـحيى بْنُ مُـعَاذ: «مَنِ استـحيـا مِنَ اللهِ مُطيـعًا، استـحيـا اللهُ منه وهو مُذْنِبٌ»[(٣)].

وفي شَـرْحِ هذا القولِ يقُـولُ ابْنُ القَيِّمِ: «مَنْ غَلَبَ عليه خُلُقُ الحياءِ مِنَ الله - حتَّى في حـالِ طاعَتِه - فقلبُـهُ مُطْرِقٌ بَيْنَ يَدَيْه إطْرَاقَ مُسْتَحٍ خَـجِلٍ، فَإِنَّه إذَا وَاقَعَ ذنبًا، استحيا اللهُ - عزَّ وجلَّ - مِنْ نظرِهِ إليه في تلكَ الحالة لكَرامته عليه، فيستحي أَنْ يَرَى مِنْ وَلِيِّهِ ومَنْ يكْرُمُ عليه ما يَشِينُهُ عندَهُ»[(٤)].

والثَّـاني ـ حيـاؤُه مِنَ النَّاسِ، ويكونُ بِكَـفِّ الأَذَى عنهم، وَتَرْكِ المُجَـاهَرَةِ بِالْقَبِيحِ خَجَلاً مِنْ أَنْ يُؤْثَرَ عنه سُوءٌ.

رُوِيَ أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَـانِ أتَى الجُمُعَةَ، فَوَجَدَ النَّاسَ قَـد انْصَرَفُوا، فَتَنَكَّبَ الطَّرِيقَ[(٥)] عَنِ النَّاسِ، وقَالَ: «لا خَيْرَ فيمن لا يستحي مِنَ النَّاسِ»[(٦)].

---

(١) رواه التِّرمـذيُّ (٢٧٦٩) و (٢٧٩٤)، وذكره البخاريُّ تعليـقًا مجزومًـا به، انظر «الفتح» (١/ ٤٥٩)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الإرواء» (١٨١٠) و «صحيح الجامع» (١/ ٢٠٣).
(٢) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدُّنيا (ص٢٠).
(٣) و (٤) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٢١).
(٥) تَنَكَّبَ الطَّرِيقَ: تَجَنَّبَهُ وَعَدَلَ عَنه.
(٦) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٩).

بَلْ إنَّ بعضَ أهلِ الكرَمِ، والنُّفوس الشَّريفة لَيَستحيِي مِنْ سائلِه، حتَّى كأنَّه هو السَّائِلُ، فلا تُطاوعه نفسُهُ بمواجَهَةِ السَّائِلِ حياءً مِنْ خجلتِه.

رُوِيَ أنَّ مُطَرِّفَ بن عبد الله قال لبعض إخوانه: «يا أبا فُلان، إذا كَانتْ لَكَ حَاجةٌ فلا تُكَلِّمني، واكْتُبْهَا في رِقْعَةٍ؛ فَإنِّي أكرَهُ أنْ أرَى في وَجْهِكَ ذُلَّ السُّؤالِ».

قَالَ الشَّاعِرُ:

وَرُبَّ قَبِيحَةٍ مَا حَالَ بَيْني ۝ وبَيْنَ رُكُوبِهَا إلاَّ الحَيَاءُ
إذا رُزِقَ الفَتَى وَجْهًا وَقَاحًا[1] ۝ تَقَلَّبَ في الأُمُورِ كما يَشَاءُ[2]

والثَّالث - حياؤُهُ مِنْ نَفْسِهِ، ويكونُ بالعِفَّة، وصيانةِ الخَلَوَاتِ.

يقولُ ابنُ القيِّم - يرحمُهُ الله -: «وأمَّا حياءُ المَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ فهو حيَاءُ النُّفُوسِ الشَّرِيفَةِ العَزِيزَةِ الرَّفيعَةِ مِنْ رِضَاهَا لنَفْسِهَا بالنَّقْصِ، وقَنَاعَتِها بالدُّونِ، فَيَجِدُ نَفْسَهُ مُستحيًا مِنْ نفسِه، حتَّى كأنَّ له نَفْسَيْن، يستحي بإحداهما مِنَ الأُخْرَى، وَهَذَا أَكْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الحيَاءِ؛ فَإنَّ العَبْدَ إذا استَحْيَا مِنْ نفسِهِ، فهو بأنْ يستحيَ من غيرِه أَجْدَرُ»[3].

وقالَ بعضُ الحُكَمَاء: «لِيَكُنْ استحياؤُكَ من نفسِكَ أكثرَ من استحيائِكَ من غَيْرِكَ»[4].

وقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ: «مَنْ عَمِلَ في السِّرِّ عَمَلاً، يَسْتَحِي منه في العَلانِيَةِ - فليس لنفسِهِ عِنْدَهُ قَدْرٌ»[5].

---

(١) الوَقَاحُ - بالفتح -: البيِّنُ القِحَةِ - بكسْر القاف وفَتْحها - وهي الإفراطُ في سُوءِ الأدَبِ.
(٢) «أدبُ الدُّنيا والدِّين» (ص ٢٥٠).
(٣) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٢٣).
(٤) و (٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص ٢٥٠).

فَسِرِّي كَإِعْلانِي، وتِلْكَ خَلِيقَتِي ▫▪▫ وظُلْمَةُ لَيْلِي مِثْلُ ضَوْءِ نَهَارِيَا[(١)]

يقولُ الماوَرْدِيُّ: «فمتى كَمَلَ حَيَاءُ الإِنْسَانِ مِنْ وُجُوهِهِ الثَّلاثَةِ، فقَدْ كَمَلَتْ فيه أَسْبَابُ الخَيْرِ، وانْتَفَتْ عنْهُ أَسْبَابُ الشَّرِّ، وصَارَ بالفَضْلِ مَشْهُوراً، وبالجَميلِ مَذْكوراً.

وإنْ أَخَلَّ بأَحَدِ وُجُوهِ الحيَاءِ، لحِقَهُ مِنَ النَّقْصِ بِإِخْلالِهِ بِقَدْرِ ما كانَ يلحَقُهُ مِنَ الفَضْلِ بِكَمَالِهِ»[(٢)].

أخي الحبيبُ، عليكَ بِخُلُقِ الحَيَاءِ؛ فهُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الوَقَارِ والسَّكِينةِ.

قَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ: «مكتوبٌ في الحِكْمَةِ: إنَّ مِنَ الحياءِ وَقَاراً، وإنَّ مِنَ الحياءِ سَكِينَةً»[(٣)].

قَالَ القُرْطُبِيُّ ـ يرحمُهُ اللهُ ـ: «معنى كلامِ بُشَيْرٍ: أَنَّ مِنَ الحيَاءِ مَا يَحْمِلُ صَاحِبَهُ على الوَقَارِ، بِأَنْ يُوَقِّرَ غَيْرَهُ، ويَتَوَقَّرَ في نَفْسِهِ، ومِنْهُ مَا يَحْمِلُ على أَنْ يَسْكُنَ عَنْ كَثِيرٍ مَا يَتَحَرَّكُ النَّاسُ فيهِ مِنَ الأُمورِ الَّتِي لا تَليقُ بذِي المُرُوءَةِ»[(٤)].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبريُّ - يرحمُهُ اللهُ -:

حَيَائي حَافِظٌ لي مَاءَ وَجْهِي ▫▪▫ وَرِفْقِي في مُكَالَمَتِي رَفِيقِي
ولو أنِّي سَمَحْتُ[(٥)] بِبَذْلِ وَجْهِي ▫▪▫ لَكُنْتُ إلى العُلا سَهْلَ الطَّرِيقِ[(٦)]

---

(١) المرجع السَّابق.
(٢) المرجع السَّابق (ص٢٥٠ - ٢٥١).
(٣) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ (٦١١٧)، ومسلمٌ (٣٧).
(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٢) عند شرحه للحديث (٦١١٧).
(٥) سَمَحْتُ: جُدْتُ، وبَابُهُ قَطَعَ.
(٦) «سير أعلام النُّبلاء» (١٤/ ٢٧٦).

ولَقَدْ حَذَّرَ الأنبيـاءُ ـ صَلَوَاتُ اللهِ وسلامُهُ عَلَيْهِم ـ من كَسْرِ حَـاجِزِ الحياءِ؛ لِئَلاَّ يقَعَ الإِنْسانُ في كُلِّ قَبيحٍ.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إذا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[1].

قَالَ الشاعـرُ:

«إذا لـم تَخْشَ عَـاقِـبَـةَ اللَّيـالي ... ولم تَسْـتَـحِي فَـاصْنَعْ مَـا تَشَـاءُ
فـلا واللهِ، مـا في العـيشِ خَـيْـرٌ ... ولا الدنْيـا، إذا ذَهَبَ الحَـيَـاءُ
يعـيشُ المَرْءُ. مـا اسـتـحـيـا. بخـيـرٍ ... ويَبْـقَى العُـوْدُ مـا بَقِيَ اللِّحَـاءُ[2]»[3]

وإذا كَانَ الحياءُ مِنَ الإيمانِ؛ فإنَّ المعَاصيَ سَـبَبٌ في ذِهَابِ الحيَاءِ، فالمحافظَةُ على الإيمَانِ، واجْتِنَابُ المعَاصِي أَصْلُ حِفْظِ الحَيَاءِ.

قالَ الإمامُ ابنُ القيِّم - يرحمه اللهُ -:

«مِنْ عُقُوبَاتِ المعَاصِي ذِهَابُ الحياءِ، الَّذي هُوَ مَادَّةُ حياةِ القَلْبِ، وهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَذِهَابُهُ ذِهَابُ الخيـرِ أجْمَعِهِ، فَقَدْ جَـاءَ في الحديثِ الصَّحيحِ: «الحياءُ خيرٌ كلُّه»[4].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٨٣) و(٣٤٨٤) و (٦١٢٠).
(٢) اللِّحَاءُ - بالكسر -: قِشْرُ الشَّجَرِ، وَالجَمْعُ أَلْحِيَةٌ، ولُحِيٌّ.
(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٨).
(٤) تقدَّم تخريجُهُ.

والمقصُودُ أنَّ الذُّنوبَ تُضْعِفُ الحيَاءَ مِنَ العَبْدِ، حتَّى ربَّما انْسَلَخَ منه بالكُلِّيَّة، حتَّى إنَّه ربَّمَا لا يتأثَّرُ بِعِلْمِ النَّاسِ بِسُوءِ حَالِهِ، ولا باطِّلاعِهِمْ عليه، بَلْ كثيرٌ منهم يُخْبِرُ عَنْ حَالِهِ، وقُبْحِ ما يَفْعَلُ، والحَامِلُ لَهُ على ذلكَ انْسِلاخُهُ مِنَ الحيَاءِ، وإذا وَصَلَ العَبْدُ إلى هَذِهِ الحالَةِ، لَمْ يَبْقَ في صَلاحِهِ مَطْمَعٌ»[1].

وَلَيْسَ بِمَنْسُوبٍ إلى العِلْمِ والنُّهَى[2] ▫▪▫ فَتَىً لا تُرَى فِيهِ خَلائِقُ أَرْبَعُ:
فَوَاحِدَةٌ - تَقْوَى الإلَهِ، التَّي بِهَا ▫▪▫ يُنَالُ جَسِيمُ الخَيْرِ والفَضْلِ أَجْمَعُ
وثَانِيَةٌ - صِدْقُ الحَيَاءِ، فَإِنَّهُ ▫▪▫ طِبَاعٌ[3]، عَلَيْهِ ذُو المُرُوءَةِ يُطْبَعُ
وثَالِثَةٌ - حِلْمٌ، إذا الجَهْلُ أطلَعَتْ ▫▪▫ إليه خَبَايَا مِنْ فُجُورٍ تَسَرَّعُ
ورابعةٌ - جُودٌ بِمِلْكِ يَمِينِهِ ▫▪▫ إذا نَابَهُ الحقُّ الذَّي لَيْسَ يُدْفَعُ[4]



(١) «الدَّاء والدَّواء» (ص١٣١ - ١٣٣).
(٢) النُّهى: جَمْعُ نُهْيَه، وَهِيَ العَقْلُ؛ لأنَّه يَنْهى صاحِبَهُ عَنْ كُلِّ قبيحٍ.
(٣) الطِّبَاع - بالكسر -: الطَّبْعُ أو الطَّبيعةُ، وهي الخلائقُ والسَّجايا التِّي جُبِلَ عليها الإنسانُ. انظر «اللِّسان» (٤/ ٢٦٣٤).
(٤) «روضة العقلاء» (ص٥٦).

برُّ الوَالِدَيْنِ

البِرُّ - بكسر الباء -: هُوَ التَّوَسُّعُ في فِعْلِ الخير. والبَرُّ - بفتح الباء -: هو المتوسِّعُ في فِعْلِ الخَيْرَاتِ، وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ - تعالى -.

وأَحَقُّ النَّاس بِالبِرِّ، وحُسْنِ المُعَامَلَة، وجَمِيلِ الأَخْلاق، ولِينُ الكَلام، والبَذْلِ، والإحْسَانِ، والبَشَاشَةِ، والتَّواضُعِ، وغَيْرِ ذلكَ مِنْ صُوَرِ الأَخْلاقِ الحميدة - هُمَا الوَالِدَانِ.

فَمَنْ كَانَ أبرَّ بوالديه فهو الحكيمُ الموفَّقُ للأخلاق؛ لأنَّهُ نزَّلَ مُعاملتَهُ المنزلةَ التي تستحقُّهَا عَقْلاً وشَرْعًا؛ وذلكَ لأنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَمْ يَجْعَلْ لأَحَدٍ حَقًّا يلي حَقَّهُ وحَقَّ رسوله -ﷺ- إلاَّ للوالدين، فَقالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (سورة النِّساء: ٣٦).

وَقَالَ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (سورة الأنعام: ١٥١).

فَفِي هَذه الآيات جَعَلَ اللهُ -سُبحانَهُ وتَعَالى - حُرْمَةُ العُقُوق كَحُرْمَةِ الإشْرَاكِ سَوَاءً بِسَوَاء، فَهُو - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى - حَرَّمَ الشِّرْكَ، وأَمَرَ بالإحْسَانِ، وَمُقْتَضَى ذلكَ أَنْ يَأْمُرَ بالتَّوْحِيدِ، ويُحَرِّمَ العُقُوقَ، فكَانَ الشِّرْكُ مُلازِمًا لِلْعُقُوقِ، والتَّوحيدُ قَرِينَ الإِحْسانِ [(١)].

---

(١) الإحسان: هو البِرُّ، ومنه قولُ الرَّسول -ﷺ-: «البِرُّ: حُسْنُ الخُلُق». رواه مسلمٌ (٢٥٥٣) عن النَّوَّاسِ ابْنِ سمعانَ الأنصاريِّ.

وبرُّ الوَالِدَيْنِ واجِبٌ بالإجْماعِ على كُلِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ في غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ[(١)].

فَضَائِلُ بِرِّ الوالدَيْن:

لِبِرِّ الوَالِدَينِ فَضَائِلُ جَمَّةٌ، منْهَا ـ على جادَّةِ المثالِ لا الحَصْرِ ـ مَا يأتي:

١ ـ أنَّه مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ وأحبِّها إلى اللهِ - تعالى - حتَّى إنَّه مُقَدَّمٌ على الجهاد في سبيله:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى اللهِ؟». قالَ: «الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا»[(٢)]. قُلْتُ: «ثُمَّ أيٌّ؟». قَالَ: «بِرُّ الوالدينِ» قُلْتُ: «ثُمَّ أيٌّ؟». قَالَ: «الجِهَادُ في سبيلِ اللهِ»[(٣)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «لا يَجْزِي وَلَدٌ والِدَهُ، إلاَّ أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً، فَيَشْتَرِيَهُ، فَيُعْتِقَهُ»[(٤)].

٢ ـ أنَّهُ مِنْ أعظَمِ أسبابِ دُخُولِ الجَنَّةِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «رَغِمَ أَنْفُهُ[(٥)]، رَغِمَ أَنْفُهُ، رَغِمَ أَنْفُهُ!». قيل: «مَنْ يا رسولَ اللهِ؟». قال: «مَنْ أَدْرَكَ والدَيْهِ عندَهُ الكِبَرُ أَحَدَهُمَا أو كِلَيْهِمَا، ثُمَّ لم يَدْخُلِ الجنَّةَ[(٦)]»[(٧)].

---

(١) «غذاء الألباب» (١/ ٣٨٢).

(٢) أي في أوَّلِ وقتها.

(٣) رواه البخاريُّ (٥٢٧) و(٢٧٨٢) و(٥٩٧٠) و(٧٥٣٤)، ومسلمٌ (٨٥).

(٤) رواه مسلمٌ (١٥١٠).

(٥) رَغِمَ أنفُهُ: أُلْصِقَ بالرَّغَامِ، وهو التُّراب، والعبارةُ كنايةٌ عن الذُّلِّ والصَّغَار.

(٦) ثُمَّ لم يدخلِ الجنَّةَ: يعني أنَّ مَنْ أَدْرَكَ والديه ـ أو أحَدَهُمَا ـ عندَهُ الكِبَرُ، فلم يبرَّهما فمات ـ دخل النَّارَ.

(٧) رواه مسلمٌ (٢٥٥١).

٣ ـ أنَّ رِضَا الله فِي رِضَا الوالِدَيْنِ، وسُخْطَهُ فِي سُخْطِهِمَا:

عَنِ ابْنِ عَمْرٍو -رضي الله عنهما- أنَّ رسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الوَالِدَيْنِ، وسُخْطُهُ فِي سُخْطِهِمَا» [(١)].

٤ ـ أَنَّهُ سَبَبٌ فِي قَبُولِ الدُّعَاءِ:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنه- عَنْ رسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «بَيْنَمَا ثلاثةُ نَفَرٍ يتَمشَّونَ أَخَذَهُمُ المطرُ، فَأَوَوْا إلى غَارٍ في جَبَلٍ، فانحَطَّتْ على فَمِ غارِهِم صَخْرَةٌ منَ الجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيهم، فقال بعضُهُمْ لبعضٍ: انْظُروا أَعْمالاً عَمِلْتُموها صَالحَةً لله، فادْعُوا اللهَ - تعالى - بها، لعلَّهُ يُفَرِّجُهَا عنكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ، إنَّهُ كَانَ لي والدَانِ شيخَانِ كبيرانِ، وامرأتي، ولي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عليهِمْ، فإذا أَرَحْتُ [(٢)] عليهِمْ حَلَبْتُ، فبدأتُ بوالديَّ، فسقيتُهما قَبْلَ بَنِيَّ، وإنِّي نَأَى [(٣)] بي ذاتَ يومٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فوجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ ما كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بالحِلاَبِ، فقمْتُ عندَ رءوسِهِما، أَكْرَهُ أَنْ أوقِظَهُمَا مِنْ نومِهِما، وأكرهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبيةَ قَبْلَهما، والصِّبيةُ يَتَضَاغَوْنَ [(٤)] عندَ قَدَمَيَّ، فلم يَزَلْ ذلك دَأْبِي ودَأْبَهُمْ، حتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فإنْ كنتَ تعلمُ أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لنا منها فُرْجَةً نرى منها السَّماءَ، فَفَرَجَ اللهُ منها فُرْجَةً، فَرَأَوْا منها السَّماءَ...» [(٥)]. ثُمَّ توسلَّ كُلٌّ من الثَّاني والثَّالث بصالحِ أعمالهما، فانفرجتِ الصَّخْرَةُ، فخرجوا يمشون.

---

(١) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير»، ورواه التِّرمذيُّ (١٨٩٩) بلفظ: «رِضَا الرَّبِّ في رِضَا الوالدِ، وسَخَطُ الرَّبِّ في سَخَطِ الوالدِ»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٥٠٦، ٣٥٠٧)، و«الصَّحيحة» (٥١٦).

(٢) أَرَحْتُ: رَجَعْتُ.

(٣) نأى: بَعُدَ.

(٤) يَتَضَاغَوْنَ: يَصْرُخُونَ من شدَّة الجوعِ.

(٥) رواه البخاريُّ (٢٢١٥) و(٢٢٧٢) و(٢٣٣٣) و(٣٤٦٥) و(٥٩٧٤)، ومسلمٌ (٢٧٤٣).

٥ ـ برُّ الأولادِ لمن بَرَّ والدَيْه، فمنْ بَرَّ والدَيْه بَرَّهُ أولادُهُ، ومَنْ عَقَّ والدَيْه عَقَّهُ أَوْلادُهُ، فَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وكما تَدِينُ تُدَانُ.

ومنَ اللَّطائف ما ذكَرَهُ الأصمعيُّ: أنَّ رجُلاً كَانَ في زمَنِ عبدِ الملك بْنِ مَرْوَانَ، يُقالُ لَهُ (مَنَازِلُ)، وكَانَ لَهُ أَبٌ كبيرٌ، يُقَالُ له (فرعانُ التَّميمِيُّ)، وكَانَ الشَّابُ عَاقّاً لأبيه، فَقَالَ الشيْخُ:

جَزَتْ رحِمٌ بَيْنِي وبَيْنَ منازِلٍ ▫▪▫ جَزَاءً كما يَسْتَنْجِزُ[1] الدَّيْنَ طالبُهْ

تَرَبَّتُ[2] حتَّى صارَ جَعْداً[3] شَمَرْدَلاً[4] ▫▪▫ إذا قَامَ سَاوَى غَارِبَ[5] الفَحْلِ[6] غَارِبُهْ

تَظَلَّمَني[7] مالي، كَذا وَلَوَى يدي ▫▪▫ لَوَى يَدَهُ اللهُ الذي لا يُغَالِبُهْ

وإنيِّ لداعٍ دَعْوَةً لو دَعَوتُها ▫▪▫ على جَبَلِ الرَّيَّانِ[8] لانْقَضَّ جَانِبُهْ

ثُمَّ ابْتُلِيَ مَنَازِلُ بابْنٍ يُقالُ لَهُ (خليج)، عَقَّهُ في آخرِ عُمْرِهِ، فَقَالَ:

تَظَلَّمَني مالي خليجٌ، وعَقَّنِي ▫▪▫ على حِينَ كانَتْ كالحَنِيِّ عِظَامي

تَخَيَّرْتُهُ وازْدَدْتُهُ لِيَزِيدَني ▫▪▫ وما بعضُ ما يزدادُ غَيْرُ عُرَامِ[9]

لَعَمْرِي، لَقَدْ رَبَّيْتُهُ فَرِحًا بِهِ ▫▪▫ فَلا يَفْرَحَنْ بَعْدِي امْرُؤٌ بغُلامِ

فَأرادَ الوالي ضَرْبَهُ، فقَالَ الابنُ للوالي: لا تَعْجَلْ عَلَيَّ، هَذا منازلُ بْنُ فرعان الَّذي يقولُ عَنه أبوه:

جَزَتْ رحِمٌ بَيْنِي وبَيْنَ مَنَازِلٍ ▫▪▫ جَزَاءً، كَما يَسْتَنْجِزُ الدَّيْنَ طالبُهْ

---

(١) اسْتَنْجَزَ الشَّيْءَ: طَلَبَ نَجَازَهُ وَالْوَفَاءَ بِهِ. (٢) تَرَبَّتَ: تَرَبَّى.
(٣) الجعد: الطويل. (٤) الشَّمَرْدَلُ: الفتى القويُّ.
(٥) الغارب: ما بين السَّنَامِ إلى العُنُقِ. (٦) العُرَام: الشِّدَّةُ والشراسة والأذى.
(٧) الفحل: الذَّكر القويّ من الحيوان، والجمع فُحُولٌ، وفِحَالٌ.
(٨) تَظَلَّمَني: ظَلَمَنِي. (٩) الرَّيَّان: اسم جبَلٍ ببلاد بني عامرٍ.

فَقَالَ الوالي: «يا هذا عَقَقْتَ وعُقِقْتَ»[(١)].

وَقَالَ آخَرُ يُعاتِبُ وَلَدَهُ الَّذِي عَقَّهُ:

غَذَوْتُكَ[(٢)] مَوْلُوداً، وَمُنْتُكَ[(٣)] يافِعاً[(٤)] ... تُعَلُّ[(٥)] بما أَجْنِي عليك وتُنْهَلُ[(٦)]

إذا ليلةٌ نَالَتْكَ بالشَّكْوِ لَمْ أَبِتْ ... لِشَكْوَاكَ إلاَّ ساهِرًا أَتَمَلْمَلُ[(٧)]

كَأَنِّي أنَا المطروقُ دُونَكَ بالَّذِي ... طُرِقْتَ به دُوْنِي وعَيْنِي تَهْمُلُ[(٨)]

تَخَافُ الرَّدى نَفْسِي عليكَ، وَإِنَّهَا ... لَتَعْلَمُ أَنَّ الموتَ وَقْتٌ مُؤَجَّلُ

فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ والغَايةَ الَّتي ... إليها مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أُؤَمِّلُ

جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وفَظَاظَةً ... كَأَنَّكَ أَنْتَ المُنْعِمُ المُتَفَضِّلُ

فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي ... فَعَلْتَ كَمَا الجَارُ المُجَاوِرُ يَفْعَلُ

فَأَوْلَيْتَنِي حَقَّ الجِوارِ، ولم تَكُنْ ... عليَّ بِمَالي - دُونَ مَالِكَ - تَبْخَلُ

تَرَاهُ مُعَدًّا للخِلافِ كَأَنَّهُ ... بردٌّ على أَهْلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلُ[(٩)]

أخي الحبيبُ، اتَّقِ دعوةَ الوالدِ عليك؛ فإنها سهمٌ صائبٌ لا يُخطئ أبدًا.

---

(١) «عيون الأخبار» (٣/ ٨٦ - ٨٧).
(٢) غَذَوْتُكَ: رَبَّيْتُكَ.
(٣) مُنْتُكَ: حَمَلْتُ مَئُونَتَكَ، وَقُمْتُ بِكِفَايَتِكَ، وبَابُهُ قَالَ.
(٤) يَافِعًا: بالغًا كَبيرًا.
(٥) يُقَالُ: عَلَّهُ الشَّرابَ يَعُلُّهُ - بضمّ العين وكسرها -: أي سَقَاهُ عَلَلاً بَعْدَ نَهَلٍ، وَالعَلَلُ - بفتحتين -: الشُّرْبُ الثَّاني.
(٦) النَّهَلُ - بفتحتين -: الشُّرب الأوَّل، وبابه فرح.
(٧) يُقَالُ: تَمَلْمَلَ علَى فراشه: إذا اضطرب ولم يستقرّ من الوجع.
(٨) تَهْمُلُ: تفيضُ بالدَّمْعِ، وبَابه نَصَرَ.
(٩) هذه الأبيات تُنْسَبُ لابن عبد الأعلى، وقيل: لأبي العباس الأعمى، وقيل: لأمية بن أبي الصلت الثَّقفيِّ، انظر «كشف الخفاء» (١/ ٢٠٧ - ٢٠٨)، و«بر الوالدين» للإمام الطرطوسي (ص١٠٨ - ١٠٩).

عَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ -رضي الله عنه- قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «ثَلاثُ دَعَـوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ، لا شكَّ فيهنَّ: دَعْوَةُ الوالدِ على وَلَدِهِ، ودَعْوَةُ المسافرِ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ»[١].

■ شروط برِّ الوالدين:

لبرِّ الوالدين ثلاثةُ شُرُوطٍ[٢]:

الأوَّل - أَنْ يُؤْثِرَ الولد رِضَا والدَيْـهِ على رِضَا نَفْسِـهِ، وزوجتِـهِ[٣]، وأولادِه، والنَّاسِ أَجْمَعِين.

الثَّاني - أَنْ يُطِيعَهُمَا في كُلِّ مَا يأمُرَانه به، وينهيَانِه عنه، سَواءٌ أوَافَقَ رغباته أم لم يوافقها، مَا لم يأمراهُ بمعصيةِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى-، أو ما فيه ضررٌ عليه.

الثَّالث - أَنْ يُقَدِّمَ لهما كُلَّ ما يَلْحَظُ أنَّهما يرغبـانِ فيه مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْلُبَاهُ منه عن طيب نفسٍ وسرورٍ، معَ شُـعوره بتقـصيره في حقِّـهما، ولو بَذَلَ لَهُمَـا دَمَهُ ومالَهُ.

---

(١) رواه أبو داودَ (١٥٣٦)، والتِّرمـذيُّ (١٩٠٥)، وحسَّنه الألبـانيُّ في «صحـيح الجامع» (١/ ٣٠٣١)، و«الصَّحيحة» (٥٩٦).

(٢) «برّ الوالدين» للحنَّاويِّ (ص٢٥).

(٣) لا شكَّ أنَّ برَّ الوالدين مقـدَّمٌ على رِضَا الزَّوجة، فعن ابن عُـمَرَ -رضي الله عنه- قال: «كانتْ تَحْتِي امرأةٌ، وكنتُ أُحبُّها، وكان عُمَرُ يكرهُهَا، فقال لي: طَلِّقْهَا، فَأَبَيْتُ، فأتى عُمَرُ النَّبيَّ - صلى الله عليه وسلم -، فذكر ذلك له، فقال النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم -: «طَلِّقْهَا». رواه أبو داودَ - واللَّفظ له - (٥١٣٨)، والتِّـرمذيُّ (١١٨٩)، انظر «صـحيح التَّرغيب والترهيب». وعن مُـعَاذ بْنِ جَبَلٍ -رضي الله عنه- قال: أوصاني رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - بِعَشْرِ كلماتٍ، قال: «لا تُشركْ باللهِ شيئًا، وإنْ قُتِلْتَ، وحُرِّقْتَ، ولا تَعُقَّ والديك، وإنْ أمراك أنْ تخرج من أهْلِكَ ومالِكَ». «صحيح التَّرغيب والتَّـرهيب». وعن أبي الدَّرْدَاءِ -رضي الله عنه- قال: إنَّ رجلاً أتاه، فقال: إنَّ لي امرأةً، وإنَّ أمِّي تأمُرُني بطلاقِها، فقال أبو الدَّرْدَاءِ: سمعتُ رسولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - يقول: «الوالدُ أَوْسَطُ أبوابِ الجنَّةِ، فإنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذلك البابَ، أو احْفَظْهُ». رواه التِّرمذيُّ - واللَّفظ له - (١٩٠٠)، وابن ماجَهْ (٣٦٦٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٧١٤٥)، و«الصَّحيحة» (٩١٠).

■ الأسبابُ المعينةُ على برِّ الوالدين:

١ ـ تقوى الله - تعالى -، والاسْتعَانَةُ به على برِّهِمَا.

٢ ـ اسْتحضَارُ فَضْلِ الوَالِدَيْنِ الَّذِي لا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ.

٣ ـ استحْضَارُ فَضَائِلِ البرِّ، وعَوَاقِبِ العُقُوقِ.

٤ ـ قِرَاءَةُ سِيَرِ البارِّينَ بوالديهم.

٥ ـ أَنْ يَضَعَ الوَلَدُ نفسَهُ مَوْضِعَ والدَيْه.

■ صُوَرٌ مِنْ بِرِّ الوالدين:

■ لبرِّ الوالدين صوَرٌ كثيرةٌ، منها:

١ ـ كَثْرَةُ الدُّعَاءِ والاسْتِغْفَارُ لَهُمَا في الحياةِ، وبَعْدَ المَمَاتِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «إذا مَاتَ الإِنْسانُ انقطعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يَدْعُو له»[1].

وَعَنْ سلمانَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «أربعٌ مِنْ عَمَلِ الأحْيَاءِ تَجْرِي للأَمْوَاتِ: رَجُلٌ تَرَكَ عَقِبًا[2] صالحًا، يدعو له، ينفعهُ دعاؤُهُم..»[3].

٢ ـ البَشَاشَةُ عِنْدَ لِقَائِهِمَا، وتَقْبِيلُ أيديهما ورَأْسَيْهما.

٣ ـ قَضَاءُ شُئُونَهُمَا وديونهما.

٤ ـ إدْخَالُ السُّرورِ عليهما بما يَقْدرُ عليه المرءُ مِنَ الأَسْبَابِ، مثل: الهديَّةِ، والسَّفرِ بهما، والمُزَاحِ معهما، ونَحْوِ ذلك.

٥ ـ السَّهَرُ على رَاحَتِهِمَا خُصُوصًا عِنْدَ مَرَضِهِمَا.

٦ ـ تَطْيِيبُ سُمْعَتِهِمَا بالذِّكْرِ الجميلِ.

---

(١) رواه مسلمٌ (١٦٣١).
(٢) العَقِب: الولدُ غالبًا، وتلحقُ به الذُّرِّيَّةُ والوَرَثَةُ.
(٣) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير»، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٨٨٨).

٧ ـ إكْرامُ أصدقائهما وأحبابهما.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قَالَ: قالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ أبَرَّ البِرِّ أنْ يَصِلَ الرَّجلُ أهْلَ وُدِّ أبِيهِ بَعْدَ أنْ يُوَلِّيَ الأبُ»[1].

يقول النَّوويُّ - يرحمه اللهُ -:

«وفي هَذَا فَضْلُ صِلَةِ أصدقَاء الأَبِ، والإِحْسَانِ إليهم، وإكْرامِهِمْ، وهو مُتَضَمِّنٌ لبرِّ الأَبِ وإكْرَامه لكَوْنه بسَبَبِه، وتَلْحَقُ به أصدقاءُ الأُمِّ، والأجداد، والمشايخ، والزَّوْجِ، والزَّوْجَةِ»[2].

وَمِنْ إكْرَامِ الأَبِ إكْرَامُ العَمِّ؛ لقولِ رسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أبيه[3]»[4].

وَمِنَ البِرِّ بالأُمِّ الإحْسَانُ إلى الخَالَة؛ لقولِ رسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «الخَالَةُ بمنزلة الأُمِّ»[5]. وقوله: «الخالةُ والدةٌ»[6].

والبرُّ بالخالةِ لَهُ فَضْلٌ عظيمٌ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما-: **أنَّ رَجُلاً أذْنَبَ ذَنْبًا كبيراً، وتساءل إنْ كان له توبةٌ، فدلَّهُ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - على بابٍ من البرِّ يُكَفِّرُ عنه ما أذْنَبَ، فقال لَهُ: «ألك والدان؟». قَالَ: «لا». قالَ: «فَلَكَ خالةٌ؟». قالَ: «نَعَمْ». قَالَ رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «فَبِرَّها إذَنْ»**[7].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٥٥٢).

(٢) «بلوغ الأماني» (٤١/١٩).

(٣) صِنْوُ أبيه: هذا تشبيهٌ للأَخَوَيْنِ فأكثر من أبٍ واحد، وهم فروعه كالنَّخلتين فأكثر تفترقان من أصلٍ واحد، والصِّنْو: هو المِثْلُ، وتثنيتُهُ صِنْوَانِ، وَجَمْعُهُ صِنْوَانٌ، وأَصْنَاءٌ.

(٤) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير» عن ابن مسعود، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢١١٣).

(٥) رواه البخاريُّ (٢٦٩٩) و(٤٢٥١) عن البَرَاء.

(٦) رواه ابْنُ سَعْد عن محمَّد بْنِ عليٍّ مُرْسَلاً، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٣٤٠).

(٧) رواه التِّرمذيُّ (١٩٠٤)، انظر «صحيح سنن التِّرمذيِّ» (١٥٥٤).

٨ ـ المشيُ أَمَامَهُمَا ليلاً، وخَلْفَهُمَا نهاراً.

٩ ـ التَّصدُّقُ عنهما بَعْدَ مَمَاتِهِمَا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-: أَنَّ رَجُلاً قَالَ للنَّبِيِّ -ﷺ-: «إنَّ أبي مَاتَ، وتَرَكَ مالاً، ولم يُوْصِ، فَهَلْ يُكَفِّرُ عنه إنْ تُصُدِّقَ عَنْهُ؟». قال: «نَعَمْ»[1].

وَضِدُّ البِرِّ العُقُوقُ، وهُوَ مُحَرَّمٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجْمَاعِ، بَلْ مِنْ كبَائِرِ الذُّنُوبِ.

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: «ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأكبرِ الكَبائِرِ؟» ثلاثاً. قالوا: «بَلَى، يا رسولَ الله». قالَ: «الإشْرَاكُ باللهِ، وعُقُوقُ الوالِدَيْنِ»[2].

وَلَوْ لَمْ يُحرِّمِ اللهُ العُقُوقَ، لَكَانَ مِنْ نُبْلِ الأَخْلاقِ عَدَمُ عُقُوقِهِمَا، فَكِرَامُ النَّاسِ تتقدَّمُ مَنْزِلَةُ والديهم عَلَى النَّفْسِ، وَالأَهْلِ، وَالوَلَدِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

وَقَدْ تَجِدُ الرَّجُلَ يُحْسِنُ إلى أَصْحَابه، ولا يَمَلُّ الجُلُوسَ معهم، فَإذا جَلَسَ مَعَ أَبِيه أو أمِّه سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَجَدْتَهُ مُتَمَلْمِلاً، كَأَنَّمَا هُوَ عَلَى الجَمْرِ، فهذا لَيْسَ بِبَارٍّ، بَلِ البارُّ مَنْ يَنْشَرِحُ صَدْرُهُ لأُمِّه وأَبِيه، ويَخْدُمُهُمَا على أَهْدَابِ عَيْنَيْه، وَيَحْرِصُ غَايَةَ الحِرْصِ على رِضَاهُمَا بكُلِّ ما يستطيعُ»[3].

■ صُوَرٌ مِنْ عُقُوقِ الوالدين:

■ **للعُقُوقِ صُوَرٌ كَثِيرَةٌ، منها:**

١ ـ إبْكَاءُ الوالِدَيْنِ وَتَحْزِينُهُمَا بالقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ.

عن ابن عَمْرٍو -رضي الله عنه- قالَ: أتى رجلٌ رسولَ اللهِ -ﷺ- فقالَ: «يا رسولَ الله،

---

(١) رواه مسلمٌ (١٦٣٠).
(٢) رواه البخاريُّ (٢٦٥٤) و(٥٩٧٦) و(٦٢٧٣) و(٦٩١٩)، ومسلمٌ (٨٧).
(٣) «مكارم الأخلاق» لابن عُثَيمين (ص٤١).

إنِي جِئْتُ أُرِيدُ الجهادَ مَعَكَ؛ أبتغي وَجْهَ اللهِ، والدَّارَ الآخِرَةَ، وَلَقَدْ أَتَيْتُ، وَإِنَّ وَالِدَيَّ يَبْكِيَانِ». قَالَ: «فَارْجِعْ إليهما، فَأَضْحِكْهُمَا كما أَبْكَيْتَهُمَا»[(١)].

٢ ـ التَّضَجُّرُ مِنْ مطالبِهِمَا، والتَّأَفُّفُ منْهما، وَنَهْرُهُمَا، وَرَفْعُ الصَّوْتِ عليهما، والعُبُوسُ عِنْدَ لِقَائِهِمَا، وَالنَّظَرُ إليهما شَزْرًا[(٢)].

يقولُ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ[(٣)] وَلَا تَنْهَرْهُمَا[(٤)] وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ[(٥)] وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (سورة الإسراء: ٢٣ - ٢٤).

٣ ـ شَتْمُهُمَا، بَلْ إِنَّ التَّسَبُّبَ إلى شَتْمِهِمَا مِنَ الكَبَائِرِ، فَكَيْفَ بِشَتْمِهِمَا مُبَاشَرَةً؟!.

عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «مِنَ الكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ». قالوا: «يا رسولَ اللهِ، وَهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟!». قال: «نَعَمْ، يَسُبُّ أبا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ»[(٦)].

٤ ـ انْتِقَادُ مَا تُعِدُّهُ الوَالِدَةُ مِنَ الطَّعَامِ، بَلْ إِنَّ الطَّعَامَ لا يُعَابُ مُطْلَقًا، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ مِنْ إِعْدَادِ يَدِ الوَالِدَةِ؟!.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: «مـا رَأَيْتُ رسولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - عـاب طعامًا قَطُّ، كـان إذا اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وإنْ لَمْ يَشْتَهِهِ سَكَتَ»[(٧)].

---

(١) رواه أبو داودَ (٢٥٢٨)، وابْنُ مَاجَةَ ـ واللَّفظ له ـ (٢٧٨٢)، والنَّسَائِيُّ (٨٦٩٦) و(٨٦٩٧)، وإسناده حسن.
(٢) نَظَرَ إِلَيْهِ شَزْرًا: هُوَ نَظَرُ الغَضْبَانِ بِمُؤْخِرِ عَيْنِه.
(٣) أُفٍّ: كلمة تضجُّر وكراهة، وهي اسم فعل مضارع.
(٤) لا تنهرْهُما: لا تَزْجُرْهُما عمَّا يتعاطيانه ممَّا لا يُعْجِبُكَ.
(٥) اخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ: تواضعْ رحمةً لهما، وَشَفَقَةً عليهما.
(٦) رواه البخاريُّ (٥٩٧٣)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (٩٠).
(٧) رواه البخاريُّ (٣٥٦٣) و(٥٤٠٩)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (٢٠٦٤).

٥ - إصْدَارُ الأَوَامِرِ عَلَيْهِمَا.

٦ - تَشْوِيهُ سُمْعَتِهِمَا أَمَامَ النَّاسِ بِذِكْرِ مَعَايِبِهِمَا، والمآخذ عليهما.

٧ - عَدَمُ الإِسْرَاعِ في قَضَاءِ شُؤُونِهما مِمَّا يُسَبِّبُ عِنْدَهُمَا الضِّيقَ.

٨ - تَرْكُ الإِصْغَاءِ لِحَدِيثِهِمَا.

٩ - الْبُخْلُ عَلَيْهِمَا، وَتِعْدَادُ الأيادي.

١٠ - البَقَاءُ خَارِجَ المَنْزِلِ لِمدَّةٍ طَوِيلَةٍ مَعَ حَاجَةِ الوَالِدَيْنِ إلى الوَلَدِ، وعَدَمِ إِذْنِهِمَا لَهُ.

١١ - إِيدَاعُهُمَا دُورَ الْعَجَزَةِ والمُسِنِّينَ.

١٢ - تَمَنِّي زَوَالِهِمَا.

١٣ - تَقْدِيمُ طاعة الزَّوْجَة عليهما.

١٤ - الشِّجَارُ أَمَامَهُمَا، إِمَّا مَعَ الأُخْوَة، أَوْ مَعَ الزَّوْجَة.

١٥ - كَثْرَةُ الشَّكْوَى والأَنِينِ أَمَامَهُمَا.

وَأَخِيراً قَالَ ابْنُ عَبْدِ القَوِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ -:

ويحسُنُ تَحسينٌ لخُلْقٍ وَصُحْبَةٍ	وَلاسِيَّمَا لِلْوَالِدِ المُتَأَكَّدِ
وَلَوْ كَانَ ذَا كُفْرٍ، وَأَوْجِبْ طَوْعَهُ	سِوَى في حَرَامٍ، أَوْ لأَمْرٍ مُؤَكَّدِ
كَتِطْلابِ عِلْمٍ لا يَضُرُّهُمَا بِهِ	وَتَطْلِيقِ زَوْجَاتٍ بِرَأْيِ مُجَرَّدِ
وَأَحْسِنْ إِلَى أَصْحَابِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ	وَنَفِّذْ وَصَايَا مِنْهُ في حُسْنِ مَعْهَدِ
وَأَكْرِمْهُ باسْتِغْفَارِكَ إِنْ كُنْتَ بَارّاً	فَهَذَا بَقَايا بِرِّهِ المُتَعَوَّدِ[1]



(١) «الألْفِيَّة في الآداب الشَّرْعِيَّة» (ص٣٥).

صِلَةُ الرَّحِمِ

الصِّلَةُ - بكسر الصَّادِ المُهْمَلَةِ -: مصدر وَصَلَهُ كوَعَدَهُ عِدَةً.

والرَّحِمُ: هُمُ القَرَابَةُ مِنْ ذَوِي النَّسَبِ والأَصْهَارِ.

وَصِلَةُ الرَّحِمِ كِنَايَةٌ عَنِ الإِحْسانِ إلى الأَقَارِبِ، والتَّعَطُّفِ عليهم، والرِّفْقِ بِهِمْ، والرِّعَايةِ لأَحْوَالِهِمْ، وإِنْ تَعَدُّوا وأَسَاءوا.

وَصِلَةُ الرَّحِمِ مِنَ الحُقُوقِ الَّتِي دَعَتْ إليها الفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ، وقرَّرَتْها الشَّرِيعَةُ السَّمْحَةُ.

فَلِلقريبِ الَّذِي يتَّصلُ بِكَ في القَرابةِ حَقُّ هذِهِ القَرَابة بحسبِ قُرْبِهِ.

قَالَ اللهُ - تعالى -: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ (سورة الإسراء:٢٦). وَقَالَ: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (سورة النِّساء:٣٦).

وَلَقَدْ حَثَّ الرَّسولُ - ﷺ - عَلَى تَوْثِيقِ الصِّلاتِ بَيْنَ الأَقَارِبِ.

فَعَنِ ابْنِ مسعودٍ - رضي الله عنه - أنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - قَالَ: «اتَّقُوا اللهَ، وصِلُوا أَرْحَامَكُمْ»[1].

عَلَيْكَ بِبِرِّ الوالِدَيْنِ كِلَيْهِمَا ... وَبِرِّ ذَوِي القُرْبَى، وَبِرِّ الأَبَاعِدِ
ولا تَصْحَبَنْ إلاَّ تَقِيّاً مُهَذَّبًا ... عَفِيفًا، ذَكِيّاً، مُنْجِزًا لِلمَوَاعِدِ[2]

(١) رواه ابن عساكر، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٠٨)، و«الصَّحيحة» (٨٦٩).
(٢) «جواهر الأدب» (ص٦٦١).

والإِحْسَـانُ إِلَى الأقَـارِبِ يكونُ إمَّا بِبَـذْلِ الجاه، أَوِ النَّفعِ البَـدَنِيِّ، أَوِ النَّفْعِ الماليِّ بحَسْبِ ما تَتَطَلَّبُهُ قُوَّةُ القَرَابَةِ والحَـاجَةِ، فَإِنْ لَمْ يَتَيَسَّرْ هَذا ولا ذاكَ، فليكُنْ بخُلُقٍ حَسَنٍ: مِنْ كَلِمَةٍ طَيِّبةٍ، وَبَسْطِ الوَجْهِ، والطَّلاقَةِ، وَلِينِ الجَانبِ، وَخَفْضِ الجَنَاحِ، ونَحْوِ ذَلكَ مِمَّا يَجْلِبُ التَّحَابَّ بَيْنَ الأَقَارِبِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «بُلُّوا[1] أَرْحَامَكُمْ، وَلَوْ بِالسَّلامِ»[2].

وحَقُّ القَرابةِ قَدْ ضُـيِّعَ في هذا الزَّمَانِ مِنْ قِبَلِ كَثـيرٍ مِنَ النَّاسِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ ربُّكَ، فَـتَجِدَ الـوَاحِدَ مِنْهُم لا يَصِلُ قَـرَابَتَهُ لا بالجَـاه، ولا بِالمَالِ، ولا بالخُلُقِ، تمضِي الأَيَّامُ والشُّهـورُ والسِّنُونَ ما رَآهُمْ، ولا زَارَهُمْ، ولا تَحَبَّبَ بِهَـدِيَّةٍ إِلَيْهِم، ولا جَلَبَ لَهُمْ مَنْفَعَـةً، أو دَفَعَ عَنْهُم مَضَرَّةً، بَلْ رُبَّمَا - إلى جَـانبِ ذَلكَ - أَسَاءَ إليهم بالقَوْلِ، أو بِالْفِعْلِ، أو بهما معًا، يصلُ البعيدَ، ويَقْطَعُ القَريبَ!.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُـعَـامِلُ قَـرَابَتَـهُ بالمِثْلِ، إنْ وَصَلُوهُ وَصَـلَهُمْ، وَإِنْ قَطَعُـوهُ قَطَعَـهُمْ، وَهَذَا لَيْسَ بِوَاصِلٍ في الحـقيـقَـةِ، بَلْ هو مُكَافِئٌ للْمَـعْرُوفِ بِمِـثْلِه، والمُكَافَأَةُ على المعروفِ يَشْتَـرِكُ فيها القَرِيبُ وغَيْرُهُ، والوَاصِلُ - حَـقِيقَةً - هُوَ مَنْ يَصِلُ قَرَابَتَهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، ولا يُبَالِي سَوَاءً وصَلُوهُ أَمْ لا.

عَنِ ابْنِ عَمْـرٍو -رضي الله عنه- عَنِ النَّبيِّ -ﷺ- قَالَ: «لَيْسَ الواصلُ بالمُكَافِئِ، ولكِنَّ الوَاصِلُ الذي إذا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»[3].

(١) بلوا أرْحَامكم: نَدُّوها بصلَتِها، وهم يُطْلِقُونَ النَّدَاوَةَ على الصِّلَةِ، كَما يُطْلِقُونَ العبسَ على القَطِيعة.
(٢) «السِّلسلة الصحيحة» (١٧٧٧)، مِنْ حديثِ سويدِ بْنِ عامرٍ.
(٣) رواه البخاريُّ (٥٩٩١).

ولَقَدْ حـثَّنَا الرَّسُولُ -ﷺ- عَلَى أَدَاءِ حَقِّ الرَّحِمِ، وَإِنْ عَامَلُونَا بِالجَـفْوَةِ، والغِلْظَةِ، والشَّرِّ في حينِ أنَّهُ يُطَمْئِنُنَا على مُسْتَقْبَلِنَا، وَيزيحُ عَنْ قُلُوبِنَا اليَأْسَ.

عَنْ أبي هُرَيرةَ -رضي الله عنه- أنَّ رَجُـلاً قَـالَ: «يا رسـولَ الله، إنَّ لي قـرابةً أَصِلُهُمْ ويقطعـونني، وأُحْسِنُ إليـهم ويُسيئـونَ إليَّ، وأَحْلُمُ عنهم ويَجْهَلُونَ عليَّ». فقـال: «لَئِنْ كُنْتَ كما قلتَ، فكأنَّما تُسِفُّهُمُ[1] المَلَّ[2]، ولا يزالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهيرٌ[3] عليهم، ما دُمْتَ على ذلك»[4].

قال محمدُ بنُ عبد الله الأَزْديُّ:

وحَـسْبُكَ مِنْ ذُلٍّ، وسُـوءِ صنيـعـةٍ ▪ مُنَاوَاةُ[5] ذي القُرْبَى، وإنْ قِيلَ قاطعُ
ولـكـنْ أُواسِـيـهِ، وأَنسى ذُنُوبَهُ ▪ لـتُـرْجِـعَـهُ يومًـا إليَّ الـرَّواجِـعُ
ولا يَسْتَوِي في الحُكْمِ عَبْدَانِ: واصِلٌ ▪ وعَـبْـدٌ لأرحـامِ القـرابةِ قـاطعُ[6]



(١) تُسِفُّهُم - منَ السَّفُوف -: تُطْعِمُهُم وتُلْقِمُهُم.
(٢) المَلُّ: قالَ الأَزْهَرِيُّ: أَصْلُ المَلَّة: التُّرْبَةُ المُحْمَاةُ تُدْفَنُ فيها الخُبْزَةُ.
وقال القُتَبيُّ: المَلُّ: الجَمْرُ، ويُقَال للرَّمادِ الحـارِّ ـ أيضًا ـ المَلُّ، والمَلَّةُ: مَوْضِعُ الخُبْـزَة. يقول: إذا لم يشكروكَ، فَإِنَّ عطاءَكَ إيَّاهُم حَرَامٌ عليهم، ونارٌ في بُطُونِهِم. ففيه تشبيهٌ لما يَلْحَقُهُمْ منَ الإثمِ بما يَلْحَقُ آكلَ الرَّمَادِ الحارِّ منَ الألَمِ.
(٣) الظَّهيرُ: المُعينُ والنَّاصِرُ.
(٤) رواه مسلمٌ (٢٥٥٨).
(٥) مُنَاواة: مُعَاداة.
(٦) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٥٣).

■ فَضائِلُ صِلَةِ الرَّحِمِ:

لِصِلَةِ الرَّحِمِ فَضَائِلُ جَمَّةٌ، منها:

١ ـ أنَّها شِعارُ الإيمانِ باللهِ، واليَوْمِ الآخِرِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ، والْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[1].

٢ ـ أنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَصِلُ الْوَاصِلَ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، فيمدُّهُ بالرَّحْمَةِ، ويُيَسِّرُ له الأُمُورَ، ويُفَرِّجُ عَنْهُ الكُرُبَاتِ:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ -رضي الله عنه- قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: «قَالَ اللهُ - تعالى -: أنا الرَّحمنُ، وهي الرَّحِمُ، شَقَقْتُ لها اسْمًا مِنِ اسمي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ[2]»[3].

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ، حتَّى إذا فَرَغَ منهم[4]، قَامَتِ الرَّحِمُ، فقالتْ: هذا مَقَامُ العائذِ[5] بكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قال: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟، قالتْ: بلى، قال: فذلك لَكِ».

---

(١) رواه البخاريُّ (٦١٣٨).

(٢) بَتَتُّهُ: قَطَعْتُهُ.

(٣) رواه أبو داودَ (١٦٩٤)، والتِّرمذيُّ (١٩٠٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٤٣١٤)، و«الصَّحيحة» (٥٢٠).

(٤) فَرَغَ منهم: كمل خَلْقهم.

(٥) العائذ والمستعيذ: هو المعتصمُ بالشَّيْءِ، الملتجئُ إليه.

ثُمَّ قال رسول الله - ﷺ -: «اقْرَءُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ (سورة محمَّد: ٢٢، ٢٣)»[1].

٣ ـ أنَّها أَحَبُّ الأَعْمَالِ إلى اللهِ - تعالى - بَعْدَ الإيمانِ بِهِ:

عَنْ رَجُلٍ مِنْ خَثْعَمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - قَالَ: «أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ إيمانٌ باللهِ، ثُمَّ صِلَةُ الرَّحِمِ»[2].

٤ ـ أنَّها مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ دُخُولِ الجَنَّةِ:

عَنْ أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ - رضي الله عنه - قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ - ﷺ -، فَقَالَ: «دُلَّني على عَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْنيني مِنَ الجنَّةِ، ويُبَاعِدُني مِنَ النَّارِ». قال: «تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شيئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتي الزَّكَاةَ، وتَصِلُ ذا رَحِمِكَ». فلمَّا أَدْبَرَ[3]، قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: «إنْ تَمَسَّكَ بما أُمِرَ بِهِ دَخَلَ الجنَّةَ»[4].

٥ ـ أنَّها من أسباب البركة في الرِّزق والعمر:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك - رضي الله عنه - أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِهِ[5]، ويُنْسَأَ لَهُ في أَثَرِهِ[6]، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[7].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٣٠) و(٥٩٨٧) و(٥٧٠٢)، ومسلمٌ (٢٥٥٤).
(٢) رواه أبو يَعْلَى في «مسنده»، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٦٦).
(٣) أَدْبَرَ: ولَّى وذهب.
(٤) رواه البخاريُّ (١٣٩٦) و(٥٩٨٣)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ لَهُ ـ (١٣)..
(٥) يُبْسَطُ لَهُ في رِزْقِهِ: يُوَسَّع لَهُ فيه.
(٦) يُنْسَأَ لَهُ في أثرِهِ: يُؤَخَّر له في أجله وعُمْرِه.
(٧) رواه البخاريُّ (٢٠٦٧) و(٥٩٨٦)، ومسلمٌ (٢٥٥٧).

٦ ـ أنَّها تُعَمِّرُ الدِّيارَ:

عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «صِلَةُ الرَّحِمِ، وحُسْنُ الخُلُقِ، وحُسْنُ الجِوارِ. يُعَمِّرْنَ الدِّيارَ، ويَزِدْنَ في الأعْمَارِ»[1].

٧ ـ أنَّها تَجْلِبُ مَحَبَّةَ اللهِ - تعالى - للمتواصِلِينَ فيه:

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ - رضي الله عنه - أنَّ رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «حُقَّتْ[2] مَحَبَّتِي للمتواصِلِينَ فيَّ»[3].

٨ ـ أنَّ الصَّدَقَةَ على ذي الرَّحِمِ أعْظَمُ أجْرًا مِنَ الصَّدَقَةِ على المسكين:

عَنْ سلمانَ بْنِ عَامِرٍ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «إنَّ الصَّدَقَةَ على المسكينِ صَدَقَةٌ، وعلى ذي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ»[4].

وعَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللهِ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «أَيُجْزِئُ[5] عنِّي مِنَ الصَّدَقَةِ النَّفَقَةُ على زوْجِي، وأَيْتَامٍ في حَجْرِي؟». فقالَ رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «نَعَمْ، وَلَهَا أجْرَانِ: أَجْرُ القَرَابَةِ، وأَجْرُ الصَّدَقةِ»[6].

---

(١) تقدَّم تخريجُه.

(٢) حُقَّتْ: وَجَبَتْ.

(٣) رواه أحمدُ في «المسند» (٥/ ٢٢٩)، والحاكم في «المستدرك»، والطَّبَرانيُّ في «الكبير»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٤٣٢١).

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٦٥٨)، والنَّسائيُّ (٢٥٨٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٣٨٥٨).

(٥) أَيُجْزِئُ: أَيَكْفِي.

(٦) رواه البخاريُّ (١٤٦٦)، ومسلمٌ (١٠٠٠).

وَعنْ أُمِّ المؤمنينَ مَيْمُونَةَ بنتِ الحـارثِ -رضي الله عنها- أنَّها أَعْتَقَتْ وَلِيْدَةً[١] في زمانِ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم-، فَـذَكَرَتْ ذلكَ لِرَسُولِ الله -صلى الله عليه وسلم-، فَـقَالَ: «لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالَكِ، كان أَعْظَمَ لأَجْرِكِ»[٢].

٩ ـ أنَّها سببٌ لشيوعِ المحبَّةِ والتَّرَابُطِ بَيْنَ الأَقَارِبِ:

عَنْ عَمْرِو بْنِ سَهْلٍ -رضي الله عنه- أنَّ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قالَ: «صِلَةُ القَرَابةِ مَثْرَاةٌ في المالِ، مَحَبَّةٌ في الأهْلِ، مَنْسَأَةٌ في الأَجَلِ»[٣].

١٠ ـ أنَّها أَعْجَلُ الطَّاعَةِ ثَوَابًا:

عَنْ أبي بَكْرَةَ -رضي الله عنه- أنَّ رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «وإنَّ أَعْجَلَ الطَّاعةِ ثوابًا لَصِلَةُ الرَّحِمِ، حَتَّى إنَّ أَهْلَ البيتِ لَيَكُونُوا فَجَرَةً، فَتَنْمُو أموالُهُمْ، ويَكْثُرُ عَدَدُهُمْ، إذا تواصَلُوا»[٤].

وَضِدُّ الصِّلَةِ القَطِيعَةُ، وهي مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ -رضي الله عنه- أنَّ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «لا يَدْخُلُ الجنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»[٥].

وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ مِنْ أَعْجَلِ المعْصِيَةِ عُقُوبَةً.

---

(١) الوليدةُ: الأَمَةُ.

(٢) رواه البخاريُّ (٢٥٩٢) و(٢٥٩٤)، ومسلمٌ (٩٩٩).

(٣) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الأوسط»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٣٧٦٨).

(٤) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٧٠٥)، و«الصحَّيحة» (٩١٥) و(٩٧٨).

(٥) رواه البخاريُّ (٥٩٨٤)، ومسلمٌ (٢٥٥٦).

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «ما مِنْ ذنبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ -تعالى- لصاحبِهِ العُقُوبَةَ في الدُّنيا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ في الآخرَةِ، مِثْلُ البَغْيِ، وقَطيعةِ الرَّحِمِ»[(١)].

■ أسبابُ قطيعةِ الرَّحِمِ:

الأسبابُ كثيرةٌ جداً، ولعلَّ من أبرزها ما يلي:

١ ـ الجهلُ بحقوقِ الأقَارِبِ.

٢ ـ ضَعْفُ التَّقْوَى.

٣ ـ الْكِبْرُ.

٤ ـ الانْقطَاعُ الطَّويلُ الَّذي يسبِّبُ الوحشةَ والنِّسيانَ.

٥ ـ التَّكلُّفُ الزَّائدُ مِنْ قِبَلِ الموصولِ، ممَّا يجعَلُ الوَاصِلَ لا يَحْرِصُ على زيارَتِهِ؛ لِئَلاَّ يقعَ في الحَرَجِ.

٦ ـ اللاَّمُبَالاةُ، وَعَدَمُ الاكتراث والاهتمام بالزَّائرينَ من الأقاربِ.

٧ ـ العِتَابُ الشَّديدُ من بعضِ الأقارِبِ، ممَّا يُسَبِّب النُّفْرَةَ منه.

٨ ـ الشُّحُّ والبُخْل مِمَّنْ آتاه اللهُ بسطةً في الرِّزقِ، فتراه لا يُوَاصِلُ قَرَابَتَهُ؛ لئلاَّ يخسرَ عليهم من مالِهِ: كاستدانتهم منه، وغَيْرِ ذلكَ.

٩ ـ نسيانُ بعض الأقاربِ في الولائمِ، الأَمْرُ الَّذي يُسَبِّبُ سُوءَ الظَّنِّ فيما بَيْنَهُمْ.

---

(١) رواه أبو داودَ (٤٩٠٢)، والتِّرمذيُّ (٢٥١١)، وابن ماجَةَ (٤٢١١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٧٠٤)، و«الصَّحيحة» (٩١٨).

١٠ ـ الوِشَايَةُ والإِصْغَاءُ إليها.

١١ ـ المُزَاح الخارجُ عَنْ حَدِّ الاعْتِدَالِ.

٢ ـ المَنُّ وتَعْدَادُ الأيادي، والمطالبةُ بالمِثْلِ.

١٣ ـ الطَّلاقُ بَيْنَ الأقَارِبِ.

١٤ ـ تأجيلُ قِسْمَةِ الميراثِ بَيْنَ الأقَارِبِ.

فعلى الأقَارِبِ أَنْ يُحَاوِلُوا اجتنابَ هَذِهِ الأَسْبَابِ المُؤَدِّيَةِ للقطيعةِ، ما اسْتَطَاعُوا إلى ذَلكَ سَبِيلاً.

وَكُنْ وَاصِلَ الأَرْحَامِ حَتَّى الكَاشحِ ... تُوَفَّرُ في عُمْرٍ وَرِزْقٍ وَتَسْعَدِ

ولا تَقْطَعِ الأَرْحَامِ، إنَّ قَطِيعَةً ... لِذِي رَحِمٍ كُبْرَى مِنَ اللهِ تُبْعَدِ

فَلا تَغْشَ قَوْمًا رَحمَةُ اللهِ فيهمُ ... ثَوَى[1] قَاطعٌ، قَدْ جَاءَ ذَا بِتَوَعُّدِ[2]

(١) ثَوَى: أقَامَ.

(٢) «الألْفيَّة في الآداب الشَّرْعيّة» (ص٣٥).

حُسْنُ الجِوَارِ

لِلْجَارِ على جارِهِ حقٌّ عَظِيمٌ، وهَذَا الحقُّ يَتَفَاوتُ مِنْ جَارٍ لآخرَ بِحَسْبِ مَنْزِلَةِ الجَارِ.

▪ أقسامُ الجيرانِ:

الجيرانُ ثلاثةٌ:

الأوَّل - جارٌ له ثلاثةُ حُقُوقٍ: وهو الجارُ المسلمُ القَرِيبُ مِنْكَ نَسَبًا، له حقُّ الجِوَارِ، وحقُّ الإسلامِ، وَحَقُّ القَرَابَةِ.

الثَّاني - جارٌ له حقَّانِ: وهو الجارُ المسلمُ غَيْرَ القريبِ مِنْكَ في النَّسَبِ، له حقُّ الجِوَارِ، وحقُّ الإسلامِ.

الثَّالث - جارٌ له حقٌّ واحدٌ: وهُوَ الجارُ الكافرُ، له حقُّ الجِوَارِ.

أَكْرِمِ الجارَ، ورَاعِ حَقَّهُ ... إنَّ عِرْفَانَ[1] الفَتَى الحَقَّ كَرَمْ[2]

▪ عَظَمَةُ مَنْزِلَةِ الجَارِ:

لِلْجَارِ مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمَكَانَةٌ عَلِيَّةٌ، يَدُلُّ على ذَلكَ كَثْرَةُ النُّصُوصِ الوَارِدَةِ في الحَثِّ على الإِحْسَانِ إليه، والتَّرغيبِ في ذلك، ولْنَقْتَطِفْ مِنْ تِلْكَ النُّصُوصِ ما يلي:

(١) عِرْفَان: مَعْرِفَة.
(٢) «جواهر الأدب» (ص٦٦٠).

١ ـ قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ[١] وَالْجَارِ الْجُنُبِ[٢] ﴾ (سورة النساء: ٣٦).

٢ ـ وعن ابْنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ -رضي الله عنهما- قَالا: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجارِ، حتَّى ظَنَنْتُ أنَّه سَيُوَرِّثُه[٣]»[٤].

وعَن ابنِ عَمْرو -رضي الله عنه- أنَّه ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ في أهله، فلمَّا جاء قال: أَهْدَيْتُمْ لجارنا اليهوديّ؟، أَهْدَيْتُمْ لجارنا اليهوديّ؟، سمعتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: «ما زالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سيُوَرِّثُه»[٥].

٣ ـ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ، واليومِ الآخرِ، فلا يُؤْذِ جَارَهُ»[٦].

وفي روايةٍ لمسلمٍ: «فَلْيُحْسِنْ إلى جَارِهِ».

٤ ـ وَعَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ!». قيل: «مَنْ يا رسولَ اللهِ؟!». قال: «الذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوَائِقَهُ[٧]»[٨].

وفي رِوَايَةٍ: «لا يَدْخُلُ الجنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[٩].

---

(١) الجار ذي القُرْبَى: الذي بَيْنَك وبَيْنَهُ قَرَابةٌ.
(٢) الجار الجُنُب: الذي ليس بَيْنَك وبَيْنَهُ قَرَابةٌ.
(٣) أي ظَنَنْتُ أنَّهُ سيبلغني عنِ اللهِ الأَمْرُ بتوريثِ الجارِ جارَهُ. وفي هذا توكيدٌ عظيمٌ على الحثِّ على رعاية حقوقه.
(٤) رواه البخاريُّ (٦٠١٤) و(٦٠١٥)، ومسلمٌ (٢٦٢٤) و(٢٦٢٥).
(٥) رواه التِّرمذيُّ (١٩٤٣)، وقال: حَسَنٌ غريبٌ.
(٦) رواه البخاريُّ (٥١٨٥) و(٦٠١٨) و(٦١٣٦) و(٦٤٧٥)، ومسلمٌ (٤٧).
(٧) البَوَائِقُ: الغَوَائل والشُّرور، والمفرد بائقةٌ.
(٨) رواه البخاريُّ (٦٠١٦).
(٩) رواه مسلمٌ (٤٦).

٥ ـ وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «يَا نِسَاءَ المسلماتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لجارَتِهَا، ولَوْ فِرْسِنَ[1] شاةٍ»[2].

فعليكَ ـ أخي الكريم ـ بالإحْسَانِ إلى جَارِكَ بتَقْديمِ الهَدَايَا ـ ولَوْ كَانَتْ رمزيَّةً ـ لَهُ في المُنَاسَبَات؛ فَإِنَّ الهَدِيَّةَ تَجْلِبُ المودَّةَ، وتُزِيلُ الْعَدَاوةَ، وأَحَقُّ الجيرانِ بِهَا أَقْرَبُهُمْ منْكَ بَابًا.

عَنْ عَائشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: قُلْتُ: «يا رسولَ اللهِ، إنَّ لي جارَيْنِ، فإلى أيِّهِما أُهْدِي؟». قَالَ: «إلى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بابًا»[3].

٦ ـ وعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - قَالَ: «لا يمنعْ جارٌ جارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً في جدارِهِ». ثُمَّ يقولُ أبو هريرةَ: «ما لي أراكُمْ عنها مُعْرِضِينَ؟![4]، واللهِ، لأَرْمِيَنَّ بِهَا بَيْنَ أَكْتَافِكُمْ[5]»[6].

وفي رُوَايَةٍ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ - ﷺ - أَنْ يمنعَ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ في دَارِهِ»[7].

٧ ـ وعَنْ أَبِي ذرٍّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «يا أبا ذرٍّ، إذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً[8]، فَأَكْثِرْ ماءَها، وتَعَاهَدْ جيرانَكَ».

---

(١) فِرْسِنُ الشَّاةِ: ظِلْفُهَا. قال الجوهريُّ: الفِرْسِنُ مِنَ البَعيرِ كالحَافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ. قال: ورُبَّمـا استُعِيْرَ في الشَّاة.
(٢) رواه البخاريُّ (٢٥٦٦) و (٦٠١٧) ومسلمٌ (١٠٣٠).
(٣) رواه البخاريُّ (٢٢٥٩) و(٢٥٩٥) و(٦٠٢٠).
(٤) يعني عن هذه السُّنَّة.
(٥) أي: بينكم. وفيه وجوب تمكين الجار من وضع الخَشَب على جدار جارِه، وهو مَذْهَبُ أحمدَ وغيرِه.
(٦) رواه البخاريُّ (٢٤٦٣)، ومسلمٌ (١٦٠٩).
(٧) رواه البخاريُّ (٥٦٢٧).
(٨) أي ذا مَرَقٍ من لحم دجاجٍ، وغنمٍ، ونَحْوِ ذلك.

وفي رُوَايَةٍ: أنَّ أبَا ذَرٍّ قـال: إنَّ خليلي - ﷺ - أوصـاني: «إذا طبـخْتَ مَـرَقًـا، فأكثرْ ماءَهُ، ثُمَّ انظُرْ أهْلَ بَيْتٍ مِنْ جيرَتِك، فَأَصِبْهُمْ منها بمعروفٍ» [(١)].

٨ ـ وَعَنِ ابْنِ عَـمْـرٍو - رضي الله عنه - قَـالَ: قَـالَ رسـولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «خـيـرُ الأصحاب عندَ اللهِ خيرُهُمْ لصاحبِه، وخيرُ الجيرانِ عندَ اللهِ خيرُهُمْ لجارِهِ» [(٢)].

٩ ـ وعنِ المقـدادِ بْنِ الأسْـــوَدِ - رضي الله عنه - قَـالَ: قَـالَ رسـولُ الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه: «ما تقولون في الزِّنا؟». قالوا: «حرامٌ حرَّمه اللهُ ورسولُهُ، فهو حَرَامٌ إلى يوم القيامة». فقالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «لأنْ يَزْنيَ الرَّجلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عليه مِنْ أنْ يَزْنيَ بامْرَأَةِ جَارِهِ». قال: «ما تقولون في السَّرِقَةِ؟». قالوا: «حرَّمها اللهُ ورسولُهُ، فهي حَرَامٌ». قال: «لأنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرةِ أبياتٍ أَيْسَرُ عليه مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ بيتِ جارِهِ» [(٣)].

١٠ ـ وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قيلَ: «يا رسولَ اللهِ، إنَّ فلانةَ تُصَلِّي اللَّيلَ، وتَصُومُ النَّهارَ، وفي لسانِهَا شَيْءٌ، تُؤْذِي جيرَانَهَا، سَلِيطَةٌ». قَالَ: «لا خيرَ فيها، هي في النَّار». وقيل له: «إنَّ فُلانةَ تُصَلِّي المكتوبةَ، وتصومُ رَمَضَانَ، وتتصدَّقُ بالأثوارِ [(٤)]، وليس بها شَيْءٌ غيرُهُ، ولا تُؤْذي أحداً». قال: «هي في الجنَّةِ» [(٥)].

ولَفْظُ الإِمَامُ أَحْمَدَ: «ولا تُؤْذِي بِلِسَانِهَا جيرَانَهَا».

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٦٢٥).

(٢) رواه الترمذيُّ (١٩٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٢٧٠)، و«الصَّحيحة» (١٠٣).

(٣) رواه أحمدُ في «المسند»، والبخاريُّ في «الأدب المفرد»، والطَّبرانيُّ في «الكبير»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٠٤٣)، و«الصَّحيحة» (٦٥).

(٤) الأثوار: هو اللَّبن الجامد المستحجر.

(٥) رواه أحمد (٢/ ٤٤٠)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (١١٩)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ١٦٦)، ووافقه الذَّهبيُّ.

والنُّصُوصُ الَّتِي جَاءَتْ بِالْوَصِيَّةِ بِالجَارِ، وَمُرَاعَاةِ حَقِّهِ أَكْثَرُ مِنْ ذلكَ، ولَكِنْ يكفي مِنَ القِلادَةِ مَا أَحَاطَ بالعُنُقِ.

فَمَا أَحَدٌ مِنَّا بِمُهْدٍ لِجَارِهِ ▫▪▫ أذاةً، ولا مُزْرٍ بِهِ وَهُوَ عَائِدُ
لأنَّا نَرَى حَقَّ الجِوَارِ أَمَانَةً ▫▪▫ ويحفظُهُ مِنَّا الكَرِيمُ المعاهدُ[(١)]

وَمِنَ اللَّطَائِفِ هُنَا أنَّ امْرأً كَانَ له منزلٌ أمام أبي دُلَفَ بالزَّوْرَاءِ[(٢)]، فركبه مئُونَ مِنَ الدُّيونِ حتَّى تَضَاءَلَ، واحتاجَ إلى بَيْعِ دَارِهِ، فَسَاوَمَهَا بألفِ دينارٍ، فقيلَ له: إنَّ دارَكَ لا تُساوي أكثرَ مِنْ خَمْسِمائَةِ دينارٍ، فقالَ: أَجَلْ، ولكنِّي أَبيعُهَا بِخَمْسمائَةٍ، وأَبيعُ جِوارَهَا بِخَمْسمائةٍ أُخْرَى، فَبَلَغَ القَوْلُ أبا دُلَفَ، فَقَضَى دَيْنَهُ ووصلَهُ.

ولله درُّ القائل:

يَلُومُونَنِي أَنْ بِعْتُ بالرُّخْصِ مَنْزِلِي ▫▪▫ وَلَمْ يَعْرِفُوا جَاراً هُنَاكَ يُنَغِّصُ
فَقُلْتُ لهم: كُفُّوا المَلامَ؛ فَإِنَّمَا ▫▪▫ بِجِيرَانِهَا تَغْلُو الدِّيارُ وتَرْخُصُ[(٣)]

وقالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ حِينَ رَحَلَ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ:

وَقَائِلَةٍ: مَا لِي أَرَاكَ مُرَحَّلا؟ ▫▪▫ فَقُلْتُ: صَبْرًا، واسْمَعِي القَوْلَ مُجْمَلا
تَنَكَّرَ مَنْ كُنَّا نُسَرُّ بِقُرْبِهِ ▫▪▫ وَعَادَ زُعَافًا بَعْدَمَا كَانَ سَلْسَلا
وَحُقَّ لِجَارٍ لَمْ يُوَافِقْهُ مَقْعَدا ▫▪▫ ولا لاءَمَتْهُ الدَّارُ - أَنْ يَتَرَحَّلا
أَلَيْسَ بِحَزْمٍ مَنْ لَهُ الظِّلُّ مَقْعَدا ▫▪▫ إذا أَدْرَكَتْهُ الشَّمْسُ أَنْ يَتَحَوَّلا؟!

(١) «ديوان حسَّان بن ثابت» (ص٧٠).
(٢) الزَّوْرَاء: اسم لبغدادَ.
(٣) «بهجة المجالس» (١/ ٢٣).

بَلِيتُ بِحِمْصٍ[1] والمُقَامُ بِبَلْدَةٍ ▫▪▫ طويلاً - لَعَمْري - مُخْلِقٌ يُورِثُ البِلا

إذَا هَانَ حُرٌّ عِنْدَ قَوْمٍ أَتَاهُم ▫▪▫ وَلَمْ يَنْأَ عَنْهُمْ، كَانَ أَعْمَى وَأَجْهَلا

وَلَمْ تُضْرَبِ الأَمْثَالُ إلاَّ لِعَالِمٍ ▫▪▫ ولا غَرَّبَ الإِنْسَانُ إلاَّ لِيَعْقِلا[2]

أَخِي الكَرِيمُ، أَدِّ حُقُوقَ جِيرَانِكَ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِم بِمَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الجَاهِ، وَالنَّفْعِ البَدَنِيِّ والمَالِيِّ، وكُفَّ الأَذَى عَنْهُمُ القَوْلِيَّ والفِعْلِيَّ، وَاعْلَمْ أَنَّ حُسْنَ الجِوَارِ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ تَعْمِيرِ الدِّيَارِ، وَزِيَادَةِ الأَعْمَارِ كَمَا سَبَقَ[3].

قَالَ الإِمَامُ عَلِيٌّ - رضي الله عنه -:

وحِفَاظَ جارٍ لا تُضِعْهُ، فإنَّهُ ▫▪▫ لا يَبْلُغُ الشَّرفَ الجَسِيمَ مُضَيِّعٌ[4]

وَقَالَ آخَرُ:

وَالجَارُ لا تَذْكُرْ كَرِيمَةَ بَيْتِهِ ▫▪▫ وَاغْضَبْ لِكَلْبِ الجَارِ إنْ هُوَ أُغْضِبَ

احْفَظْ أَمَانَتَهُ، وَكُنْ عِزّاً لَهُ ▫▪▫ أَبَداً، وَعَمَّا سَاءَهُ مُتَجَنِّبَا

كُنْ لَيِّنًا لِلْجَارِ، وَاحْفَظْ حَقَّهُ ▫▪▫ كَرَمًا، وَلا تَكُ لِلْمُجَاوِرِ عَقْرِبا



(١) حمص: اسم إشبيلية، سُمِّيَتْ بذلكَ؛ لأنّ الفاتحين من أهالي حمص الشّام نَزَلُوها.

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/١٠٦).

(٣) جاء ذلك في حديث عائشةَ -رضي الله عنها- في (ص١٥، ١٠٠).

(٤) «جواهر الأدب» (ص٦٦٢).

حُسْنُ السَّمْتِ

حُسْنُ السَّمْتِ: هُوَ حُسْنُ المَظْهَرِ الخَارِجِيِّ لِلإِنْسَانِ مِنْ طَرِيقَةِ الحَدِيث والصمْت، والحَرَكَة والسُّكُونِ، والدُّخُولِ والخُروجِ، والسِّيرَةِ العَمَلِيَّة في النَّاسِ، بِحَيْثُ يَستطيعُ مَنْ يَرَاهُ أو يَسْمَعُهُ أَنْ يَنسبَهُ إلى أهلِ الخَيْرِ والصَّلاحِ، والدِّيَانَة والفَلاحِ[١].

فَعَلَى المَرْءِ أَنْ يُحْسِنَ تَعَاهُدَ نَفْسِهِ في لِبَاسِهِ، ونظافَةِ بَدَنِه، وليَسْتَعْمِلِ الطِّيبَ والسِّواكَ، ويزنَ كَلامَهُ، فلا يَنْطِقُ إلاَّ بِخَيْرٍ أو لِيَصْمُتَ، فَهَذَا مِنَ السَّمْتِ، والسَّمْتُ جُزْءٌ من النُّبوَّةِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّ الهَدْيَ الصَّالِحَ، والسَّمْتَ الصَّالِحَ، والاقتصادَ - جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبوَّةِ»[٢].

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «الْبَسُوا مِنْ ثِيابِكُمُ البَيَاضَ؛ فإنَّها مِنْ خيرِ ثيابِكُمْ، وكَفِّنُوا فيها مَوْتَاكُمْ»[٣].

---

(١) «نظرة النَّعيم» (٥/ ١٥٨٨).

(٢) رواه أبو داودَ - واللَّفظ له - (٤٧٧٦)، وأحمد (١/ ٢٩٦)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيحٌ (٤/ ٢٤٤)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع»(١/ ١٩٩٣).

(٣) رواه أبو داودَ (٣٨٧٨) و(٤٠٦١)، والتِّرمذيُّ (٩٩٤)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ١٨٥)، ووافقه الذَّهبيُّ، وقال محقِّق جامع الأصول: هو كما قال (١٠/ ٦٦٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٢٣٦).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ -رضي الله عنهما- قَالَ: أتانا رسولُ اللهِ - ﷺ - فَرَأَى رَجُلاً شَعِثاً[1]، قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ، فَقَالَ: «أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ؟». وَرَأَى رَجُلاً آخَرَ، وعليه ثِيَابٌ وَسِخَةٌ، فَقَالَ: «أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَا يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ؟!»[2].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْهُ»[3].

وعَنْ حُذَيْفَةَ بن اليَمَانِ -رضي الله عنهما- قَالَ: «إِنَّ أَشْبَهَ النَّاسِ دَلاً[4]، وسَمْتاً[5]، وهَدْياً[6] برسولِ اللهِ - ﷺ - لاَبْنُ أُمِّ عَبْدٍ[7] مِنْ حِينِ يَخْرُجُ مِنْ بيتِهِ إلى أَنْ يَرْجِعَ إليه، لا نَدْرِي مَا يَصْنَعُ في أهلِهِ إذا خَلاَ»[8].

وعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قالتْ: «ما رأيتُ أَحَداً أَشْبَهَ سَمْتاً، ودَلاً، وهَدْياً برسولِ اللهِ في قيامِهَا، وقُعُودِهَا - مِنْ بنتِ رسولِ اللهِ - ﷺ -»[9].

وَكَانَ السَّلَفُ -رضي الله عنهم- يَرْحَلُونَ لِتَعَلُّمِ حُسْـنِ السَّمْتِ مِنْ أَهْلِهِ، كَمَا يَرْحَلُونَ لِطَلَبِ الْعِلْمِ.

---

(١) شَعِثًا: مُغْبَرَّ الرَّأْسِ.
(٢) رواه أبو داودَ (٤٠٦٢)، وروى النَّسائيُّ شَطْرَهُ الأوَّلَ (٥٢٣٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٣٣٣)، و«الصَّحيحة» (٤٩٣).
(٣) رواه أبو داودَ (٤١٦٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٤٩٣)، وهو في «الصَّحيحة» (٥٠٠).
(٤) الدَّلُّ: الحالة التي يكون عليها الإنسان منَ السَّكِينةِ والوَقَارِ، وحُسْنِ السِّيرَةِ والطَّرِيقةِ.
(٥) السَّمْتُ: حُسْنُ المنظرِ في أمرِ الدِّينِ.
(٦) الهَدْيُ: السِّيرةُ والطَّرِيقةُ.
(٧) ابن أمِّ عَبْدٍ: هو عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-.
(٨) رواه البخاريُّ (٣٧٦٢) و(٦٠٩٧).
(٩) رواه أبو داود (٥٢١٧)، والتِّرمذيُّ - واللَّفظ له - (٣٨٧٢)، والنَّسائيُّ في «الكُبرى» (٨٣٦٩)، وإسناده حسن.

قَالَ أبو عُبَيْدٍ - يرحمه الله -: «كَانَ أَصْحَابُ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- يَرْحَلُونَ إلى عُمَرَ -رضي الله عنه- فَيَنْظُرُونَ إلى سَمْتِهِ، وهَدْيِهِ، ودلِّهِ، فيتشبَّهُونَ بِهِ»[(١)].

وَقَالَ الحافظُ ابْنُ حجرٍ:

«خَرَّجَ أبو عبيدٍ في غريبِ الحديثِ: أَنَّ أَصْحَابَ ابْنِ مَسْعُودٍ كَانُوا يَنْظُرُونَ إلى سَمْتِهِ، وهَدْيِهِ، ودلِّهِ، فيتشبَّهُونَ به»[(٢)].

وقال إبرهيم النَّخَعِيُّ - يرحمه الله -:

«كانوا إذا أَتَوُا الرَّجُلَ؛ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ، نَظَرُوا إلى صَلاتِهِ، وَإِلى سَمْتِهِ، وإِلَى هَيْئَتِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ»[(٣)].

وَقَالَ الأَعْمَشُ - يرحمه الله -:

«كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ مِنَ الْفَقِيهِ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى لِبَاسَهُ ونَعْلَيْهِ»[(٤)].

وقِيلَ لابْنِ المباركِ - يرحمه الله -:

«أين تريدُ؟» قال: «إلى البَصْرَةِ». فقيل له: «مَنْ بَقِيَ؟». قَالَ: «ابْنُ عَوْنٍ آخُذُ من أخلاقِهِ، آخذُ مِنْ آدابِهِ»[(٥)].

---

(١) «الصّحاح» (٤/ ١٦٩٩)، و«اللّسان» (٣/ ١٤٢٣). قال الإمام مالكٌ - يرحمه الله -: «عُمَرُ أَشْبَهُ النَّاسِ بهَدْيِ رسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-، وأشبَهُ النَّاسِ بِعُمَرَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ، وبعبدِ اللهِ ابنُهُ سالمٌ» «الفتح» (١٠/ ٥١٠).

(٢) «الفتح» (١٠/ ٥١٠).

(٣) و (٤) و (٥) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٢/ ٢٥٥).

وَقَالَ ابنُ المبارك - أيضًا -:

«لَمْ يَكُنْ بالمدينة أَحَدٌ أَشْبَهَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ مِنِ ابْنِ عَجْلانَ، كُنْتُ أُشَبِّهُهُ بالياقُوتَة بَيْنَ العُلَمَاء»[١].

وَقَالَ عبدُ الرَّحمن بْنُ مهديٍّ - يرحمه الله -:

«كُنَّا نَأْتِي الرَّجُلَ، مَا نُرِيدُ عِلْمَهُ، لَيْسَ إلاَّ أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنْ هَدْيِهِ وسَمْتِهِ وَدَلِّه»[٢].

وقَالَ ابْنُ الجوزيِّ - يرحمه اللهُ -:

«قَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَف يَقْصدُونَ الْعَبْدَ الصَّالحَ لِلنَّظر إلى سَمْته وهَدْيِه، لا لاقْتِبَاسِ عِلْمِه؛ وَذَلكَ أَنَّ ثَمَرَةَ عِلْمِه هَدْيُهُ وسَمْتُهُ»[٣].

وقَالَ الحَسَنُ بْنُ إسْمَاعِيل: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ:

«كَانَ يَجْتَمِعُ فِي مَجْلِسِ أَحْمَدَ زُهَاءُ[٤] خَمْسَةَ آلاف أو يزيدون، أقلُّ مِنْ خَمْسمائة يكْتُبُونَ، والبَاقِي يَتَعَلَّمُونَ منه حُسْنَ الأَدَبِ، وَحُسْنَ السَّمْتِ»[٥].



(١) «الجرح والتَّعديل» (١/ ٢٧٣).
(٢) «الآداب الشَّرعيَّة» (٢/ ٢٥٥).
(٣) «صيد الخاطر» (ص٢١٦).
(٤) زُهَاءُ خَمْسَةِ آلاف: قَدْرُ خَمْسَةِ آلاف.
(٥) الآداب الشَّرعيَّة» (٢/ ٩٧).

الوَقَـــارُ

الوَقَار: هو الإِمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ الكَلَامِ والعَبَث، وكَثْـرَةِ الإشَارَة والحَرَكَة فيما يُسْتَغْنَى عَنِ التَّحَرُّك فيه، وَقِلَّةُ الغَضَب، والإصْغَاءُ عِنْدَ الاسْتِفْهَام، والتَّوَقُّفُ عَنِ الجَوَابِ، والتَّحفُّظُ مِنَ التَّسرُّع، والمُبَاكَرَةُ في جَمِيعِ الأُمُور[(١)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَـالَ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ اليَـمَنِ، هُمْ أَرَقُّ أفئدةٍ، وأَلْيَنُ قُلُوباً، الإيمانُ يَمَانٍ، والحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، والفَخْرُ والخُيَلَاءُ[(٢)] في أصحابِ الإبِلِ، والسَّكِينَةُ والوَقَارُ في أهلِ الغَنَمِ»[(٣)].

وَعَنْهُ عَنِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «إذا سَمِعْتُمُ الإقَامَةَ فَامْشُوا إلى الصَّلاة، وعليكم بالسَّكِينَةِ والوَقَارِ[(٤)]، ولا تُسْرِعُوا، فما أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وما فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»[(٥)].

والحُصُـولُ عَلَى الوَقَار يَكُونُ بِتَقْـوَى الله وتوقـيره، ومَـنْ طَلَبَ التَّوْقِيرَ مِنَ النَّاسِ -وهُوَ لا يُعَظِّمُ اللهَ، ولا يُوَقِّـرُهُ- فَقَـدْ طَلَبَ مُحَـالاً، ولله دَرُّ العَـلاَّمَـة الرَّبَّانِيِّ ابنُ القيِّمِ - يرحمه اللهُ - حين قَالَ: «مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ والجَـهْلِ أَنْ تَطْلُبَ التَّعْظِيمَ والتَّوقيرَ لكَ مِنَ النَّاسِ، وَقَلْبُكَ خَالٍ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ وَتَوْقِيـرِهِ، فَإِنَّكَ تُوَقِّرُ المَخْلوقَ، وتُجِلُّهُ أَنْ يَرَاكَ في حَالٍ لا تُوَقِّرُ اللهَ أَنْ يَرَاكَ عَلَيْهَا.

---

(١) «تهذيب الأخلاق».
(٢) **الخُيَلَاءُ:** الكِبْرُ، واحتقارُ النَّاسِ، والعُجْبُ عليهم.
(٣) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٣٣٠١) و(٣٤٩٩) و (٤٣٨٨)، ومسلمٌ (٥٢).
(٤) قال النَّوويُّ ـ يرحمه اللهُ ـ كما في «الفتح» (٢/ ١٣٩): «الفرقُ بَيْنَ السَّكينة والوَقَار: أنَّ السَّكينةَ هي التَّأنِّي في الحركاتِ، واجتنابُ العَبَثِ، والوَقَارُ في الهَيْئَة: كغضِّ البصرِ، وخَفْضِ الصَّوتِ، وَعَدَمِ الالْتِفَاتِ».
(٥) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٦٣٦)، ومسلمٌ (٦٠٢).

قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ (سورة نوح: ١٣). أي لا تعاملونه معاملةَ مَنْ توقِّرونه، والتَّوقيرُ: التَّعظيمُ، ومنه قوله - تعالى -: ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ (سورة الفتح: ٩)»[١].

والوَقُورُ يُدرِكُ مَا لا يُدرِكُهُ غَيرُهُ مِنْ مَعَانِي العِزِّ والشَّرَفِ.

قَالَ رجلٌ يصفُ الإِمَامَ مالكًا:

يَدَعُ الجَوَابَ، ولا يُرَاجَعُ هَيْبَةً ▫▪▫ والسَّائلون نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ[٢]

نورُ الوَقَارِ، وعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى ▫▪▫ فَهُو المَهِيبُ، وليس ذا سُلْطَانِ[٣]

وَقَالَ ابْنُ المُبَارك:

مَنْ كَانَ مُلْتَمِسًا جَلِيسًا صَالحًا ▫▪▫ فَلْيَأْتِ حَلْقَةَ مِسْعَرِ بْنِ كِدَام

فِيهَا السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ وَأَهْلُهَا ▫▪▫ أَهْلُ الْعَفَافِ، وَعِلْيَةُ الأَقْوَام[٤][٥]



(١) «الفوائد» (ص٣٢٩).
(٢) نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ: مُطَأْطِئُو الرُّءوسِ، والمفرد ناكسٌ، وهو من الجمع الشَّاذِّ.
(٣) شرح حديث (ما ذئبان جائعان) (ص٧٨).
(٤) عِلْيَةُ الأَقْوامِ: أشرفها وأرفعها، والمفردُ عَلِيٌّ، كصَبِيٍّ وصَبِيَّة.
(٥) «سِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاءِ» (٧/ ١٧٠).

الرِّفْــقُ

الرِّفْقُ: هُوَ لِينُ الجانبِ بالقَوْلِ والفعْلِ، والأَخْذُ بالأَسْهَلِ، وَهُوَ ضِدُّ العُنْفِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ الخُلُقِ، والأَنَاةِ، والرَّزَانَةِ، وحَظُّ المَرْءِ مِنَ التَّوفِيقِ بِقَدْرِ حَظِّهِ مِنَ الرِّفْقِ.

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (سورة آل عمران:١٥٩).

وقَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى-: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (سورة طه:٤٣-٤٤).

عَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «يا عَائِشَةُ، إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطي على الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»[1].

وعنها أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «إنَّ الرِّفْقَ لا يكونُ في شيءٍ إلاَّ زَانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ[2]»[3].

وعنها أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال لها: «يا عائشةُ، ارْفُقي؛ فإنَّ اللهَ إذا أراد بأهلِ بيتٍ خيراً، أَدْخَلَ عليهمُ الرِّفْقَ»[4].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٥٩٣).
(٢) شَانَهُ: عَابَهُ.
(٣) رواه مسلمٌ (٢٥٩٤).
(٤) رواه أحمدُ في «المسند» (٦/ ١٠٤)، ورجاله رجال الصَّحيح، وهو في «الصَّحيحة» (٥٢٣)، ورواه ابن أبي الدُّنيا في ذمِّ الغضب بلفظ: «إنَّ اللهَ إذا أحبَّ أهلَ بيتٍ، أَدْخَلَ عليهمُ الرِّفْقَ»، وهذا صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٧٠٤)، و«الصَّحيحة» (١٢٣٩).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ أُعطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الخيرِ»[(١)].

وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّهُ»[(٢)].

قَالَ الشَّاعِرُ:

لو سَارَ أَلْفُ مُدَجَّجٍ[(٣)] في حَاجَةٍ ◆◆◆ لَمْ يَقْضِهَا إلاَّ الَّذِي يَتَرَفَّقُ[(٤)]

والرِّفْقُ لا يكُونُ مَعَ بَنِي الإنسان فحسب، بَلْ يكُونُ حَتَّى مَعَ الحيوانِ.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ -رضي الله عنه- عَنْ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «إنَّ اللهَ كَتَبَ الإحسانَ على كُلِّ شَيْءٍ؛ فإذا قَتَلْتُمْ فأَحْسِنُوا القِتْلَةَ[(٥)]، وإذا ذَبَحْتُم فَأَحسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ[(٦)]، وَلْيُرِحْ ذبيحتَهُ[(٧)]»[(٨)].

وَقَدْ بَلَغَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- الذِّرْوَةَ في رِفْقِه بِأُمَّتِه، ولا غَرْوَ فَهوَ الَّذِي وَصَفَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِقَوْلِه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة: ١٢٨).

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٠١٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٠٥٥)، و«الصَّحيحة» (٥١٩) و (٨٧٤).

(٢) رواه مسلمٌ (٢٥٩٢)، بدون كلمة «كُلَّهُ» وهي من زيادة أبي داود.

(٣) المُدَجَّج: الفارس الذي قد توارى بالسِّلاح مِنْ كَثْرَتِه.

(٤) «روضة العقلاء» (ص٢١٦).

(٥) القِتْلَة: الهيئة والحالة التي يكون عليها القتل لمن استحقَّهُ، وكذلك الذِّبْحَة.

(٦) الشَّفْرَةُ: هي حَدُّ السكِّين الذي يكونُ الذَّبحُ مِنْ جانبِه.

(٧) ذبيحته: مذبوحته، سُمِّيت ذبيحةً باعتبارِ ما تَئُولُ إليه.

(٨) رواه مسلمٌ (١٩٥٥).

■ **وَمِنْ أمثلة رِفْقه بِأُمَّته ما يلي:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يَتَقَاضَاهُ، فَأَغْلَظَ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**دَعُوهُ؛ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالاً**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَعْطُوهُ سِنّاً مِثْلَ سِنِّهِ**». قالوا: «يا رسولَ اللهِ، إلاَّ أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ». فَقَالَ: «**أَعْطُوهُ؛ فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً**»[1].

وعَنْهُ قَالَ: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ في المسْجِد، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «**دَعُوهُ، وهَرِيقُوا عَلَى بولِهِ سَجْلاً**[2] **مِنْ ماءٍ - أو ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ - فإنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، ولم تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[3].

وَعَنْهُ قَالَ: قَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وأصحابُهُ على النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- فقالُوا: «يا رسولَ اللهِ، إنَّ دَوْسًا عَصَتْ وأَبَتْ؛ فادعُ اللهَ عليها». فقيل: «هَلَكَتْ دَوْسٌ». قال: «**اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْسًا، وَأْتِ بِهِم!**»[4].

وَعَنْ أَنَسٍ -رضي الله عنه- عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «**إنِّي لأَدْخُلُ في الصَّلاةِ وأنا أُرِيدُ إطالَتَها، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فأَتَجوَّزُ**[5] **في صَلاتِي؛ مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ**[6] **أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ**»[7].

---

(١) رواه البخاريُّ - واللفظ له - (٢٣٠٥) و (٢٣٠٦) و (٢٣٩٠) و (٢٣٩٢) و (٢٣٩٣) و (٢٤٠١) و(٢٦٠٦) و(٢٦٠٩)، ومسلمٌ (١٦٠١).

(٢) السَّجْلُ: الدَّلْوُ الممتلئةُ ماءً، وكذلك الذَّنُوب، ويُقَالُ لها وهي فارغة: سَجْلٌ ولا ذَنُوبٌ، وجمعُ سَجْلٍ سِجَالٌ.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٢٠) و (٤٣٩٢) و (٦٣٩٧)، ورواه مسلمٌ (٢٨٤) و (٢٨٥) عن أنسٍ.

(٤) رواه البخاريُّ (٢٩٣٧) و (٤٣٩٢) و (٦٣٩٧)، ومسلمٌ (٢٥٢٤).

(٥) اتجوَّز: أُخفِّفُ ولا أُطيلُ.

(٦) وَجْد أُمِّه: حزنها وأساها.

(٧) رواه البخاريُّ (٧٠٩) و (٧١٠)، ومسلمٌ (٤٧٠).

قَالَ مَنْصُورُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْكُرَيْزِيُّ:

الرِّفْقُ أَيْمَنُ شَيءٍ أنتَ تَتْبَعُهُ
والخُرْقُ أَشْأَمُ شَيْءٍ يَقْدُمُ الرَّجُلاً[1]
وذُو التَّثَبُّتِ مِنْ حَمْدٍ إلى ظَفَرٍ
مَنْ يَرْكَبِ الرِّفْقَ لا يَسْتَحْقِبِ[2] الزَّلَلا[3]

وقال ابن حبَّانَ - يرحمه الله -:

«العَاقِلُ يَلْزَمُ الرِّفْقَ في الأَوْقَاتِ، والاعْتِدَالَ في الحَالاتِ؛ لأَنَّ الزِّيادَةَ عَلَى المِقْدَارِ في المُبْتَغَى عَيْبٌ، كَمَا أَنَّ النُّقْصَانَ فِيمَا يَجِبُ مِنَ المَطْلَبِ عَجْزٌ، ومَنْ لَمْ يصلحْهُ الرِّفْقُ لَمْ يصلحْهُ العُنْفُ»[4].

وقَالَ - أَيْضًا -: «الرَّافِقُ لا يَكَادُ يُسْبَقُ، كَمَا أَنَّ العَجِلَ لا يَكَادُ يَلْحَقُ، كما أَنَّ مَنْ سَكَتَ لا يَكَادُ يَنْدَمُ، كما أَنَّ مَنْ نَطَقَ لا يَكَادُ يَسْلَمُ»[5].

وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

لم أَرَ مِثْلَ الرِّفْقِ في لِيْنِهِ ◦▪◦ أَخْرَجَ للعَذْرَاءِ مِنْ خِدْرِهَا
مَنْ يَسْتَعِنْ بالرِّفْقِ في أَمْرِهِ ◦▪◦ يَسْتَخْرِجِ الحَيَّةَ مِنْ جُحْرِهَا[6][7]

فَعَلَيْكَ - أخي في اللهِ - بالرِّفْقِ في كُلِّ شَيْءٍ، ولاسِيَّما إذا كُنْتَ قدْ وُلِّيتَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ المُسْلِمِينَ.

---

(١) يَقْدُمُ الرَّجُلَ: يقودُهُ ويتقدَّمُهُ.
(٢) استحقب الشَّيْءَ: جعله في حقيبتِهِ، كأنَّه يرجعُ بِهِ إلى أَهْلِهِ.
(٣) «روضة العقلاء» (ص٢١٦).
(٤) و (٥) المرجع السابق (ص٢١٦).
(٦) جُحْرها: مَخْبَئُها، والجمعُ جِحَرَةٌ، وأَحْجَارٌ.
(٧) «حياة الحيوان» (١/ ٢٧٥).

فَعَنْ عَائِذ بْنِ عَمْرو أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُبَيْدِ الله بْنِ زِيَاد، فَقَالَ: «أَيْ بُنَيَّ، سَمِعْتُ رَسولَ الله - ﷺ - يَقُولُ: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ[١] الحُطَمَةُ[٢]»، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُم»[٣].

وَعَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله - ﷺ - يَقُولُ في بَيْتِي هَذَا: «اللَّهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيئًا، فَشَقَّ عليهم، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، ومَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتي شَيْئًا، فَرَفَقَ بهم، فَارْفُقْ بِهِ»[٤].

قَالَ أبو الفَتْحِ البُسْتِيُّ:

وَرَافِقِ الرِّفْقَ في كُلِّ الأمورِ، فلمْ ... يَنْدَمْ رفيقٌ، وَلَمْ يَذْمُمْهُ إنسانُ

ولا يَغُرَّنْكَ حَظٌّ جَرَّهُ خَرْقٌ[٥] ... فَالخُرْقُ هَدْمٌ، ورِفْقُ المَرْءِ بُنْيَانُ[٦]



(١) الرِّعاء: جمع راعٍ.
(٢) الحُطَمَةُ: هو العنيف برعاية الإبل في السَّوق، والإيراد، والإصدار، ويلقي بعضها ويعسفها، ضربه مثلاً لوالي السُّوء القاسي الذي يظلمُ الرَّعيَّةَ.
(٣) رواه مسلمٌ (١٨٣٠).
(٤) رواه مسلمٌ (١٨٢٨).
(٥) الخُرْق: الجَهْل، ضِدُّ الرِّفْقِ.
(٦) «جواهر الأدب» (ص٦٧١).

الـرَّحْـمَـةُ

الرَّحـمـة: حَـالَةٌ وِجْدَانِيَّـةٌ تَعْـرِضُ غالبًـا لِمَنْ به رِقَّـةُ القلبِ، وتكونُ مُبْـدأً للانْعِطَافِ النَّفْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ مَبْدَأُ الإِحْسَانِ[١].

فهي دَلِيلٌ عَلَى سَعَةِ الصَّدْرِ، وَرِقَّـةِ القَلْبِ، وسُمُوِّ النَّفْسِ، والرَّجُلُ الذي تسمو نَفْسُهُ إلى مَعَالِي الأَخْلاقِ يَعْرِفُ الحَقَّ، ويَرْحَمُ النَّاسَ، بَلْ يَرْحَمُ الخَلْقَ كافَّةً.

عَنِ ابْنِ مسـعود -رضي الله عنه- قَالَ: قَـالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: **«لَنْ تُؤْمنوا حتَّى تَرْحَمُوا»**. قالوا: «كُلُّنا رَحِيمٌ، يا رَسُولَ اللهِ!» قال: **«إنَّه ليسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ، ولكنَّها رحمةُ النَّاسِ رَحْمَةُ العامَّةِ»**[٢].

وعن جريرِ بْنِ عبـدِ اللهِ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: **«لا يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لا يَرْحمُ النَّاسَ»**[٣].

وَعَنِ النُّعْـمَـانِ بْنِ بَشِـيـرٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: **«تَرَى المؤمنينَ في تَرَاحُمِهِمْ، وتَوَادِّهِمْ، وتَعَاطُفِهِمْ - كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا، تَدَاعَى له سَائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى»**[٤].

---

(١) «الكليات» (٢/ ٣٧٦).

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٤٥٣): أخرجه الطَّبَرَانيُّ، ورجالُهُ ثِقاتٌ. وقال الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١/ ٢٧٠): هو في كتاب «الأدب» للبيهقيِّ حديث (١٦٧).

(٣) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٦٠١٣) و (٧٣٧٦)، ومسلمٌ (٢٣١٩).

(٤) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٦٠١١)، ومسلمٌ (٢٥٨٦).

وعَنْ عَائشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «سَدِّدُوا[١]، وقاربوا[٢]، وأَبْشِرُوْا؛ فَإِنَّهُ لا يُدْخِلُ أَحَداً الجنَّةَ عَمَلُهُ». قالوا: «ولا أنت، يا رسولَ الله؟!». قال: «ولا أنا، إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ[٣] اللهُ بمغفرةٍ ورحمةٍ»[٤].

وَعَنْهَا قالَتْ: جاءتْني مسكينةٌ، تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لها، فَأَطْعَمْتُهَا ثلاثَ تَمَرَاتٍ، فأعْطَتْ كُلَّ واحدةٍ منهما تَمْرَةً، ورفعتْ إلى فِيهَا تَمْرَةً لتأكُلَهَا، فاستَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فشقَّتِ التَّمْرَةَ التَّي كانتْ تريدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فأعْجَبَنِي شأنُهَا، فذكرتُ الَّذي صَنَعَتْ لرسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ: «إنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ لها بها الجنَّةَ، أو أَعْتَقَهَا بها مِنَ النَّارِ»[٥].

وعن أبي هُرَيرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يقولُ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وتسعينَ، وأنزل في الأَرْضِ جُزْءاً واحداً، فمِنْ ذلك الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلائِقُ، حتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَها عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[٦].

وعنهُ قالَ: قَالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ مِنْ شَقِيٍّ»[٧].

وعَنْهُ قَالَ: قَبَّلَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- الحَسَنَ بْنَ عليٍّ، وعندَهُ الأَقْرَعُ بْنُ

---

(١) سدِّدوا: اطلبوا السَّدادَ، وهو الصَّوابُ والاستقامةُ.
(٢) المُقاربة: القَصْدُ في العبادة الذي لا غُلُوَّ فيه، ولا تقصيرَ.
(٣) يتغمَّدني: يَغْمُرَني.
(٤) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٦٤٦٤) و(٦٤٦٧)، ورواه مسلمٌ (٢٨١٦) عن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-.
(٥) رواه مسلمٌ (٢٦٣٠).
(٦) رواه البخاريُّ (٦٠٠٠) و(٦٤٦٩)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (٢٧٥٢).
(٧) رواه أبو داودَ (٤٩٤٢)، والتِّرمذيُّ (١٩٢٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٧٤٦٧).

حابسٍ التَّميميُّ جالسًا، فَقَالَ الأَقْرَعُ: «إنَّ لي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ، مَا قَبَّلْتُ منهم أَحَدًا». فَنَظَرَ إِلَيْهِ رسولُ اللهِ - ﷺ - ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»[١].

وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله - ﷺ - قال: «بَيْنَمَا رجلٌ يمشي بطريقٍ، اشتدَّ عليه العَطَشُ، فوجد بئرًا، فنزل فيها، فشرب ثُمَّ خرج، فإذا كَلْبٌ يَلْهَثُ[٢]، يأكلُ الثَّرَى[٣] مِنَ العَطَشِ، فقال الرَّجلُ: لَقَدْ بَلَغَ هذا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الذي كان بَلَغَ منِّي، فنزل البئْرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ[٤] مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حتَّى رَقِيَ، فسقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ». قالوا: «يا رسولَ الله، وإنَّ لَنَا في البَهَائمِ لأَجْرًا؟!». فقال: «في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ[٥]»[٦].

وفي رِوَايَةٍ للبُخَارِيِّ: «فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، فأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ».

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله - ﷺ -: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ[٧]، قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ[٨] مِنْ بَغَايَا بني إسرائيلَ، فنزعتْ مُوْقَهَا[٩]، فاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فسقَتْهُ إيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[١٠].

---

(١) رواه البخاريُّ - واللَّفظ له - (٥٩٩٧)، ومسلمٌ (٢٣١٨). قال ابن حجرٍ مُعلقًا على هذا الحديث: «قال ابن بَطَّال: فيه الحضُّ على استعمال الرَّحمة لجميع الخَلْقِ، فيدخل المؤمنُ، والكافرُ، والبهائمُ المملوكُ منها وغيرُ المملوك، ويدخل في الرَّحمة التَّعاهُدُ بالإطعامِ، والسَّعي، والتَّخفيفُ في الحِمْلِ، وتركُ التَّعدِّي بالضَّرْبِ». «فتح الباري» (١٠/ ٤٥٥).

(٢) يَلْهَثُ: يُخْرِجُ لسانَهُ مِنْ شدَّة العَطَشِ.

(٣) الثَّرى: التُّراب الرَّطْب النَّدي.

(٤) الخُفُّ - بالضَّمِّ - : الحِذَاء، والجمعُ خِفَافٌ - بكسر الخاء -.

(٥) أي في إرواء كُلِّ حَيٍّ ثوابٌ.

(٦) رواه البخاريُّ (١٧٣) و (٢٣٦٣) و (٢٤٦٦) و (٦٠٠٩)، ومسلمٌ (٢٢٤٤).

(٧) يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ: يدورُ حَوْلَها، والرَّكِيَّةُ: البِئْرُ، والجمع رَكَايَا.

(٨) البَغِيُّ: الزَّانية.

(٩) المُوْقُ: الخُفُّ.

(١٠) رواه البخاريُّ (٣٣٢١) و (٣٤٦٧)، ومسلمٌ (٢٢٤٥).

فَشَتَّانَ مـا بَيْنَ هذه المرأة البَغِيِّ ذات القلبِ الرَّءُوم والمرأةِ التي في حديث ابن عُمَرَ -رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُـولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «عُذِّبَتِ امـرأةٌ في هِرَّةٍ، سَجَنَتْهَـا حتَّى ماتت، فَدَخَلَتْ فيها النَّارَ، لا هِيَ أطعمَتْهَا وَسَقَتْهَا إذْ حَبَسَتْهَا، ولا هِيَ تركَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ[(١)] »[(٢)].

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ -رضي الله عنه- قَالَ: قَدِمَ على النَّبِيِّ - ﷺ - سَبْيٌ[(٣)]، فإذا امرأةٌ مِن السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبَ ثَدْيُهَا تَسْقي، إذا وَجَدَتْ صَبِياً في السَّبْيِ أخذَتْهُ، فألصقَتْهُ بِبَطْنِهَا وأرضعَتْهُ، فقـال لنا النَّبِيُّ - ﷺ -: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟». قلنا: «لا، وهِيَ تَقْدِرُ على ألاَّ تَطْرَحَهُ». فقال: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[(٤)].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحمنُ؛ ارْحَمُوا مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّمَاءِ»[(٥)].

والأحاديثُ في الرَّحْمَةِ كثيرةٌ جدًا؛ وما ذاكَ إلاَّ لأهمِّيَّتِهَا، وَعِظَمِ شَأْنِهَا.

قَالَ الفَيْرُوز أَبَادِي - يرحمه اللهُ -:

«الرَّحمةُ سَبَبٌ[(٦)] واصلٌ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ عِبَادِهِ، بها أَرْسَلَ إليهمُ الرُّسُلَ، وأنزل عليهم كُتُبَهُ، وبها هَدَاهُمْ، وبها أَسْكَنَهُمْ دارَ ثوابِهِ، وبها رَزَقَهُمْ وعَافَاهُم»[(٧)].

---

(١) خَشَاشُ الأرض: هَوَامُّها وحَشَرَاتُها، واحدها خَشَاشَةٌ.
(٢) رواه البخاريُّ (٢٣٦٥) و (٣٣١٨) و (٣٤٨٢)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (٢٢٤٢).
(٣) سَبْيٌ: أَسْرَى جمع أَسِيرٍ.
(٤) رواه البُخَاريُّ ـ واللفظ له ـ (٥٩٩٩)، ومسلمٌ (٢٧٥٤).
(٥) رواه أبو داودَ (٤٩٤١)، والتِّرمذيُّ (١٩٢٤)، وصـحَّحه الألبانيُّ في «صـحيح الجامع» (١/ ٣٥٢٢)، و«الصَّحيحة» (٩٢٥).
(٦) سَبَبٌ: حَبْلٌ، والجمع أَسْبَابٌ.
(٧) «بصائر ذوي التَّمييز» (٣/ ٥٥).

وقال الشَّيخُ عَبْدُ الرَّحمن بْنُ ناصر السَّعْديُّ - يرحمه اللهُ -:

«الشَّرِيعَـةُ كُلُّهَا مَبْنِيَّـةٌ عَلَى الرَّحْمَةِ في أُصُـولِهَا وَفُرُوعِهَـا، وفي الأَمْرِ بأَدَاءِ حُقُوقِ اللهِ، وَحُقُوقِ الخَلْقِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُكَلِّفْ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا.

وإذا تَدَبَّرْتَ ما شَرَعَهُ في المُعاملاتِ، والحُقُوقِ الزَّوجيَّةِ، وحقوقِ الوالدينِ، وَالقَرَابَةِ، والجيرانِ، وَسَائِرِ مَا شَرَعَ - وَجَدْتَ ذلك مبنياً على الرَّحمةِ»[1].

ثُمَّ قَالَ:

«لَقَدْ وَسِعَتْ هَذه الشَّرِيعَةُ بِرَحْمَتِـهَا وعَدْلِهَا العَدُوَّ والصَّدِيقَ، وَلَقَدْ لجَـأَ إلى حِصْنِها الحَصِينِ كُلُّ مُوَفَّقٍ رَشِيدٍ»[2].



(١) «الرِّياض النَّاضرة، والحدائق النَّيِّرة» (ص ٥٠ - ٥١) بتصرُّفٍ.
(٢) المرجعُ السَّابقُ (ص٣٥).

التَّوَاضُعُ

التَّواضُعُ: صِفَـةٌ مِنْ صِفَـاتِ عِبَادِ الرَّحْـمنِ، قَالَ اللهُ - تَبَـارَكَ وتعالى -: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (سورة الفرقان: ٦٣).

قَالَ الشَّيخُ عَبْدُ الرَّحمنِ بْنِ سَعْدِيٍّ - يرحمه الله -:

«ذَكَرَ أَنَّ صِفَاتَهُمْ أَكْمَلُ الصِّفَاتِ، وَنُعُوتَهُمْ أَفْضَلُ النُّعُوتِ، فوصَفَهُمْ بِأَنَّهُم: ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي ساكنِينَ مُتَوَاضِعِينَ للهِ وللخَلْقِ، فَهَذَا وَصْفٌ لَهُمْ بِالوَقَارِ والسَّكِينَةِ، والتَّواضُعِ للهِ ولِعِبَادِه»[(١)].

والتَّواضُعُ عَلامَةُ حُبِّ اللهِ للعَبْدِ، كَمَا قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة المائدة: ٥٤).

قالَ ابْنُ كَثِيرٍ - يرحمه اللهُ -:

«هَذِهِ صِفَـاتُ المُؤْمنِينَ الكُمَّلِ، أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ مُـتَوَاضِـعًا لأَخِيـهِ وَوَلِيِّهِ، مُتَعَزِّزًا على خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ»[(٢)].

---

(١) «تفسير ابن سَعْدِيٍّ» (ص٥٨٦).
(٢) «تفسير ابن كثيرٍ» (٢/ ٧٣).

وَوَصَفَ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ هَدَاهُم لِلإِيمَانِ، فَقَالَ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى-: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة المائدة: ٥٤).

وفي تعليل استعمال حرف الجرِّ (عَلَى) في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ تفسيران:

ففي قولٍ أنَّه ضَمَّنَهُ معنى الحُنُوِّ والعَطْفِ، كَأَنَّهُ قَالَ: عاطفينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى وَجْهِ التَّذَلُّلِ والتَّوَاضُعِ.

وفي قَوْلٍ ثانٍ أنَّ (عَلَى) تَدُلُّ على عُلُوِّ مَقَامِهِم، وأَنَّهُ رَغْمَ فَضْلِهِمْ وَارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ يَذِلُّون ويَخْضَعُوْنَ لمن فُضِّلوا عليه مع شرفهم، وعُلُوِّ مكَانِهِم[(1)].

والتَّوَاضُعُ سَبَبٌ لِرِفْعَةِ اللهِ لِلْمُتَوَاضِعِ، ومَنْ رَفَعَهُ اللهُ فَمَنْ ذا الَّذِي سَيَخْفِضُهُ وَيَضَعُهُ؟!.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ»[(2)].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- قَالَ: كَانَ للنَّبِيِّ -ﷺ- نَاقَةٌ، تُسَمَّى العَضْبَاءَ لا تُسْبَقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ على قَعُودٍ[(3)] فَسَبَقَها، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسلمين، حتَّى عَرَفَهُ فقال: «حَقٌّ عَلَى اللهِ أَلاَّ يَرْتَفِعَ شيْءٌ مِنَ الدُّنيا إِلاَّ وَضَعَهُ»[(4)].

---

(١) «تفسير البحر المحيط» (٣/٥١٢).
(٢) رواه مسلمٌ (٢٥٨٨).
(٣) القَعُود -بالفَتْحِ-: هو ما استَحقَّ الرُّكُوبَ مِنَ الإِبلِ، وَهُوَ مَا بَيْنَ سِنِّ الثَّانية إلى السَّادسةِ، وبعدها يُقالُ عنه جَمَلٌ.
(٤) رواه البخاريُّ (٢٨٧٢) و (٦٥٠١).

قَالَ ابْنُ الحَاج - يرحمه الله -:

«مَنْ أَرَادَ الرِّفْعَةَ فَلْيَتَوَاضَعْ لله -تعالى-؛ فإنَّ العزَّةَ لا تقعُ إلاَّ بقَدْرِ النُّزول، ألاَ تَرَى أَنَّ المَاءَ لَمَّا نَزَلَ إِلَى أَصْلِ الشَّجَرَةِ، صَعِدَ إلى أَعْلاهَا، فكَأَنَّ سَائلاً سَأَلَهُ: ما صَعَدَ بِكَ هُنا ـ أعني في رأسِ الشَّجرة، وأَنْتَ تَحْتَ أَصْلِهَا ـ؟!، فكَأَنَّ لِسَانَ حَالَهُ يقولُ: مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَه»[1].

قَالَ السَهيليُّ:

تواضعْ إذا كُنْتَ تَبْغي العُلى[2] ▫▪▫ وكُنْ رَاسِيًا عِنْدَ صَفْوِ الغَضَبْ
فَخَفْضُ الفتى نَفْسَهُ رِفْعَةٌ ▫▪▫ لَهُ، واعْتَبِرْ بِرُسُوبِ الذَّهَبْ

وقال آخرُ:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاَحَ[3] لنَاظِرٍ ▫▪▫ عَلَى صَفَحَاتِ الماءِ، وهو رَفيعُ
ولا تَكُ كالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ ▫▪▫ إلى طَبَقَاتِ الجَوِّ، وهو وَضِيعُ[4]

وقال آخرُ:

تَوَاضَعْ إذا ما نِلْتَ في النَّاسِ رِفْعَةً ▫▪▫ فَإنَّ رفيعَ القَوْمِ مَنْ يتَواضعُ[5]

وقال آخرُ:

وأحسنُ أخلاقِ الفَتَى وأَتَمُّهَا ▫▪▫ تواضعُهُ للنَّاسِ، وهو رفيعُ[6]

---

(١) «المدخل» (٢/ ١٢٢).
(٢) العُلى: الرِّفْعَة والشَّرف.
(٣) لاح: بَرَزَ وظهر.
(٤) و (٥) «جواهر الأدب» (ص٧١٣).
(٦) «غذاء الألباب» (٢/ ٢٣٣).

والتَّواضُعُ وقايةٌ مِنَ الوقُوعِ في الظُّلْمِ، وحمايةٌ مِنَ التَّعَالِي والتَّفَاخُر على الآخرينَ.

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ اللهَ أَوْحَى إليَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حتَّى لا يَفْخَرَ أحدٌ عَلَى أحدٍ، ولا يَبْغيَ أَحَدٌ على أحَدٍ»[(١)].

إنْ أَرَدْتَ - أخي في اللهِ - نَيْلَ الكَرَامَةِ والشَّرَفِ، والمِقَةِ[(٢)] مِنَ الْعِبَادِ، وكَثْرَةَ الخُلاَّنِ - فَعَلَيْكَ بالتَّواضُعِ.

قَالَ بعضُ الحُكَمَاءِ: «مَنْ بَرِئَ من ثلاث نال ثلاثًا: مَنْ بَرِئَ من الشَّرَفِ نال العِزَّ، ومَنْ بَرِئَ من البُخْلِ نَالَ الشَّرَفَ، ومَنْ بَرِئَ من الكِبْرِ نَالَ الكَرَامَةَ»[(٣)].

وَقَالَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبيرِ: «التَّواضُعُ مَصَائِدُ الشَّرَفِ»[(٤)].

وَقِيلَ في مَنْثُورِ الحِكَمِ: «مَنْ دَامَ تَوَاضُعُهُ كَثُرَ صَدِيقُهُ»[(٥)].

وضِدُّ التَّواضُعِ الكِبْرُ، وَمَصْدَرُهُ جَهْلُ المرءِ بحقيقةِ نَفْسِه.

فهذا إبليسُ امْتَنَعَ عَنِ السُّجُودِ لآدَمَ قَائلاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (سورة الأعراف:١٢).

وَهَذَا فِرْعونُ ادَّعَى الرُّبوبيَّةَ قائلاً: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (سورة النازعات:٢٤).

وَهَذَا قَارُونُ لم يُقَيِّدِ النِّعمةَ الـتي يتقلَّبُ فيها، بل قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (سورة القصص:٧٨).

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٨٦٥).
(٢) المِقَة: المحبَّة، يُقال: وَمِقَهُ يَمِقُهُ - بكسر الميم فيهما - : أَحَبَّهُ، فهو وامِقٌ، والتَّاء في مِقَةٍ عِوَضٌ عن فاء الكلمة المحذوفة - وهي الواو - كَعِدَة، وزِنَة.
(٣) و (٤) و (٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٢).

فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلاءِ المُتَكَبِّرِينَ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ نفسه، فَمَا كَانَ مَصِيرُهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ؟!

لَقَدْ كَانَتِ العَاقِبَةُ وَخِيمَةً، والمُنْقَلَبُ مَشْئومًا، فأَمَّا إِبْلِيسُ فَطَرَدَهُ اللهُ مِنْ رَحْمَتِه، وأَمَّا فِرْعَوْنُ فَأَهْلَكَهُ اللهُ عَلَى جُرْأَتِه، وأَمَّا قارونُ فَخَسَفَ اللهُ بِهِ وَبِدَارِه الأَرْضَ.

مَا أَجْهَلَكَ - أيُّها المتكبِّرُ - بحَقِيقَةِ نَفْسكَ، فهَلْ أَنْتَ إلاَّ عَبْدٌ للهِ الَّذي أَخْرَجَكَ مِنَ العَدَمِ، وَرَعَاكَ في ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ؟!.

مَا الَّذي جَعَلَكَ تَتَرَفَّع على إِخْوَانِكَ مِنَ الْبَشَرِ، كَأَنَّكَ قَدْ خَرَجْتَ عَنْ طَوْقِ البَشَرِيَّةِ؟!.

هَلاَّ تَدَبَّرْتَ مَا فيكَ مِنْ أَقْذَارٍ ونَتْنٍ، إذًا لعرفتَ مَنْ أَنْتَ!.

قَالَ المَاوَرْدِيُّ - يرحمه اللهُ -:

«وَلَوْ تَصَوَّرَ المُعْجَبُ المتكبِّرُ ما فُطِرَ عليه من جِبِلَّة[1]، وبُلِيَ به من مَهْنَة[2] - لخَفَضَ جَنَاحَ نفسه، واستبدل لِينًا مِنْ عُتُوِّه، وَسُكُونًا مِنْ نُفُورِه»[3].

وَقَالَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْس:

«عَجِبْتُ لِمَنْ جرَى في مَجْرَى البَوْلِ مرَّتَيْنِ كيف يتكبَّرُ؟!»[4].

وَكَيْفَ يَتَكَبَّرُ مَنْ كَانَ مَصِيرُهُ للمَوْتِ والبِلَى، وكَأَنَّ لسَانَ حَال القَبْرِ يقولُ: ابنَ آدمَ، لا تتكبَّرِ اليومَ على ظَهْري؛ لأنَّني غَدًا سَوْفَ أَضُمُّكَ في بَطْني.

---

(١) جِبِلَّة: خِلْقَة، والجمعُ جِبِلاَّت.
(٢) مَهْنَة - بالفتح -: خدمة.
(٣) و (٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٣٨).

قال الشاعر:

حَـقَـيقٌ[1] بالتَّـواضُعِ مَنْ يَمُـوتُ ◘■◘ ويَكْفي المَرْءَ مِنْ دُنْيَـاهُ قُـوتُ[2]

فـمـا للمَـرْءِ يُصْـبِحُ ذا هُمُـومٍ ◘■◘ وحِـرْصٍ، ليس تُدْرِكُـهُ النُّعُـوتُ؟![3]

ووصف أحدُ الشُّعراء الإنسانَ، فقال:

يا مُظْهِرَ الكِبْرِ إعْجَـابًا بصُورَتِهِ ◘■◘ انظرْ خَـلاءَكَ؛ إنَّ النَّتْنَ تَثْـرِيبُ

لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فيـمـا في بُطُونِهِمُ ◘■◘ ما اسْتَشْعَرَ الكِبْرَ شُبَّانٌ، ولا شِيبُ[4]

هَلْ في ابْنِ آدمَ غَيْـرُ الرَّأْسِ مَكْرُمَةٌ؟! ◘■◘ وهو بخَـمْسٍ مِنَ الأَقْذارِ مَضْـرُوبُ[5]

أَنْفٌ يسـيلُ، وأُذْنٌ رِيحُـهَـا سَـهِكٌ[6] ◘■◘ والعَيْنُ مُـرْمَصَـةٌ[7]، والثَّغْرُ مَلْعُوبُ

يا بْنَ التُّـرابِ، ومَـأْكُولَ التُّـرابِ غداً ◘■◘ أَقْصِـرْ؛ فإنَّك مـأكولٌ ومَشْـرُوبُ[8]

ومن اللَّطائف ما ذكره الماوَرْدِيُّ - يرحمه الله - قال:

«حُكِيَ أنَّ مُطَرِّفَ بْنَ عبدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ نَظَرَ إلى المُهَلَّبِ بْنِ أبي صُفْرَةَ[9]، وعليه حُلَّةٌ[10] يَسْحَبُهـا، ويمشي الخُيَلاءَ، فقَالَ: يا أَبَا عَبْـدِ اللهِ، ما هذه المِشْيَةُ التي يُبْغِضُها اللهُ ورسولُهُ؟!.

(١) حقيق: خَليقٌ وجديرٌ.

(٢) القُوت: ما يَسُدُّ الرَّمَقَ من الرِّزق.

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ١٢).

(٤) شِيْب: جمع أَشْيَبَ، وهو الذي ابيضَّ شَعَرُهُ.

(٥) أي ملازم لها لزومَ الدِّرهمِ المَضْرُوب لسكَّته.

(٦) رِيْحُها سَهِك: أي كريهة.

(٧) الرَّمَصُ - بفتحتين -: وَسَخٌ يَجتَمِعُ في طَرَفِ العَيْنِ مِمَّا يَلِي الأَنْفَ، وبَابُهُ فَرِحَ.

(٨) «عُيون الأخبار» (١/ ٣١٣).

(٩) هو أبو سعيد المُهَلَّبُ بْنُ أبي صُفْرَةَ الأَزْدِيُّ البَصْرِيُّ، قائد قُـوَّاد الأُمَوِيِّين، ومُبِيدُ الخَوَارِج، ومبتدع الرُّكب الجديد، تَوَلَّى خُرَاسان من قِبَلِ عبد الملك بن مروان، وتُوُفِّي بها سنة ٨٣ هـ، وقد كان جَوَادًا حكيمًا، إلاَّ أنَّ جوابَهُ هذا يُعَدُّ زلَّةً من زلاَّت الاسترسال.

(١٠) الحُلَّة: ثوبٌ له ظِهارةٌ وبِطانةٌ من جنسٍ واحدٍ، والجمعُ حُلَلٌ.

فَقَالَ المُهَلَّبُ: أَمَا تَعْرِفُني؟!.

فَقَالَ: بَلْ أعـرِفُكَ، أوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وآخرُكَ جِيـفَةٌ قَذِرَةٌ، وحَشْوُكَ فـيما بَيْنَ ذَلِكَ بَوْلٌ وعَذِرَةٌ[١].

فَأَخَذَ ابْنُ عَوفٍ هَذا الكلامَ، فَنَظَمَهُ شِعْرًا، فقال:

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورتِهِ ... وكان بالأمسِ نُطْفَةً مَذِرَهْ

وفي غَدٍ - بَعْدَ حُسْنِ صُورتِهِ - ... يصيرُ في اللَّحْدِ جِيفَةً قَذِرَهْ

وهو على تِيْهِهِ[٢] ونَخْوَتِهِ[٣] ... ما بَيْنَ ثَوْبَيْهِ يحملُ العَذِرَهْ[٤]

والتَّكَبُّرُ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ النَّارِ.

عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ الخُزَاعيِّ -رضي الله عنه- قَالَ: سمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بأهلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ[٥] جَوَّاظٍ[٦] مُسْتَكْبِرٍ»[٧].

وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»[٨].

عَجَبًا لهذا المتكبِّرِ المخلوقِ الضَّعيفِ، كَيْفَ يَتَجَرَّأُ على خَالقه مَالك المُلْك، ويُنَازِعُهُ رِدَاءَهُ؟!.

---

(١) العَذِرَةُ: الغائط.

(٢) التِّيهُ - بالكسرِ - : التَّكَبُّرُ، يُقَالُ: تَاهَ يَتِيهُ تِيهًا، فهو أَتْيَهُ النَّاسِ.

(٣) النَّخْوَةُ: الكِبْرُ والعَظَمَةُ، يُقَالُ: انْتَخَى فُلانٌ علينا، أي: افْتَخَرَ وتَعَظَّمَ.

(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٣٦ - ٢٣٧).

(٥) العُتُلُّ: الغليظُ الفظُّ الجافي.

(٦) الجَوَّاظ: الجموع للمال، المنوع له. وقيل: الضَّخْمُ المُخْتَالُ في مشْيَته.

(٧) رواه البخاريُّ (٤٩١٨) و (٦٠٧١) و (٦٦٥٧)، ومسلمٌ (٢٨٥٣).

(٨) رواه مسلمٌ (٩١).

عَنْ أبي سعيد الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ -رضي الله عنهما- قالا: قَالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «قال اللهُ - تعالى -: الكِبْرِيَاءُ رِدَائي، والعِزُّ إزَاري، فَمَنْ نَازَعَني في شيْءٍ منهما عَذَّبْتُه»[1]

قالَ أبو نُوَاسٍ:

حَذَّرْتُكَ الكِبْرَ، لا يَغْشَاكَ مَبْسِمُهُ ▫▪▫ فَإنَّه مَلْبَسٌ نازَعْتَهُ اللهَ

يا بُؤْسَ جِلْدٍ عَلَى جَوْفٍ[2] مُجَوَّفَةٍ[3] ▫▪▫ يَحْوي مَقَاذيرَ، إنْ كَلَّمْتَهُ تَاهَا

إنِّي لأَمْقُتُ[4] نَفْسي عِنْدَ نَخْوَتِهَا ▫▪▫ فَكَيْفَ آمَنُ مَقْتَ اللهِ إيَّاهَا؟!

ولِلْكِبْرِ صُوَرٌ وأشكالٌ عدَّةٌ، فتارة يظهرُ في الوَجْهِ كَتَصْعيرِ الخَدِّ[5]، وبالنَّظرِ شَزْرًا[6] تارةً، وأُخرى بإطْرَاقِ الرَّأسِ، وتارة يكونُ بإسْبَالِ الثَّوْبِ عُجْبًا وبَطَرًا، أو بالتَّبختُرِ في المَشْي مَعَ الإعْجَابِ بثِيَابِه، وغير ذلك من صُوَرِ الكِبْرِ.

قَالَ اللهُ - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا[7] إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (سورة لقمان:١٨).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ، لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إلَيْه يَوْمَ القيامة»[8].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٦٢٠).
(٢) جَوْفُ الإنْسان: بَطْنُهُ، والجمعُ أَجْوَافٌ.
(٣) مُجَوَّفَة: فيها تَجويف.
(٤) المَقْتُ: أشدُّ البُغْض.
(٥) تصعير الخدِّ: الميل والإعراض به عن النَّاس تكبُّرًا عليهم.
(٦) نَظَرَ إليه شَزْرًا: أي نظر إليه بمُؤْخِرِ عَيْنِه، ومُؤْخِرُ العين - بسكون الهمزة - وكسر الخاء -: طَرَفُهَا الَّذي يلي الصُّدْغَ، والجمعُ مَآخِرُ.
(٧) المَرَح: التَّبختر والخُيَلاء وشدَّةُ الفرح.
(٨) رواه البخاريُّ (٥٧٩١)، ومسلمٌ (٢٠٨٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيرةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَـالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «بَيْنَمَا رجلٌ يمشي في حُلَّةٍ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رأسَهُ[(١)]، يَخْتَالُ في مِشْيَتِهِ، إذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فهو يَتَجَلْجَلُ[(٢)] في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ»[(٣)].

قَالَ أَحَدُ الشُّعَرَاءِ في وَصْفِ المُتَكَبِّرِينَ:

وُجُوهُهُمْ مِنْ سَوَادِ الكِبْرِ عابسةٌ ◘■◘ كأنَّما أُوفِدُوا[(٤)] غَضْبًا إلى النَّارِ

هَانُوا على اللهِ، فاسْتاءَتْ مَنَاظِرُهُمْ ◘■◘ يا وَيْحَهُمْ مِنْ مَنَاكِيدَ[(٥)] وفُجَّارِ

لَيْسُوا كقَوْمٍ إذا لاقَيْتَهُمْ عَرَضًا ◘■◘ أَهْدُوك مِنْ نُورِهِمْ ما يُتْحِفُ السَّارِي[(٦)]

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ: لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ◘■◘ مثلُ النُّجُومِ التي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

■ *أمورٌ تُنَافي التَّواضُعَ:*

١ ـ *أَنْ يرى المَرْءُ لنفْسِهِ حقاً على اللهِ لأجلِ تواضُعِه:*

وَعِلاجُهُ أَنْ يَعْلَمَ المَرْءُ أنَّه مهما بلغَ مِنَ العِلْمِ، والعملِ الصَّالحِ، فَإِنَّهُ لا يَدْخُلُ بِهِ الجنَّةَ، إلاَّ أَنْ يتغمَّدَهُ اللهُ برَحْمَتِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم- لأصحابِهِ -وَهُمْ خَيْرُ النَّاسِ-: «ليس أَحَدٌ منكم يُنْجِيهِ عَمَلُهُ». قالوا: «ولا أَنْتَ، يا رسولَ اللهِ؟!». قَالَ: «ولا أنا، إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بمغفرةٍ منه ورَحْمَةٍ»[(٧)].

---

(١) مُرَجِّلٌ رأسَهُ: مُسَرِّحُهُ بالمُشْطِ.
(٢) يَتَجَلْجَلُ: يغوصُ في الأرضِ حين يخسفُ به. والجَلْجَلَةُ: حَرَكَةٌ مع صوتٍ.
(٣) رواه البخاريُّ (٥٧٨٩)، ومسلمٌ (٢٠٨٨).
(٤) أُوفِدُوا: أُرْسِلُوا.
(٥) مناكيد: جمعُ مَنْكُود، وهو المشئومُ قليلُ الخيرِ.
(٦) السَّاري: السَّائر لَيْلاً مِنْ سَرَى يَسْري سُرَىً.
(٧) تقدَّم تخريجُهُ، واللفظ هنا لمسلمٍ.

قال الشاعر:

ولو أنَّ أنفاسَ العبادِ قصائدٌ ▫▪▫ حَفَلَتْ بِمَدْحِكَ في جَلالِ عُلاكَا

ما أَدْرَكَتْ ما تَسْتَحِقُّ، وَقَصَّرَتْ ▫▪▫ عَنْ مَجْدِكَ الأَسْمَى، وحُسْنِ سَنَاكَا[1]

٢ ـ أنْ يرى لنفسه فَضْلاً على النَّاس، وقيمةً على مَنْ سِوَاهُ:

وَعِلاجُ هذا الأَمْرِ أَنْ يعلمَ أَنَّهُ مَدِينٌ للهِ في إِنْعَامِـهِ، وتَفَضُّلِهِ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى -: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (سورة النحل: ٥٣).

قالَ الشَّاعرُ:

سُبْحَانَ مَنْ لو سَجَدْنا بالجِبَاهِ لَهُ ▫▪▫ على لَظَى[2] الجَمْرِ، والحَمْيِ[3] مِنَ الإِبَرِ

لم تبلغِ العُشْرَ مِنْ مِقْدَارِ نِعْمَتِهِ ▫▪▫ ولا العُشْرِ ولو عُشْرِ مِنَ العُشْرِ!

٣ ـ أن يرى في نفْسِهِ أنَّه متواضعٌ:

وَعِلاجُهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مَنْ رأى في نَفْسِهِ أَنَّهُ مُتَوَاضِعٌ فهو مُتَكَبِّرٌ؛ لأَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يقولُ: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (سورة النجم: ٣٢).

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «لا تُزَكُّوا أنفسَكُمْ؛ اللهُ أعلمُ بأهلِ البرِّ منكم»[4].

---

(١) السَّنا: النُّور السَّاطع.

(٢) اللَّظَى - بفتحتين -: النَّار.

(٣) الحَمْي: المُشتدّ الحرِّ.

(٤) رواه مسلمٌ في «الآداب» (٤١٤٢) عن زينبَ بنتِ أُمِّ سَلَمَةَ.

٤ ـ الإِعْجَابُ بالنَّفْس:

العُجْبُ داءٌ عظيمٌ يدعو إلى الكِبْرِ، فهُوَ أَحَدُ أسبابِهِ، بَلْ هُوَ الدَّرَجَة الأولَى في سُلَّمِ الكِبْرِ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ العُجْبُ مِنَ المُهْلِكَاتِ، كَما قالَ رسولُ الله - ﷺ -: «ثلاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهَوَىً مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المَرْءِ بنفسِهِ»[(١)].

وفي حديث أبي هُرَيرةَ: «.. وأمَّا المُهْلِكَاتُ: فَهَوَىً مُتَّبَعٌ، وشُحٌّ مُطَاعٌ، وإعجابُ المَرْءِ بنفسِهِ، وهي أَشَدُّهُنَّ»[(٢)].

والعُجْبُ بالنَّفس يُطْفِئُ من المحاسن ما انتشر، ويَسْلُبُ مِنَ الفَضَائِلِ مَا اشْتَهَرَ، ويُبْرِزُ المساوِئَ، ويُكْسِبُ الرَّذَائِلَ، ويُوجِبُ الذَّمَّ واللَّوْمَ، وليسَ لمن استَوْلَى عليه إصْغاءٌ لنُصْحٍ، ولا قَبُولٌ لتأديبٍ؛ لأَنَّ المُعْجَبَ يَسْتَكْثِرُ فَضْلَهُ عن استِزَادَةِ المُتأدِّبِينَ.

قالَ الإمامُ عليٌّ - رضي الله عنه -: «الإعجابُ ضِدُّ الصَّوابِ، وآفَةُ الألبابِ»[(٣)].

وقالَ بُزُرْ جَمِهْرُ: «النِّعْمَةُ الَّتي لا يُحْسَدُ صاحِبُهَا عليها التَّواضعُ، والبَلاءُ الَّذي لا يُرْحَمُ صَاحِبُهُ منه العُجْبُ»[(٤)].

قَالَ الشَّاعِرُ:

إذا شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ قَدْرًا وَرِفْعَةً ... فَلِنْ وَتَوَاضَعْ، واتْرُكِ الكِبْرَ والعُجْبَا[(٥)]

---

(١) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الأوسط» عن ابن عُمَرَ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٠٤٥)، وهو في «الصَّحيحة» (١٨٠٢).
(٢) حسَّنه الألبانيُّ في «تخريج المشكاة» (٥١٢٢).
(٣) و (٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٣٧).
(٥) «جواهر الأدب» (ص٧١٣).

٥ـ عَدَمُ الخُضُوعِ للحقِّ:

وعلاجُهُ أَنْ يَعْلَمَ أنَّ عَدَمَ الخُضُوعِ للحَقِّ هو عَيْنُ الكِبْرِ والبَغْي؛ لأنَّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ عرَّف الكِبْرَ ـ الَّذي هو ضِدُّ التَّواضُعِ ـ بقوله: «الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ[١]، وغَمْطُ النَّاسِ[٢]»[٣].

وَسُئِلَ الفُضَيْل بْنُ عِيَاضٍ عَنِ التَّواضُعِ، فقالَ: «يخْضَعُ للْحَقِّ، وينْقَادُ لَهُ، ويَقْبَلُهُ ممَّنْ قَالَهُ»[٤].

ومَنْ كانَ قَصْدُهُ رضَى الله، هانَ عليه الانْقِيَادُ لِلْحَقِّ، كَالَّذي رُوِيَ عَنْ عُبَيْدِ الله ابْنِ الحسَنِ العنبريِّ أنَّه سُئِلَ عَنْ مَسْأَلة، فَغَلِطَ فيها، فلمَّا نُبِّهَ إلى غَلَطِه، أَطْرَقَ سَاعَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «إذًا أَرْجِعُ وأنا صَاغِرٌ، لأَنْ أكونَ ذَنَبًا في الحقِّ أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ رَأْسًا في البَاطِلِ»[٥].

قَالَ الشَّاعِرُ:

فَيَا شَامِخًا، أَقْصِرْ عِنَانَكَ مقصراً ■ فَإِنَّ مَطَايَا الدَّهْرِ تَكْبُو وتَعْثُرُ
سَتَقْرَعُ سِنًّا، أو تَعَضُّ ـ نَدَامَةً ـ ■ يَدَيْكَ، إذا خَانَ الزَّمانُ وتبصرُ
ويَلْقَاكَ مُرْشِدٌ ـ بَعْدَ غَيِّكَ ـ وَاعِظٌ ■ ولكنَّهُ يَلْقَاكَ والأَمْرُ مُدْبِرُ



---

(١) بَطَرُ الحقِّ: رَدُّهُ على قائله، وَعَدَمُ قَبُوله منه رغم علمه به.
(٢) غَمْطُ النَّاس: احتقارهم وازدراؤهم، ومَن احتقرهم وازدراهم دفع حُقُوقِهِمْ، وَجَحَدَهَا واستهانَ بها.
(٣) رواه مسلمٌ (٩١) عن ابن مسعود.
(٤) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٨٠).
(٥) «تهذيب التَّهذيب» (٧/ ١٢).

الحِـلْـمُ

الحِلْمُ: آيةُ حُسْنِ الخُلُقِ، وعُنْوَانُ عُلُوِّ الهِمَّةِ، فهو مِنْ أَشْرَفِ الأَخْلاقِ، وأَحَقِّهَا بِذَوِي الأَلْبَابِ؛ لما جَعَلَ اللهُ فيه مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ، والسَّكِينَةِ، والحلاوة، وسَلامَةِ العِرْضِ، ورَاحةِ الجَسدِ، واجْتِلابِ الحَمْدِ، وَرِفْعَةِ النَّفْسِ عَنْ تَشَفِّيهَا بالانْتِقَامِ؛ فَلا يَنْبُلُ الرَّجُلُ حتَّى يكُونَ مُتَخَلِّقًا بِهَذا الخُلُقِ العظيمِ.

▪ فَضْلُ الحِلْمِ وَفَوَائِدِهِ:

١ - أنَّهُ امْتِثَالٌ لأمرِ اللهِ - تعالى - الَّذِي هُوَ غَايَةُ سَعَادَةِ الإِنْسَانِ في معاشِهِ ومَعَادِهِ:

قالَ اللهُ - سُبحانَهُ وتعالى - في آيةٍ جامعةٍ لحُسْنِ الخُلُقِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٩٩).

قَالَ عبدُ اللهِ بْنُ الزُّبيْرِ - رضي الله عنهما -: «أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ - ﷺ - أَنْ يأخذَ العَفْوَ مِنْ أخلاقِ النَّاسِ»[١].

٢ - أنَّه صفةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ - تعالى -:

قَالَ اللهُ - تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ -: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٥).

---

(١) تقدَّم تخريجُهُ.

قال العلاَّمة ابْنُ سَعْدِيٍّ - يرحمه الله - في تفسير هذه الآية:

«الحليمُ: الَّذي يُدرُّ على خَلْقه النِّعَمَ الظَّاهرةَ والبَاطنَةَ مَعَ عِـصْيَانِهِمْ، وكَثْرَةِ زَلاَّتِهِمْ، فَيَحلُمُ عَنْ مُقَابَلَةِ العَاصِينَ بِعِصْيَانِهِمْ، وَيَسْتَعْتِبهُمْ كي يَتُوبُوا، ويُمهِلُهُم كَي يُنِيبُوا»[١].

٣ - أنَّه من أخلاقِ الأنبياءِ والمُرسَلين - عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُهُ أجمعين -:

لَمْ يُسَمِّ اللهُ - عَـزَّ وَجَلَّ - بالحلم في كـتـابِه أَحَـدًا إلاَّ إبراهيمَ خَـليلَهُ، وإِسْمَاعِيلَ ذَبِيحَهُ.

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى-: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ (سورة هود: ٧٥).

وَقَالَ: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (سورة الصافات: ١٠١).

وَبَلَغَ نبـيُّنا -ﷺ- الذُّرْوَةَ والغايَةَ فـي حِلْمِه وَعَـفْوِه، وَضَـبْطِ النَّفْسِ إِزَاءَ[٢] التَّخَـرُّصَاتِ والمُفْتَرَيَاتِ الَّتـي نُسِبَتْ إلَيه، إضَافَـةً إلى الإِيذَاءِ الَّذي لَقِيَهُ مِنْ مُـشْرِكِي الْعَرَبِ: كَامْرَأَةِ أَبي لَهَبٍ، وأبي جَهْلٍ، وأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ، وغيرِهِمْ مِنْ سُفَهَاءِ مَكَّةَ.

وَصَفَـتِ السَّيِّدَةُ عـائشةُ -رضي الله عنها- خُـلُقَ رَسُولِ الله -ﷺ- فَقَـالَتْ: «**ولا يُجْزِي بالسَّيِّئةِ السَّيِّئَةَ، ولكنْ يَعْفُو ويَصْفَحُ**»[٣].

وعنها - أيضًا - قالتْ: «ما ضَرَبَ رسولُ اللهِ - ﷺ - شيئًا - قَطُّ - بيدِهِ، ولا امرأةً، ولا خادمًا، إلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ في سبيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ منه شيءٌ - قَطُّ - فينتقمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إلاَّ أَنْ يَنْتَهِكَ شيئًا مِنْ مَحَارِمِ اللهِ، فينتقمَ للهِ - عزَّ وجلَّ -»[٤].

---

(١) «تفسير السَّعْديِّ» (٥/ ٦٣٠).
(٢) إزاء: حِيَال ومقابل.
(٣) رواه التِّرْمذيُّ (٢٠١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سُنَنِ التِّرمذيِّ» (١٦٤٠).
(٤) رواه مسلمٌ (٢٣٢٨).

وَجَاءَ فِي وَصْفِهِ -ﷺ- فِي التَّوْرَاةِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ -رضي الله عنهما- قَالَ: «لَيْسَ بفَظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سَخَّابٍ[١] بالأسواقِ، ولا يدفعُ السَّيِّئَةَ بالسَّيِّئَةِ، ولكن يَعْفُو ويصفحُ»[٢].

قَالَ الشَّاعِرُ:

صَفُوحٌ عَنِ الإجرامِ حتَّى كأنَّهُ ▫▪▫ مِنَ العَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجْرِما

وليس يُبالي أنْ يكونَ بِهِ الأَذَى ▫▪▫ إذا مَا الأَذَى لَمْ يَغْشَ[٣] بالكُرْهِ[٤] مُسْلِما

وإليكَ - أخي الكريم - هَذَيْنِ المثالينِ مِنْ سيرتِهِ - ﷺ - الدَّالَّينِ على سَعَةِ حِلْمِهِ:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: «كَأَنِّي أنظرُ إلى رسولِ اللهِ - ﷺ - يَحْكِي أَنَّ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قومُهُ فَأَدْمَوْهُ، وهو يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، ويقولُ: «اللهُمَّ، اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»»[٥].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- قَالَ: «كنتُ أمشي مع النَّبيِّ - ﷺ -، وعليه بُرْدٌ[٦] نَجْرَانيٌّ غليظُ الحاشيةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ[٧] بردائِهِ جَبْذَةً شديدةً، حتَّى نَظَرْتُ إلى صَفْحَةِ[٨] عاتقِ[٩] رسولِ اللهِ - ﷺ - قَدْ أَثَّرَتْ بها حاشيةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قال: يا محمَّدُ، مُرْ لي مِنْ مالِ اللهِ الذي عندَكَ. فالتفتَ إليه رسولُ اللهِ - ﷺ -، ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»[١٠].

---

(١) السَّخَّاب: الشَّديد الصِّيَاح.
(٢) رواه البخاريُّ (٢١٢٥) و (٤٨٣٨).
(٣) لم يَغْشَ: لم يُغَطِّ.
(٤) الكُرْه - بالضَّمِّ -: المشقَّة.
(٥) رواه البخاريُّ (٣٤٧٧) و (٦٩٢٩)، ومسلمٌ (١٧٩٢).
(٦) البُرْد: كساءٌ مُخَطَّطٌ يُلْتَحَفُ به، وجمعه بُرُودٌ، وأَبْرَادٌ.
(٧) الجَبْذَة: الجَذْبة.
(٨) الصَّفْحة: الجانب.
(٩) العاتق: ما بين العُنُقِ والكَتِف.
(١٠) رواه البخاريُّ (٣١٤٩) و (٥٨٠٩) و (٦٠٨٨)، ومسلمٌ (١٠٥٧).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ - يرحمه اللهُ - مُعلِّقًا على هذا الحديث:

«وهذا مِنْ رَوَائِعِ حِلْمِه - عليه السلام - وكمَالِه، وحُسْنِ خُلُقِه، وَصَفْحِه الجميل، وَصَبْرِهِ على الأَذَى في النَّفْسِ والمَالِ، والتَّجَاوز على جَفَاءِ مَنْ يُرِيدُ تَأَلُّفَهُ عَلَى الإِسْلامِ، وليتَأَسَّى بِهِ الدُّعَاةُ إلى اللهِ والوُلاةُ بَعْدَهُ في حِلْمِهِ، وخُلُقِهِ الجميلِ: مِنَ الصَّفْحِ، والإِغْضَاءِ، والعَفْوِ، والدَّفْعِ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»[1].

قَالَ حسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيُّ:

أَغَــرُّ[2] عَلَيْــهِ لِلنُّبُــوَّةِ خَــاتَمٌ ▪ مِنَ اللهِ مَــيْـمُـونٌ[3] يَلُوحُ وَيَشْـهَـدُ

وضَمَّ الإلهُ اسمَ النَّبيِّ إلى اسْـمِـهِ ▪ إذَا قَالَ في الخَمْسِ[4] المُؤَذِّنُ: أَشْـهَـدُ

وشَقَّ لـه مِن اسْـــمِـــهِ لِيُـــجِلَّهُ ▪ فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ، وَهَذَا مُحَمَّدُ

٤ ـ أنَّه سببٌ لنيلِ محبَّةِ اللهِ، وثوابِهِ الجَزْلِ العظيمِ:

قَالَ اللهُ -سُبحانَهُ وتعالى -: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤).

---

(١) «فتح الباري» (١٠/٥٠٦)، و«شرح مسلم» (٧/١٤٦ - ١٤٧).

(٢) أَغَرُّ: أبيض، والجمعُ غُرٌّ، وغُرَّانٌ.

(٣) ميمون: مُبارك، والجمع مَيَامين.

(٤) الخمس: يعني الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ المَكْتوبة.

وعن مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ -رضي الله عنه- أنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غيظًا -وهو قادرٌ على أَنْ يُنَفِّذَهُ[1] - دَعَاهُ اللهُ يومَ القيامةِ على رُءُوسِ الخَلائقِ؛ حتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أيِّ الحُورِ[2] العِينِ[3] شاءَ»[4].

وعن ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- أنَّ رَسُولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ كَظَمَ غَيْظًا - ولو شاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ - مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ رضىً يومَ القيامةِ»[5].

٥ - أنَّ اللهَ يتجاوزُ عن سَيِّئاتِ أَهْلِ الحِلْمِ، كَمَا تجاوزوا عمَّنْ أساءَ إليهم من عباده؛ فالجزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وكَمَا تَدِينُ تُدَانُ:

كَانَ مِسْطَحُ بنُ أُثَاثَةَ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، وَكَانَ قريبًا لأبي بكْرٍ الصِّدِّيقِ، ويَعيشُ علَى إحْسَانه، وفي حَادثَةِ الإِفْكِ لَمْ يَتَوَرَّعْ عَنِ الخَوْضِ فيهَا، وَالخَبْطِ في عِرْضِ أُمِّ المؤمنينَ عَائشَةَ -رضي الله عنها- الَّتِي يَكْفُلُهُ أَبُوهَا، فَنَسِيَ بِذَلِكَ حَقَّ الإسلامِ، وحَقَّ القَرَابَةِ، وَحَقَّ الصَّنِيعِ القَدِيمِ، فأَغْضَبَ ذلكَ أبا بَكْرٍ، وَجَعَلَهُ يَحْلِفُ أَلاَّ يَصِلَ قَرِيبَهُ هَذَا كَمَا كَانَ يَصِلُهُ، فَقَالَ: «والله، لا أُنْفِقُ على مِسْطَحٍ شيئًا أبدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ ما قَالَ». فأنزلَ اللهُ - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ[6] أُولُوا الْفَضْلِ منكُمْ وَالسَّعَةِ[7] أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة النور: ٢٢).

---

(١) ومنه العَفْوُ عندَ المَقْدرَة.
(٢) **الحُور:** نساءٌ شديدات سواد العيون وبياضها في حُسْنٍ وملاحة، والمفرد حَوْراءُ.
(٣) **العِين:** ضِخام الأَعْيُنِ وحِسَانُها، والمفرد عَيْناءُ.
(٤) رواه أبو داودَ - واللفظ له - (٤٧٧٧)، والتِّرمذيُّ (٢٠٢١) و(٢٤٩٣)، وابن ماجَة (٤١٨٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٦٥١٨ و ٦٥٢٢).
(٥) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير»، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٧٦)، و«الصَّحيحة» (٩٠٦).
(٦) **لا يَأْتَلِ:** لا يَحْلِفْ، من الأَلِيَّةِ بمعنى الحَلِف.
(٧) **السَّعَة:** الغِنَى.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق -رضي الله عنه وأَرْضَاهُ-: «بَلَى، والله، إني لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لي». فرَجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ التي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ مُقَابِلَ حَلِفِه الأَوَّل: «والله، لا أَنْزِعُهَا منه أبداً»[(١)].

وَعَنِ ابْنِ عَمْرو -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، واغفِروا يُغْفَرْ لَكُم»[(٢)].

٦ ـ أَنَّهُ يَقْطَعُ خَوَاطِرَ الثَّأْرِ التي تَسْتَهْلِكُ الْقَلْبَ:

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

«مَشْهَدُ السَّلامَةِ وبَرْدِ الْقَلْبِ، وَهَذَا مَشْهَدٌ شَرِيفٌ جداً لمن عَرَفَهُ، وذاقَ حَلاوتَهُ، وَهُوَ ألاَّ يَشْتَغِلَ قلبُهُ وَسِرُّهُ بِمَا نَالَهُ مِنَ الأَذَى، وَطَلَبِ الوُصُول إلى دَرْكِ ثَأْرِه، وَشِفَاء نَفْسه، بَلْ يُفَرِّغُ قلبَهُ مِنْ ذَلِكَ، ويَرَى أَنَّ سَلامَتَهُ وبردَهُ وخُلُوَّهُ منه أَنْفَعُ لَهُ، وَأَلَذُّ وأَطْيَبُ عِنْدَهُ، وَأَعْوَنُ على مَصَالِحِه؛ فَإِنَّ القَلْبَ إذا اشْتَغَلَ بشَيْءٍ فَاتَهُ مَا هُوَ أَهَمُّ عِنْدَهُ، وَخَيْرٌ لَهُ مِنْهُ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ مَغْبُونًا[(٣)]، والرَّشِيدُ لا يَرْضَى بِذَلِكَ، وَيَرَى أَنَّهُ مِنَ تَصَرُّفَات السَّفِيهِ، فَأَيْنَ سَلامَةُ القَلْبِ مِن امْتِلائه بِالْغِلِّ والوَسَاوِس، وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ في إِدْرَاكِ الانْتِقَامِ؟!»[(٤)].

٧ ـ أَنَّهُ يَقْطَعُ إِلحاحَ الجَاهِلِ في الظُّلْم:

قَالَ اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (سورة فصلت: ٣٤).

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٦٦١) و(٤١٤١) و(٤٧٥٠) و(٤٧٥٧) و (٦٦٧٩)، ومسلمٌ (٢٧٧٠).
(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٥، ٢١٩)، والبخاريُّ في«الأدب المفرد» (٣٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٨٩٧)، و«الصَّحيحة» (٤٨٢).
(٣) المغبون: الخاسر والمنقوص، من الغَبْن: وهو الشِّراءُ بأضعاف الثَّمَنِ، أو البيعُ بأقلَّ من ثَمَنِ المِثْلِ.
(٤) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٧٠).

قَالَ العَلاَّمَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالحٍ العُثَيْمين - يرحمه الله -:

«جَاءَتِ النَّتيجَةُ بـ (إذا الفُجَائيَّة)؛ لأَنَّ (إذَا الفُجَائيَّة) تَدُلُّ على الحُدُوث الفَوْريِّ في نتيجَتِهَا: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، ولكِنْ ليسَ كُلُّ أَحَدٍ يُوفَّقُ لذلك، قَالَ: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (سورة فصلت: ٣٥)».[1]

يقولُ ابنُ القيِّم - يرحمه الله -:

«فإنَّه إذا تَرَكَ المُقَابَلَةَ والانتقَامَ أَمِنَ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْ ذلكَ، وإذا انتقَمَ وَاقَعَهُ الخَوْفُ وَلابُدَّ، فَإِنَّ ذَلكَ يَزْرَعُ العَدَاوَةَ، والعاقِلُ لا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ، وَلَوْ كَانَ حَقِيرًا، فكَمْ مِنْ حَقِيرٍ أَرْدَى عَدُوَّهُ الكَبِيرَ».

ولله درُّ محمَّدٍ اليمنيِّ المُلقَّب بنجم الدِّين حين قال:

لا تَحْتَقِرْ كَيْدَ الضَّعيفِ فربَّما ... تموتُ الأفَاعِي مِنْ سُمُومِ العَقَارِبِ
وقَدْ هَدَّ قِدْمًا[2] عَرْشَ بِلْقِيسَ هُدْهُدٌ ... وخَرَّبَ حَفْرُ الفَأْرِ سَدَّ مَآرِبِ[3]

وقال آخرُ:

لا تَحْتَقِرْ شيئًا صغيرًا يُحْتَقَرْ ... فَرُبَّمَا أَسَالَتِ الدَّمَ الإِبَرْ[4]

---

(١) «مكارم الأخلاق» لابن عثيمين (ص٢٦).

(٢) قِدْمًا: قديمًا.

(٣) «جواهر الأدب» (ص٦٩٧).

(٤) المرجع السابق.

وَيُوَاصِلُ ابنُ القَيِّمِ كَلامَهُ السَّابِق فَيَقُولُ:

«فَإِذَا غَـفَرَ وَلَمْ يُقَـابِلْ، أَمِنَ مِنْ تَوَلُّدِ العَـدَاوَةِ أو زِيادَتِها، ولابُدَّ أَنَّ عَـفْوَهُ وَحِلْمَهُ وَصَـفْحَهُ يَكْسَـرُ عَنْهُ شَوْكَةَ عَـدُوِّهِ، وَيَكُفُّ مِنْ جَزَعِهِ بِعَكْسِ الانْتِـقَامِ، والوَاقِعُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ أَيْضًا»[1].

وَقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ: «مَنْ غَرَسَ شَجَرَةَ الحِلْمِ، اجْتَنَى ثَمَرَةَ السِّلْمِ[2]»[3].

وَقَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - يرحمه اللهُ -:

لَمَّا عَـفَـوْتُ، ولَمْ أَحْـقِـدْ على أَحَـدٍ ... أَرَحْتُ نَفْـسِـي مِنْ هَمِّ العَـدَاوَاتِ

إِنِّي أُحَـيِّي عَـدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَتِـهِ ... لأَدْفَعَ الشَّـرَّ عَنِّي بِالتَّـحِـيَّـاتِ

وأُظْهِـرُ البِـشْـرَ لِلإِنْسَانِ أُبْغِـضُـهُ ... كَـأَنَّمَـا قَـدْ حَـشَـا قَلْبِي مَـحَـبَّـاتِ

النَّـاسُ دَاءٌ دَوَاءُ النَّـاسِ قُـرْبُهُـمُ ... وفي اعْـتِـزَالِهِمُ قَطْعُ المَوَدَّاتِ[4]

٨ ـ أَنَّهُ يَصُونُ عِرْضَ صَاحِبِهِ، وَيَجْلِبُ لَهُ حَمْدَ النَّاسِ وَنُصْرَتَهُمْ:

قَالَ بَعْضُ البُلَغَاءِ: «مَا ذَبَّ عَنِ الأَعْرَاضِ كَالصَّفْحِ والإِعْرَاضِ»[5].

وَقَالَ الإِمَامُ عَلِيٌّ - رضي الله عنه -: «أَوَّلُ عِوَضِ الحَلِيمِ عَنْ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنصارُهُ»[6].

---

(١) «تهذيب مَدَارج السَّالكين» (٢/ ٦٧٠ ـ ٦٧١).

(٢) السِّلْم - بفتح السِّين وكسرها - : الصُّلْح.

(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥١).

(٤) المرجع السابق (ص١٨٢).

(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥١).

(٦) المرجع السَّابق (ص٢٥٢).

■ **الأَسْبَابُ البَاعِثَةُ على الحِلْمِ، وَضَبْطِ النَّفْسِ عَنْ هَيَجَانِ الغَضَبِ:**

ثَمَّةَ عَشَرَةُ أَسْبَابٍ تدعو إلى الحِلْمِ [١]:

أحدها - رحمة الجُهَّال، وذلكَ مِنْ خَيْرٍ يُوافِقُ رِقَّةً:

قالَ اللهُ - تباركَ وتعالى-: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ (سورة الفرقان: ٦٣).

وقَدْ قيلَ في منثورِ الحِكَمِ: «مِنْ أَوْكَدِ الحِلْمِ رَحْمَةُ الجُهَّالِ».

عَنِ ابْنِ عَبَّـاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَ على ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الذين يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وكَانَ القُرَّاءُ [٢] أَصْحَابَ مجالسِ عُمَرَ ومُشَاوَرَتِهِ، كُهُولاً [٣] كَانُوا أو شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أَخِيهِ: يابْنَ أخي، لكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذا الأَمِيرِ؛ فَاسْتَأْذِنْ لي عَلَيْهِ. قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ.

قَالَ ابْنُ عبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الحُرُّ لعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيْ [٤] يا بْنَ الخطَّاب، فواللهِ، ما تُعطينا الجَزْلَ [٥]، ولا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حتَّى هَمَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ اللهَ - تَعَالَى - قَالَ لنَبِيِّهِ - ﷺ -: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (سورةالأعراف: ١٩٩). واللهِ، مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حين تَلاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ [٦].

---

(١) انظر: المرجع السَّابق (ص٢٥٢ - ٢٥٥).
(٢) القُرَّاء: القراء هنا هم أهل العلم والفقه والفَهْم.
(٣) الكُهُول: جمع كَهْلٍ، وهو الذي جاوز الثَّلاثين، ووخطَهُ الشَّيْبُ، ويُجْمَعُ - أيْضًا - على كُهْلٍ.
(٤) هِيْ: كلمة تنبيه، وتحملُ معنى التَّهديد.
(٥) الجَزْل: الشَّيء الكثير.
(٦) رواه البخاري (٤٦٤٢) و(٧٢٨٦).

فهَذَا الأَعْرَابِيُّ لَمْ يَدْخُلْ عَلَى عُمَرَ نَاصِحًا بِخَيْرٍ، أَوْ طَالِبًا لحقٍّ، وإنَّما دَخَلَ عليه في سُلْطَانه؛ لِيَشْتِمَهُ دُونَ مُبَرِّرٍ، ولِـيَسْأَلَهُ عَطَاءً جَزْلاً على غَيْرِ عَمَلٍ؛ فَلِهَذَا غَضِبَ عُمَـرُ وَهَمَّ بِرَدْعِهِ، فَلَمَّا ذُكِّرَ أنَّ الرَّجُلَ مِنَ الجُهَّـالِ، أَعْرَضَ عَنْهُ، وَتَرَكَهُ يَنْصَرِفُ سَالمًا.

والثَّاني ـ القُدْرَةُ على الانتصار، وذلكَ مِنْ سَعَةِ الصَّدْرِ، وَحُسْنِ الثِّقَةِ:

عَقِبَ فَـتْحِ مكَّةَ صَلَّى رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ في الكَعْبَةِ، ثُمَّ خَطَبَ قُـرَيْشًا، فَقَالَ: «يَا مَعْـشَرَ قُرَيْش، مَا تَرَوْنَ أنِّي فـاعلٌ بكم؟». **قَالُوا: «خَيْرًا، أخٌ كَرِيمٌ، وابْنُ أخٍ كَرِيم». قَالَ: «فَإنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ: ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾** (سورة يوسف: ٩٢). **اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»**[١].

وَكَتَبَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ المَهْدِيِّ في كَلامٍ لِلْمَأْمُونِ: «إنْ عَفَـوْتَ فَبِـفَضْلِكَ، وَإِنْ أَخَذْتَ فَبِحَقِّكَ». فوقَّعَ[٢] المَأْمُونُ: «القُدْرَةُ تُذْهِبُ الحَفِيظَةَ[٣]».

وَقَالَ بَعْضُ البُلَغَاءِ: «أَحْسَنُ المَكَارِمِ عَفْوُ المُقْتَدِرِ، وَجُودُ المُفْتَقِرِ».

وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: «لَيْسَ مِنَ الْكَرَمِ عُقُوبَةُ مَنْ لا يَجِدُ امْتِنَاعًا مِنَ السَّطْوَةِ[٤]».

ومَنْ ظَنَّ أنَّ الصَّـفْحَ والحِلْمَ عمَّن أَسَـاءَ، والإحْسَانَ إلَـيْهِ مَعَ القُدْرَةِ عَـلَيْهِ يُوجِبُ الذُّلَّ والمَهَانَةَ ـ فَقَدْ خَابَ ظَنُّهُ؛ لأَنَّ العَـفْوَ ـ إِذَا كَانَ في مَحَلِّه ـ هُوَ عَيْنُ الْعِزَّةِ والرِّفْعَةِ والشَّرَفِ، وهَذَا مُجَرَّبٌ مُشَاهَدٌ، فَمَا انْتَقَمَ أَحَدٌ لِنَفْسِه إلاَّ ذَلَّ.

---

(١) «الرَّحيق المختوم» (ص٣٧٢).
(٢) **التَّوقيعُ:** رأْيُ الحَاكِمِ يكتُبُهُ عَلَى مَا يَعْرِضُ عليه مِنْ شئُونِ الدَّوْلَةِ.
(٣) **الحفيظة:** الحَمِيَّةُ والغَضَبُ.
(٤) **السَّطْوَة** – بالفتح –: القَهْرُ بالبَطْشِ، والجمعُ سَطَوَاتٌ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عَنْ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلاَّ عِزًّا»(١).

وَعَنْهُ - أَيْضًا - أَنَّ رَجُلاً قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّ لِي قَرَابَةً، أَصِلُهُم وَيَقْطَعُونَنِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِم وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ، ولا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عليهم، ما دُمْتَ على ذلك»(٢).

قَالَ كَعْبُ بْنُ سَعْدٍ الغَنَوِيُّ:

حَلِيمٌ إذا ما الحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ ... مَعَ الحِلْمِ في عَيْنِ العَدُوِّ مَهِيبُ(٣)

وَقَالَ آخَرُ:

وإذا مُذْنِبٌ أَتَاهُ بِهِ الحَقُّ ... فَغَطَّاهُ عَفْوُهُ في سُتُورِهْ
راجِيًا للثَّوابِ في كُلِّ رُزْءٍ(٤) ... مِنْ خَفِيِّ الأُمُورِ أو مَشْهُورِهْ
فهو في عَاجِلِ الحَيَاةِ كَرِيمٌ ... ومِنَ الفائزينَ يومَ نُشُورِهْ
خَصْلَةٌ جَزْلَةٌ بها خَصَّهُ اللهُ ... لزَيْنِ الدُّنيا ويَوْمِ كُرُورِهْ(٥)(٦)

فثمَّة بَوْنٌ شاسعٌ بَيْنَ مَنْ أَسْقَطَ حَقَّهُ بِتَرْكِ الانْتِقَامِ - مَعَ قُدْرَتِه عَلَيْه - رَغْبَةً في الإِحْسَانِ، وَمَكَارِمِ الأَخْلاقِ - وبَيْنَ مَنْ تَرَكَ الانْتِقَامَ عَنْ عَجْزٍ عنه، فَالأَوَّلُ حِلْمُهُ حِلْمُ اقْتِدَارٍ وَعِزَّةٍ وَشَرَفٍ، والثَّاني حِلْمُهُ حِلْمُ ذُلٍّ ومَهَانَةٍ وَحَقَارَةٍ، فَالأَوَّلُ مَحْمُودٌ، وَالثَّانِي مَذْمُومٌ، بَلْ لَعَلَّ الآخِذَ بِثَأْرِهِ، المُنْتَقِمَ لِنَفْسِهِ أَحْسَنُ حَالاً مِنْهُ.

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).
(٢) تقدَّم تخريجه.
(٣) «الحلم» (ص٦٠).
(٤) الرُّزْء: واحد الأرزاء، وهي المصائب.
(٥) الكرور: الرُّجوع.
(٦) «روضة العقلاء» (ص٢٨١).

قال الشاعر:

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ ... حُجَّةٌ لاجِئٌ إِلَيْهَا اللِّئَامُ[(١)]

والثَّالثُ - التَّرفُّعُ عَنِ السِّبَابِ، وَذَلِكَ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ، وعُلُوِّ الهِمَّةِ:

قَالَتِ الحُكَمَاءُ: «شَرَفُ النَّفْسِ أَنْ تَحْمِلَ المَكَارِهَ، كَمَا تَحْمِلُ المَكَارِمَ».

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ - يرحمه اللهُ -:

إذا سَبَّنِي نَذْلٌ[(٢)] تزايدْتُ رِفْعَةً ... وما العَيْبُ إلاَّ أَنْ أكونَ مُسَابِبُهْ

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ نَفْسِي عَلَيَّ عَزِيزَةً ... لَمَكَّنْتُهَا مِنْ كُلِّ نَذْلٍ تُحَارِبُهْ[(٣)]

وَقَالَ عبْده مُحَمَّد العماد:

تَرَفَّعْ عَنِ الشَّتَّامِ، واتْرُكْ جَوَابَهُ ... وَلا تُعْطِهِ بِالرَّدِّ مَا هُوَ يَأْمُلُ

فَغَضُّكَ عَنْ رَدٍّ جَمِيلٌ صَنَعْتَهُ ... وَعَفْوُكَ عَنْهُ لَهُوَ أَحْلَى وَأَجْمَلُ

والرَّابِعُ - الاسْتِهَانَةُ بالمُسِيئِ، وَذَلِكَ عَنْ ضَرْبٍ مِنَ الكِبْرِ والإِعْجَابِ:

حُكِيَ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ لَمَّا وَلِيَ الْعِرَاقَ جَلَسَ يَوْمًا لِعَطَاءِ الجُنْدِ، وَأَمَرَ مُنَادِيه، فَنَادَى: أَيْنَ عَمْرُو بْنُ جرموز؟. وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ أَبَاهُ الزُّبَيْرَ، فَقِيلَ لَهُ: أَيُّهَا الأَمِيرُ، إِنَّهُ قَدْ تَبَاعَدَ فِي الأَرْضِ. فَقَالَ: أَوَيَظُنُّ الجَاهِلُ أَنِّي أُقِيدُهُ[(٤)] بِأبي عبد الله؟!، فَلْيَظْهَرْ آمِنًا؛ لِيَأْخُذَ عَطَاءَهُ مُوَفَّرًا. فَعَدَّ النَّاسُ ذَلِكَ مِنْ مُسْتَحْسَنِ الْكِبْرِ.

وأَكْثَرَ رَجُلٌ مِنْ سَبِّ الأَحْنَفِ، وَهُوَ لا يُجِيبُهُ، فَقَالَ - أي السَّابُّ -: «واللهِ، مَا مَنَعَهُ مِنْ جَوَابِي إِلاَّ هَوَانِي عَلَيْهِ».

---

(١) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٦٠).

(٢) النَّذْلُ: الخسيس الحقير، السَّاقط في أصله ودينه، والجمعُ أَنْذَالٌ وَنُذُولٌ.

(٣) «ديوان الشافعيّ» (ص٢٩).

(٤) أُقِيدُهُ: أَقْتُلُهُ قصَاصًا.

قال الشَّاعرُ:

أَوَ كُلَّمَــا طَنَّ الذُّبابُ طَرَدْتُهُ؟! ▪▪▪ إنَّ الذُّبَابَ ـ إذًا ـ عَلَيَّ كَرِيمُ

وقال آخـرُ:

نَجَــا بِكَ لُؤْمُكَ مَنْجَى الذُّبَا ▪▪▪ بِ حَمَتْهُ مَقَاذِيرُهُ أَنْ يُنَالا

والخامسُ - الاستِحْيَاءُ مِنْ جَزَاءِ الجَوَابِ، وَهَذَا يَكُونُ مِنْ صِيَانَةِ النَّفْسِ، وَكَمَالِ المُرُوءَةِ:

قَالَ لقيطُ بْنُ زُرَارَةَ:

وقُلْ لبَنِي سَعْدٍ: فَمَا لي وما لَكُمْ ▪▪▪ تُرِقُّونَ[1] مِنِّي مَا اسْتَطَعْتُمْ وأَعْتِقُ؟!

أَغَرَّكُمْ أَنِّي بِأَحْسَنِ شِيمَةٍ[2] ▪▪▪ بَصِيرٌ، وأَنِّي بالْفَوَاحِشِ أَخْرَقُ[3]

وإِنْ تَكُ قَدْ فاحَشْتَنِي فَقَهَرْتَنِي ▪▪▪ هَنِيئًا مَرِيئًا، أَنت بالفُحْشِ أَحْذَقُ[4]

والسَّادسُ - التَّفَضُّلُ على السَّبَّابِ، فَهَذَا يَكُونُ مِنَ الكَرَمِ، وحُبِّ التَّأَلُّفِ:

قِيلَ للإِسْكَنْدَرِ: إِنَّ فُلانًا وَفُلانًا يَنْتَقِصَانِكَ[5] وَيَثْلِبَانِكَ؛ فَلَوْ عَاقَبْتَهُمَا فَقَالَ: «هُمَا بَعْدَ الْعُقُوبَةِ أَعْذَرُ فِي تَنَقُّصِي وثَلْبِي». فَكَانَ هَذَا تَفَضُّلاً مِنْهُ وَتَأَلُّفًا.

وَحُكِيَ عَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ: «مَا عَادَانِي أَحَدٌ ـ قَطُّ ـ إلاَّ أَخَذْتُ في أَمْرِهِ بِإِحْدَى ثَلاث خِصَالٍ: إِنْ كَانَ أَعْلَى مِنِّي عَرَفْتُ لَهُ قَدْرَهُ، وإِنْ كَانَ دُونِي رَفَعْتُ قَدْرِي عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ نَظِيرِي تَفَضَّلْتُ عليه». فَأَخَذَهُ الخليلُ، فَنَظَمَهُ شِعْرًا، فَقَالَ:

---

(١) تُرِقُّونَ: تَسْتَعْبِدُونَ.

(٢) الشِّيمة: الخُلُق، والجمع شِيَمٌ.

(٣) أَخْرَق: جاهل.

(٤) احذق: ماهر.

(٥) يَنْتَقِصَانِكَ: يَقَعَانِ فِيكَ.

سَأُلْزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ ▫▪▫ وإنْ كَــثُــرَتْ مِنْهُ إلَيَّ الجَــرَائِمُ
فَــمَــا النَّاسُ إلاَّ وَاحِــدٌ مِنْ ثَلاثَةٍ: ▫▪▫ شَـرِيفٌ، ومَـشْـرُوفٌ، ومِـثْلٌ مُـقَـاوِمُ
فَـأَمَّـا الَّذِي فَـوْقِي فَـأَعْـرِفُ قَـدْرَهُ ▫▪▫ وَأَتبعُ فِـــيــــهِ الحَقَّ، والحَقُّ لازِمُ
وَأَمَّــا الَّذِي دُوْنِي فَــأَحْلُمُ دَائِبــاً ▫▪▫ أَصُــونُ بِهِ عِــرْضِي، وَإِنْ لامَ لائِمُ
وَأَمَّـا الَّذِي مِـثْلِي فَـإِنْ زَلَّ أو هَفَـا[1] ▫▪▫ تَفَضَّلْتُ، إنَّ الفَضْلَ بِالفَخْرِ حَاكِمُ

والسَّابع ـ استنكافُ السِّبَاب، وَقَطْعُ السِّبَاب، وهذا يكونُ مِنَ الحَزْم:

حُكِيَ أنَّ رَجُلاً قَـالَ لضرارِ بْنِ القَـعْقَـاعِ: «والله، لَوْ قُلْتَ وَاحِدَةً لَسَـمِعْتَ عَشْرًا».

فَقَالَ لَهُ ضرارٌ: «والله، لَوْ قُلْتَ عَشْرًا لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَةً».

قَالَ الشَّاعِرُ:

وفي الْحِلْمِ رَدْعٌ للسَّـفِـيـهِ عَنِ الأذَى ▫▪▫ وفي الخُـرْقِ إغْـرَاءٌ، فَلا تَكُ أَخْـرَقَـا
فَــتندم إذْ لا تَنْفَــعَنْكَ نَدَامَــةٌ ▫▪▫ كَــمَــا نَدِمَ المَغْــبُــونُ لَمَّا تَفَــرَّقَــا

والثَّامِنُ ـ الخَوْفُ مِنَ العُقُوبَةِ عَلَى الجَوَابِ، وهَذَا يَكُونُ مِنْ ضَعْفِ النَّفْسِ، ورُبَّمَا أَوْجَبَهُ الرَّأْيُ، واقْتَضَاهُ الحَزْمُ:

قِيلَ في مَنْثُورِ الحِكَمِ: «الحِلْمُ حِجَابُ الآفَاتِ».

وقال الشَّاعِرُ:

ارْفُقْ إذا خِـفْتَ مِنْ ذي هَفْـوَةٍ خُـرْقًا ▫▪▫ لَيْسَ الحَلِيمُ كَـمَنْ في أَمْـرِهِ خُـرْقُ

---

(١) هَفَا: زلَّ وأخطأ.

والتاسع - الرِّعَايةُ ليَدٍ سَالِفَةٍ، وَحُرْمَةٍ لازِمَةٍ، وَهَذَا يَكُونُ مِنَ الوَفَاءِ، وحُسْنِ العَهْدِ:

قِيلَ في مَنْثُورِ الحكم: «أَكْرَمُ الشِّيَمِ أَرْعَاهَا لِلذِّمَمِ».

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إنَّ الوَفَاءَ على الكَرِيمِ فَرِيضَةٌ ... واللُّؤْمُ[1] مَقْرُونٌ بِذِي الإخْلافِ

وَتَرَى الكَرِيمَ لمنْ يُعَاشِرُ مُنْصِفًا ... وَتَرَى اللَّئِيمَ مُجَانِبَ الإنْصَافِ

والعاشر - المَكْرُ، وتوقُّعُ الفُرَصِ الخلفيَّة، وهذا يَكُونُ مِنَ الدَّهَاءِ:

قال النَّاظِمُ:

فَرَقِّعِ الخَرْقَ بلُطْفٍ وَاجْتَهِدْ ... وامْكُرْ إذا لَمْ يَنْفَعِ الصِّدْقُ وَكِدْ

فَهَكَذَا الحَازِمُ إذْ يَكِيدُ ... يَبْلُغُ في الأعْدَاءِ مَا يُرِيدُ[2]

وَقَدْ قِيلَ في منثورِ الحِكَمِ: «مَنْ ظهرَ غَضَبُهُ قَلَّ كَيْدُهُ».

وَقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ: «غَضَبُ الجَاهِلِ في قَوْلِهِ، وغَضَبُ العَاقِلِ في فِعْلِهِ».

وقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: «إِذَا سكَتَّ عَنِ الجَاهِلِ، فَقَدْ أَوْسَعْتَهُ جَوَابًا، وأَوْجَعْتَهُ عِقَابًا».

وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ قَتَادَةَ:

تُعَاقِبُ أيدينا، ويَحْلُمُ رَأْيُنَا ... ونَشْتُمُ بِالأفْعَالِ لا بِالتَّكَلُّمِ

---

(١) اللُّؤم: اسمٌ جامعٌ للخصَال المذمومة.

(٢) «جواهر الأدب» (ص٦٧٩).

قَالَ الماوردِيُّ - يرحمه اللهُ -:

«فَهَذِهِ عَشَرَةُ أَسْبَابٍ تَدْعُو إلى الحِلْمِ، وبَعْضُ الأَسْبَابِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَلَيْسَ إِذَا كَانَ بَعْضُ أَسْبَابِهِ مَفْضُولاً مَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ نَتِيجَتُهُ مِنَ الحِلْمِ مَذْمُومَةً، وَإِنَّمَا الأَوْلَى بِالإِنْسَانِ أَنْ يَدْعُوَهُ لِلْحِلْمِ أَفْضَلُ أَسْبَابِهِ، وَإِنْ كَانَ الحِلْمُ كُلُّهُ فَضْلاً، وَإِنْ عَرِيَ[1] عَنْ أَحَدِ هَذِهِ الأَسْبَابِ، كَانَ ذُلاً وَلَمْ يَكُنْ حِلْمًا؛ لأَنَّنَا قَدْ ذَكَرْنَا فِي حَدِّ الحِلْمِ أَنَّهُ ضَبْطُ النَّفْسِ عَنْ هَيَجَانِ الْغَضَبِ، فَإِذَا فُقِدَ الغَضَبُ لِسَمَاعِ مَا يُغْضِبُ، كَانَ ذَلِكَ من ذُلِّ النَّفْسِ، وقِلَّةِ الحَمِيَّةِ، وَقَدْ قَالَت الحُكَمَاءُ: ثَلاثَةٌ لا يُعْرَفُونَ إِلاَّ فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ: لا يُعْرَفُ الجَوَادُ إِلاَّ فِي العُسْرَةِ، والشُّجَاعُ إلاَّ في الحَرْبِ، والحَلِيمُ إلاَّ فِي الغَضَبِ.

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَيْسَتِ الأَحْلامُ في حَالِ الرِّضَى ... إِنَّمَا الأَحْلامُ في حَالِ الغَضَبْ

وَقَالَ آخَرُ:

مَنْ يَدَّعِي الحِلْمَ أَغْضِبْهُ لِتَعْرِفَهُ ... لا يُعْرَفُ الحِلْمُ إلاَّ ساعةَ الغَضَبِ

وَأَنْشَدَ النَّابِغَةُ الجَعْدِيُّ بِحَضْرَةِ رسولِ اللهِ - ﷺ - :

ولا خَيْرَ في حِلْمٍ إذا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... بَوَادِرُ[2] تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

ولا خَيْرَ في جَهْلٍ إذا لم يكنْ لَهُ ... حَلِيمٌ إذا مَا أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرا

فَلَمْ يُنْكِرْ - عليه الصلاة والسلام - قولَهُ عَلَيْهِ.

---

(١) عَرِيَ: خَلاَ.

(٢) بَوَادِرُ: جَمْعُ بادرةٍ، وهي الحِدَّةُ عندَ الغَضَبِ، يُقَالُ: بَدَرَتْ مِنْهُ بَوَادِرُ غَضَبٍ: أي خَطَأٌ وَسَقَطَاتٌ عِنْدَمَا احْتَدَّ.

ومَنْ فَقَدَ الغَضَبَ في الأَشْيَاء المُغْضِبَة، حَتَّى اسْتَوَتْ حَالَتَاهُ قَبْلَ الإغْضَاب وبَعْدَهُ - فَقَدْ عَدِمَ مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ الشَّجَاعَةَ، وَالأَنَفَةَ[١]، والحَمِيَّةَ، والغَيْرَةَ، وَالدِّفَاعَ، وَالأَخْذَ بِالثَّأْرِ؛ لأَنَّهَا خِصَالٌ مُرَكَّبَةٌ مِنَ الْغَضَبِ، فَإِذَا عَدِمَهَا الإنْسَانُ هَانَ بِهَا، ولَمْ يكن لباقي فَضَائِلِهِ فِي النُّفُوسِ مَوْضِعٌ، ولا لِوُفُورِ حِلْمِهِ فِي القُلُوبِ مَوْقِعٌ».

إِلَى أَنْ قَالَ: «وَلَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ إغْرَاءً بِتَحكُّمِ الْغَضَبِ، وَالانْقِيَادِ إِلَيْه عِنْدَ حُدُوثِ مَا يُغْضِبُ، فَيكْسَبَ بالانْقِيَادِ لِلْغَضَبِ مِنَ الرَّذَائِلِ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْلُبُهُ عَدَمُ الغَضَبِ مِنَ الْفَضَائِلِ، ولَكِنْ إِذَا ثَارَ بِهِ الْغَضَبُ عِنْدَ هُجُومِ مَا يُغْضِبُهُ، كَفَّ سَوْرَتَهُ[٢] بِحَزْمِهِ، وأَطْفَأَ ثَائِرَتَهُ بِحِلْمِهِ، وَوَكَلَ مَنِ اسْتَحَقَّ الْمُقَابَلَةَ إِلَى غَيْرِهِ»[٣].

ولعلَّ مِنْ أَحْكَمِ مَا قِيلَ في تَدْبِيرِ الحِلْمِ والغَضَبِ قَوْلَ أبي حاتم:

إذا أَمِنَ الجُهَّالُ جَهْلَكَ مَرَّةً ... فَعِرْضُكَ لِلْجُهَّالِ غُنْمٌ مِنَ الغُنْمِ
فَعَمَّ[٤] عليه الحِلْمَ والجَهْلَ، والقَهُ ... بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ العَدَاوَةِ والسِّلْمِ
إذا أنتَ جَازَيْتَ السَّفِيهَ كَمَا جَزَى ... فَأَنْتَ سَفِيهٌ مِثْلُهُ غَيْرُ ذِي حِلْمِ
ولا تُغْضِبِنْ عِرْضَ السَّفِيهِ، ودَارِهِ[٥] ... بِحِلْمٍ، فَإِنْ أَعْيَا عَلَيْكُمْ فَبِالصَّرْمِ[٦]
فَيَرْجُوكَ تَارَاتٍ، ويَخْشَاكَ تارةً ... وَيَأْخُذُ فِيمَا بَيْنَ ذلكَ بالحَزْمِ
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ بُدّاً مِنَ الجَهْلِ فَاسْتَعِنْ ... عَلَيْهِ بِجُهَّالٍ، فَذَاكَ مِنَ العَزْمِ[٧]

---

(١) الأَنَفَة: عِزَّة النَّفْس.
(٢) سَوْرَتَهُ: قُوَّته، ووثُوبه.
(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥٥ - ٢٥٧).
(٤) عَمِّ: أَخْفِ، وَالْبِسْ.
(٥) داره: مِنَ الْمُدَارَاة، وهي الْمُدَاجَاةُ والْمُلاينةُ، وإخفَاء العدَاوَة.
(٦) الصَّرْم: القطع والذَّهاب.
(٧) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥٧).

يَقُولُ الماورديُّ - يرحمه اللهُ - مُعَقِّبًا على تلكَ الأبْيَاتِ:

«وهذا التَّدبيرُ إنَّما يُسْتَعْمَلُ فيما لا يجدُ الإنسانُ بُدًّا من مُقَارَنَتِه، ولا سَبيلَ إلى اطِّرَاحِه ومُتَارَكَتِه، إمَّا لخوفِ شَرِّه، أو لِلُزُومِ أَمْرِه، فَأَمَّا مَنْ أَمْكَنَ اطِّراحُهُ، ولم يَضُرَّ إبعَادُهُ - فالهوانُ به أولى، والإعراضُ عنه أَصْوَبُ»[1].

واعلمْ - أخي - أنَّ الحِلْمَ منه طَبْعٌ، ومنه تطبُّعٌ، فمَنْ حُرِمَ الحِلْمَ طَبْعًا، فإنَّه يُمكنُهُ أَنْ يَنَالَهُ عَنْ سَبِيلِ التَّطَبُّعِ، وذلكَ بالمُجَاهَدَةِ والمُمَارَسَةِ.

قَالَ رسولُ الله - ﷺ -: «إنَّما العِلْمُ بالتَّعلُّمِ، وإنَّما الحِلْمُ بالتَّحَلُّمِ، ومَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، ومَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ»[2].

وقَالَ - ﷺ - للأَشجِّ بْنِ عَبْدِ القَيْسِ: «إنَّ فيك لخُلُقَينِ يُحِبُّهما اللهُ: الحِلْمُ والأَنَاةُ». قالَ: «أَهُما خُلُقَانِ تَخَلَّقتُ بهما، أَمْ جَبَلَني اللهُ عليهما؟». قال: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عليهما». فقالَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذي جَبَلَني اللهُ على خُلُقَيْنِ يُحِبُّهما اللهُ ورسولُهُ»[3].

فهذا دليلٌ على أنَّ الحِلْمَ يكونُ طَبْعًا، ويكون تطبُّعًا، كما قيل:

لَعَمْرُكَ، إنَّ الحِلْمَ زَيْنٌ لأَهْلِهِ ▫▪▫ وما الحِلْمُ إلاَّ عادةٌ وتَحَلُّمُ[4]

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥٧).

(٢) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير» (١٩/ ٣٩٥) عن معاويةَ، والخطيبُ في تاريخه (٩/ ١٢٧) عن أبي هريرةَ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢٣٢٨)، و«الصحيحة» (٣٤٢).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) «أقوالٌ مأثورةٌ» (ص٤٤٠).

وهذا حليمُ العَربِ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ - يرحمه اللهُ - تكلَّف الحِلْمَ، حتَّى أَصْبَحَ يُتَمثَّلُ بِحِلْمِهِ[1]، وهو القائلُ: «لَسْتُ بِحَليمٍ، ولكنِّي أَتحلَّمُ»[2].

وإنْ كانَ الحِلْمُ في العَوَامِ جميلاً، فهو عند حَمَلَةِ العِلْمِ أَجْمَلُ.

قَالَ طَاوسٌ - يرحمه الله -:

«ما حُمِلَ العِلْمُ في مِثْلِ جرابِ[3] حِلْمٍ»[4].

وقال ابنُ حِبَّانَ - يرحمه الله -:

«ما ضُمَّ شَيْءٌ إلى شَيْءٍ هو أَحْسَنُ مِنْ حِلْمٍ إلى عِلْمٍ، وما عُدِمَ شَيْءٌ في شَيْءٍ هُوَ أَوْحَشُ مِنْ عَدَمِ الحِلْمِ في العالمِ»[5].

قَالَ الشَّاعِرُ:

الحِلْمُ وَالْعِلْمُ خَلَّتَا كَرَمٍ ... لِلْمَرْءِ زَيْنٌ، إذَا هُمَا اجْتَمَعَا
صِنْوَانِ لا يَسْتَتِمُّ حُسْنُهُمَا ... إلاَّ بِجَمْعٍ لِذَا وَذَاكَ مَعَا
كَمْ مِنْ وَضِيعٍ سَمَا بِهِ الْعِلْمُ وَالْـ ... ـحِلْمُ، فَنَالَ العَلاءَ وَارْتَفَعَا
وَمِنْ رَفِيعِ الْبِنَا أَضَاعَهُمَا ... أَخمله مَا أَضَاعَ فَاتَّضَعَا[6]



(١) يُتَمَثَّلُ بحِلْمِهِ: أي يُضْرَبُ بحِلْمِهِ المَثَلُ.
(٢) «الإحياء» (٣/ ١٧٩).
(٣) جراب ـ بكسرِ الجيمِ وفَتْحِهَا، والكَسْرُ أَفْصَحُ ـ: وِعَاءُ زَادٍ مِنْ جِلْدٍ، وَالجَمْعُ أَجْرِبَةٌ، وَجُرُبٌ.
(٤) الدَّارميُّ (١/ ١٥٢).
(٥) «روضة العقلاء» (ص٢١٣).
(٦) «عُيونُ الأَخْبَارِ» (٢/ ٥١٩).

الكَــرَمُ

الكَرَمُ: لُبابُ الأَخْلاقِ الفَاضِلَةِ، ومَدَارِجُ الفَضِيلَـةِ، وُصِفَت الأخلاقُ بِه، وَشُرِّفَتْ بِالانْتِسَابِ إِلَيْهِ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الصِّفَةِ لِلْمَوْصوفِ، فكُلُّ شَيْءٍ يشرفُ في بَابِه يُوصَفُ به.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ - وفي رواية: صالحَ - الأخلاقِ»[1].

وحَسْبُكَ أَنَّ الكَرَمَ صفَةٌ مِنْ صفات الله - تباركَ وتَعالى -.

عَنْ سَعْدِ بْنِ أبي وقَّاصٍ -رضي الله عنه- أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «إنَّ اللهَ كريمٌ، يُحِبُّ الكُرَماءَ، جَوَادٌ يحبُّ الجَوَدَةَ»[2].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «إنَّ اللهَ - تَعَالَى - جَوَادٌ، يُحِبُّ الجُودَ، ويُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلاقِ، ويَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»[3].

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعديِّ -رضي الله عنه- أنَّ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قال: «إنَّ اللهَ كَريمٌ، يُحِبُّ الكَرَمَ»[4].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) رواه ابن عساكر والضياء، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٨٠٠) و«الصَّحيحة» (١٣٧٨) و (١٦٢٦).

(٣) رواه أبو نُعَيمٍ في «الحِلْية»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٧٤٤)، و«الصَّحيحة» (١٦٢٧).

(٤) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير» وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٨٠١)، و«الصَّحيحة» (١٣٧٨) و(١٦٢٦).

وعَنْ سَلمَانَ الفارسيٍّ -رضي الله عنه- قالَ: قَالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ ربَّكُمْ حَيِيٌّ كريمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يرفعَ إليه يَدَيْه، فيردَّهُمَا صِفْراً -وقال- خائبتَيْنِ»[١].

والكرَمُ - أيْضًا - مِنْ سُنَنِ المُرْسَلِينَ.

عَنْ أَنَسٍ -رضي الله عنه- قالَ: «كان النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- أَحْسَنَ النَّاسِ، وأَجْوَدَ النَّاس، وَأَشْجَعَ النَّاسِ»[٢].

وكان -صلى الله عليه وسلم- لا يَرُدُّ أحدًا يسأله.

عن جَابِرٍ -رضي الله عنه- قالَ: «مَا سُئِلَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- عَنْ شيءٍ قَطُّ فَقَالَ: لا»[٣].

وَأَهْدَتْ إِلَيْهِ امرأةٌ بُرْدَةً[٤] - وكَانَ مُحتاجًا إليها - فرآها عليه رجلٌ من الصَّحَابة، فقال: «يا رسولَ الله، ما أحسنَ هذه! فاكْسُنيها». قال: «نَعَمْ». فلامَ الصَّحابةُ ذلك الرَّجلَ قائلين له: «أَخَذَها مُحْتاجًا إليها، ثُمَّ سألتَهُ إيَّاها، وقد عرفتُ أنَّه لا يُسْأَلُ شيئًا فيمنعَهُ!». فقال: «رَجَوْتُ بَرَكَتَها حين لَبِسَهَا النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-؛ لعلِّي أُكَفَّنُ فيها»[٥].

قَالَ الشَّاعرُ:

عَشِقَ المَكَارمَ، فهو معتمدٌ لها ... والمَكْرُمَاتُ قليلةُ العُشَّاقِ
وأَقَامَ سُوقاً للثَّناءِ، ولم تَكُنْ ... سُوقُ الثَّناءِ تُعَدُّ في الأسْوَاقِ
بثَّ الصَّنائعَ في البلادِ، فأصبحَتْ ... تُجْبَى إِلَيْهِ مَكَارِمُ الأَخْلاقِ

(١) تقدَّم تخريجه.
(٢) رواه البخاريُّ (٣٠٤٠) و (٦٠٣٣)، ومسلمٌ (٢٣٠٧).
(٣) رواه البخاريُّ (٦٠٣٤)، ومسلمٌ (٢٣١١).
(٤) البُرْدَةُ: شَمْلَةٌ مَنسوجَةٌ فيها حاشيتُها، يُتَلَفَّفُ بها، والجمعُ بُرَدٌ.
(٥) رواه البخاريُّ (١٢٧٧) و(٥٨١٠) و(٦٠٣٦) عن سَهْلٍ السَّاعديِّ.

والكَرَمُ مُـرْتَبِطٌ بالإيمانِ ارْتِبَاطًا وَثِـيقـاً، فقَـدْ وَصَفَ النَّبيُّ -ﷺ- المؤمنَ بِقَوْلِه: «المؤمنُ غِرٌّ[1] كريمٌ، والفاجرُ خِبٌّ[2] لئيمٌ»[3].

وَقَالَ في حَدِيثٍ آخَر: «لا يجتمعُ الشُّحُّ والإيمانُ في قلبِ عَبْدٍ أبداً»[4].

وما سَتَرَ العُيُوبَ كَالكَرَمِ والجُودِ، كما قالَ الشَّافعيُّ - يرحمه الله -:

وإنْ كَـثُـرَتْ عُـيُـوبُك في البَـرَايَا ... وسَـرَّكَ أَنْ يكونَ لهـا غِطاءُ
تستَّـرْ بالسَّخَـاءِ، فكلُّ عَـيْبٍ ... يُغَطِّيـهِ - كمـا قِيلَ - السَّخـاءُ[5]

فتحلَّ - أخي - بصفَةِ الكَرَمِ، ولْيكُنْ كَرَمُكَ ابتداءً مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، تَكُنْ أَطْبَعَ النَّاسِ سَخَاءً، وأَشْرَفَهُمْ عَطَاءً.

سُئِلَ عَلِيٌّ -رضي الله عنه- عَنِ السَّخَاءَ، فَقَالَ: «ما كَانَ منه ابتداءً، فأمَّا مَا كَانَ عَنْ مسألةٍ فحياءٌ»[6].

وقالَ بعضُ الحُكَماءِ: «أَجَلُّ النَّوَالِ[7] ما وَصَلَ قَبْلَ السُّؤالِ»[8].

---

(١) الغِرُّ - بكسْرِ الغينَ -: الَّذي لا تَجْرِبَةَ لَهُ ولا خِبْرَةَ، والجمعُ أَغْرَارٌ.
(٢) الخِبُّ - بفتحِ الخاء وكسرها -: اللَّئيمِ الخدَّاعُ، فعله خَبَّ يَخَبُّ بفتح الخاء فيهما.
(٣) رواه أبو داودَ (٤٧٩٠)، والتِّرمذيُّ (١٩٦٤) عن أبي هريرة، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٦٥٣)، و«الصَّحيحة» (٩٣٥).
(٤) رواه النَّسائيُّ (٣١١٢) و (٣١١٣) و (٣١١٤) و (٣١١٦) و (٣١١٧) عن أبي هريرةَ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٧٦١٦).
(٥) «ديوان الشَّافعيُّ» (ص٢٢).
(٦) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٨).
(٧) النَّوال: العطاء.
(٨) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٨).

وقال بعضُ الشُّعراء:

وفَتَىً خَلاَ مِنْ مالِهِ ▫▪▫ ومِنَ المُروءةِ غَيْرُ خَالي
أَعْطَاكَ قَبْلَ سُؤَالِهِ ▫▪▫ وكَفَاكَ مَكْرُوهَ السُّؤالِ[1]

ومتى قَدَرْتَ - أخي - على الْكَرَمِ والجُودِ، فَاغْتَنِمْ هَذِهِ الفُرْصَةَ، وبَادِرْ بِتَعْجِيلِه حَذَرَ فَواتِهِ، وَخِيفَةَ عَجْزِكَ.

قِيلَ لأَنُوشِرْوَانَ: «مَا أَعْظَمَ المصَائبِ عِنْدَكُم؟». قَالَ: «أَنْ تَقْدِرَ عَلَى المَعْرُوفِ، ولا تَصْطَنِعه حتَّى يَفُوتَ»[2].

وقَالَ عَبْدُ الحَمِيدِ: «مَنْ أَخَّرَ الفُرْصَةَ عَنْ وَقْتِهَا، فَلْيَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ فَوْتِها»[3].

وقَالَ بعضُ الشُّعَرَاءِ:

إذا هَبَّتْ رياحُكَ فَاغْتَنِمْهَا ▫▪▫ فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ
ولا تَغْفُلْ عَنِ الإِحْسَانِ فِيهَا ▫▪▫ فَمَا تَدْرِي السُّكونُ مَتَى يَكُونُ
وإنْ دَرَّتْ نِيَاقُكَ[4] فَاحْتَلِبْهَا ▫▪▫ فَمَا تَدْرِي الفَصِيلُ[5] لِمَنْ يَكُونُ[6]

(١) المرجع السَّابق (ص١٨٨).
(٢) المرجع السّابق (ص٢٠٢).
(٣) المرجع السابق (ص٢٠٢ - ٢٠٣).
(٤) نِيَاق - بالكسر - : جمع ناقة.
(٥) الفَصيل: وَلَدُ النَّاقَة إذا فُصِلَ عَن أُمِّه، والجمعُ فُصْلانٌ، وفِصَالٌ.
(٦) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٠٣).

■ واعلمْ - أخي - أنَّ لِلْمَعْرُوفِ شُرُوطًا لا يَتِمُّ إلاَّ بِهَا، ولا يكملُ إلاَّ مَعَهَا[١]، فَمِنْ ذلكَ:

١ - سَتْرُهُ عَنْ إذاعة يستطيل لَها، وَإِخْفَاؤُهُ عَنْ إِشَاعَةِ يستدلُّ بها:

قَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: «إذا اصْطَنَعْتَ المعْرُوفَ فَاستُرْهُ، وإِذَا صُنِعَ إِلَيْكَ فَانْشُرْهُ».

وَقَالَ دِعْبِلٌ الخُزَاعِيُّ:

إِذَا انْتَقَمُوا أَعْلَنُوا أَمْرَهُمْ ■■■ وإنْ أَنْعَمُوا أَنْعَمُوا باكْتِتَام
يَقُومُ القَعُودُ إِذَا أَقْبَلُوا ■■■ وَتَقْعُدُ هَيْبَتُهُمْ بِالْقِيَام

علَى أَنَّ سِتْرَ المَعْرُوفِ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ ظُهُورِهِ، وأَبْلَغِ دَوَاعِي نَشْرِهِ؛ لما جُبِلَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ مِنْ إِظْهَارِ مَا خُفِيَ، وَإِعْلانِ مَا كُتِمَ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ:

خِلٌّ إذا جِئْتَهُ يومًا لِتَسْأَلَهُ ■■■ أَعْطَاكَ ما مَلَكَتْ كَفَّاهُ واعْتَذَرَا
يُخْفِي صَنَائِعَهُ[٢]، واللهُ يُظْهِرُهَا ■■■ إنَّ الجَمِيلَ إِذَا أَخْفَيْتَهُ ظَهَرَا

٢ - تصغيرُهُ عَنْ أَنْ يَرَاهُ مستكبرًا، وتقليلُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ مُسْتَكْثرًا؛ لئلاَّ يَصِيرَ بِهِ مُدِلاًّ بَطِرًا، وَمُسْتَطِيلاً أَشِرًا.

قَالَ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ - رضي الله عنه -: «لا يتمُّ المعروفُ إلاَّ بثلاثِ خِصَالٍ: تَعْجِيلِهِ، وتَصْغِيرِهِ، وَسِتْرِهِ، فَإِذَا عَجَّلْتَهُ هَنَّأْتَهُ، وإِذَا صَغَّرْتَهُ عَظَّمْتَهُ، وَإِذَا سَتَرْتَهُ أَتْمَمْتَهُ».

---

(١) انظر: المرجع السَّابق (ص٢٠٣ - ٢٠٥).
(٢) الصنائع: جمعُ صَنِيعَةٍ، وهي اليد والإحسان والنِّعْمَة.

وقال الخُرَيْمِيُّ:

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عِظَماً ▫▪▫ أَنَّه عِنْدَكَ مَحْقُورٌ صَغِيرُ
تَتَنَاسَاهُ كَأَنْ لَمْ تَأْتِهِ ▫▪▫ وهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرُ[1]

٣ ـ مُجَانَبَةُ الامْتِنَانِ بِهِ، وَتَرْكُ الإعجابِ بِفعْلِهِ؛ لما فيهما منْ إسقاطِ الشُّكْرِ، وإحْبَاطِ الأجْرِ:

قَالَ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ (سورة البقرة: ٢٦٤).

وَسَمِعَ ابْنُ سِيرِينَ رَجُلاً يَقُولُ لِرَجُلٍ: فَعَلْتُ إِلَيْكَ وَفَعَلْتُ. فَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: «اسْكُتْ، فَلا خَيْرَ فِي المَعْرُوفِ إِذَا أُحْصِيَ».

وَقَالَ بَعْضُ البُلَغَاءِ: «مَنْ مَنَّ بِمَعْرُوفِه أَسْقَطَ شُكْرَهُ، وَمَنْ أُعْجِبَ بِعَمَلِه أَحْبَطَ أَجْرَهُ».

وَقَالَ بَعْضُ الفُصَحَاءِ: «قُوَّةُ المِنَنِ[2] مِنْ ضُعْفِ المُنَنِ[3]».

قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

أَفْسَدْتَ بِالمَنِّ مَا أَسْدَيْتَ[4] مِنْ حسنٍ ▫▪▫ لَيْسَ الكَرِيمُ إِذَا أَسْدَى بِمَنَّانِ

وقال أبو نُوَاسٍ:

فَامْضِ لا تَمْنُنْ عَلَيَّ يَداً[5] ▫▪▫ مَنُّكَ المَعْرُوفَ مِنْ كَدَرِهْ

---

(١) «عيون الأخبار» (٣/ ١٦٢).
(٢) المِنَن - بالكسر -: جَمْعُ مِنَّة، يُقَالُ: مَنَّ عَلَيْه يَمُنُّ مِنَّةً: إذَا عَدَّدَ لَهُ مَا فَعَلَهُ لَهُ مِنَ الخَيْرِ، وفَخَرَ بِهِ عَلَيْه.
(٣) المُنَن - بالضَّمِّ -: جَمْعُ مُنَّة، وهِيَ القُوَّة.
(٤) أسديتَ: أعطيتَ.
(٥) اليَدُ: النِّعْمَةُ والإحْسَانُ.

وَقَالَ الشَّافعيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - :

لا تَحْمِلَنَّ لِمَنْ يَمُنُّ ▪▪▪ مِنَ الأَنَامِ عَلَيْكَ مِنَّه[1]

واخْتَرْ لِنَفْسِكَ حَظَّهَا ▪▪▪ واصْبِرْ؛ فَإِنَّ الصَّبْرَ جُنَّه[2]

مِنَنُ الرِّجَالِ على القُلُو ▪▪▪ بِ أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ الأَسِنَّه[3]

وقَالَ ابْنُ المُعْتَزِّ العَبَّاسيُّ:

لَيْسَ الكَرِيمُ الَّذِي يُعْطِي عَطِيَّتَهُ ▪▪▪ عَنِ الثَّنَاءِ، وَإِنْ أَغْلَى بِهِ الثَّمَنَا

بَلِ الكَرِيمُ الَّذِي يُعْطِي عَطِيَّتَهُ ▪▪▪ لغَيْرِ شيْءٍ سِوَى اسْتِحْسَانِهِ الحَسَنَا

لا يَسْتَثِيبُ[4] بِبَذْلِ العُرْفِ[5] مَحْمَدَةً[6] ▪▪▪ ولا يَمُنُّ إِذَا مَا قَلَّدَ المِنَنَا[7]

٤ ـ ألاَّ يَحْتَقِرَ منه شيئًا، وإنْ كَانَ قليلاً نَزْرًا[8]، إذا كَانَ الكَثِيرُ مُعْوِزًا، وكُنْتَ عَنْهُ عَاجِزًا، فَإِنَّ مَنْ حَقَّرَ يسيرَهُ فَمَنَعَ مِنْهُ، أَعْجَزَهُ كَثِيرُهُ فَامْتَنَعَ عَنْهُ، وَفِعْلُ قليلِ الخَيْرِ أَفْضَلُ مِنْ تَرْكِهِ.

قَالَ عبدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ: «لا تَسْتَحِ مِنَ القَلِيلِ، فَإِنَّ المَنْعَ أَقَلُّ مِنْهُ، وَلا تَجْبُنْ عَنِ الْكَثِيرِ، فَإِنَّكَ أَكْثَرُ مِنْهُ».

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

اعْمَلِ الخَيْرَ مَا اسْتَطَعْتَ، وإنْ كَا ▪▪▪ نَ قليلاً، فَلَنْ تُحِيطَ بِكُلِّهِ

وَمَتَى تَفْعَلُ الكَثِيرَ مِنَ الخَـ ▪▪▪ ـيْرِ، إِذَا كُنْتَ تَارِكًا لأَقَلِّهِ؟!

---

(١) المِنَّة: الإحسان والفَضْلُ.

(٢) جُنَّة - بالضَّمِّ -: السِّلاح الواقي، والجمعُ جُنَنٌ.

(٣) الأَسِنَّة: أطراف الرِّماح، والمفردُ سِنَانٌ.

(٤) لا يستثيب: لا يسأل أن يُثابَ.

(٥) العُرْف: المعروف.

(٦) المَحْمَدَة: الحَمْدُ.

(٧) قَلَّدَ المِنَنَ: أَوْلاَهَا، والمِنَن - بالكسر -: جمعُ مِنَّة، وهي النِّعْمَة.

(٨) النَّزْر - بفتحٍ فَسكونٍ -: القليل التَّافِهُ، وبابه ظَرُفَ.

وَقَالَ عبده محمد العماد:

فَقِيرٌ عَلَى جُودٍ - وَإِنْ قَلَّ رِفْدُهُ -[١] ◘◘◘ أَعَــزُّ وَأَعْلَى مِنْ غَنِيٍّ عَلَى بُخْلِ
طَهَارَةُ نَفْسِ المَرْءِ بِالجُحُودِ تَنْجَلِي ◘◘◘ وَيَظْهَرُ خُبْثُ النَّفْسِ فِي سَاعَةِ الْبَذْلِ

قَالَ الماوردِيُّ - يرحمه الله -:

«وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَسَعَ جَمِيعَ النَّاسِ مَعْرُوفَكَ، وَلا أَنْ تُولِيَهُمْ إِحْسَانَكَ، فَاعْتَمِدْ بِذَلِكَ أَهْلَ الفَضْلِ مِنْهُمْ وَالحِفَاظ، واقْصِدْ بِهِ ذَوِي الرِّعَايَةِ والوِدَادِ؛ لِيَكُونَ مَعْرُوفُكَ فِيهِمْ نَامِيًا، وَصَنِيعُكَ عِنْدَهُمْ زَاكِيًا»[٢].

قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الأَنصارِيُّ:

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لا تكونُ صَنِيعَةً ◘◘◘ حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ المَصْنَعِ
فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَاعْمَلْ بِهَا ◘◘◘ للهِ، أَوْ لِذَوِي الْقَرَابَةِ، أو دَعِ[٣]

وَقِيلَ فِي مَنثورِ الحِكَمِ: «لا خَيْرَ فِي مَعْرُوفٍ إِلَى غَيْرِ عَرُوفٍ». وَقَدْ ضَرَبَ الشَّاعِرُ بِهِ مَثَلاً، فَقَالَ:

كَحِمَارِ السَّوْءِ، إِنْ أَشْبَعْتَهُ ◘◘◘ رَمَحَ النَّاسَ[٤]، وإِنْ جَاعَ نَهَقْ[٥]

وقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: «عَلَى قَدْرِ المَغَارِسِ يكُونُ اجْتِنَاءُ الْغَارِسِ».

فَأَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ، فَقَالَ:

لَعَمْرُكَ، مَا المَعْرُوفُ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ ◘◘◘ وَفِي أَهْلِهِ إِلاَّ كَبَعْضِ الوَدَائِعِ
فَمُسْتَوْدَعٌ ضَاعَ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ ◘◘◘ وَمُسْتَوْدَعٌ مَا عِنْدَهُ غَيْرُ ضَائِعِ
وَمَا النَّاسُ فِي شُكْرِ الصَّنِيعَةِ عِنْدَهُمْ ◘◘◘ وَفِي كُفْرِهَا إِلاَّ كَبَعْضِ المَزَارِعِ

---

(١) الرِّفْدُ - بكسر الرَّاء - : العَطَاء والصِّلَة.
(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٠٥).
(٣) المرجع السَّابق (ص٢٠٦).
(٤) رمح النَّاسَ: ضَرَبَهم برِجْلِه، وبَابه قَطَعَ.
(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٠٦).

فَمَزْرَعَةٌ طابتْ، وأضعفَ نَبْتُها ▪▪▪ ومَزْرعةٌ أكْدَتْ[١] على كلِّ زارعٍ[٢]

وَقَالَ آخَرُ:

ولا تَصْطَنِعْ إلاَّ الكِرَامَ؛ فَإنَّهُمْ ▪▪▪ يُجَازُونَ بالنَّعْمَاءِ مَنْ كَانَ مُنْعِمَا

ومَنْ يَتَّخِذْ عِنْدَ اللِّئَامِ صَنِيعَةً ▪▪▪ تَجِدْهُ على آثارِهَا مُتَنَدِّمَا

وَقَالَ:

إذَا أَنْتَ أكْرَمْتَ الكريمَ مَلَكْتَهُ ▪▪▪ وإنْ أنتَ أكْرَمْتَ اللَّئيمَ تَمَرَّدَا

أخي، الأيَّامُ دُوَلٌ[٣]، والدَّهْرُ قُلَّبٌ؛ فَمِنَ المُحَالِ دَوَامُ الإنْسَانِ عَلَى حَال، فَإنْ مَنَعْتَ أَخَاكَ مَعْرُوفَكَ اليَوْمَ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ غَدٌ لَهُ، فَيَمْنَعُكَ كَمَا مَنَعْتَهُ.

قَالَ الأضبطُ بْنُ قُرَيْعٍ السَّعْدِي:

لا تُهِينَ[٤] الفَقِيرَ؛ عَلَّكَ أنْ ▪▪▪ تَرْكَعَ[٥] يومًا، والدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

وَقَالَ آخَرُ:

عَسَى سَائِلٌ ذُو حَاجَةٍ - إنْ مَنَعْتَهُ ▪▪▪ مِنَ الْيَوْمِ سُؤْلاً - أَنْ يَكُونَ لَهُ غَدُ!

▪ واعلَمْ - أخي - أنَّ الكَرَمَ لَيسَ مُقْتَصِرًا عَلَى بَذْلِ المَالِ، لَكِنَّهُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، وَلَهُ مَرَاتِبُ[٦]، فمنها:

---

(١) أكْدَتْ: مَنَعَتْ وَخيَّبَتْ ظَنَّ الزَّارِعِ، وَأَصْلُهُ مِنَ الكدية، وهي القطعة الغليظة الصّلبة من الأرض لا يعمل الفأسُ فيها.

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٠٦).

(٣) دُوَل - بالضَّمِّ - : جمعُ دُولَة، أيْ يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ لغَيْرِكَ.

(٤) لا تُهِينَ: أصله لا تُهِينَنْ من الإهانة، فحذف نون التَّوكيد الخفيفة تَخَلُّصًا من التقاء السَّاكنين، وأبقى الفتحة دليلاً عليها.

(٥) تركع: تَذِلّ وتَخْضَع، كنَّى بالرُّكوع عَنِ انْحطَاط الحَال.

(٦) انظر «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٤٣ - ٦٤٧)، و«الهديَّة الإسلامية» (ص٨٤ - ٨٩)، و«الهمَّة العالية» (ص١٧١ - ١٧٧).

١ ـ الجود بالنَّفس: وهو أعلى مراتبه، **كما قال الشَّاعر:**

يَجُودُ بالنَّفْسِ إذْ ضَنَّ[(١)] البَخيلُ بها ▫▪▫ والجُـودُ بالنَّفْسِ أقْصَى غـايَةِ الجُـودِ

٢ ـ الجُودُ بالنَّفْعِ بالجاه: فَيُبْذَلُ في سبيلِ الخيرِ: مِنْ شَفَاعَةٍ حَسَنَةٍ، وَإِحْقَاقِ حَقٍّ، ونُصْرَةِ مَظْلُومٍ، وَإِعَانَةِ ضَعِيفٍ، ومَشْيٍ مَعَ الرَّجُلِ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

قالَ اللهُ - سُبْـحَانَهُ وتَعَالَى -: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ (سورة النساء: ٨٥).

وَعَنْ أَبِي مُـوسَى الأَشْعَـرِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: **كَـانَ رَسُـولُ اللهِ - ﷺ - إذا جَـاءَهُ السَّائِلُ، أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، قَالَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا»**[(٢)].

وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ الشَّافِعِيُّ - يرحمه اللهُ -:

وأَدِّ زَكَـاةَ الجَـاهِ، وَاعْلَمْ بِأَنَّهَـا ▫▪▫ كَـمِـثْلِ زَكَـاةِ المالِ، تَمَّ نِصَـابُهَـا[(٣)]

وَكَتَبَ الحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ كِتَابَ شَفَـاعَةٍ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَشْكُرُهُ، فقَالَ الحَسَنُ: **«يا هذا، عَلامَ تَشْكُرُنَا؟!، إنَّا نَرَى الشَّفَاعَاتِ زَكَاةَ مُرُوءَتِنَا».**

ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فُـرِضَتْ عليَّ زَكَـاةُ مَـا مَلَـكَتْ يَدِي ▫▪▫ وَزَكَـاةُ جَـاهِي أَنْ أُعِـيْنَ وأَشْـفَـعَـا

فَإِذا مَلَـكْتَ فَجُـدْ، فَإِنْ لَمْ تَسْـتَطِعْ ▫▪▫ فـاجْـهَـدْ بِوُسْـعِكَ كُلِّهِ أَنْ تَـنْفَـعَـا[(٤)]

٣ ـ جُودُ الإِنْسَانِ بِرَاحَتِهِ وَرَفَاهِيَتِهِ، وَإِجْمَامِ[(٥)] نَفْسِهِ: فَيَجُودُ بِهَا تَعَبًا وَكَدًّا في مَصْلَحَةِ غَيْرِهِ، وَمِنْ هَذَا جُودُ الإِنْسَانِ بِنَوْمِهِ وَلَذَّتِهِ لِمُسَامِرِهِ، كَمَا قِيلَ:

---

(١) ضَنَّ: بَخِلَ.
(٢) رواه البخاريُّ (١٤٣٢) و(٦٠٢٧) و(٦٠٢٨) و(٧٤٧٦)، ومسلمٌ (٢٦٢٧).
(٣) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص٢٧).
(٤) «وفيات الأعيان» (٢/ ١٢٠).
(٥) الإجمَام: الرَّاحة.

مُتَيَّمٌ[1] بِالنَّدَى[2]، لَوْ قَالَ سائلُهُ: ❖ هَبْ لي جميعَ كَرَى[3] عينَيْكَ، لم يَنَمِ

٤ . الجُودُ بِالْعِلْمِ وَبَذْلُهُ: وَهُوَ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ الجُـودِ، والجُودُ بِهِ أَفْضَلُ مِنَ الجُودِ بِالْمَالِ؛ لأنَّ العلمَ أشرفُ مِنَ المَالِ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ الأَلْبِيرِيُّ:

جَعَلْتَ المالَ فَوْقَ العِلْمِ جَهْلاً ❖ لَعَمْرُكَ، فِي القَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا
وبَيْنَهُمَا - بِنَصِّ الوَحْيِ - بَوْنٌ ❖ سَتَعْلَمُهُ إذا طَهَ قَرَأْتَا

وقالَ آخرُ:

العِلْمُ كَنْزٌ وذُخْرٌ لا نَفَادَ لَهُ ❖ نِعْمَ القَرِينُ إذا ما صَاحَبٌ صَحِبَا
قَدْ يجمعُ المَرْءُ مالاً، ثُمَّ يُسْلَبُهُ ❖ عَمَّا قليلٍ، فَيَلْقَى الذُّلَّ والحَرَبَا
وجامعُ العِلْمِ مَغْبُوطٌ بِهِ أبداً ❖ ولا يُحَاذِرُ مِنْهُ الفَوْتَ والسَّلَبَا
يا جامعَ العِلْمِ نِعْمَ الذُّخْرُ تَجْمَعُهُ ❖ لا تَعْدِلَنَّ بِهِ دُرّاً، ولا ذَهَبَا

والنَّاسُ في الجودِ به على مراتبَ متفاوتةٍ، وقَدِ اقْتَضَتْ حِكمةُ اللهِ وتقديرُهُ النَّافذُ ألاَّ يَنْفَعَ به بَخيلاً أبَدًا.

وَمِنَ الجُودِ بِهِ أَنْ تَبْذُلَهُ لمن لم يسألْك عنه، بَلْ تَطْرَحَهُ عليه طَرْحًا.

وَمِنَ الجُودِ بالعلْمِ أنَّ السَّائلَ إذا سَأَلَكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ، اسْتَقْصَيْتَ لَهُ جَوَابَهَا جَوَابًا شَافِياً، لا يَكُونُ جَوَابُكَ له بقَدْرِ مَا تَدْفعُ به الضَّرورةَ، كَمَا كَانَ بعضُهم يَكْتُبُ في جَوَابِ الفُتيا (نَعَمْ) أو (لا) مُقْتَصِراً عليها.

---

(١) مُتَيَّمٌ: مُسْتَعْبَدٌ ذليلٌ.
(٢) النَّدى: الجود والكرم.
(٣) الكَرَى: النَّوم.

فَمِنْ جُـودِ الإنسان بالعلْمِ أنَّه لا يَقْـتَصِرُ عَلَى مَـسْأَلَةِ السَّـائِلِ، بَلْ يذكُرُ لَهُ نَظَائِرَهَا، ومُتَعلِّقَها، ومأْخَذَهَا، بِحَيْثُ يَشْفِيهِ ويَكْفِيه.

وقَدْ سَأَلَ الصَّحَابَةُ -رضي الله عنهم- النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- عَنِ المتَوَضِّئِ بِمَاءِ البَحْرِ، فَقَالَ: «هو الطَّهُورُ مَاؤُه، الحِلُّ مَيْتَتُه»[١]. فأجابهم عن سؤَالِهِمْ، وَجَادَ بِـمَا لعلَّهم في بعْضِ الأَحْيَانِ إليه أَحْوَجُ مِمَّا سألوه عَنْهُ.

وكَانُوا إِذَا سَأَلُوهُ عَنِ الحُكْمِ، نَبَّهَهُمْ على عِلَّتِه وَحِكْمَتِه، مِثْلَ قَوْلِه: «إنْ بِعْتَ مِنْ أخيكَ ثَمَرَةً، فَأَصَابَتْهَا جَائِحَةٌ، فلا يَحِلُّ لك أَنْ تأخُذَ مِنْ مَالِ أَخِيكَ شَيْئًا؛ بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ؟!»[٢].

٥ ـ الجُودُ بنَفْعِ البَدَنِ على اخْتِلافِ أَنْوَاعِهِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «كُلُّ سُلامَى[٣] من النَّاسِ عليه صدقةٌ، كُلَّ يومٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ: تَعْدِلُ[٤] بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وتُعِينُ الرَّجُلَ في دابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عليها، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عليها متاعَهُ صَدَقَةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صدقةٌ، وبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وتُمِيطُ[٥] الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»[٦].

---

(١) رواه أبو داودَ (٨٣)، والتِّرمذيُّ (٦٩)، عن أبي هريرةَ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٧٠٤٨)، و«الصَّحيحة» (٤٨٠).

(٢) رواه مسلمٌ (١٥٥٤) عن جابر بن عبد الله.

(٣) سُلامَى: أَصْلُهُ عِظَامُ الأَصَابِعِ وسائرِ الكَفِّ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في سَائِرِ عِظَامِ البَدَنِ ومفاصلِه، والجمع سُلامَيَاتٌ.

(٤) تَعْدِل: تُصْلِح بالعَدْلِ.

(٥) تُميط: تُزيل وتُنحِّي.

(٦) رواه البخاريُّ (٢٧٠٧) و(٢٨٩١) و(٢٩٨٩)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (١٠٠٩).

٦ ـ وَيَدْخُلُ في الجُودِ مَنْ يَسْعَى في حَوائجِ النَّاسِ، وتَفْريجِ كُرُباتِهِمْ:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «أَحَبُّ النَّاسِ إلى اللهِ أنفعُهُمْ، وَأَحَبُّ الأعْمَالِ إلى اللهِ - عزَّ وجلَّ - سُرُورٌ تُدْخِلُهُ على مُسْلِمٍ، أو تَكْشِفُ عنه كُرْبةً، أو تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عنه جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أخي المسلمِ في حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أنْ أعتكِفَ في المسجدِ شهْرًا، ومَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ كَظَمَ غَيْظًا - ولو شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ - مَلأَ اللهُ قَلبَهُ رضىً يومَ القيامةِ، ومَنْ مَشَى مَعَ أَخيهِ المُسْلِمِ في حَاجَتِهِ حَتَّى يُثْبِتَهَا[١] لَهُ، أَثْبَتَ اللهُ - تَعَالى - قَدَمَهُ يَوْمَ تَزِلُّ الأَقْدَامُ»[٢].

٧ ـ ويدخُلُ في الجُودِ مَنْ يَسْتَحِقُّ على عَمَلٍ أجرًا، فيترُكُ الأَجْرَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ.

٨ ـ وَمِنْ جميلِ الجُودِ جُودُ الإِنْسَانِ بِالنُّصْحِ وَالإِرْشَادِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

أَنْتَ كَنْزُ الدُّرِّ واليَاقُوتِ في ... لُجَّةِ الدُّنيا، وإنْ لَمْ يَعْرِفُوكْ

مَحْفِلُ الأَيَّامِ في شَوْقٍ إلى ... صَوتِكَ العالي، عَسَاهُمْ يَسْمَعُوكْ

٩ ـ جُودُ الإِنْسَانِ بِعِرْضِهِ لِمَنْ نَالَ مِنْهُ، أو اسْتَطَالَ عليه:

كَمَا في خَبَرِ أَبي ضَمْضَمٍ قَالَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ أبي ضَيْغَمٍ - أو ضَمْضَمٍ، شَكَّ ابْنُ عُبَيْدٍ[٣] - كَانَ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ»[٤].

---

(١) يثبتها: ينجزها.

(٢) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير»، وابن أبي الدُّنيا في «قضاء الحوائج»، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٧٦/١)، و«الصَّحيحة» (٩٠٦).

(٣) هو محمَّد بن عبيد بن حساب.

(٤) رواه أبو داودَ (٤٨٨٦)، والعقيليُّ في «الضُّعفاء» (٤/ ١٨٠)، وابن السُّنِّيِّ في «عمل اليوم واللَّيلة» (٦٥)، وضعَّفه العراقيُّ في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٦٣)، وكذلك الألبانيُّ في «الإرواء» (٨/ ٣٢)، ولكن له شاهدٌ عند أبي هريرة، أخرجه ابن بشكوال في كتابه «الغوامض والمبهمات» (٤٤٩)، ونصُّه: «أنَّ رجلاً من المسلمين قال: اللهمَّ، إنَّه ليس لي مالٌ أتصدَّقُ به؛ فأيُّما رَجُلٍ من المسلمين أصاب من عِرْضي شيئًا، فهو له صدقةٌ، فأوحى اللهُ إلى النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أنَّه قد غفر له». صحَّحه ابنُ حجرٍ في «الإصابة» (٢/ ٥٠٠).

وَقِيلَ لِلشَّعْبِيِّ: فُلانٌ يَتَنَقَّصُكَ وَيَشْتِمُكَ. فَتَمَثَّلَ الشَّعْبِيُّ بِقَوْلِ كُثَيِّرِ عَزَّةَ[1]:

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ داءٍ مُخَامِرٍ[2] ... لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ

أَسِيئِي بِنَا، أَوْ أَحْسِنِي لا مَلُومَةٌ ... لَدَيْنَا، ولا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ[3][4]

١٠ ـ *الجُودُ بالصَّبْرِ والاحْتِمَالِ والإغْضَاءِ*: وَهَذه مَرْتبةٌ شريفةٌ مِنْ مَرَاتِبه، وهي أنفعُ لِصَاحِبِهَا مِنَ الجُودِ بالمال، وأَعَزُّ له وأَنْصَرُ، وأَمْلَكُ لِنَفْسِه، وأَشْرَفُ لها، ولا يَقْدِرُ عليها إلاَّ النُّفوسُ الكِبَارُ.

وَفِي هَذَا الجُودِ قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الشورى: ٤٠).

فَذَكَرَ المقامات الثَّلاثَةَ في هذه الآية: مَقَامَ العَدْلِ وأَذِنَ فيه، ومَقَامَ الْفَضْلِ ونَدَبَ إِلَيْه، ومَقَامَ الظُّلْمِ وَحَرَّمَهُ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

هُمُ النَّاسُ والدُّنْيا، ولابُدَّ مِنْ قَذَى[5] ... يُلِمُّ[6] بِعَيْنٍ، أَوْ يُكَدِّرُ مَشْرَبا

ومِنْ قِلَّةِ الإنصافِ أنَّكَ تَبْتَغِي الـ ... مُهَذَّبَ في الدُّنيا، ولَسْتَ المُهَذَّبا

---

(١) شاعرٌ متيَّمٌ مشهورٌ من أهل الحجاز، معروفٌ بابن أبي جمعةَ، كان دَمِيمَ الخَلْقِ قصيرًا، طوله ثلاثة أشبار؛ فلهذا صُغِّرَ اسْمُهُ، وَفَدَ على عَبْدِ الملك بْنِ مَرْوَانَ، فازْدَرى مَنْظَرَهُ إلى أنْ عَرَفَ أَدَبَهُ، فرفع مَجْلِسَهُ، وعَزَّةُ هذه المشهورُ بها المنسوبُ إليها - لِتَغَزُّلِه فيها - هي عَزَّةُ بنتُ جميلٍ أمُّ عَمْرٍو الضَّمْرِيَّةُ، وأخباره معها كثيرةٌ، وكان عفيفًا في حُبِّه، تُوُفِّيَ بالمدينة سنة ١٠٥ هـ، على المشهور.

(٢) الداءُ المُخَامِرُ: الدَّفِينُ المُسْتَتِرُ. أي أنَّ ما استحلَّتْهُ عزَّةُ من ثَلْبِ أعراضِنَا يَحِلُّ لها حالَ كَوْنِه هنيئًا غيرَ مسبِّبٍ لها داءً ولا أَلَمًا.

(٣) تَقَلَّتْ: تَبَغَّضَتْ. وفي البَيْتِ التفاتٌ منَ الخِطَابِ إلَى الغَيْبَةِ.

(٤) «بهجة المجالس» (٢/٤٣٦).

(٥) القَذَى: جَمْعُ قَذَاةٍ، وهي ما يقع في العينِ، والشَّرابِ، والماءِ من تُرَابٍ، ووَسَخٍ، وَغَيْرِ ذلك.

(٦) يُلِمُّ: يَنْزِلُ.

١١ ـ الجُودُ بالخُلُقِ، والبِشْرِ والبَسْطَةِ، ومُقَابَلَةِ النَّاسِ بالطَّلاقَةِ: وَهُوَ فَوْقَ الجود بالصَّبْرِ، والاحْتِمَالِ والعَفْوِ، وَهُوَ الَّذِي بَلَغَ بِصَاحِبِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ، وَهُوَ أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ في الميزَانِ.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «**لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[1].

وَفِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ المَنَافِعِ والمَسَارِّ، وَأَنْوَاعِ المَصَالِحِ مَا فِيهِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

لله تِلْكَ الدَّارُ أيُّ مَحَلَّةٍ ... للجُودِ، والإفضَالِ، والتَّكْرِيمِ؟!

هُمْ كَالشُّمُوسِ مَهَابَةً وَجَلالَةً ... أَخْلاَقُهُمْ في الحُسْنِ كالتَّسْنِيمِ

١٢ ـ وَيَدْخُلُ فِي قَبِيلِ الأَجْوَادِ مَنْ يَكُونُ له دَيْنٌ عَلَى آخَرَ، فَيَطْرَحُهُ عَنْهُ، وَيُخْلِي ذِمَّتَهُ مِنْهُ، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ الوصولَ إليه دُونَ عَنَاءٍ، ولا تَعَبٍ:

كَانَ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ -رضي الله عنهما- مِنَ الأَجْوَادِ المعروفين، حتَّى إنَّه مرضَ مَرَّةً، فَاسْتَبْطَأَ إخوانَهُ في العِيادَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُمْ، فَقَالُوا: إنَّهُم كانوا يستحيونَ ممَّا لَكَ عليهم مِنَ الدَّيْنِ، فَقَالَ: أَخْزَى اللهُ مَالاً يَمْنَعُ الإِخْوَانَ مِنَ الزِّيَارَةِ، ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيًا يُنَادِي: مَنْ كَانَ لقَيْسٍ عليه مالٌ، فهو منه في حِلٍّ. فَمَا أَمْسَى حتَّى كُسِرَتْ عَتَبَةُ بَابِهِ لِكَثْرَةِ مَنْ عَادَهُ[2].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٦٢٦).

(٢) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٤٢).

قَالَ الشَّاعرُ - يَمْدَحُ كَرِيمًا - :

كَأَنَّكَ في الكِتَابِ وَجَدْتَ لاءً ❖ مُحَرَّمَةً عليك فلا تَحِلُّ
إذا حَضَرَ الشِّتَاءُ فَأَنْتَ شَمْسٌ ❖ وإنْ حَلَّ المصيفُ فَأَنْتَ ظِلُّ
وَمَا تَدْرِي إِذَا أَنْفَقْتَ مَالاً ❖ أَيكثُرُ في عطائِكَ أم يقِلُّ
جُزِيتَ عَنِ البَرِيَّةِ كُلَّ خَيْرٍ ❖ فأنت الماجِدُ البَطَلُ الأجلُّ
بِوَجْهِكَ نَسْتَضِيءُ إذَا سَرَيْنَا ❖ جَبِينٌ فِي اللَّيَالِي مُشْمَعِلُّ
وَذِكْرُكَ فِي المَسَامِعِ خَيْرُ هَادٍ ❖ يُكَرَّرُ فِي الجُمُوعِ فَلا يُمَلُّ
فَدَتْكَ نُفُوسُنَا عَنْ كُلِّ هَوْلٍ ❖ وَيَفْدِيكَ الحَجِيجُ إذَا أَهَلُّوا !

١٣ - وَمِنَ الجُودِ حَضُّ النَّاسِ عَلَى الخَيْرِ، وَحَثُّهُمْ على الجُودِ وَالإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ البِرِّ: وَلِهَذَا قَالَ اللهُ - تَعَالَى - : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (سورة الماعون: ١-٣).

فَذَكَرَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - مَنْ لا يحضُّ على طَعَامِ المسكين في مَعْرِضِ الذَّمِّ، وفي هَذَا أَمْرٌ للعَبْدِ بِأَنْ يَحُضَّ على طَعَامِ المِسْكِينِ، إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ إِطْعَامَهُ بِنَفْسِهِ.

١٤ - وَيَدْخُلُ فِي الجُودِ دِلالَةُ النَّاسِ عَلَى وُجُوهِ الخَيْرِ، وَتَذْكِيرُهُمْ بِطُرُقِهِ:

عَنْ أبي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو الأَنْصَارِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[1].

١٥ - وَيَدْخُلُ فِي الجُودِ شُكْرُ الأَجْوَادِ، والدُّعَاءُ لهم، وَتَشْجِيعُهُمْ على مَزِيدٍ مِنَ البَذْلِ: وَلِهَذَا لَمَّا أَمَرَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى - نَبِيَّهُ - صلى الله عليه وسلم - بِأَخْذِ الصَّدَقَةِ مِنَ

(١) رواه مسلمٌ (١٨٩٣).

الأَغْنِيَاء، أَمَـرَهُ بِالدُّعَاء لَهُمْ، كَمَـا قَالَ - سُبْحَـانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (سورة التوبة: ١٠٣).

فَقَـوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَصَلِّ عَلَيْـهِمْ﴾ أَي: ادعُ لهم. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: طُمَأْنِينَةٌ لِقُلُوبِهِمْ، وَاسْتِبْشَارٌ لَهُمْ»[١].

قَالَ الشَّاعِرُ:

أَنفقْ ولا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلالا[٢] ■ ولا تُطِعْ في سَبِيلِ الجُودِ عُذَّالا[٣]

مَنْ جَادَ جَادَ عَلَيْهِ اللهُ، واسْتَتَرَتْ ■ عُيُوبُهُ، وَكَفَى بِالجُودِ سِرْبَالا[٤]

١٦ ـ *الجُودُ بِتَرْكِهِ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ عَلَيْهِم:* فَلا يَتَلَفَّتُ إِلَيْه، ولا يَسْتَشْرِفُ لَهُ بِقَلْبِـه، ولا يتعـرَّضُ لَهُ بِحَالِـه وَلا لِسَانِه، وَهَذَا الَّذِي قَـالَ عَنْهُ عَبْـدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ: «إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ سَخَاءِ النَّفْسِ بِالبَذْلِ».

قَالَ ابْنُ القَيِّم - يرحمه اللهُ -:

«فَلِسَانُ حَـالِ القَدَرِ يَقُـولُ لِلْفَقِيـرِ الجَوَادِ: وَإِنْ لَمْ أُعْطِكَ مَـا تَجُودُ بِه عَلَى النَّاسِ، فَجُدْ عَـلَيْهِم بِزُهْدِكَ فِـي أَمْوَالِهِمْ، وَمَـا فِي أَيْدِيهِمْ، تَفْـضُلْ عَلَيْـهِمْ، وَتُزَاحِمُهُمْ فِي الجُودِ، وَتَنْفَرِد عنهم بِالرَّاحَةِ»[٥].

وَقَالَ ابْنُ المُقَفَّعِ:

«عَوِّدْ نَفْسَكَ السَّخَاءَ، واعْلَمْ أَنَّه سَخَـاءانِ: سَخَاوَةُ نَفْسِ الرَّجُـلِ بِمَا فِي يَدَيْهِ، وَسَخَاوَتُهُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

---

(١) «تفسير ابن سَعْديٍّ» (٢/ ٢٨٣).

(٢) إِقْلالا: افْتِقَارًا، يُقَالُ: أَقَلَّ الرَّجُلُ: إِذَا افْتَقَرَ.

(٣) عُذَّال: جمعُ عاذل، وهو اللائم.

(٤) السِّرْبال: القميصُ السَّابغُ، والجمعُ سرابيلُ.

(٥) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/ ٦٤٧).

وَسَخَاوَةُ نَفْسِ الرَّجُلِ بِمَا فِي يَدَيْهِ أَكْثَرُهُمَا، وَأَقْرَبُهُمَا مِنْ أَنْ تَدْخُلَ فِيهِ الْمُفَاخَرَةُ، وَتَرْكُهُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ أَمْحَضُ[1] فِي التَّكَرُّمِ، وَأَبْرَأُ مِنَ الدَّنَسِ وَأَنْزَهُ. فَإِنْ هُوَ جَمَعَهُمَا، فَبَذَلَ وَعَفَّ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْجُودَ وَالْكَرَمَ»[2].

١٧ ـ وَمِنَ الجُودِ مُعَامَلَةُ الكِرَامِ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ»[3].

هَذَا مَا تَيَسَّرَ الوُقُوفُ عَلَيْهِ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ ضَمِنَ المَزِيدَ للجَوَادِ، والإِتْلافَ للمُمْسِكِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهُمَّ، أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللهُمَّ، أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»[4].

والكريمُ ـ حقّاً ـ مَنْ يُلاقي خَدَمُهُ الزَّائرين والمُسْتَجْدِينَ[5] بِأَدَبٍ جَمِيلٍ، وَيَسْتَقْبِلُهُمْ هُوَ بِالبِشْرِ والتِّرْحَابِ؛ حَتَّى يَحْفَظَ لَهُمْ عِزَّتَهُمْ.

قَالَ ابنُ هَرْمَةَ ـ يمدحُ رجلاً ـ:

هَشٌّ إذا نَزَلَ الوُفُودُ ببابِهِ ▫▪▫ سَهْلُ الحِجَابِ، مُؤَدَّبُ الخُدَّامِ[6]

---

(١) أمحض: أخلَصُ.

(٢) «الأدب الصَّغير والأدب الكبير» (ص١١١-١١٢).

(٣) رواه ابنُ مَاجَةَ (٣٧١)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢٦٩)، و«الصَّحيحة» (١٢٠٥).

(٤) رواه البخاريُّ (١٤٤٢)، ومسلمٌ (١٠١٠).

(٥) المُسْتَجْدِين: جمع مُسْتَجْدٍ، وهو السَّائل، يُقَالُ: اسْتَجْدَاهُ: أي طَلَبَ جَدْوَاهُ، وَالجَدْوَى: العَطِيَّةُ.

(٦) «عيون الأخبار» (١/ ١٢٩).

وَأَرْفَعُ دَرَجَاتِ الْكَرَمِ أَنْ يَجُودَ الرَّجُلُ بِمَا يُحِبُّ، وَبِمَا هُوَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ، فَيَدَعُ حَاجَتَهُ فِي وُجُوهِ الخَيْرِ، وَذَلِكَ يُسَمَّى الإِيثَارَ.

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (سورة آل عمران: ٩٢). وقالَ -جلَّ شأنُهُ-: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[1]﴾ (سورة الحشر: ٩).

وحين سَأَلَ أبو هريرةَ رَسُولَ اللهِ -ﷺ-: «أيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟». قَالَ: «جُهْدُ المُقِلِّ»[2].

وَعَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ -ﷺ- فَقَالَ: «يا رسولَ اللهِ، أيُّ الصَّدقةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟». قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ[3]، تخشى الْفَقْرَ، وتَأْمُلُ الغِنَى»[4].

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ - يرحمه اللهُ -:

«وَلَمَّا كَانَتْ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ على إِخْرَاجِ المالِ مَعَ قِيامِ مَانِعِ الشُّحِّ دَالاًّ على صِحَّةِ الْقَصْدِ، وَقُوَّةِ الرَّغْبَةِ في التُّرْبَةِ[5] - كَانَ ذلكَ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ المُرَادُ أَنَّ نَفْسَ الشُّحِّ هُوَ السَّبَبُ في هَذِهِ الأَفْضَلِيَّةِ»[6].

قَالَ دِعْبِلُ الخُزَاعِيُّ:

وَلَيْسَ الْفَتَى المُعْطِي عَلَى اليُسْرِ وَحْدَهُ ... وَلَكِنَّهُ المُعْطِي على العُسْرِ وَالْيُسْرِ[7]

---

(١) الخَصَاصَةُ: الفَقْرُ.
(٢) رواه أبو داودَ (١٦٧٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن أبي داودَ» (١٤٧١).
(٣) الشُّحُّ: البُخْلُ مَعَ حِرْصٍ.
(٤) رواه البخاريُّ (١٤١٩) و(٢٧٤٨)، ومسلمٌ (١٠٣٢).
(٥) التربة: الفقر الشَّديد.
(٦) «فتح الباري» (٣/ ٢٨٥).
(٧) «عيون الأخبار» (١/ ٣٤٤).

وقال آخر:

ليسَ جُودُ الفِتْيَانِ مِنْ فَضْلِ مالٍ ◘◘◘ إنمَّا الجُودُ للمُقِلِّ المُوَاسِي[(١)]

وضِدُّ الكَرَمِ البُخْلُ، وهو خُلُقٌ مرذولٌ يدعو إلى مساوئ الأَخْلاق.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ الله -ﷺ- فَقَالَ: «إيَّاكُمْ والشُّحَّ؛ فَإنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ؛ أَمَرَهُمْ بالبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالفُجُورِ فَفَجَرُوا»[(٢)].

قَالَ الماوَرديُّ - يرحمه اللهُ -:

«وَقَدْ يَحْدُثُ عَنِ الْبُخْلِ مِنَ الأَخْلاقِ المَذْمُومَةِ - وَإِنْ كَانَ ذَرِيعَةً إِلَى كُلِّ مَذَمَّةٍ - أَرْبَعَةُ أَخْلاقٍ نَاهِيكَ بِهَا ذَمّاً، وهِيَ: الحِرْصُ، والشَّرَهُ، وَسُوءُ الظَّنِّ، وَمَنْعُ الحُقُوقِ.

فَأَمَّا الحِرْصُ فَهُوَ شِدَّةُ الكَدْحِ، والإِسْرَافُ في الطَّلَبِ، وأمَّا الشَّرَهُ فَهُوَ اسْتِقْلالُ الكِفَايَةِ، وَالاسْتِكْثَارُ لِغَيْرِ حَاجَةٍ، وأَمَّا سُوءُ الظَّنِّ فَهُوَ عَدَمُ الثِّقَةِ بِمَنْ هُوَ لَهَا أَهْلٌ، فَإِنْ كَانَ بالخَالِقِ كَانَ شَكّاً يَئُولُ إِلَى ضَلالٍ، وَإِنْ كَانَ بالمخْلُوقِ كَانَ استخانةً يَصِيرُ بِهَا مختانًا وخوَّانًا؛ لأَنَّ ظَنَّ الإِنْسَانِ بِغَيْرِهِ بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ مِنْ نَفْسِه، فَإِنْ وَجَدَ فِيهَا خَيْرًا ظَنَّهُ في غَيْرِهِ، وَإِنْ رَأَى فِيهَا سُوءًا اعْتَقَدَهُ فِي النَّاسِ، وَقَدْ قِيلَ في المَثَلِ: كُلُّ إِنَاءٍ يَنْضَحُ بِمَا فِيهِ، وَأَمَّا مَنْعُ الحُقُوقِ فَإِنَّ نَفْسَ البَخِيلِ لا تَسْمَحُ بِفِرَاقِ مَحْبُوبِهَا، وَلا تَنْقَادُ إِلَى تَرْكِ مَطْلُوبِهَا، فَلا تُذْعِنُ لِحَقٍّ، ولا تُجِيبُ إلى إِنْصَافٍ.

(١) المرجع السَّابق.
(٢) رواه أبو داودَ (١٦٩٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في«صحيح الجامع» (١/٢٦٧٨)، و«الصَّحيحة» (١٤٦٢).

وإذَا آلَ الْبَخِيلُ إلَى مَا وَصَفْنَا مِنْ هَذه الأَخْلاقِ الْمَذْمُومَة، والشِّيَمِ اللَّئِيمَةِ - لم يَبْقَ معه خيرٌ مَرْجُوٌّ، ولا صَلاحٌ مَأْمُولٌ»[١].

وَكَانَ رَسُولُ الله - ﷺ - يَتَعَوَّذُ دُبُرَ كُلِّ صَلاة منَ الْبُخْلِ، فكَانَ مِنْ دُعَائه: «اللهُمَّ، إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ»[٢].

وفي هذا المعنى يقولُ شيخُ الإسلام ابن تيميَّةَ - يرحمه اللهُ -:

«إنَّ الجميعَ يتمادحُونَ بالشَّجاعَةِ والكَرَمِ، حَتَّى إنَّ ذَلكَ عَامَّةُ مَا تَمْدَحُ به الشُّعَرَاءُ ممدوحَهُمْ في شِعْرِهِمْ، وكَذَلكَ يَتَذَامُّونَ بِالبُخْلِ والجُبْنِ».

ثُمَّ قَالَ: «ولَمَّا كَانَ صَلاحُ بَنِي آدَمَ لا في دِينِهِم ودُنْيَاهُم إلاَّ بِالشَّجَاعَةِ والكَرَمِ - بيَّنَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ بِتَرْكِ الجِهَاد بنَفْسه، أَبْدَلَ اللهُ بِهِ مَنْ يَقُومُ بذَلكَ، وَمَنْ تَوَلَّى عَنْهُ بِإنْفَاقِ مَاله، أَبْدَلَ اللهُ بِهِ مَنْ يَقُومُ بذلكَ، فَقَالَ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى-: ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (سورة محمد: ٣٨).

ثُمَّ قَالَ - يرحمه اللهُ -:

«وبالشَّجَاعَةِ والكَرَمِ في سَبِيلِ الله فَضَّلَ اللهُ السَّابِقِينَ، فَقَالَ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى-: ﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ (سورة الحديد: ١٠).

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٥ - ١٨٦) بتصرُّف.
(٢) رواه البخاريُّ (٦٣٦٥)، و(٦٣٧٠) و(٦٣٧٤) و(٦٣٩٠) عن سَعْدِ بْنِ أبي وقَّاصٍ.

وقَدْ ذَكَرَ الجهادَ بالمال والنَّفْسِ في سَبيـله، ومَدَحَهُ في غَيْرِ آية مِنْ كتَابه، وَذَلكَ هُوَ الشَّجَاعَةُ والسَّمَاحَةُ في طَاعَة الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- وطَاعَة رَسُوله»[١].

وكَمَا أنَّ الشَّجَاعَةَ والكَرَمَ صنْوَانِ لا يَفْتَرِقَان، فالبُخْلُ والجُبْنُ قَرينَان.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ - يرحمه اللهُ -:

«الجُبْنُ والبُخْلُ قرينان، فإنْ عدم النَّفع منه، إنْ كَانَ ببَدَنه فَهُوَ الجُبْنُ، وإِنْ كَانَ بمَاله فَهُوَ البُخْلُ»[٢].

والبُخْلُ يبرزُ مَا استَتَرَ منَ عُيُوبِ صَاحِبه.

قَالَ صَالحُ بْنُ عَبْدِ القُدُّوسِ:

ويُظْهِرُ عَيْبَ المَرْءِ في النَّاسِ بُخْلُهُ ▫▪▫ ويَسْتُرُهُ عَنْهُمْ - جَمِيعًا - سَخَاؤُهُ
تَغَطَّ بأثوابِ السَّخَاءِ، فَإِنَّني ▫▪▫ أرى كُلَّ عيبٍ فالسَّخاءُ غِطاؤُهُ[٣]

والبخل يكسي صاحبه جلبابَ المَسْكَنة والفقرِ.

قال أبو العَتَاهِيَة:

إنَّ البَخِيلَ - وَإنْ أَفَادَ غِنَىً -[٤] ▫▪▫ لَتُرَى عَلَيْهِ مَخَايِلُ[٥] الفَقْرِ

والبخيلُ لا يَسُودُ قومَهُ.

(١) «الاستقامة» (٢/ ٢٦٣ - ٢٧٠) باختصار.
(٢) «الجواب الكافي» (ص٨٥).
(٣) «أدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص١٨٤).
(٤) أفَادَ غِنَىً: استَفَادَهُ.
(٥) المَخَايِل: العلامات والأمَارَاتُ، واحدُها مَخِيلَةٌ.

عَنْ جابرِ بْنِ عَبْدِ الله -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ سَيِّدُكُمْ، يا بَنِي سَلَمَةَ؟». قلنا: «جَدُّ بن قيْسٍ على أنَّا نُبَخِّلُهُ». قال: «وأيُّ داءٍ أَدْوَى مِنَ البُخْلِ؟!، بَلْ سَيِّدُكم عَمْرُو بْنُ الجَمُوحِ»[١].

وفي هَذَا قَالَ شاعرُ الأنْصَارِ:

وقال رسولُ اللهِ ـ والحقُّ قَولُهُ ـ ■ لِمَنْ قال منَّا: مَنْ تُسَمُّونَ سَيِّدا؟

فَقَالُوا: هُوَ الجَدُّ بْنُ قَيْسٍ على التي ■ نُبَخِّلُهُ فيهَا، وإنْ كَانَ أَسْوَدَا

فتىً ما تَخَطَّى خَطْوَةً نَحْوَ رِيبَةٍ[٢] ■ ولا مَدَّ في يَوْمٍ إلَى سَوْءَةٍ[٣] يَدَا

فَسُوِّدَ عَمْرُو بْنُ الجَمُوحِ بجُودِهِ ■ وحُقَّ لِعَمْرٍو بالنَّدى أَنْ يُسَوَّدَا

إذا جَاءَهُ السُّؤَّالُ أَذْهَبَ مَالَهُ ■ وَقَالَ: خُذُوهُ، إنَّهُ عَائِدٌ غَدَا

والبَخِيلُ لَيْسَ لَهُ خَلِيلٌ، فَبُخْلُهُ يُبَغِّضُهُ إلَى النَّاسِ حَتَّى أَوْلادَهُ.

وَللهِ دَرُّ أبي مُحَمَّدٍ إسْحَاقَ الموصليِّ - يرحمه اللهُ - حَيْثُ قَالَ:

وَآمِرَةٍ بالبُخْلِ قُلْتُ لها: اقْصُرِي ■ فَلَيْسَ إلَى مَا تَأْمُرِينَ سَبِيلُ

أَرَى النَّاسَ خُلاَّنَ الجَوَادِ، ولا أَرَى ■ بَخِيلاً لَهُ فِي العَالمِينَ خَلِيلُ

وإنِّي رَأَيْتُ البُخْلَ يُزْرِي بِأَهْلِهِ ■ فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ بَخِيلُ

وَمِنْ خَيْرِ حَالاتِ الفَتَى - لَوْ عَلِمْتَه - ■ إذَا نَالَ شَيْئاً أَنْ يَكُونَ يَنِيلُ[٤]

---

(١) رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٤٠٧١).
(٢) رِيبَة: شُبْهَة وتُهْمَة، والجمع رِيَبٌ.
(٣) السَّوْءَة: الفاحشة، جمعها سَوْءَات.
(٤) ينيل: يُعطي.

عَطَائِي عَطَاءُ المُكْثِرِينَ تَكَرُّمًا ◘■◘ وَمَالِي - كَمَا قَدْ تَعْلَمِينَ - قَلِيلُ
وَكَيْفَ أَخَافُ الفَقْرَ، أو أُحْرَمُ الغِنَى ◘■◘ ورأْيُ أميرِ المؤمنينَ جَلِيلُ؟![1]

والبخيلُ إذَا مَاتَ خَلَّفَ مَا جَمَعَهُ لوَارِثه، وَذَهَبَ هُوَ بِسُوءِ الثَّنَاء.

قَالَ بَعْضُ البُلَغَاء: «البَخِيلُ حَارِسُ نعمته، وَخَازِنُ وَرَثَته»[2].

وَقَالَ حاتمٌ الطَّائيُّ:

إنَّ البَخِيلَ إذا مَا مَاتَ يَتْبَعُهُ ◘■◘ سُوْءُ الثَّنَاءِ، ويَحْوِي الوَارِثُ الإبِلا

وَقَالَ آخَرُ:

إذَا كُنْتَ جَمَّاعًا، لمالِكَ مُمْسِكًا ◘■◘ فَأَنْتَ عَلَيْهِ خَازِنٌ وَأَمِينُ
تُؤَدِّيهِ مَذْمُومًا إِلَى غَيْرِ حَامِدٍ ◘■◘ فَيَأْكُلُهُ عَفْوًا[3] وَأَنْتَ دَفِينُ[4]

وقال محمَّد بن الحسين:

يُفْنِي البَخِيلُ بجَمْعِ المالِ مُدَّتَهُ ◘■◘ وَلِلْحَوَادِثِ والوُرَّاثِ مَا يَدَعُ
كَدُودَةِ القَزِّ مَا تَبْنِيهِ يَخْنُقُهَا ◘■◘ وغيرُهَا بالذي تَبْنِيهِ يَنْتَفِعُ[5]

وقال آخَرُ:

وذي حِرْصٍ تَرَاهُ يَلُمُّ وَفْرًا[6] ◘■◘ لوارِثِهِ، ويَدْفَعُ عَنْ حِمَاهُ
كَكَلْبِ الصَّيْدِ يُمْسِكُ - وهو طَاوٍ -[7] ◘■◘ فَرِيسَتَهُ لِيَأْكُلَهَا سِوَاهُ[8]

---

(١) «وفيات الأعيان» (١/ ٢٠٤)، والبيتان الأخيران ذكرهما الذَّهبيُّ في «السِّيَر»، وذكر أنَّه أنشدهما الرَّشيد، فأمر لَهُ بمائة ألف درهم (١١/ ١١٨ - ١٢١).

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٥).

(٣) عَفْوًا: أيْ بِغَيْرِ مَسْأَلَة.

(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٥).

(٥) «البداية والنِّهاية» (١٢/ ٥٠٢).

(٦) الوَفْرُ - بالفتح - : المالُ الكثيرُ.

(٧) طَاوٍ: اسم فاعل للفعل طَوِيَ يَطْوَى طَوًى: إذا جَاعَ وَضَمَرَ بَطْنُهُ من الجُوع.

(٨) «جواهر الأدب» (ص٧١٤ - ٧١٥).

نَعُوذُ بالله مِنْ مَثَلِ السَّوْءِ!.

والبَخِيلُ إِنْ مَاتَ عزَّتْ وَرَثَتَهُ عنه كَثْرَةُ ماله.

قالَ ابْنُ الرُّومِيِّ:

أَبْقَيْتَ مَالَكَ مِيرَاثًا لِوَارِثِهِ ... فَلَيْتَ شِعْرِي[1] مَا أَبْقَى لَكَ المالُ؟!

القَوْمُ بَعْدَكَ في حَالٍ تَسُرُّهُم ... فَكَيْفَ بَعْدَهُمْ حَالَتْ بِكَ الحَالُ؟!

مَلُّوا البُكَاءَ، فَمَا يَبْكِيكَ مِنْ أَحَدٍ ... واسْتَحْكَمَ القَوْلُ في المِيرَاثِ والقَالُ

ولَّتْهُمْ عَنْكَ دُنْيَا أَقْبَلَتْ لَهُمْ ... وَأَدْبَرَتْ عَنْكَ، وَالأَيَّامُ أَحْوَالُ[2]

وَأَخِيراً:

اللهُ أَعْطَاكَ، فَابْذُلْ مِنْ عَطِيَّتِهِ ... فَالمَالُ عَارِيَةٌ، وَالْعُمْرُ رَحَّالُ

المَالُ كَالمَاءِ، إنْ تَحْبِسْ سَوَاقِيَهُ ... يَأْسَنْ، وَإِنْ يَجْرِ يَعْذُبْ مِنْهُ سَلْسَالُ



(١) ليت شعري: ليتني أعلمُ.

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٢٣).

إِكْرَامُ الضَّيْفِ

إِكْرَامُ الضَّيْفِ مِنْ مكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَجَمِيلِ الخِصَالِ، تَحَلَّى بِهِ الأَنْبِيَاءُ، وَحَثَّ عَلَيْهِ المُرْسَلُونَ، مَنْ عُرِفَ بالضِّيَافَةِ عُرِفَ بِشَرَفِ المَنْزِلَةِ، وعُلُوِّ المَكَانَةِ، وانْقَادَ لَهُ قَوْمُهُ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ سَادَ في الجَاهِلِيَّةِ والإِسْلامِ، لَمْ يَكُنْ كَمَالُ سُؤْدَدِهِ إِلاَّ بِإِطْعَامِ الطَّعَامِ، وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ، كَمَا قَالَ ابْنُ حِبَّانَ - يرحمه اللهُ -:

«وَالعَرَبُ لَمْ تَكُنْ تَعُدُّ الجُودَ إِلاَّ قِرَى الضَّيْفِ، وإِطْعَامِ الطَّعَامِ، ولا تَعُدُّ السَّخِيَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ فيه ذَلكَ»[1].

وَقَدْ حَثَّنَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ - ﷺ - عَلَى إِكْرَامِ الضَّيْفِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[2].

وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ خُوَيْلِدِ بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنه - قَالَ: أَبْصَرَتْ عَيْنَايَ رسولَ اللهِ - ﷺ - وسَمِعَتْهُ أُذُنايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ». قَالوا: ومَا جَائِزَتُه؟ قَالَ: «يَوْمٌ ولَيلَةٌ، والضِّيافةُ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ، وَمَا كَانَ بَعْدَ ذلكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عليه»[3].

---

(١) «روضة العقلاء» (ص٢٥٩).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١٨) و(٦١٣٦) و(٦١٣٨) و(٦٤٧٥)، ومسلمٌ (٤٧).
(٣) رواه البخاريُّ (٦٠١٩) و(٦١٣٥) و(٦٤٧٦)، ومسلمٌ (٤٨).

وفي روايةٍ أُخْرَى عنه - أيضًا - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «الضِّيَافَةُ ثَلاثَةُ أيامٍ، وجائِزَتُهُ يومٌ وليلةٌ، ولا يَحِلُّ لِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْثِمَهُ[1]» قالوا: «يا رسولَ الله، وكيف يُؤْثِمُهُ؟». قال: «يُقِيمُ عندَهُ ولا شَيْءَ لَهُ يَقْرِيهِ بِهِ»[2].

وَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنهما -: «إِنَّ لِزَوْرِكَ[3] عليك حقًّا»[4].

ويُقِرُّ النَّبِيُّ - ﷺ - سَلْمَانَ الفارسيَّ على قولِهِ لأَبِي الدَّرْدَاءِ: «إِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[5].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: خَطَبَ رسولُ الله - ﷺ - يَوْمَ تَبُوكَ، فقال: «ما مِنَ النَّاسِ مِثْلُ رجلٍ آخذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ[6]، فيجاهدُ في سبيلِ الله، ويَجْتَنِبُ شُرُورَ النَّاسِ، وَمِثْلُ رَجُلٍ بَادٍ[7] في غَنَمِهِ، يَقْرِي ضيفَهُ، ويُؤَدِّي حَقَّهُ»[8].

وعن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله - ﷺ -، فقال: «إنِّي مَجْهُودٌ»[9]. فأرْسَلَ إلى بَعْضِ نسائِهِ، فقالتْ: «والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، ما عندي إلاَّ ماءٌ. ثُمَّ أرسل إلى أخرى، فقالَتْ مِثْلَ ذلك، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذلكَ: «لا والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ».

---

(١) يُؤْثِمه: يُحْرِجه، والحَرَجُ: هو الضِّيقُ، أي: حتَّى يُضيِّقَ عليه.

(٢) رواه مسلمٌ (٤٨). قَالَ النَّوويُّ - يرحمه الله -: «معناه الاهتمامُ به في اليَوْمِ الأوَّلِ واللَّيلة، وإتْحَافُهُ بما يمكنُ من برٍّ وإلْطَاف، وأمَّا في اليَوْمِ الثَّاني والثَّالث فَيُطْعِمُهُ ما تَيَسَّرَ، ولا يزيد على عادته، وأمَّا ما كَانَ بعدَ الثَّلاثة فهو صَدَقَةٌ، إنْ شَاءَ فَعَلَ، وإنْ شَاءَ تَرَكَ».

(٣) الزَّوْرُ - بالفتحِ -: الزَّائر، يستوي فيه المفردُ وغيره.

(٤) رواه البخاريُّ (١٩٧٤) و (١٩٧٥) و (٦١٣٤)، ومسلمٌ (١١٥٩).

(٥) رواه التِّرمذيُّ (٢٤١٣) بإسناد صحيح.

(٦) عِنَانُ الفَرَسِ: اللِّجامُ الَّذي يُوضعُ في رأسِه؛ لِيُقَادَ بِهِ، والجمعُ أَعِنَّةٌ، وَعُنُنٌ.

(٧) بَادٍ: مُقيمٌ في البَادِيَة، وبَابُهُ عَدَا.

(٨) رواه أحمدُ في «مسنده» (١/ ٣١١) بإسنادٍ صحيحٍ.

(٩) مَجْهُودٌ: أصابني الجَهْدُ - بفتح الجيم -: وهو المشقَّةُ، والحاجةُ، وسوءُ العيشِ والجوع.

فَقَالَ: «مَنْ يُضيفُ هذا اللَّيلةَ؟، رَحِمَهُ اللهُ». فقامَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَار، فقالَ: «أنا، يا رسولَ اللهِ». فانطلق بِهِ إلى رَحْلِهِ [(١)]. فقال لامرأتِهِ: «هَلْ عندكِ شيْءٌ؟». قالتْ: «لا، إلاَّ قُوتُ صِبْياني». قال: «فَعَلِّلِيهِمْ [(٢)] بِشَيْءٍ، فَإذا دَخَلَ ضَيْفُنا، فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فإذا أهوى ليأكلَ، فقُومي إلى السِّراجِ حتَّى تُطْفِئِيه». قال: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا [(٣)] عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيْعِكُما بِضَيفِكُما اللَّيلَةَ» [(٤)].

هَلْ رَأَيْتَ - أخي في اللهِ - إيثَاراً كَهَذا؟!، وحَسْبُكَ أنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى - تَعَجَّبَ مِنْ صَنِيْعِهِمَا!.

وَمِنْ لَطِيفِ مَا يُذْكَرُ في الضِّيَافَةِ: أَنَّ عُبيدَ الله بْن عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - خَرَجَ يُريدُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَان - رضي الله عنهما -، فَأَصَابَتْهُ السَّمَاءُ وَهُوَ في أَرْضٍ قَفْرٍ لَيْلاً، فَرُفِعَتْ لَهُ نَار، فَقَالَ لِغُلامِهِ مقسم: اقْصِدْ بِنَا النَّارَ.

فَأَتَاهَا، فَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ أَهْلُهُ، وَكَانَ عُبَيْدُ اللهِ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ، فَلَمَّا رَآهُ الشَّيْخُ أَعْظَمَهُ، وَقَالَ لامْرَأَتِهِ: إنْ كَانَ هَذَا قُرَشِياً، فهو مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَإِنْ كَانَ يَمَانِيًا فَهُوَ مِنْ بَنِي آكلِ المرارِ، فهيِّئِي لنا عنزك، أَقْضِي بِهَا ذمامه.

فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: إذًا تموتُ ابْنَتِي مِنَ الجُوعِ.

---

(١) الرَّحْلُ: ما يُجْعَلُ على ظَهْرِ البعيرِ للرُّكوب، مثل: السَّرْجِ للفَرَسِ، وَالإكَافِ والبَرْذَعَةِ للحِمَارِ، وَالرَّحْلُ أَصْغَرُ مِنَ القَتَبِ، وَالجَمْعُ رِحَالٌ، وأَرْحُلٌ.

(٢) عَلَّلَهُ بالشَّيْءِ تَعْليلاً: لَهَّاهُ به.

(٣) غَدَا: ذَهبَ صباحًا، وبابه دَعَا.

(٤) رواه البخاريُّ (٣٧٩٨) و (٤٨٨٩)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (٢٠٥٤).

قَالَ الشَّيْخُ: الموتُ خَيْرٌ مِنَ اللُّؤْمِ، فَأَخَذَ الشَّفْرَةَ، وقَامَ إِلَى العَنْزِ وَهُوَ يَقُولُ:

قــرينتــا لا توقظِي بُنيَّــه ▫▪▫ إنْ تُوقظيــهَــا تَنْتَــحِبُ عَلَيَّــه

وتَـنْـزعُ الـشَّــفْــرَةَ مِنْ يَدَيْه ▫▪▫ أَبْـغض بهَـــذَا وبذا إلَيَّــه

فَذَبَحَهَا وَحَدَّث عُبيدَ الله حَتَّى نَضَجَتْ، فَأَكَلَ عُبيدُ الله منْهَا، وبَاتَ لَيْلَتَهُ، فَلَمَّا قَرُبَ الرَّحِيلُ، قَالَ لمقسمٍ: كَمْ مَعَكَ مِنْ نَفَقَتِنَا؟.

قَالَ: خمسة مائة دينَارٍ.

قَالَ: أَلْقِهَا إِلَى الشَّيْخِ.

قَالَ مُقْسِمٌ: سُبْحَانَ الله!، إنَّمَا كَانَ يكْفِيهِ أَنْ تُضَاعِفَ لَهُ ثَمَنَ عَنْزِه، وَالله مَا يَعْرِفُكَ، وَلا يَدْرِي مَنْ أَنْتَ!.

قَالَ: لَكنِّي أَعْرِفُ نَفْسِي، وأَدْرِي مَنْ أَنَا، هذا لَمْ يكُنْ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ هَذه الْعَنْز، فَجَادَلَنَا بِهَا وهُوَ لا يَعْرِفنا، فَخَرَجَ مِنْ دُنْيَاهُ، وأَعْطَيْنَاهُ بَعْضَ دُنْيَانَا، فَهُوَ أَجْوَدُ منَّا.

وَسَارَ عُبَيْدُ الله حَتَّى قَدمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، وَقَضَى حَوَائِجَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: يَا مقسم، مُرَّ بِنَا علَى الشَّيْخِ نَنْظُر كَيْفَ حَالَهُ، فَإِذَا إِبِلٌ عَظِيمَةٌ، وأَنْشَدَهُ الشَّيْخُ شِعْرًا قَالَ فِيه:

تَوَسَّمْتُهُ لَمَّا رَأَيْتُ مَهَابَةَ ▫▪▫ عَلَيْهِ وَقُلْتُ: المَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمِ

وَإِلاَّ فَمِنْ آلِ المرارِ فَإِنَّهُمْ ▫▪▫ مُلُوكُ ملوكٍ مِنْ مُلُوكِ خَضَارِمِ

فَقُمْتُ إِلَى عَنْزٍ بَقِيَّةِ أَعْتَرٍ ▫▪▫ فَاذْبَحْهَا فِعْلَ امْرِئٍ غَيْرَ عَاتِمِ[1]

---

(١) عَاتم: أيْ غَيْر مُبْطِئ.

فَـعَـوَّضَنِي مِنْهَـا غِنَايَ ولَمْ تَكُنْ ▪▪▪ تُسَاوِي عِنَاقِي[١] غَيْـرَ خَـمْسِ دَرَاهِمِ

فَقُلْتُ لعرسي - في الخَلا - وصبيتي ▪▪▪ أَأَلحَقُّ هَذَا أَوْ هُوَ أَضْـغَـاثُ حَـالِمِ

فَـقَـالُوا جَـمِـيعًـا: لا بَلِ الحَقُّ هَذَا ▪▪▪ يَخبّ بِهَـا الرُّكْـبَـانُ وَسطَ المَوَاسِمِ

بِخَـمْسِ مِـئِينَ مِنْ دَنَانِيـرَ عَـوَّضتْ ▪▪▪ مِنَ العَنْزِ مَا جَاءَتْ بِهَا كَفُّ حَاتِمِ[٢]

فَلَمَّا ارْتَحَلَ عُبَيْدُ الله سَارَ الشَّيْخُ فِي العَرَبِ بِالَّذِي صَنَعَ عُبَيْدُ الله، وبَلَغَ ذَلكَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: لله عُبَيد الله، مِنْ أَيِّ بَيْضَةٍ خَرَجَ، وَمِنْ أَيِّ عُشٍّ دَرَجَ؟ وَهَذَا لعمري مِنْ فعلاته[٣].

قَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ:

أُولئِكَ قَـوْمٌ، إنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا البِنَا ▪▪▪ وإنْ عاهَدُوا أَوْفَوْا، وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا

وإنْ كانتِ النَّعْمَاءُ فِيهِمْ جَزَوْا بها ▪▪▪ وَإِنْ أَنْعَمُوا لا كَدَّروها، ولا كَدُّوا[٤]

وعلى المُضِيفِ عَدَمُ احْتِقَارِ القَلِيلِ، بَلْ يَجُودُ بِالمَوْجُودِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ الله - ﷺ - عَنِ احْتِقَارِ القَلِيلِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَقُولُ: «يا نِسَاءَ المُسْلِمَاتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ لجَارَتِها، ولو فِرْسِنَ شاةٍ»[٥].

وعنه ـ أيضًا ـ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ للمساكين جَعْفَرُ بنُ أبي طالبٍ، يَنْقَلِبُ[٦] بِنَا،

---

(١) العنَاق: العَنز الصَّغيرة.
(٢) حاتم: أَيْ حَاتِم الطائيّ.
(٣) «لباب الآداب» (ص٩٩).
(٤) «الآداب الشَّرْعِيَّة» (١/ ٤٠٦).
(٥) تقدَّم تخريجه.
(٦) يَنْقَلِبُ: يَرْجِعُ.

فَيُطْعِمُنَا مَا كَانَ فِي بَيْتِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ لَيُخْرِجُ العُكَّةَ[١]، لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، فَنَشُقُّهَا، فَنَلْعَقُ مَا فِيهَا»[٢].

وَمَـا أُبَالِي إِذَا ضَـيْفٌ تَضَيَّفَنِي ❁ مَا كَانَ عِنْدِي إِذَا أَعْطَيْتُ مَجْهُودِي

جُهْدُ المُقِلِّ إِذَا أَعْطَاكَ مُصْطَبِرًا ❁ وَمُكْثِرٌ مِنْ غِنىً سِيَّانِ فِي الجُودِ[٣]

قَالَ ابنُ حبَّان - يرحمه اللهُ -:

«يجبُ على العَاقِلِ ابْتغَاءُ الأَضْيَافِ، وَبَذْلُ الكسرِ؛ لأَنَّ نعْمَةَ الله إذا لم تُصَنْ بالقِيَامِ في حُقُوقِهما، ترجعُ منْ حَيْثُ بَدأَتْ، ثُمَّ لا يَنْفَعُ مَنْ زَالَتْ عَنْهُ التَّلهُّفُ عليها، ولا الإِفْكَارُ في الظَّفَرِ بها، وإذا رَأَى حَقَّ الله فيها، اسْتَجْلَبَ النَّمَاءَ والزِّيَادَةَ، واسْتَذْخَرَ الأَجْرَ في القِيَامَةِ، واستَقْصَرَ إِطْعَامَ الطَّعَامِ.

وعنصر قِرَى الضَّيْفِ هُوَ تَرْكُ اسْتحْقَارِ القَلِيلِ، وتَقْدِيمُ مَا حَضَرَ للأَضْيَافِ؛ لأنَّ مَنْ حَقَّرَ مَنَعَ مِنْ إِكْرَامِ الضَّيْفِ بِمَا قَدَرَ عَلَيْه، وترك الادِّخار عنه، وقد سُئِلَ الأَوْزَاعِيُّ - رحمَهُ اللهُ - مَا إِكْرَامُ الضَّيْفِ؟. قَالَ: طَلاقَةُ الوَجْهِ، وَطِيبُ الكَلامِ»[٤].

قُلْتُ: انْظُرْ - أَخِي في الله - إلى فقْه هذا الإمَامِ الَّذِي جَعَلَ إِكْرَامَ الضَّيْفِ في طَلاقَةِ الوَجْهِ، وطيبِ الكَلامِ، وَقَارِنْ ذَلِكَ بِحَالِ أَهْلِ زَمَانِكَ، فالضِّيَافَةُ - عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ - هي بِتَكْثِيرِ الطَّعَامِ، حَتَّى إِنَّك تجد كثيرًا منَ النَّاسِ مَنْ يَمْتَنِع عَنِ القِرَى لعَدَمِ وُجُودِ اللَّحْمِ في حَالِ وُجُودِ الضَّيْفِ، والقَاصِدُ لوَجْه الله يَجُودُ بالموجُودِ، ولا يَتَكَلَّفُ التَّكَلُّفَ الَّذِي هو فَوْقَ الطَّاقَةِ، وَأَمَّا مَا دُونَ ذَلِكَ فَلا بَأْسَ

(١) العُكَّة: وَعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ مستديرٌ مُخْتَصٌّ بالسَّمْنِ والعَسَلِ، وَهُوَ بالسَّمْنِ أَخَصُّ، والجمْعُ عُكَكٌ، وعِكَاكٌ.
(٢) رواه البخاري (٣٧٠٨) و (٥٤٣٢).
(٣) «عيُونُ الأَخْبَار» (٣/ ١٨٠).
(٤) «روضة العقلاء» (ص٢٦١)، بتصرُّف.

بِهِ، بَلْ هُوَ مَحْمُـودٌ لقَوْلِ الله -سبحانه وتعـالى- في شَأْنِ إِبْرَاهِيم خليله لَمَّا أتاه الأضياف-: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ (سورة الذاريات:٢٦).

وَقَالَ - تعالى -: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (سورة هود:٦٩).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: خـرج رسولُ اللهِ - ﷺ - ذاتَ يومٍ أو ليلةٍ، فإذا هو بأبي بَكْرٍ وعُمَرَ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكما هذهِ السَّاعةَ؟». قالا: «الجُوعُ، يا رسولَ الله». قال: «وأنا والَّذي نَفْسِي بيَدِهِ، لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُما، قُومُوا». فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فإذا هو ليس في بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ المرأةُ قالتْ: «مَرْحبًا وَأَهْلاً وَسَهْلاً!» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «أيْنَ فُلاَنٌ؟». قَالَتْ: «ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ[1] لنا مِنَ الماءِ». إذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إلى رسولِ اللهِ - ﷺ - وصاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «الحَمْدُ لله، مَا أَحَدٌ اليَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي». قَالَ: فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ[2]، فِيهِ بُسْرٌ، وتَمْرٌ، ورُطَبٌ، فَقَالَ: «كُلُوا مِنْ هَذهِ» وَأَخَذَ المُدْيَةَ[3]، فَقَالَ له رسولُ اللهِ - ﷺ -: «إِيَّاكَ والحَلُوبَ[4]!». فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ، وَمِنْ ذَلِكَ العِذْقِ وشَرِبُوا»[5].

وَمِنْ تَمَامِ الضِّيَافَـةِ أَنْ تَفْرَحَ بِمَقْدَمِ ضَيْفِكَ، وَتُظْهِـرَ لَهُ البِشْرَ، وَأَنْ تُلاطِفَهُ بِحُسْنِ الحديثِ، وَتَشْكُرَهُ عَلَى تَفَضُّلِه ومَجِيـئِهِ، وَتَقُومَ بِخِدْمَتِه، وَتُظْهِرَ لَهُ الغِنَى وَبَشَاشَةَ الوَجْهِ، فَقَدْ قِيلَ: البَشَاشَةُ في الوَجْهِ خَيْرٌ مِنَ القِرَى. وقَدْ نَظَمَ بَعْضُهُـم هَذَا الكَلامَ بِأَبْيَاتٍ فَقَالَ:

---

(١) يَسْتَعْذِبُ: يطلبُ الماءَ العَذْبَ، وهو الطَّيِّبُ.
(٢) العِذْقُ - بالكَسْرِ - : هو الغُصْنُ مِنَ النَّخْلِ، وهو مِنَ التَّمْرِ بمنزلة العُنْقُود من العِنَبِ.
(٣) المُدْية - بضمِّ الميم، وقد تُكْسر - : السِّكِّينُ، والجمعُ مُدْيَاتٌ، ومُدًى.
(٤) الحَلُوب: ذات اللَّبَن.
(٥) رواه مسلمٌ (٢٠٣٨).

إذا المرءُ وَافَى[(١)] مَنْزِلاً مِنْكَ قَاصِداً
قِرَاكَ، وأَرْمَتْهُ[(٢)] لَدَيْكَ المَسَالِكُ
فَكُنْ باسِمًا فِي وَجْهِهِ مُتَهَلِّلاً
وقُلْ: مَرْحَبًا أَهْلاً وَيَوْمٌ مُبَارَكُ
وَقَدِّمْ لَهُ مَا تَسْتَطِيعُ مِنَ القِرَى
عَجُولاً، ولا تَبْخَلْ بِمَا هُوَ هَالِكُ
فَقَدْ قِيلَ بَيْتٌ سَالِفٌ مُتَقَدِّمٌ
- تَدَاوَلَهُ زَيْدٌ، وعَمْرٌو، ومَالِكُ -:
بَشَاشَةُ وَجْهِ المَرْءِ خَيْرٌ مِنَ القِرَى
فَكَيْفَ بِمَنْ يَأْتِي بِهِ وَهُوَ ضَاحِكُ؟![(٣)]

وقال آخَرُ:

اللهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا سَرَّنِي ... شَيْءٌ كَطَارِقَةِ الضُّيُوفِ النُّزَّلِ[(٤)]
مَا زِلْتُ بِالتَّرْحِيبِ حَتَّى خِلْتَنِي[(٥)] ... ضَيْفًا لَهُمْ، والضَّيْفَ رَبَّ المَنْزِلِ

أَخَذَهَا مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ:

يَا ضَيْفَنَا، لَوْ زُرْتَنَا لَوَجَدْتَنَا ... نَحْنُ الضُّيُوفَ وَأَنْتَ رَبَّ المَنْزِلِ[(٦)]

وَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ ابْنُ حَمْدَانَ:

مَنْزِلُنَا رَحْبٌ[(٧)] لِمَنْ زَارَهُ ... نَحْنُ سَوَاءٌ فِيهِ والطَّارِقُ
وَكُلُّ مَا فِيهِ حَلالٌ لَهُ ... إلاَّ الَّذِي حَرَّمَهُ الخَالِقُ[(٨)]

(١) وَافَى: أَتَى.
(٢) أرْمَتْهُ: أَلْقَتْهُ.
(٣) «بهجة المجالس» (١/ ١٥).
(٤) النُّزَّل: النَّازِلِينَ، جمعُ نَازِل.
(٥) خِلْتَنِي: حَسِبْتَنِي.
(٦) «بهجة المجالس» (١/ ١٦).
(٧) رَحْب - بالفتح -: واسعٌ.
(٨) «بهجة المجالس» (١/ ١٦).

وقالَ دِعْبِلٌ الخُزَاعِيُّ:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مِنْ غَيْرِ ذِلَّةٍ ▪▪▪ وَمَا فِيَّ إِلاَّ تِلْكَ مِنْ شِيمَةِ العَبْدِ[(١)]

قَالَ ابنُ حِبَّانَ - يرحمه الله -:

«ومِنْ إِكْرَامِ الضَّيْفِ طِيبُ الكَلامِ، وطَلاقَةُ الوَجْهِ، والخِدْمَةُ بالنَّفْسِ فَإِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ خَدَمَ أَضْيَافَهُ، كَمَا لا يَعِزُّ مَنِ اسْتَخْدَمَهُمْ، أَوْ طَلَبَ لِقِرَاهُ أَجْرًا»[(٢)].

وكِرَامُ النَّاسِ وَسَادَتُهُمْ يقضُونَ هذا الحقَّ، فَيُقْبِلُونَ عَلَى ضُيُوفِهِمْ، ويَرْفَعُونَ مِنْ قَدْرِهِمْ، ويُعْلُونَ مِنْ مَنْزِلَتِهِمْ.

والتَّقَرُّبُ، وتَجَمُّلُ الحَدِيثِ، والبَسْطُ، والتَّأْنِيسُ، والتَّلَقِّي بالبِشْرِ - مِنْ حُقُوقِ القِرَى، ومِنْ تَمَامِ الإِكْرَامِ.

وقَالوا: «مِنْ تَمَامِ الضِّيَافَةِ الطَّلاقةُ عِنْدَ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، وإِطَالَةُ الحَدِيثِ عِنْدَ المَأْكَلَةِ[(٣)]»[(٤)].

وقَالَ الأَصْمَعِيُّ: سَأَلْتُ عُيَيْنَةَ بْنَ وَهْبٍ الدَّارِمِيَّ عَنْ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، فقَالَ: أَوَما سَمِعْتَ قَوْلَ عَاصِمِ بْنِ وَائِلٍ:

وَإِنَّا لَنَقْرِي الضَّيْفَ قَبْلَ نُزُولِهِ ▪▪▪ وَنُشْبِعُهُ بِالْبِشْرِ مِنْ وَجْهٍ ضَاحِكِ

وَقَالَ حَاتِمٌ الطَّائِيُّ:

سَلِي الجائِعَ الغَرْثَانَ[(٥)] - يا أُمَّ مُنْذِرٍ - ▪▪▪ إذا مـا أتاني بَيْنَ ناري ومَجْزَري[(٦)]

هل ابْسُطُ لهُ وَجْهِي، انَّهُ أوَّلُ القِرَى ▪▪▪ وأبذُلُ مَعْرُوفي لَهُ دُونَ مُنْكَري[(٧)]

---

(١) «روضة العقلاء» (ص٢٦١).
(٢) «عيون الأخبار» (٣/ ٢٨٣).
(٣) المَأْكَلَة - بفتح الكاف وضمِّها - : الموضع الَّذي منه تَأكُلُ.
(٤) «البيان والتبيين» (١/ ١٠).
(٥) الغَرْثَان: الجائع، والجمعُ غَرْثَى.
(٦) المَجْزِر: - بوزن المَجْلِس - : مكَانُ جَزْرِ الإِبِلِ وَذَبْحِهَا.
(٧) «شرح حماسة أبي تَمَّام» (٢/ ٩٧٦).

وقال مسكين الدارمي:

لحافي[١] لحافُ الضَّيْفِ، والبَيْتُ بَيْتُهُ ▫▪▫ ولَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ الغَزَالُ المُقَنَّعُ[٢]

أُحَدِّثُهُ، إنَّ الحَدِيثَ مِنَ القِرَى ▫▪▫ وتَعْلَمُ نَفْسِي أنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ[٣][٤]

وَقَالَ آخر:

وإنِّي لَطَلْقُ الوَجْهِ لِلْمُبْتَغِي القِرَى ▫▪▫ وإنَّ فِنَائِي[٥] لِلْقِرَى لَرَحِيبُ[٦]

أُضَاحِكُ ضَيْفِي عِنْدَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ▫▪▫ فَيُخْصِبُ عِنْدِي، وَالمَحَلُّ جَدِيبُ

وما الخِصْبُ للأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ القِرَى ▫▪▫ ولكنَّما وَجْهُ الكَرِيمِ خَصِيبُ[٧]

وَهُنا فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ، وهِيَ إذَا كَانَ معَكَ - أخِي المضيف أَكْثَرُ مِنْ ضَيْفٍ، فَأَقْبِلْ على كُلِّ وَاحِدٍ منهم بِوَجْهِكَ، ولا تَخُصَّ أَحَدًا دُونَ الآخَرِ بحَدِيثِكَ، أو شَيْءٍ مِنْ ضِيَافَتِكَ، وَحَاوِلْ أَنْ تَلْتَمِسَ رِضَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، فَقَدْ كَانَ رَسُولُ الله -ﷺ- أكرَمَ النَّاسِ لِضُيُوفِه، فَقَدْ كَانَ يُعْطِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ ضُيُوفِهِ نَصِيبَهُ، ولا يَحْسَبُ ضَيْفُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ عَلَيْه مِنْهُ[٨].

---

(١) اللِّحافِ - بالكسر - : ما يُلْتَحَفُ ويُتَغَطَّى بِهِ، والجَمْعُ أَلْحِفَةٌ، ولُحُفٌ.

(٢) يُرِيدُ بالغزال مُقَنَّع: امرأتَهُ.

(٣) يَهْجَعُ: ينام لَيْلاً.

(٤) «عيُون الأَخْبَارِ» (٣/٢٣٨). ويروى البيت: طعـامي طعامُ الضَّيفِ، والرَّحْلُ رَحْلُهُ ... قاله ابن عبد البرِّ، قالوا: وهو أحسنُ شيءٍ في الضِّيافة. انظر «بهجة المجالس» (١/٢٩٦).

(٥) الفِنَاء: المُتَّسَعُ أَمَامَ الدَّارِ، والجمعُ أَفْنِيَةٌ.

(٦) رَحِيب: واسعٌ.

(٧) «روضة العقلاء» (ص٢٦١ - ٢٦٢).

(٨) انظر «دلائل النُّبوَّة» (ص٥٥٥).

قَالَ الشَّاعِرُ:

أَتَاكَ رَسُولُ الْمَكْرُمَاتِ مُسلمًا ▫▪▫ يُرِيدُ رَسُولَ اللهِ أَعْظَمَ مُتَّقِي
فَأَقْبَلَ يَسْعَى فِي الْبِسَاطِ فَمَا دَرَى ▫▪▫ إِلى الْبَحْرِ يَسْعَى، أَمْ إِلَى الشَّمْسِ يَرْتَقِي

وَاعْلَمْ - أَخِي فِي اللهِ - أَنَّ الاكْفِهْرَارَ والعُبُوسَ، وكَثْرَةَ الدُّخُولِ وَالخُرُوجِ لِغَيْرِ حَاجَةٍ، وَنَهْرَ الأَطْفَالِ أَوِ الخَادِمِ بِحَضْرَةِ الضُّيُوفِ - دَلِيلُ الشُّحِّ، وَأَمَارَةُ الْبُخْلِ، وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ إِجَابَةِ دَعْوَةِ بَخِيلٍ، كَمَا قِيلَ:

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ ▫▪▫ يُلَاحِظُ أَطْرَافَ الأَكِيلِ[1] عَلى عَمْدِ[2]

وَمِنْ أَجْمَلِ مَا قِيلَ فِي ذَمِّ البُخْلِ، وَعَدَمِ القِيَامِ بِحُقُوقِ الضَّيْفِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَإِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُ ▫▪▫ فَارْفَعْ يَمِينَكَ عَنْ طَعَامِهْ
فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ عِنْدَهُ ▫▪▫ مِنْ مَضْغِ ضَيْفٍ والْتِقَامِهْ
سِيَّانِ كَسْرُ رَغِيفِهِ ▫▪▫ أَوْ كَسْرُ شَيْءٍ مِنْ عِظَامِهْ
وَإِذَا مَرَرْتَ بِبَابِهِ ▫▪▫ فَاحْفَظْ رَغِيفَكَ مِنْ غُلامِهْ



(١) الأَكِيل: الَّذِي يُؤَاكِلُهُ.
(٢) «عيون الأَخْبَارِ» (٣/ ٢٢١).

أَدَبُ الضِّيَافَةِ

آدَابُ المضيفِ:

وَلِلضِّيَافَةِ أَدَبٌ، فَمِنْ ذَلِكَ آدَابُ المضيفِ أَنْ يُحَدِّثَ أَضْيَافَهُ بِمَا تَمِيلُ إِلَيْهِ نُفُوسُهُمْ، وأَنْ لا يُحدّث بما يروعهم بِهِ؛ فَيَنْبَغِي لِلْمُضِيفِ أَنْ يُرَاعِيَ خَوَاطِرَ أَضْيَافَهُ كَيْفَمَا أَمْكَنَ، وَلا يَغْضَبَ عَلَى أَحَدٍ بِحُضُورِهِمْ، وَلا ينغص عيشَهُمْ بِمَا يَكْرَهُونَ[1]، وَلا يَعْبَسُ بِوَجْهِهِ، وَلا يُظْهِرُ نَكدًا، وَلا يَنْهَرُ أَحَدًا، وَلا يُوبِّخَهُ بِحَضْرَتِهِم، فَذَلِكَ إِمَارَةُ الشّحِّ وَدَلِيلُ البُخْلِ، بَلْ يُدْخِلُ عَلَى قُلُوبِهِمُ السُّرُورَ بِكُلِّ مَا أَمْكَنَ.

وَعَلَيْهِ - أَيْضًا - أَلاَّ يَتَأَخَّرَ عَنْ أَضْيَافِهِ وَلا يَمْنَعُهُ عَنْ ذَلِكَ قِلَّةَ مَا فِي يَدِهِ، بَلْ يُحْضِرُ إِلَيْهِمْ مَا وَجَدَ.

وَلا يَنْتَظِرِ الغَائِبَ حَتَّى لا يُثْقِلَ عَلَى الضَّيْفِ، ولاسِيَّمَا إِذَا كَانَ بَعْدَ تَقْدِيمِ الطَّعامِ، فَقَدْ قِيلَ: ثَلاثَةٌ تضنِي: سِرَاجٌ لا يضيء، وَرَسُولٌ بَطِيءٌ، وَمَائِدَةٌ يُنْتَظَرُ لَهَا مَنْ يَجِيء.

---

(١) مِنْ لَطِيف مَا يُذْكَرُ أَنَّ بَعْضَ العَرَبِ دَعَا جَمَاعَةً إِلَى بُسْتَانه، وَكَانَ لَهُ وَلَدٌ فَكَانَ الْوَلَدُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ يَخدمُ الْقَوْمَ، ويَأْنَسُونَ بِهِ، فَفِي آخرِ النَّهَارِ صَعَدَ إِلَى السَّطْحِ، فسَقَطَ فَمات لوقته، فحَلَفَ أَبُوهُ علَى أُمّه أن لا تصرخَ ولا تَبْكِي إِلَى أَنْ تُصْبحَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلِ سَأَلَهُ أَضْيَافُهُ عَنْ وَلَده فلَمْ يُخْبرهم بحَاله، فَلَمَّا أَصْبَحوا، وأَرَادوا الخروج ، قَالَ لَهُمْ: إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُصلُّوا علَى وَلَدِي فَإِنَّهُ بالأَمْس سَقَطَ مِنْ عَلَى السَّطْحِ فَمَاتَ لساعَته، فقَالُوا لهُ: لِمَ لا أَخْبَرْتَنَا حِينَ سَأَلْنَاكَ، فقَالَ: مَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ ينغصَّ علَى أَضْيَافه فِي التذاذهم ولا يُكَدِّرُ عَلَيْهِم فِي عيشهم.

آدابُ الضَّيْفِ:

وَأَمَّا آدَابُ الضيْفِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُوافقَ المضيف وَلَا يُعَاكسَهُ، ويَنْبَغِي أَن لا يَسْأَلَ صَاحِبَ المـنْزِلِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ دَارِهِ سِوَى الْقِبْلَة ومَوْضعِ قَضَاء الحَاجَة، وأَنْ لا يُخَالفَهُ إِذَا أَجْلَسَهُ في مكَانٍ أَكْرَمَهُ بِهِ، وَإِذَا رَأَى صاحِبَ المَنْزِلَ قَدْ تَحَرَّكَ بِحَرَكَةٍ فَلا يَمْنَعهُ منْهَا.

لا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ أَنْ يَعْتَرِض ▫▪▫ إِنْ كَانَ ذَا حَزْمٍ وَطَبْعٍ لَطِيفْ
فَالأَمْرُ لِلإِنْسَانِ فِي بَيْتِهِ ▫▪▫ إِنْ شَاءَ أَنْ يُنْصِفَ أَوْ يَحِيفْ

مِمَّا يُعَابُ عَلَى الضَّيْفِ:

يُعَابُ عَلَى الضَّيْفِ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ ذَكَرَهَا أَهْلُ الأَدَبِ، أَقْتَصِرُ مِنْهَا عَلَى مَا يَأْتِي:

- فَمِنْهَا: الأَكْلُ الْمُفرِط.
- وَمِنْهَا: أَنْ يَأْخُذَ مَعَهُ وَلَدَهُ الصَّغِير.
- وَمِنْهَا: قُبْحُ المواكَلَة، وقدْ عَدَّ فيها عُيُوبٌ كَثِيرَة:
- فَمِنْهَا: المتشَاوف، وهو الَّذي يستَحْكِمُ جُوعه قَبْلَ تَقْدِيمِ الطَّعَامِ، فَلا تَرَاهُ إلاَّ مُتَطَلِّعًا إِلَى نَاحِيَةِ الْبَابِ يَظُنُّ أَنَّ كُلَّ مَا دَخَلَ هُوَ الطَّعَام.
- وَمِنْهَا: الرّشاف، وهو الَّذي يَجْعَلُ اللُّقْمَةَ في فِيهِ وَيَرْتَشِفها، فَيُسْمَعُ لَهَا حِينَ الْبَلْعِ حِسٌّ لا يَخْفِى عَلَى جُلَسَائِه وهو يَلْتَذُّ بِذَلِكَ.
- وَمِنْها: النَّفاض، وهو الَّذي يجعل اللُّقْمَةَ في فيه وَيَنْفُضُ أَصَابِعَهُ في الطَّعام.
- ومِنْهَا: القسَّام، وهو الَّذي يأكُلُ نصف اللُّقْمَةَ وَيُعِيد باقيها في الطَّعام.

■ **ومنها**: المرنخ، وهو الَّذي يرنخ اللقمة في المرق فلا يبلع الأولى حَتَّى تَلِين الثَّانية.

■ **ومنها**: المرشش، وهو الَّذي يفسخ الدَّجَاجَةَ بِغَيْرِ خِبْرَة فيرُشُّ علَى مواكليه.

■ **ومنها**: المنشف، وهو الذي ينشف يديه بالخبز ونحوه ثُمَّ يأكُلَها.

■ **ومنها**: الصبَّاغ، وهو الَّذي ينقل الطَّعَامَ من زبدية إلى أُخْرَى لِيُبَرِّدَهُ.

■ **ومنها**: النفَّاخ، وهو الَّذي يَنْفُخُ في الطَّعامِ.

■ **ومنها**: المهندس، وهو الَّذي يَقُولُ لمن يضع الطَّعام: ضع هذا هنا وهذا هنا، حتَّى يأتِي قدامه ما يُحِبّ.

■ **ومن الأضْيَافِ**: من لا يلذُّ له حديثٌ إلاَّ وَقْتَ غسلِ يَدَيْهِ، فَيَبْقَى الغُلامُ وَاقِفًا والإبْريقُ في يدِهِ والنَّاسُ يَنْتَظِرُونَهُ.

■ **ومنهم**: من يدخل الدَّار فيَبْتَدِي بالهَنْدَسة أوَّلاً، فَيَقُولُ: كَانَ يَنْبَغِي أن يكُونَ بَاب المجْلِسِ من هاهنا والإيوانُ كان ينبغي أن يكونَ هاهنا.



(١) انظر «بهجة المجالس» لأبي عبد الله الأثري (ص١٩، ٢٠).

المُـــرُوءَة

المُرُوءَةُ: هي جِمَـاعُ مكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَـاسِنِ الآدَابِ، وَكَمَـالِ الرُّجُولَةِ، فَهِيَ تَبْعَثُ على إِجْلالِ صَاحِبِهَا، وَامْتِلاءِ الأَعْيُنِ بمهابَتِهِ، وَمِنَ الحِكَمِ السَّائِرَةِ:

«ذُو المُرُوءَةِ يُكْرَمُ وَإِنْ كَانَ مُعْدِمًا[1]، كَالأَسَدِ يُهَابُ وَإِنْ كَانَ رَابِضًا[2]، وَمَنْ لا مُرُوءَةَ لَهُ يُهَانُ وَإِنْ كَان مُوسِرًا، كالكَلْبِ يُهَانُ وإِنْ طُوِّقَ[3] وحُلِّيَ بالذَّهَبِ»[4].

وَحَقِيقَةُ المروءة: هي قُوَّةٌ للنَّفْسِ، مَبْدَأٌ لِصُدُورِ الأَفْعَالِ الجَمِيلَةِ عَنْهَا، المُسْتَتْبِعَةِ لِلْمَدْحِ شَرْعًا، وَعَقْلاً، وَعُرْفًا[5].

قِيلَ لِسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: «قَدِ استنبطْتَ مِنَ القرآنِ كُلَّ شيءٍ، فأين المروءةُ؟».

فَقَالَ: «في قَوْلِهِ - تعالى -: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٩٩).

ففيه المُرُوءَة، وَحُسْنُ الآدَابِ، وَمَكَارِمُ الأَخْلاقِ.

فَجَـمَعَ في قَوْلِهِ - تَـعَالَى -: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ صلة القاطعين، والعَـفْو عَنِ المُذْنِبِينَ، والرِّفْقةُ بِالمُؤْمِنِينَ، وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ أَخْلاقِ المُطِيعِينَ.

---

(١) مُعْدِمًا: فقيرًا، يُقَالُ: أَعْدَمَ الرَّجُلُ: أي افْتَقَرَ.
(٢) رابضًا: مُقِيمًا وساكنًا.
(٣) طُوِّقَ: أُلْبِسَ الطَّوْقَ، وَهُوَ الْقلادَةُ.
(٤) «المُرُوءة وخوارمها» (ص٤١).
(٥) «التَّعريفات» (ص١١١).

وَدَخَلَ فِي قَوْلِه: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صِلَةُ الأَرْحَامِ، وَتَقْوَى اللهِ فِي الحلالِ والحرامِ، وَغَضُّ الأَبْصَارِ، والاسْتِعْدَادُ لِدَارِ القَرَارِ.

وَدَخَلَ في قَوْلِه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحَضُّ عَلَى التَّخَلُّقِ بالحِلْمِ، والإِعْرَاضُ عَنْ أَهْلِ الظُّلْمِ، والتَّنَزُّهُ عَنْ مُنَازَلَةِ السُّفَهَاءِ، وَمُسَاوَاةِ الجَهَلَةِ والأَغْبِيَاءِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الأَخْلاقِ الحَمِيدَةِ، والأَفْعَالِ الرَّشِيدَةِ»[1].

قَالَ الشَّاعِرُ:

إنَّ المُرُوءَةَ ليس يُدْرِكُهَا امْرُؤٌ ... وَرِثَ المُرُوءَةَ عَنْ أَبٍ فَأَضَاعَهَا

أَمَرَتْهُ نَفْسٌ بِالدَّنَاءَةِ والخَنَا[2] ... ونَهَتْهُ عَنْ سُبُلِ العُلَى فَأَطَاعَهَا

فَإِذَا أَصَابَ مِنَ الأُمُورِ عَظِيمَةً ... يَبْنِي الكَرِيمُ بِهَا المُرُوءَةَ بَاعَهَا

والمروءةُ لَهَا حَدٌّ تنتهي إليه، وحَدُّها كَمَا قَالَ الفُقَهَاءُ: «هي اسْتِعْمَالُ ما يُجَمِّلُ العَبْدَ ويَزِينُهُ، وتركُ ما يُدَنِّسُهُ ويَشِينُهُ»[3].

وَقِيلَ: «المُرُوءَةُ: اسْتِعْمَالُ كُلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَاجْتِنَابُ كُلِّ خُلُقٍ قَبِيحٍ»[4].

وَقَالَ ابْنُ القيِّمِ - يرحمه الله -:

«وحَقِيقةُ المروءَةِ: تجَنُّبُ للدَّنَايا والرَّذائل مِنَ الأَقْوَالِ، والأَخْلاقِ، والأَعْمَالِ.

فمروءة اللِّسانِ: حلاوتُهُ، وطيبُهُ، ولِينُهُ، واجتناءُ الثِّمارِ منه بسهولةٍ ويُسْرٍ.

ومروءةُ الخُلُقِ: سَعَتُهُ، وبَسْطُهُ للحبيبِ والبَغِيضِ.

---

(١) «عين الأدب والسِّياسة» (ص١٣٢ - ١٣٣).
(٢) الخَنَا: الفُحْش.
(٣) و (٤) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٩٧).

ومُرُوءَةُ المـال: الإصَابةُ ببَذْلِه مَوَاقِعَهُ المَحْمُودَةَ عَقْلاً، وعُرْفًا، وشَرْعًا.

ومروءةُ الجاه: بذلُـه للمُحْتَاجِ إِلَيْه.

ومروءةُ الإحسان: تعجيلُه، وتَيْسيرُه، وتوفيرُه، وَعَدمُ رُؤْيَتِه حَالَ وُقُوعِه، وَنسْيَانُهُ بَعْدَ وُقُوعِه، فَهَذِه مُرُوءَةُ البَذْلِ.

أمَّا مُرُوءَةُ التَّرْك: فَتَرْكُ الخِصَامِ، والمُعَاتَبَةِ، والمُطَالَبَةِ، والمُمَاراةِ، والإِغْضَاءُ عَنْ عَيْبِ مَا يَأْخذُهُ مِنْ حقِّكَ، وتَرْكُ الاسْتِقْصَاءِ فِي طَلَبِه، والتَّغَافُلُ عَنْ عَثَرَاتِ النَّاسِ، وإِشْعَارُهُمْ أَنَّكَ لا تَعْلَمُ لأَحَدٍ منهم عَثْرَةً، والتَّوقيرُ لِلْكَبِيرِ، وَحِفْظُ حُرْمَةِ النَّظِيرِ، وَرِعَايَةُ أَدَبِ الصَّغِيرِ، وَهِي عَلَى ثَلاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرجةُ الأُولَى - مروءةُ المرءِ مَعَ نَفْسِه: وهي أَنْ يحمِلَهَا قَسْرًا على ما يُجَمِّلُ ويَزِينُ، وتَرْكِ مَا يُدَنِّسُ ويَشِينُ؛ لِيَصِيرَ لها ملكةً في العَلانِيَةِ، فمَنْ أَرَادَ شَيْئًا في سِرِّهِ وَخَلْوَتِه، مَلَكَهُ في جَهْرِهِ وَعَلانِيَتِه، فَلا يكْشِفُ عَوْرَتَهُ في الخَلْوَةِ، وَلا يَتَجَشَّأُ بِصَوْتٍ مُزْعِجٍ مَا وَجَدَ إِلَى خِلافِهِ سَبِيلاً، ولا يَجْشَعُ وَيَنْهَمُ عِنْدَ أَكْلِه وَحْدَهُ.

وبالجملة: فلا يفعلُ خاليًا مَا يَسْتَحِي مِنْ فِعْلِه فِي المَلإِ، إلاَّ مَا لا يَحْظُرُهُ الشَّرْعُ والعَقْلُ، ولا يكُونُ إلاَّ في الخَلْوَةِ: كَالجِمَاعِ، والتَّخَلِّي، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

الدَّرَجَةُ الثَّانيَةُ - المروءةُ مَعَ الخَلْقِ: بِأَنْ يَسْتَعْمِلَ مَعَهُمْ شُرُوطَ الأَدَبِ والحَيَاءِ، والخُلُقِ الجَمِيلِ، وَلا يُظْهِرَ لَهُمْ مَا يكْرَهُهُ هُوَ مِنْ غَيْرِهِ لِنَفْسِه، وَلْيَتَّخِذِ النَّاسَ مِرْآةً لِنَفْسِه، فكُلُّ ما كَرِهَهُ وَنَفَرَ عَنْهُ مِنْ قَولٍ، أو فِعْلٍ، أو خُلُقٍ - فَلْيَجْتَنِبْهُ، وَمَا أَحَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَحْسَنَهُ فَلْيَفْعَلْهُ.

وَصَاحِبُ هَذِه البَصِيرَةِ يَنْتَفِعُ بِكُلِّ مَنْ خَالَطَهُ وَصَاحَبَهُ مِنْ كَامِلٍ وَنَاقِصٍ، وَسَيِّئَ الخُلُقِ وحَسَنِه، وَعَدِيمِ المُرُوءَةِ وَغَزِيرِهَا.

الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ - المروءَةُ مَعَ الحَقِّ - سبحانه وتعالى - بالاسْتِحْيَاءِ مِنْ نَظَرِهِ إِلَيْكَ، وَاطِّلاعِهِ عَلَيْكَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفَسٍ، وَإِصْلاحِ عُيُوبِ نَفْسِكَ جَهْدَ الإِمْكَانِ؛ فَإِنَّهُ قَدِ اشْتَرَاهَا مِنْكَ، وَأَنْتَ سَاعٍ فِي تَسْلِيمِ المَبِيعِ، وتَقَاضِي الثَّمَنِ، وَلَيْسَ مِنَ المُرُوءَةِ تَسْلِيمُهُ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ العُيُوبِ، وتقَاضِي الثَّمَنِ كَامِلاً، أو رُؤْيَةُ مِنَّتِهِ فِي هَذَا الإِصْلاحِ، وَأَنَّهُ هُوَ المُتَوَلِّي لَهُ لا أَنْتَ، فَيُغْنِيكَ الحَيَاءُ مِنْهُ عَنْ رُسُومِ[1] الطَّبِيعَةِ، والاشْتِغَالِ بِإِصْلاحِ عُيُوبِ نَفْسِكَ عَنِ الْتِفَاتِكَ إِلَى عَيْبِ غَيْرِكَ، وَشُهُودِ الحقِيقَةِ عَنْ رُؤْيَةِ فِعَالِكَ وَصَلاحِكَ»[2].

قَالَ الشَّاعِرُ:

وَمِنَ المُرُوءَةِ لِلْفَتَى ▫▪▫ - مَا عَاشَ - دَارٌ فَاخِرَهْ
فَاقْنَعْ مِنَ الدُّنْيَا بِهَا ▫▪▫ واعْمَلْ لِدَارِ الآخِرَهْ[3]

■ ثلاثُ رَسَائِلَ لحفْظِ المُرُوءَةِ:

ذَكَرَ ابْنُ القيِّمِ - يرحمه اللهُ - ثَلاثَ رَسَائِلَ لِحفْظِ المروءةِ، وهي:

الأولى - صَوْنُ النَّفْسِ: وَهُوَ حِفْظُهَا وَحِمَايَتُهَا عَمَّا يَشِينُهَا، وَيَعِيبُهَا وَيَزْرِي بِهَا عِندَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَمَلائِكَتِه، وَعِبَادِه المؤمنين، وَسَائِرِ خَلْقِه، فَإِنَّ مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَكَبُرَتْ عِنْدَهُ، صَانَهَا وحَمَاهَا، وزَكَّاهَا وعَلاَّهَا، وَوَضَعَهَا فِي أَعْلَى

(١) رُسُوم: آثار، والمرد رَسْمٌ - بالفتح -.
(٢) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٩٧ - ٦٩٩).
(٣) «عين الأدب والسِّياسة» (ص١٣٥).

المحَالِّ، وَزَاحَمَ بِهَا أَهْلَ العَـزَائِمِ والكَمَالات، ومَنْ هَانَتْ عَلَيْه نَفْسُـهُ، وصَغُرَتْ عِنْدَهُ، أَلْقَاهَا فِي الرَّذَائِلِ، وَحَلَّ زِمَامَهَا وَأَرْخَـاهُ، وَدَسَّاهَا ولم يَصُنْها عَنْ قَبِيحٍ، فَأَقَلُّ مَا فِي تَجَنُّبِ القَبَائِحِ صَوْنُ النَّفْسِ.

وَثَانِيهَا - توفيرُ الحَسَنَاتِ: وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحَدُهما - توفيرُ زَمَانِهِ على اكْتِسَابِ الحَسَنَاتِ: فَإِذَا اشْتَغَلَ بِالْقَـبَائِحِ نَقَصَتْ عليه الحَسَنَاتُ الَّتِي كَانَ مُسْتَعِدًّا لِتَحْصِيلِهَا.

والثَّاني - توفيرُ الحَسَنَاتِ المفعولَةِ عَنْ نُقْصَانِهَا بِمُوَازَنَةِ السَّيِّئَاتِ وَحبُوطِهَا: وَقَدْ تَسْتَـغْرِقُهَا بالكُـلِّيَّةِ أَوْ تُنْقِصُهَـا، فَلَابُدَّ أَنْ تُضْعِـفَهَا قَطْعًا؛ فَـتَجَنُّبُهَـا يُوَفِّرُ دِيوَانَ الحَسَنَاتِ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَهُ مَالٌ حَاصِلٌ، فَإِذَا اسْتَدَانَ عَلَـيْهِ، فَإِمَّا أَنْ يَسْتَغْرِقَهُ الدَّيْنُ، أَوْ يُكْثِرَهُ، أو يُنْقِصَهُ، فَهَكَذَا الحَسَنَاتُ والسَّيِّئَاتُ سَوَاءٌ.

وثالثـهـا - صـيـانَةُ الإيمانِ: وَذَلِكَ لأَنَّ الإِيمَانَ عِنْدَ جَـمِـيعِ أَهْلِ السُّنَّةِ يَزِيدُ بالطَّاعَةِ، ويَنْقُصُ بالمَعْصِيَةِ، وَقَدْ حكَاهُ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ الصَّحَابَةِ، والتَّابعِينَ، ومَنْ بَعْدَهُمْ، وَإِضْعَافُ المَعَاصِي للإِيمَانِ أَمْـرٌ مَعْلُومٌ بالذَّوْقِ والوُجُودِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ - كَـمَـا جَاءَ في الحَـدِيثِ - إِذَا أَذْنَبَ نُكِتَ فِـي قَلْبِه نُـكْتَةٌ سَـوْدَاءُ، فَـإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ فَـأَذْنَبَ، نُكِتَ فِيه نُكْتَةٌ أُخْرَى، حَتَّى تَعْلُوَ قلبَهُ، وَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللهُ -تعالى-: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] (سورة المطففين: ١٤).

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٣٤)، وابنُ ماجَةَ (٤٢٤٤) عن أبي هريرةَ، وصَحَّحَهُ ابنُ حبَّان (٢٤٤٨)، والحاكم (٢/ ٥١٧)، وحسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٦٧٠).

فَـالْقَبَـائحُ تُسَوِّدُ الْقَلْبَ، وَتُطْفِـئُ نُورَهُ، والإيمَانُ هُوَ نُورُ الْقَلْبِ، والقَبَـائحُ تَذْهَبُ بِهِ، أو تُقَلِّلُهُ قَطْعـاً، فَالحَـسَنَاتُ تَزِيدُ نَورَ القَلْبِ، والسَّـيِّئَـاتُ تُطْفِئُ نُورَ الْقَلْبِ، وَقَـدْ أَخْـبَـرَ اللهُ - عَـزَّ وَجَلَّ - أنَّ كَسْـبَ القُلُوبِ سَـبَبٌ للرَّانِ الَّذي يَعْلُوهَا، وأَخْبَرَ أنَّهُ أَرْكَسَ المُنَافقِينَ بِمَا كَسَبُوا، فَقَالَ: ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ (سورة النساء: ٨٨).

وأَخْبَرَ أَنَّ نَقْضَ المِيثَـاقِ الَّذي أَخَذَهُ عَلَى عِبَادِهِ سَبَبٌ لِتَقْسِـيَةِ القَلْبِ، فَقَالَ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (سورة المائدة: ١٣).

فَـجَعَلَ ذَنْبَ الـنَّقْضِ مُوجِـبًـا لِهَذِهِ الآثَارِ: مِنْ تَـقْسِـيَـةِ الْقَلْبِ، وَاللَّعْنَةِ، وَتَحْرِيفِ الكَلِمِ، ونِسْيَانِ العِلْمِ.

فَالمَعَاصِي للإيمَانِ كَالمَرَضِ، والحُمَّى لِلْقُوَّةِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ السَّلَفُ: «المَعَاصِي بَرِيدُ[1] الكُفْرِ، كَمَا أنَّ الحُمَّى بَرِيدُ الموتِ»[2].

قالَ شاعرُ النِّيلِ مُحَمَّد حافظُ بْنُ إبراهيمَ:

إنِّي لَتُطْرِبُنِي الخِـلاَلُ[3] كَـرِيمةً ▫▪▫ طَرَبَ الـغَـريـبِ بـأَوْبَـةٍ[4] وتَـلاَقِ
ويَهُـزُّنِي ذِكْـرُ المُروءَةِ والنَّدَى ▫▪▫ بَيْنَ الشَّـمَـائِلِ هِزَّةَ[5] المُشْـتَـاقِ[6]

---

(١) بريد: رسول.
(٢) «تهذيب مدارج السَّالكين» (١/ ٤٦٤ - ٤٦٦)، و«المروءة وخوارمها» (ص٢٩٩).
(٣) الخِلاَل: جمعُ خَلَّةٍ، وهي الخَصْلَةُ والصِّفَةُ.
(٤) أَوْبَة: رَجْعَة.
(٥) الهِزَّة - بالكسر -: النَّشاط والارتياح.
(٦) «جواهر الأدب» (ص٤٩٤).

الصَّبْرُ

الصَّبْرُ سيِّدُ الأَخْلاقِ[١]، وَرَفِيقُ الدَّرْبِ، والطَّرِيقُ إلَى الإمَامَةِ في الدِّينِ[٢]، والْفَوْزِ العَظِيمِ، وَمَـا مِنْ خُلُقٍ مِنَ الأَخْلاقِ الفَاضِلَةِ إلاَّ وَهُوَ يَرجِعُ إلَى الصَّـبْرِ، فَالصَّبْرُ أَسَاسُ الأَخْلاقِ الحميدَةِ، وبَذْرُ الخَيْرِ، وَجِمَاعُ الأَمْرِ.

وأَصْلُ كَلِمَةِ الصَّبْرِ: هِيَ المَنْعُ والحَبْسُ، فَـالصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الجَزَعِ، واللِّسَانِ عَنِ التَّشَكِّي، والجَوَارِحِ عَنْ لَطْمِ الخُدُودِ، وَشَقِّ الجُيُوبِ، ونَحْوِهَا[٣].

وَحَقِيقَةُ الصَّبْرِ: خُلُقٌ فَاضِلٌ مِنْ أَخلاقِ النَّفْسِ، يُمْتَنَعُ بِهِ مِنْ فِعْلِ مَا لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ، وَهُوَ قُوَّةٌ مِنَ قُوَى النَّفْسِ الَّتِي بِهَا صَلاحُ شَأْنِهَا، وقَوَامُ أَمْرِهَا.

وَحِينَ سُئِلَ الجُنَيْدُ عَنِ الصَّبْرِ قَالَ: «تَجَرُّعُ المَرَارَةِ مِنْ غَيْرِ تَعَبُّسٍ».

وَقِيلَ: «الصَّبْرُ: هُوَ الوُقُوفُ مَعَ البَلاءِ بِحُسْنِ الأَدَبِ»[٤].

---

(١) قال الإمام ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ في كتابه «عدة الصَّابرين» (ص٢٧-٢٨): «الصَّبر سيِّدُ الأخلاق، وبه ترتبطُ مقامـاتُ الدِّين، فما من خُلُقٍ فاضلٍ إلاَّ يَمُرُّ بِقَنْطَرَةٍ مِنَ الصَّـبْرِ، وَإِنْ تحوَّلَ إلى اسمٍ آخرَ، فإِنْ كَانَ الصَّبرُ عَنْ شَـهْوَةِ فَرْجٍ مُحَرَّمةٍ سُمِّيَ عِفَّةً، وإنْ كَانَ عَنْ فُـضُولِ عِشْقٍ سُمِّيَ زُهْدًا، وإنْ كان عَنْ دواعي غَضَبٍ سُمِّـيَ حِلْمًا، وإنْ كان صبرًا عن دواعي الفـرارِ والهَرَبِ سُمِّيَ شجـاعةً، وإنْ كان عن دواعي الانتقام سُـمِّيَ عَفْوًا، وإنْ كان عن إجابةِ الإمـساكِ والبُخْلِ سُمِّيَ جُـودًا . . . وهكذا بقيَّةُ الأخلاق، فله عن كُلِّ فِعْلٍ وتَرْكٍ اسْمٌ يخـصُّهُ بحسبِ متعلّقه، والاسمُ الجـامع لذلك كُلِّه (الصَّبْرُ)، فأَكْرِمْ به من خُلُقٍ!، وما أَوْسَعَ معناه، وأعظمَ حقيقتَهُ!».

(٢) قال ابنُ القـيِّم ـ أيضًا ـ في كتابه «مـدارج السَّالكين» (٢/ ١٥٤): «سمـعتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تَيْمـيَّةَ يقول: بالصَّبْرِ واليقين تُنالُ الإمامةُ في الدِّين. ثُمَّ تلا قولَهُ - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (سورة السجدة: ٢٤).

(٣) «عدة الصَّابرين» (ص٢٧).

(٤) المرجع السَّابق (ص٢٩).

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ -سُبحانَهُ وتعَالَى- الصبرَ في كِتَابِهِ العزيز في نَيِّفٍ[(١)] وَتسعينَ مَوْطِنًا تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِهِ[(٢)]، وأَضَافَ أَكْثَرَ الدَّرَجَاتِ والخيراتِ إلى الصَّبْرِ، وجَعَلَهَا ثَمَرَةً له، وَجَمَعَ لِلصَّابِرينَ بَيْنَ أُمُورٍ لَمْ يَجْمَعْهَا لغيرِهِمْ، فَقَالَ -سُبحانَهُ وتَعَالَى-: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[(٣)] (سورة البقرة:١٥٧).

وَقَرَنَهُ بِالصَّلاةِ في قَوْلِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (سورة البقرة:٤٥).

وَقَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[(٤)] (سورة البقرة:١٥٣).

وَبَشَّرَنَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ -ﷺ- بِقَوْلِهِ: «ما يُصيبُ المسلمَ مِنْ نَصَبٍ[(٥)]، ولا وَصَبٍ[(٦)]، ولا هَمٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا أذًى، ولا غَمٍّ. حتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا. إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بها مِنْ خَطَايَاهُ»[(٧)].

والمؤمنُ يُصيبُهُ من البلاء على قَدْرِ دِينِهِ.

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وقَّاصٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قُلْتُ: «يا رسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بلاءً؟». قال: «الأنبياءُ، ثُمَّ الأمْثَلُ فالأمْثَلُ، يُبْتَلَى العَبْدُ عَلَى حَسَبِ دينِهِ، فإنْ كان في

---

(١) النَّيِّفُ - بوزن الهيِّن يُخَفَّف ويُشَدَّد -: الزِّيَادَة مِنَ الواحدِ إلى التِّسْعَةِ، ونيَّفَ فُلانٌ عَلَى السَّبعين: أي زاد.

(٢) قال ابنُ القيِّم - يرحمه الله - في كتابه «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٥٢): «وهو واجبٌ بإجماعِ الأُمَّةِ».

(٣) انظر «عدة الصَّابرين» (ص٩٨).

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٩).

(٥) نَصَب: تَعَب، وبَابُهُ فَرِحَ.

(٦) وَصَب: مَرَض، وبَابُهُ فَرِحَ، والجمعُ أَوْصَابٌ.

(٧) رواه البخاريُّ - واللفظ له - (٥٦٤١) و (٥٦٤٢)، ومسلمٌ (٢٥٧٣) عن أبي سعيدٍ وأبي هُرَيْرَةَ.

دينِهِ صُلْبًا[(١)]، اشتدَّ بلاؤُهُ، وإنْ كانَ في دينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ على حَسَبِ دينِهِ، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشي عَلَى الأرضِ وما عليه مِنْ خَطيئةٍ»[(٢)].

وَعَنْ أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ -رضي الله عنه- قَالَ: قُلْتُ: «يا رسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بَلاءً؟». قَالَ: «الأنبياءُ». قُلْتُ: «يا رسولَ اللهِ، ثُمَّ مَنْ؟». قَالَ: «ثُمَّ الصَّالحونَ، لقدْ كانَ أَحَدُهُمْ يُبْتَلَى بالفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ إلاَّ العَبَاءَةَ، يَجُوبُهَا[(٣)] فَيَلْبِسَهَا، وَيُبْتَلَى بالقَمْلِ[(٤)] حتَّى يَقْتُلَهُ، ولأَحَدُهُمْ كَانَ أَشَدَّ فَرَحًا بالبَلاءِ مِنْ أَحَدِكُمْ بالعَطَاءِ»[(٥)].

قَالَ الشَّاعِرُ:

عَلَى قَدْرِ فَضْلِ المَرْءِ تَأْتي خُطُوبُهُ[(٦)]	ويُحْمَدُ مِنْهُ الصَّبْرُ مِمَّا يُصيبُهُ
فَمَنْ قَلَّ فيما يَتَّقيهِ اصْطِبارُهُ	لَقَدْ قَلَّ فيما يَرْتَجيهِ نَصيبُهُ[(٧)]

فَالْعَبْدُ إنْ لَمْ يبلُغْ ما كُتِبَ لَهُ بِعِلْمِهِ، ابْتُلِيَ حتَّى يَصِلَ إلى منزلة عظيمة عندَ اللهِ، كما في حديث أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قالَ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيكونُ له المنزلةُ عندَ اللهِ، فما يَبْلُغُها بعَمَلٍ، فلا يزالُ اللهُ يَبْتَليهِ بما يَكْرَهُ؛ حتَّى يُبَلِّغَهُ إيَّاها»[(٨)].

---

(١) صُلْبًا: شديدًا.

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٩٨)، وابن ماجَة (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٩٩٢)، و«الصَّحيحة» (١٤٣).

(٣) يَجُوبُها: يقطعُ وَسَطَهَا ليلبَسَهَا.

(٤) القَمْل: هَوَامُّ الرَّأس، الواحدة قَمْلَةٌ، وقَمِلَ رَأْسُهُ من بَابِ طَرِبَ.

(٥) رواه ابن ماجَة (٤٠٢٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٩٩٥)، و«الصَّحيحة» (١٤٤).

(٦) خُطُوب: جمع خَطْبٍ، وهو الأمرُ العظيمُ المكروهُ.

(٧) «جواهر الأدب» (ص٧١١).

(٨) رواه الحاكمُ في «المستدرك»، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٦٢٥)، و«الصَّحيحة» (٢٥٩٩).

وعن جابر -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «لَيَوَدَّنَّ أهلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القيامةِ أنَّ جُلُودَهُمْ قُرِضَتْ بالمَقَارِيضِ؛ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ ثوابِ أَهْلِ البَلاءِ»[(١)].

قال الشَّاعرُ:

اصْبِرْ، ففي الصَّبْرِ خَيْرٌ، لَوْ عِلِمْتَ بِهِ ▫▪▫ لَكُنْتَ بَارَكْتَ. شُكْرًا. صَاحِبَ النِّعَمِ
واعلمْ بأنَّكَ إنْ لَمْ تَصْطَبِرْ كَرَمًا ▫▪▫ صَبَرْتَ قَهْرًا عَلَى ما خُطَّ بالقَلَمِ[(٢)]

وقال آخَـرُ:

أَيَا صَاحبي، إنْ رُمْتَ[(٣)] أَنْ تكسبَ العُلى ▫▪▫ وتَرْقَى إلى العَلْيَاءِ[(٤)] غَيْرَ مُزَاحِمِ
عَلَيْكَ بحُسْنِ الصَّبْرِ في كُلِّ حالةٍ ▫▪▫ فَما صابرٌ فيما يَرُومُ بنادِمِ[(٥)]

وقال آخَـرُ:

اصْبِرْ قليلاً، وكُنْ باللهِ مُعْتَصِمًا ▫▪▫ لا تَعْجَلَنَّ؛ فإنَّ العَجْزَ بالعَجَلِ
الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ في كُلِّ نائبةٍ[(٦)] ▫▪▫ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلى مِنَ العَسَلِ[(٧)]

وقَدْ يظنُّ النَّاسُ أنَّ الصَّبرَ ذِلَّةٌ لِصَاحِبِهِ، مَعَ أنَّ الرَّسولَ -صلى الله عليه وسلم- يقولُ مُؤَكِّدًا: «ولا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عليها إلاَّ زادَهُ اللهُ -عزَّ وجلَّ- عِزًّا»[(٨)].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٠٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٤٨٤)، و«الصَّحيحة» (٢٢٠٦).
(٢) «جواهر الأدب» (ص٧١١).
(٣) رُمْتَ: طَلَبْتَ وأَرَدْتَ، وبابُهُ قَالَ.
(٤) العَلْيَاء: كُلُّ مكَان مُشْرِف.
(٥) «جواهر الأدب» (ص٧١١).
(٦) نائبة: مُصيبة، والجمع نَوَائب.
(٧) «جواهر الأدب» (ص٧١١).
(٨) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٢٥) عن أبي كَبْشَةَ الأنماريِّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٠٢٤).

وَقَدْ أُوْذِيَ أنبياءُ الله ـ صَلَوَاتُ الله وسلامُهُ عليهم ـ الذّينَ هُمْ أفضلُ الخَلْقِ وأَعْدَلُهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الأَذَى فَصَبَرُوا، وأُوذِيَ نَبِيُّنَا - ﷺ - بأشدَّ من ذلك[1].

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى -: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ[2] فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (سورة التوبة: ٥٨).

وَقَالَ: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ (سورة طه: ١٣٠).

قال عليُّ بْنُ الجَهْمِ:

«هِيَ النَّفْسُ، ما حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ ... وللدَّهْرِ أيَّامٌ تَجُورُ[3] وتَعْدِلُ

وَعَاقِبَةُ الصَّبْرِ الجَمِيلِ جَمِيلَةٌ ... وأَحْسَنُ أَخْلاقِ الرِّجالِ التَّفَضُّلُ

وَلا عَارَ إنْ زالتْ عَنِ الحُرِّ نِعْمَةٌ ... ولكِنَّ عَاراً أَنْ يزولَ التَّجَمُّلُ»[4][5]

---

(١) قال ابْنُ القيِّم ـ يرحمه الله ـ في كتابه «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٣٠١): «فإذا جئتَ إلى النَّبيِّ ﷺ وتأمَّلْتَ سيرتَهُ مع قومِهِ، وَصَبْرَهُ في الله، واحتمالَهُ ما لم يحتملْهُ نبيٌّ قَبْلَهُ، وتلونَ الأحوال عليه من سِلْمٍ وخَوْفٍ، وغِنَىً وفقرٍ، وأَمْنٍ وإقامةٍ في وطنه وظَعْنٍ عنه، وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائِه بَيْنَ يَدَيْه، وأذى الكفَّار له بسائرِ أنواعِ الأذى: من القول، والفِعْل، والسِّحر، والكذب، والافتراء عليه والبُهْتان، وهو مع ذلك صابرٌ على أمر الله، يدعو إلى الله، فلم يُؤْذَ نبيٌّ ما أُوذيَ، ولم يحتملْ في الله ما احتمله، ولم يُعْطَ نبيٌّ ما أُعْطِيَهُ، فرفع اللهُ له ذِكْرَهُ، وجَعَلَهُ أقربَ الخَلْقِ إليه وسيلةً، وأَعْظَمَهُمْ عندَه جاهًا، وأَسْمَعَهُم عندَه شَفَاعَةً، وكانت تلك المِحَنُ والابتلاءُ عَيْنَ كرامته، وهي مِمَّا زادَهُ اللهُ شَرَفًا وفَضْلاً، وسَاقَهُ بها إلى أعلى المقامات».

(٢) يَلْمِزُكَ: يَعِيبُكَ وينتقدُ عليك، وأَصْلُ اللَّمْزِ الإشارةُ بالعَيْنِ ونحوها، وبَابُهُ ضَرَبَ وَنَصَرَ.

(٣) تَجُورُ: من الجَوْرِ، وهو الظُّلْم.

(٤) التَّجَمُّلُ: التَّصبُّر.

(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٣٣٢).

وَقَالَ إبراهيمُ بْنُ كُنَيْفٍ النَّبهانيُّ:

تَعَزَّ[١]، فإنَّ الصَّبْرَ بالحُرِّ أجْمَلُ ▫▪▫ وليس عَلَى رَيْبِ الزَّمانِ مُعَوَّلُ[٢]

فلو كان يُغْني أنْ يُرَى المَرْءُ جازعًا ▫▪▫ لحادثةٍ، أو كان يُغْنِي التَّذَلُّلُ

لكان التَّعَزِّي[٣] عندَ كُلِّ مُصيبةٍ ▫▪▫ ونائبةٍ بالحُرِّ أَوْلَى وأَجْمَلُ

فكيف وكُلٌّ ليس يَعْدُو[٤] حِمَامَهُ[٥] ▫▪▫ وما لامرئٍ عمَّا قَضَى اللهُ مَرْحَلُ؟!

فإنْ تَكُنِ الأيَّامُ فِينا تَبَدَّلَتْ ▫▪▫ بِبُؤْسَى ونُعْمَى، والحَوَادثُ تَفْعَلُ

فما لَيَّنَتْ منَّا قَنَاةً[٦] صليبةً ▫▪▫ ولا ذَلَّلَتْنَا للَّتي ليس تُجْمَلُ

ولكنْ رَحَلْنَاها نُفُوسًا كريمةً ▫▪▫ تُحَمَّلُ ما لا يُسْتطاعُ فَتَحْمِلُ

وَقَيْنَا بحُسْنِ الصَّبْرِ منَّا نُفُوسَنَا ▫▪▫ فَصَحَّتْ لَنَا الأعْراضُ، والنَّاسُ هُزَّلُ[٧]

وَقَالَ رَجُلٌ من بني أسَدٍ في الهجاءِ:

دَبَبْتَ[٨] للمَجْدِ، والسَّاعُونَ قَدْ بَلَغُوا ▫▪▫ جَهْدَ النُّفوسِ، وأَلْقَوْا دُونَهُ الأُزُرَا[٩]

وكابدُوا المَجْدَ، حتَّى مَلَّ أكثرُهُمْ ▫▪▫ وعانقَ المَجْدَ مَنْ أَوْفَى، ومَنْ صَبَرَا

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أنتَ آكِلُهُ ▫▪▫ لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا[١٠][١١]

---

(١) تَعَزَّ: تَصَبَّرْ وتجلَّدْ على ما يَحْدُثُ لَكَ مِنْ مصائب الحياة.
(٢) مُعَوَّل: مِنْ عَوَّلَ على الشَّيء: إذا اعتمدَ عليه، واسْتَعَانَ به.
(٣) التَّعَزِّي: التَّصبُّرُ والتَّسَلِّي على المصائب.
(٤) يَعْدُو: يتجاوز ويتعدَّى.
(٥) الحِمَامُ - بالكسر -: قَدَرُ الموتُ.
(٦) قَنَاة: المراد بها هنا القامة، وبلينها الضُّعْفُ والانحلالُ.
(٧) «جواهر الأدب» (ص٥١٨-٥١٩).
(٨) الدَّبيبُ: السَّيْرُ بلين وبُطْء.
(٩) الأُزُر: جمعُ إزار، وهو ما يُلَفُّ حَوْلَ النِّصف الأسفلِ مِنَ الجِسْمِ.
(١٠) الصَّبِر - بكسر الباء -: عُصَارَةُ شَجَرٍ مُرٍّ يُسْتَخْدَمُ دواءً.
(١١) «إنْبَاهُ الرُّوَاة» (٣/ ٣٦٢ - ٣٦٣).

إنَّ مِنْ أَجْمَلِ مَا قيلَ في تَعْزِيَةِ وتَسْلِيَةِ أَهْلِ المَصَائِبِ قَوْلَ عليٍّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - للأَشْعَثِ بنِ قَيْسٍ: «إنَّك إنْ صَبَرْتَ جَرَى عليك القَلَمُ وأنت مَأْجُورٌ، وإنْ جَزِعْتَ جَرَى عليك القَلَمُ وأنت مَأْزورٌ».

وقَدْ ذَكَرَ ذلكَ أبو تَمَّامٍ في شِعْرِهِ، فَقَالَ:

وَقَالَ عَلِيٌّ في التَّعَازِي لأَشْعَثَ ... - وخَافَ عليه بعضَ تِلْكَ المَآثِمِ -:
أَتَصْبِرُ للبَلْوَى عَزَاءً وخَشْيَةً ... فَتُؤْجَرَ، أو تَسْلُو سُلُوَّ البَهَائِمِ؟[1]

■ أَسْبَابُ تَهْوِينِ المَصَائِبِ[2]:

لتسهيلِ المَصَائِبِ، وتخفيفِ الشَّدائدِ أَسْبَابٌ، إذَا قَارَنَتْ حَزْمًا، وَصَادَفَتْ عَزْمًا، هَانَ وَقْعُهَا، وقَلَّ تأثيرُها وضَرَرُهَا، فمنها:

١ - إِشْعَارُ النَّفْسِ بِمَا تَعْلَمُهُ مِنْ نُزولِ الفَنَاءِ، وتَقَضِّي المسرِّ، وأنَّ لها آجالاً مُنْصَرِمَةً[3]، ومُدَدًا[4] مُنْقَضِيَةً، إذْ لَيْسَ للدُّنيا حَالٌ تدوم، ولا لمخلوقٍ فيها بقاءٌ.

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - عَنِ النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «مَا لي وللدُّنيا، وما للدُّنيا وَمَا لي!. والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا إلاَّ كراكبٍ سارَ في يومٍ صائفٍ، فاستظلَّ تحتَ شَجَرَةٍ ساعةً مِنَ النَّهارِ، ثُمَّ رَاحَ وتَرَكَهَا»[5].

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٨٨).
(٢) انظر «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٩١ - ٢٩٦).
(٣) مُنْصَرِمة: مُنْقَطِعَة.
(٤) المُدَدُ: جمعُ مُدَّةٍ، وهي الفَتْرَةُ الزَّمَنِيَّة.
(٥) رواه أحمدُ في «المسند»، والحاكم في «المستدرك»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٦٦٩)، و«الصَّحيحة» (٤٣٩).

وَسُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ -رضي الله عنه- عَنِ الدُّنيا، فقالَ: «تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرُّ».

وَقَالَ أَنُو شِرْوَانُ: «إنْ أَحْبَبْتَ ألاَّ تَغْتَمَّ، فَلا تَقْتَنِ ما به تَهْتَمُّ».

فَأَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعراءِ، فَقَالَ:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الدَّهْرَ مِنْ سُوْءِ فِعْلِهِ ▪▪▪ يُكَدِّرُ ما أَعْطَى، ويَسْلُبُ ما أَسْدَى؟!

فَمَنْ سَرَّهُ ألاَّ يَرَى ما يَسُوْءُهُ ▪▪▪ فلا يتَّخِذْ شيئًا يخافُ لَهُ فَقْدَا

٢ ـ أَنْ يَتَصَوَّرَ انجلاءَ الشَّدائد، وانْكِشَافَ الهُمُومِ، وَأَنَّها تُقَدَّرُ بِأَوْقَات لا تَنْصَرِمُ قَبْلَها، ولا تستديمُ بَعْدَها، فلا تقصرُ بجَزَعٍ، ولا تطولُ بِصَبْرٍ، وأَنَّ كُلَّ يومٍ يمرُّ بها يذهبُ منها بشَطْرٍ، ويَأْخُذُ منها بنصيبٍ، حتَّى تَنْجَليَ وهو عنها غافلٌ.

حُكِيَ أنَّ الرَّشيدَ حَبَسَ رَجُلاً، ثُمَّ سَأَلَ عنه بَعْدَ زمان، فَقَالَ للمتوكِّل به: «قُلْ له: كُلُّ يومٍ يمضي من نعمه، يمضي من بُؤْسي مِثْلُهُ، والأمرُ قريبٌ، والحُكْمُ لله - تعالى -».

فَأَخَذَ هَذَا المعنى بعضُ الشُّعراءِ، فقال:

لو أنَّ ما أَنْتُمُو فيه يَدُومُ لَكُمْ ▪▪▪ ظَنَنْتُ ما أنا فِيْهِ دائماً أَبَدَا

لكنَّني عَالِمٌ أنِّي وأنَّكُمْ ▪▪▪ سَنَسْتَجِدُّ[1] خِلَافَ الحالَتَيْنِ غَدَا

وأنشد عُمَرُ بن الخطَّاب - رضي الله عنه - حين حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ رَبَّكَ ليس تُحْصَى ▪▪▪ أَيَادِيْهِ[2] الحديثةُ والقَدِيْمَهْ

تَسَلَّ عَنِ الهُمُومِ، فليس شيءٌ ▪▪▪ يُقِيمُ، ولا هُمُومُكَ بالمُقِيْمَهْ

لعلَّ اللهَ يَنْظُرُ بَعْدَ هذا ▪▪▪ إليك بنظرةٍ منْهُ رَحِيْمَهْ

(١) سَنَسْتَجِدّ: سنَصير إلى حالةٍ جديدةٍ.

(١) الأيَادي: النِّعَم.

٣ ـ أَنْ يعلمَ أنَّ فيما وُقِيَ مِنَ الرَّزايا[١]، وكُفِيَ من الحَوَادث[٢] ما هو أعظمُ مِنْ رزيَّتِه، وأشدُّ من حادثته؛ ليعلمَ أنَّه ممنوحٌ بحُسْنِ الدِّفَاعِ.

قيلَ للشَّعبيِّ في نائبةٍ: كيف أصبحتَ؟. قال: بَيْنَ نِعْمَتَيْنِ: خيرٍ منشورٍ، وشرٍّ مستورٍ.

وَقَالَ بَعضُ الشُّعراء:

لا تَكْرَهِ المَكْرُوهَ عِنْدَ حُلُولِهِ ▫▪▫ إنَّ العَوَاقِبَ لَمْ تَزَلْ مُتَبَايِنَهْ[٣]

كَمْ نِعْمَةٍ لا تَسْتَقِلُّ[٤] بِشُكْرِهَا ▫▪▫ للهِ فِي طَيِّ المَكَارِهِ كَامِنَهْ

٤ ـ أَنْ يتأسَّى بذَوِي الغِيَرِ[٥]، ويَتَسَلَّى بأولي العِبَرِ، ويَعْلَمَ أنَّهم الأكثرون عَدَداً، والأَسْرَعُونَ مَدَداً[٦]، فيستجِدُّ مِنْ سَلْوَةِ الأسى، وحُسْنِ العَزَا ما يُخَفِّفُ شَجْوَهُ[٧]، ويقِلُّ هَلَعَهُ.

قَالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ ـ رضي الله عنه ـ: «أَلْصِقُوا بذَوِي الغِيَرِ، تتَّسعْ قُلُوبُكُمْ».

وعلى مِثْلِ ذَلِكَ كَانَتْ مَرَاثِي الشُّعراء، قالتِ الخَنْساءُ تَرْثِي أخاها لأبيها صَخْراً:

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْراً ▫▪▫ وأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

فلولا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي ▫▪▫ على إِخْوانِهِمْ، لَقَتَلْتُ نَفْسِي

---

(١) الرَّزايا: المصائب، مفردها رزيَّةٌ.
(٢) الحَوَادث: الشَّدائد والكوارث، مفردها حادثةٌ.
(٣) مُتباينة: مختلفة.
(٤) تَسْتَقِلُّ: تَنْهَضُ.
(٥) الغِيَر: أحوال الدَّهر المتغيِّرة، مفردها غِيْرَة ـ بكسر الغين ـ.
(٦) المَدَد: النُّصرة والعَوْن والغَوْث.
(٧) الشَّجْوُ: الحُزْنُ والهَمُّ، وبَابُهُ عَدَا.

ولكنْ لا أزالُ أرَى عَجُولاً[1] ❖ ونائحةً تنُوحُ ليومِ نَحْسِ[2]

هُمَا كلتاهُمَا تَبْكي أخَاها ❖ عَشيَّةَ رُزْئِه، أو غِبَّ[3] أمْسِ[4]

ومَا يَبْكِينَ مِثْلَ أخي، ولكنْ ❖ أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بالتَّأسِّي

فَقَدْ وَدَّعْتُ يومَ فِرَاقِ صَخْرٍ ❖ أبي حَسَّانَ لَذَّاتي وأُنْسي

فيا لَهْفِي[5] عليه، ولَهْفَ أُمِّي ❖ أيُصبحُ في الضَّريحِ[6]، وفيه يُمْسي؟![7]

وقَالَ البُحْتُري:

فَلاَ عَجَبَ لِلأُسْدِ إنْ ظَفِرَتْ بِها ❖ كِلاَبُ الأعَادي مِنْ فَصيحٍ وأَعْجَمي

فَحَرْبَةُ[8] وَحْشيٍّ سَقَتْ حَمْزَةَ الرَّدى[9] ❖ ومَوتُ عليٍّ مِنْ حُسَامِ[10] ابْنِ مُلْجِمِ[11]

---

(١) العَجُول: التي مات وَلَدُها صغيراً. (٢) نَحْس: شُؤْم.

(٣) غِبَّ أَمْس ـ بكسر الغين ـ: عَقِبَهُ.

(٤) أمس: هو اليوم الذي قبلَ يومِك، فإذا عُرِّفَ بالألف واللام، قُصِدَ به أيُّ يومٍ مَضَى، وهذه هي الكلمة الوحيدة في اللُّغة العربيَّة التي إذا نُكِّرَتْ عُرِّفَتْ، وإذا عُرِّفَتْ نُكِّرَتْ.

(٥) اللَّهْفة: الحَسْرَة، والحزن.

(٦) الضَّريح: القبر.

(٧) «جواهر الأدب» (ص٣٩٧).

(٨) الحَرْبةُ: واحدة الحِرَاب، وهي كالرُّمْحِ.

(٩) الرَّدَى: الهَلاك والموت.

(١٠) الحُسَامُ: السَّيفُ القاطعُ، وكان ابْنُ ملجمٍ ـ قَبَّحَهُ اللهُ ـ قَد اشتراهُ بألف، وشَحَذَهُ أَرْبعين صباحًا، وسَمَّمَهُ بألف.

(١١) ابن مُلْجِم: هو عَبْدُ الرَّحمن بْنُ عَمْرو المعروفُ بابن ملجم الحِمْيَريِّ، فاتكٌ ثائرٌ مِنْ أشدِّ الفُرسان، أَدْرَكَ الجاهليَّةَ، وهَاجَرَ في خلافة عُمَرَ، وشهِدَ فتح مصر وسكَنَهَا، كَانَ مِنْ شيعَةِ عليٍّ، وشَهِدَ مَعَهُ صِفِّينَ، ثُمَّ خَرَجَ عليه، فقد كان مِمَّنْ عارضُوا التَّحْكيمَ، وليأخذَ بثَأْرِ إخوانه من أهلِ النَّهروان ـ والنَّهروانُ اسمٌ للموضع الذَّي دارتْ فيه المعركةُ بَيْنَ عليٍّ والخَوَارج ـ الذين قتلهُمْ عليٌّ؛ تَرَبَّصَ لعليٍّ سَحَرَ يومِ الجُمُعَةِ سَاعةَ خُرُوجه لصلاةِ الصُّبح، فضربه بالسَّيف على قَرْنِ رأسه، فَسَالَ دَمُهُ على لحيَتِه فَخَضَّبَهَا، وكانَ ذلك لِسَبْعَ عَشْرَةَ ليلةً خلَتْ مِنْ رَمَضَانَ على الأصحِّ سنةَ ٤٠ هـ.

وَقَالَ أبو نُوَاسٍ:

الْمَرْءُ بَيْنَ مَصَائِبٍ لا تَنْقَضِي ... حتَّى يُوَارَى[1] جِسْمُهُ في رَمْسِهِ[2]
فَمُؤَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدى في أَهْلِهِ ... ومُعَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدى في نَفْسِهِ

٥ ـ أَنْ يَعْلَمَ أنَّ النِّعَمَ زائرةٌ، وأنَّهَا ـ لا محالةَ ـ زائلةٌ، وأنَّ السُّرُورَ بها إذا أَقْبَلَتْ مَشُوبٌ[3] بالحَذَرِ مِنْ فِرَاقِهَا إذا أَدْبَرَتْ، وأنَّها لا تُفْرِحُ بإقبالها فَرَحًا حتَّى تُعْقِبَ بفِرَاقِهَا تَرَحًا[4]، فَعَلَى قَدْرِ السُّرُورِ يكونُ الحُزْنُ.

قيل في منثور الحِكَم: «الْمَفْرُوحُ بِهِ هو الْمَحْزُونُ عليه».

وقيل: «مَنْ بَلَغَ غايةَ ما يُحِبُّ، فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ».

وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: «مَنْ عَلِمَ أنَّ كُلَّ نائبةٍ إلى انقضاءٍ، حَسُنَ عَزَاؤُهُ عندَ نزولِ البَلاَءِ».

فَمَا هِيَ إلاَّ سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي ... ويَحْمَدُ غِبَّ السَّيْرِ[5] مَنْ هُوَ سَائِرُ

وقيل للحَسَنِ البَصْرِيِّ ـ يرحمه الله ـ: «كيف تَرَى الدُّنيا؟». قال: «شَغَلَني تَوَقُّعُ بلائها عَنِ الفَرَحِ بِرَخائها».

فَأَخَذَهُ أبو العَتَاهِيَةِ، فَقَالَ:

تَزِيدُهُ الأيَّامُ إنْ أَقْبَلَتْ ... شِدَّةَ خَوْفٍ لِتَصَارِيفِهَا
كأنَّها في حالِ إِسْعَافِهَا[6] ... تُسْمِعُهُ وَقْعَةَ تَخْوِيفِهَا

---

(١) يُوَارَى: يُخْفَى ويُغَيَّب.
(٢) الرَّمْسُ - بالفتح -: تُراب القَبْرِ، والجمعُ أَرْمَاسٌ، ورُمُوسٌ.
(٣) مَشُوبٌ: مَخْلُوطٌ.
(٤) التَّرَحُ - بفتحتين -: الحُزْنُ، والجمعُ أَتْرَاحٌ، وبابهُ فَرِحَ.
(٥) غِبُّ السَّيْرِ: عَاقبته.
(٦) إسعافها: إنجادها ومساعدتها.

٦ ـ أنْ يَعْلَمَ أنَّ سُرُورَهُ مَقْـرُونٌ بِمَسَاءَةِ غيره، وكذلك حزنـه مقرونٌ بسرورِ غَيْـرِهِ، إذْ كَانَتْ الدُّنيـا تُنْقَلُ مِنْ صَـاحِبٍ إلى صاحبٍ، وتَصِلُ صَـاحِبًا بفراقِ صاحبٍ، فتكون سُرُورًا لَمَنْ وَصَلَتْهُ، وحُزْنًا لَمَنْ فارقتْهُ.

قَالَ البُحْتُرِيُّ:

مَـتَى أَرَتِ الدُّنيـا نَبَـاهةَ خَـامِلٍ[1] ▪▪▪ فـلا تَرْتَقِبْ إلاَّ خُـمُـولَ نَبِـيْـهِ

وَقَالَ الُمتَنَبِّي:

بذا قَـضَتِ الأيَّام مـا بَيْنَ أهْلِهَـا ▪▪▪ مـصـائبُ قَـوْمٍ عندَ قَـوْمٍ فَـوَائِدُ

وقَالَ صاحبُ «العِقْدِ الفَرِيدِ» أحمدُ بنُ عبد ربِّه القُرْطُبيُّ ـ يَصِفُ الدُّنيا ـ:

أَلاَ إنَّمـا الدُّنيـا نَضَـارةُ[2] أَيْكَةٍ[3] ▪▪▪ إذا اخْضَرَّ مِنْها جانبٌ، جفَّ جـانبُ

فـلا تَفْـرَحَنْ مِنْهَـا لشيءٍ تُفـيْـدُهُ ▪▪▪ سَـيَـذْهَبُ يومًـا مِـثْلَمَـا أَنْتَ ذَاهبُ

هي الدَّارُ مَـا الآمَـالُ إلاَّ فَـجَـائعٌ ▪▪▪ عَلَيْـهَـا، ولا اللَّذَّاتُ إلاَّ مَـصَـائبُ

فلا تَكْتَحِلْ عَيْنَاكَ فيها بعَبْرَةٍ[4] ▪▪▪ على ذاهبٍ مِنْهَـا؛ فـإنَّك ذاهِبُ

---

(١) الخامِل: السَّاقط الَّذي لا نَبَاهَةَ لَهُ، وبَابُهُ دَخَلَ.
(٢) النَّضارة: الحُسْنُ والرَّونق.
(٣) الأَيْكَةُ: الشَّجَرَةُ، والجمعُ أَيْكٌ.
(٤) العَبْرَةُ - بالفتح -: الدَّمْعةُ قَبْلَ أَنْ تَفيضَ.

٧ ـ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ طَوَارِقَ[١] الإنسان مِنْ دَلائلِ فَضْلِه، ومحَنَهُ من شَواهد نُبْلِه[٢]، ولذلك إحدى علَّتين: إمَّا لأنَّ الكمالَ مُعْوِزٌ[٣]، والنَّقْصَ لازمٌ، فإذا تواتر الفَضْلُ عليه، صَارَ النَّقْصُ فيما سِوَاهُ، وقد قيل: «مَنْ زاد في عقلِه، نقص مِنْ رِزْقِه».

وَقَالَ أبو العَتَاهِيَة:

مَا جَاوَزَ المَرْءُ مِنْ أَطْرافِهِ طَرَفاً ◊ إلاَّ تَخَوَّنَهُ النُّقْصَانُ مِنْ طَرَفِ

وَقَالَ إبراهيمُ بنُ هلالٍ الكَاتِبُ:

إذا جَمَعَتْ بَيْنَ امْرِئَيْنِ صناعةٌ ◊ فأَحْبَبْتَ أَنْ تَدْرِي الذَّي هو أَحْذَقُ[٤]
فلا تَتَفَقَّدْ مِنْهُما غَيْرَ ما جَرَتْ ◊ بِهِ لَهُمَا الأَرْزَاقُ حِينَ تُفَرَّقُ
فَحَيْثُ يكونُ النَّقْصُ فالرِّزْقُ واسعٌ ◊ وحيثُ يكونُ الفَضْلُ فالرِّزْقُ ضَيِّقُ

وإمَّا لأنَّ ذَا الفَضْلِ مَحْسُودٌ، وبالأَذَى مَقْصودٌ، فلا يسلمُ في بِرِّهِ من مُعَادٍ، واشْتطاط[٥] مُنَاوٍ[٦].

قَالَ الصَّنَوْبَرِيُّ:

مِحَنُ الفَتَى يُخْبِرْنَ عَنْ فَضْلِ الفَتَى ◊ كَالنَّارِ مُخْبِرَةٌ بِفَضْلِ العَنْبَرِ[٧]

---

(١) طوارق: مصائب، المفرد طارقة.
(٢) النُّبل ـ بالضمِّ ـ: الفَضْلُ والذَّكَاء والنَّجَابَة، وبَابه ظَرُفَ.
(٣) مُعْوِز: مِنْ أَعْوَزَهُ الشَّيءُ: إذا احْتَاجَ إِلَيْه، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْه.
(٤) أَحْذَق: ماهرٌ في صَنْعته.
(٥) اشتطاط: جَوْر وظُلْم.
(٦) مُنَاوٍ: مُعَاد.
(٧) العَنْبَر: مادَّةٌ صلبة تنبعث منها رائحةٌ ذكيَّةٌ إذا أُحْرِقَتْ.

وَقَلَّمَا تَكُونُ محنَةُ فَاضِلٍ إلاَّ مِنْ جِهَةِ نَاقِصٍ، وبَلْوى عَالِمٍ إلاَّ عَلَى يَدِ جَاهِلٍ؛ وَذَلِكَ لاستِحْكَامِ العَدَاوَةِ بَيْنَهُمَا بالمُبَايَنَةِ، وَحُدُوثِ الانْتِقَامِ لأَجْلِ التَّقَدُّمِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

فلا غَرْوَ أنْ يُمْنى[1] عليمٌ بجاهلٍ ▫▪▫ فَمِنْ ذَنَبِ التِّنينِ تَنْكَسِفُ الشَّمْسُ

٨ ـ ما يَعْتاضُهُ[2] مِنَ الارْتِيَاضِ بنَوَائِبِ عَصْرِهِ، وَيَسْتَفِيدُهُ مِنَ الحِنْكَةِ[3] بِبَلاءِ دَهْرِهِ، فَيَصْلُبُ عودُهُ، ويستقيمُ عمودُهُ، ويكملُ بأدنى شِدَّته ورخائه، ويتَّعظ بحالتي عفوه وبلائه.

حُكِيَ عَنْ ثعلبٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُبَيْدِ اللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ، وعليه خِلَعُ[4] الرِّضى بعدَ النَّكْبَةِ، فَلَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ[5]، قَالَ لِي: يا أَبَا العَبَّاسِ، اسْمَعْ مَا أَقُولُ:

نَوَائِبُ الدَّهْرِ أَدَّبَتْنِي ▫▪▫ وَإِنَّمَا يُوعَظُ الأديبُ
قَدْ ذُقْتُ حُلْواً، وذُقْتُ مُرّاً ▫▪▫ كَذَاكَ عَيْشُ الفَتَى ضُرُوبُ
لَمْ يَمْضِ بُؤْسٌ، ولا نَعِيمٌ ▫▪▫ إلاَّ ولي فيهما نَصِيبُ
كذاك مَنْ صاحَبَ اللَّيالي ▫▪▫ تَغْدُوهُ مِنْ دَرِّها الخُطُوبُ

---

(١) يُمنَى: يُبْتَلَى.
(٢) يعتاضُ: يَسْتَعِيضُ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ.
(٣) الحنْكَة: التَّجربة.
(٤) الخِلَعُ: الملابس.
(٥) مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ: انْتَصَبْتُ قَائِمًا.

٩ - أَنْ يختبرَ أُمورَ زمَانه، ويتنبَّهَ على صَلاحِ شَأْنِه فَلا يَغْتَرُّ بِرَخَاء، ولا يطمعُ في استواء، ولا يُؤمِّلُ أَنْ تَبْقَى الدُّنيا على حَالَة، أَوْ تَخْلُوَ مِنْ تَقَلُّبٍ واسْتِحَالَة؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ الدُّنيا، وخَبَرَ أَحْوَالَهَا، هَانَ عَلَيْه بُؤْسُهَا ونَعِيمُهَا.

قَالَ أَبُو العَتَاهِيَةِ:

إِنِّي رَأَيْتُ عَوَاقِبَ الدُّنيا ... فَتَرَكْتُ مَا أَهْوَى لِمَا أَخْشَى

فَكَّرْتُ في الدُّنيا وعَالَمِهَا ... فَإِذَا جَمِيعُ أُمُورِهَا تَفْنَى

وبَلَوْتُ[١] أَكْثَرَ أَهْلِهَا، فإذا ... كُلُّ امْرِئٍ في شَأْنِه يَسْعَى

أَسْنَى[٢] مَنَازِلِهَا وأَرْفَعُهَا ... في العِزِّ أَقْرَبُهَا مِنَ المَهْوَى

تَعْفُو مَسَاوِيهَا مَحَاسِنَهَا ... لا فَرْقَ بَيْنَ النَّعْيِ[٣] والبُشْرَى

ولقدْ مَرَرْتُ على القُبُورِ، فَمَا ... مَيَّزْتُ بَيْنَ العَبْدِ والمَوْلَى[٤]

أَتُرَاكَ تَدْرِي كَمْ رأيتُ مِنَ الأَ ... حْيَاءِ، ثُمَّ رأيتُهُمْ مَوْتَى؟!

فَإِذَا ظَفَرَ المُصَابُ بِأَحَدِ هَذِهِ الأَسْبَابِ، تَخَفَّفَتْ عنه أَحزَانُهُ، وتَسَهَّلَت عليه أَشْجَانُهُ[٥]، فَصَارَ وَشِيكَ السَّلْوَةِ، قليلَ الجَزَعِ، حَسَنَ العَزَاءِ.

قَالَ بعضُ الحُكَماءِ: «مَنْ حاذَرَ لَمْ يَهْلَعْ، ومَنْ راقَبَ لَمْ يَجْزَعْ، ومَنْ كان مُتَوَقِّعًا لَمْ يَكُنْ مُتَوَجِّعًا».

---

(١) بَلَوْتُ: اختبرتُ وجرَّبتُ.
(٢) أَسْنَى: أَرْفَعُ.
(٣) النَّعْي: خَبَرُ المَوْت.
(٤) المَوْلَى: السيِّد والرَّئيس.
(٥) الأَشْجَان: جمعُ شَجَنٍ - بفتحتين - وهو الحُزْنُ، وبَابُهُ فَرِحَ.

وقال بعضُ الشُّعراء:

مـا يكونُ الأمـرُ سَهْلاً كُلُّهُ ▪ إنَّما الدُّنيا سُرُورٌ وحُزُونُ

هَوِّنِ الأمْرَ تَعِشْ في رَاحَةٍ ▪ قَلَّ ما هَوَّنْتَ إلاَّ سَيَهُونُ

تَطْلُبُ الرَّاحَةَ في دارِ الفَنَا ▪ ضَلَّ مَنْ يَطْلُبُ شيئًا لا يَكُونُ!

فإنْ أغفلَ نَفْسَهُ عَنْ دَوَاعِي السَّلْوَة، ومَنَعَها مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ - تضاعف عليه مِنَ شدَّة الأَسَى، وهَمٌّ الجَزَع ما لا يطيقُ عليه صَبْرًا، ولا يجدُ عنه سُلُوًّا.

وَقَالَ ابْنُ الرُّوميّ:

إنَّ البَلاءَ يُطَاقُ غَيْرَ مُضَاعفٍ ▪ فإذا تَضَاعفَ صَارَ غَيْرَ مُطَاقِ

فَإذَا سَاعَدَهُ جَزَعُهُ بالأسباب الباعثة عليه، وأَمَدَّهُ هَلَعُهُ بالذَّرائعِ[(١)] الدَّاعيةِ إليه - فَقَدْ سَعَى فِي حَتْفِه[(٢)]، وَأَعَانَ عَلَى تَلَفِه، فمنْ أَسْبَابِ ذَلكَ:

١ - تذكُّرُ المُصَابِ حتَّى لا يَتَنَاسَاهُ، وتَصَوُّرُه حَتَّى لا يَعزُبَ[(٣)] عنه، ولا يجدُ مِنَ التِّذْكَارِ سَلْوَةً، ولا يخلطُ مع التَّصَوُّرِ تَعْزِيَةً.

وَسَلْ نَفْسَكَ تَسْلُو في مَنَازِلِهَا ▪ هَلِ الدُّمُوعُ تَرُدُّ الغَائِبَ الغَالِي؟!

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ -رضي الله عنه-: «لا تَسْتَفِزُّوا الدُّمُوعَ بالتَّذَكُّرِ».

٢ - الأَسَفُ وشدَّةُ الحَسْرَة، فَلا يَرَى مِنْ مُصَابِهِ خَلَفًا، ولا يجدُ لمفقودِه بَدَلاً، فيزداد بالأَسَفِ وَلَهًا[(٤)]، وبالحَسْرَةِ هَلَعًا؛ ولذلك قَالَ اللهُ -تَعَالَى-: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (سورة الحديد: ٢٣).

---

(١) الذَّرائع: الوَسَائل، مفردها ذَرِيعةٌ.
(٢) الحَتْفُ: الموتُ، والجمعُ حُتُوفٌ.
(٣) يَعْزُب: يغيب.
(٤) الوَلَهُ: ذهَابُ العَقْلِ والتَّحَيُّرُ منْ شِدَّةِ الوَجْدِ، وبابُهُ فَرِحَ.

وقالَ بعضُ الشُّعراءِ:

إذا بُلِيْتَ فَثِقْ باللهِ، وارْضَ بِهِ ▫▪▫ إنَّ الَّذي يَكْشِفُ البَلْوَى هُوَ اللهُ
إذا قَضَى اللهُ فاسْتَسْلِمْ لقُدْرَتِهِ ▫▪▫ ما لامْرِئٍ حِيلَةٌ[1] فِيمَا قَضَى اللهُ
اليَأْسُ يقطعُ أحيانًا بصاحِبِهِ ▫▪▫ لا تَيْأَسَنَّ؛ فإنَّ الصَّانِعَ اللهُ

٣ ـ كَثْرَةُ الشَّكْوَى، وبثُّ الجَزَعِ.

قَالَ حَسَّانُ بْنُ أَبِي جبلةَ في قَوْلِ اللهِ - تعالى - على لِسَانِ نَبِيِّهِ يَعْقُوبَ - عليه السلام -: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (سورة يوسف:١٨). قَالَ: «**لا شَكْوَى فيه**»[2].

وحُكِيَ أنَّ أَعْرابيَّةً دخلتْ مِنَ البادِيَةِ، فَسَمِعَتْ صُرَاخًا في دارٍ، فَقَالَتْ: ما هذا؟ فقيلَ لها: ماتَ لهُمْ إنسانٌ. فقالتْ: ما أرَاهم إلاَّ مِنْ ربِّهِمْ يَسْتَغِيثُونَ، وَبِقَضَائِهِ يَتَبَرَّمُونَ[3]، وَعَنْ ثَوَابِهِ يَرْغَبُونَ[4]».

وقد قيلَ في منثورِ الحِكَمِ: «مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ اتَّسَعَ لسانُهُ».

وإنَّما تُنافي الصَّبْرَ الشَّكْوى إلى العبادِ لا إلى رَبِّ العِبَادِ، وإلاَّ فَقَدْ قالَ نبيُّ اللهِ يَعْقُوبُ - عليه السلام -: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي[5] وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (سورة يوسف:٨٦).

---

(١) **الحِيْلَةُ**: بمعنى القُدْرةِ هنا، والجمعُ حِيَلٌ.
(٢) «عدة الصَّابرين» (ص١٢٧).
(٣) **يَتَبَرَّمون**: يَتَضَجَّرون.
(٤) **رَغِبَ عَنِ الشَّيءِ**: كرِهَهُ وتَرَكَهُ. ورَغِبَ في الشَّيءِ: أحبَّه وأرَادَهُ، وبَابه فَرِحَ.
(٥) **البَثُّ**: الحالُ والحُزْنُ والهَمُّ.

وأنشدَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ:

لا تُكْثِرِ الشَّكْوَى إلى الصَّديقِ ■ وَارْجِعْ إلى الخالِقِ، لا المَخْلُوقِ

لا يُخْرَجُ الغَرِيْقُ بالغَرِيقِ

وقالَ بعضُ الشُّعَراءِ:

لا تَشْكُ دَهْرَكَ ما صَحَحْتَ بِهِ ■ إنَّ الغِنَى هُوَ صِحَّةُ الجِسْمِ

هَبْكَ الخليفةَ كُنْتُ مُنْتَفِعًا ■ بِغَضَارَةِ الدُّنْيا مَعَ السُّقْمِ[1]

فكُنْ ـ أخي ـ كما قَالَ المُتَنَبِّي:

لا تَلْقَ دَهْرَكَ إلاَّ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ[2] ■ ما دَامَ يَصْحَبُ فيه رُوحَكَ البَدَنُ[3]

فَمَا يَدُومُ سُرُورُ مَا سُرِرْتَ بِهِ ■ وَلا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتِ الحَزَنُ

٤ ـ اليَأْسُ من جَبْرِ مُصَابِه، ودَرْك طِلاَبِه، فيقترنُ بحُزْنِ الحادثة قُنُوطُ الإِيَاسِ، فَلا يَبْقَى مَعَهَا صَبْرٌ، وَلا يَتَّسِعُ لَهَا صَدْرٌ، وَقَدْ قيلَ: «المُصيبةُ بالصَّبْرِ أعظمُ المُصيبتين».

وأنشَدَ شَبِيبُ بْنُ شيبةَ للمَهْدِيِّ:

وَلَئِنْ تُصِبْكَ مُصِيبةٌ فاصبرْ لَهَا ■ عَظُمَتْ مُصِيبةُ مُبْتَلٍ لا يَصْبِرُ

وقَالَ ابنُ الرُّومي:

اصْبِرِي ـ أيَّتُهَا النَّفْـ ■ ـسُ ـ فإنَّ الصَّبْرَ أَحْجَى

رُبَّمَا خَابَ رَجَاءٌ ■ وأتَى ما ليس يُرْجَى

---

(١) السُّقْمُ: المَرَضُ، والجمعُ أسقامٌ، وبابه فَرِحَ.

(٢) مُكْتَرِث: مُبَال ومُهْتَمّ.

(٣) يقول: لا تُبالِ الزَّمانَ وصُرُوفَهُ ما دُمْتَ حيًّا؛ فإنَّ الشِّدَّةَ والرَّخاءَ يتعقبانِ فيه على الحَيِّ، فلا يَأْسَ مع الحَيَاةِ.

وقال الحُسَيْنُ بْنُ مطيرٍ الأَسَدِيُّ:

إذا يَسَّرَ اللهُ الأُمُورَ تَيَسَّرَتْ ▪▪▪ ولانَتْ قواها، واسْتَقَادَ عَسِيرُهَا

فَكَمْ طامعٍ في حاجةٍ لا يَنَالُهَا ▪▪▪ وكَمْ آيسٍ مِنْها أَتاهُ بَشِيرُهَا

وكَمْ خائفٍ صارَ المُخيفَ، ومُقْتِرٍ[1] ▪▪▪ تَمَوَّلَ[2]، والأَحْدَاثُ يَحْلُو مَرِيرُهَا

وقَدْ تَغْدِرُ الدُّنيا، فَيُمْسي غَنِيُّهَا ▪▪▪ فَقِيراً، وَيَغْنَى بَعْدَ عُسْرٍ فَقِيرُهَا

وكَمْ قَدْ رأَيْنا مِنْ تَكَدُّرِ عِيْشَةٍ ▪▪▪ وأُخْرَى صَفَا بَعْدَ انْكِدَارٍ غَدِيرُهَا[3]

وأَنْشدَ بعضُ أهلِ العِلْمِ:

أَتَحْسَبُ أَنَّ البُؤْسَ للحُرِّ دائمٌ؟! ▪▪▪ ولو دَامَ شيءٌ عَدَّهُ النَّاسُ في العَجَبْ

لَقَدْ عَرَّفَتْكَ الحادِثَاتُ بِبُؤْسِهَا ▪▪▪ وقَدْ أَدَّبَتْ، إنْ كانَ يَنْفَعُكَ الأَدَبْ

ولو طَلَبَ الإنسانُ مِنْ صَرْفِ دَهْرِهِ[4] ▪▪▪ دَوَامَ الذَّي يَخْشَى، لأَعْيَاهُ ما طَلَبْ

٥ - أَنْ يَغْرَى[5] بملاحظة مَنْ حِيطَتْ سَلاَمَتُهُ، وحُرِسَتْ نِعْمَتُهُ، حتَّى التَحَفَ بالأَمْنِ والدَّعَةِ[6]، واستمتعَ بالثَّروةِ والسَّعَةِ، ويَرَى أنَّه قَدْ خُصَّ من بَيْنِهِمْ بالرَّزِيَّةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مساوِيًا، وأُفْرِدَ بالحادثةِ بَعْدَ أنْ كَانَ مُكَافِيًا، فلا يستطيعُ صَبْرًا على بَلْوَى، ولا يلْزِمُ شُكْرًا على نُعْمَى، ولو قابلَ بِهَذِهِ النَّظْرَةِ مُلاحظَةَ مَنْ شَارَكَهُ في الرَّزِيَّةِ، وسَاوَاهُ في الحادثةِ - لَتَكَافَأَ الأَمْرَانِ، فَهَانَ عليه الصَّبْرُ، وحَانَ منه الفَرَجُ.

(١) المُقْتِرُ: الفقير، يُقَالُ: أَقْتَرَ الرَّجُلُ: أَيِ افْتَقَرَ.
(٢) تَمَوَّلَ: صَار ذا مال.
(٣) الغَدِيرُ: أصله الماءُ يجتمعُ بَعْدَ السَّيْلِ، والجمعُ غُدْرَانٌ، وَغُدُرٌ.
(٤) صَرْفُ الدَّهْرِ: حَوَادِثُهُ ومَصَائِبُهُ، والجمعُ صُرُوفٌ.
(٥) يَغْرَى: يُولَعِ، وبَابُهُ فَرِحَ.
(٦) الدَّعَة: الهدوء والاطمئنان، يُقَالُ: وَدُعَ - بضمِّ الدَّالِ - الرَّجُلُ فهو وَدِيعٌ، وَوَادِعٌ أَيْضًا.

أَنْشَدَتِ امْرَأَةٌ مِنَ العَرَبِ:

أَيُّهَا الإِنْسَانُ، صَبْراً ... إِنَّ بَعْدَ العُسْرِ يُسْرَا
كَمْ رَأَيْنَا اليَوْمَ حُرّاً ... لَمْ يَكُنْ بِالأَمْسِ حُرّاً
مَلَكَ الصَّبْرَ فَأَضْحَى ... مَالِكاً خَيْراً وشَرّاً
اشْرَبِ الصَّبْرَ، وَإِنْ كَا ... نَ مِنَ الصَّبْرِ أَمَرّاً

وَأَنْشَدَ بَعْضُ أهلِ الأَدَبِ:

يُرَاعُ[1] الفَتَى للخَطْبِ تَبْدُو صُدُورُهُ ... فَيَأْسَى[2]، وفي عُقْبَاهُ يَأْتي سُرُورُهُ
أَلَمْ تَرَ أنَّ اللَّيلَ لمَّا تَرَاكَمَتْ ... دُجَاهُ[3]، بَدَا وَجْهُ الصَّبَاحِ ونُورُهُ
فلا تَصْحَبَنَّ اليَأْسَ إنْ كنْتَ عَالِمَاً ... لبيباً، فإنَّ الدَّهْرَ شَتَّى أُمُورُهُ

■ والصَّبْرُ المَشْروعُ له ثلاثةُ شُرُوطٍ:

■ الأوَّلُ ـ الإخلاصُ:

قالَ اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ (سورة الرعد: ٢٢).

قَالَ ابنُ كثيرٍ ـ يرحمه الله ـ في تفسيرِ هذه الآية: «أَيْ عَنِ المحارمِ والمآثمِ، فَفَطَمُوا أَنْفُسَهُمْ عنها للهِ - عزَّ وجلَّ - ابتغاءَ مَرْضَاتِهِ، وجزيلِ ثوابِهِ»[4].

(١) يَرَاعُ: يَفْزَعُ، ويخاف
(٢) يَأسَى: يَحْزَنُ.
(٣) الدُّجَى: جمعُ دُجْيَةٍ، وهي الظُّلْمَةُ.
(٤) «تفسير ابن كثير» (٢/٥٠٦).

وَقَالَ العلاَّمةُ ابْنُ سَعْديٍّ - يرحمه اللهُ - في تَفْسيرها:

«﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على المَأْمُورَاتِ بـالامتثـالِ، وَعَنِ المَنْهِيَّـاتِ بالانْكِفَافِ عَنْهَا، والبُعْدِ مِنْهَا، وعلى أَقْدَارِ اللهِ المُؤْلِمَةِ بعَدَمِ تَسَخُّطِهَا.

ولَكِنْ يُشْـتَرَطُ أَنْ يكُونَ ذَلكَ الصَّـبْرُ ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا لِغَيْـرِ ذلكَ مِنَ المَقَاصِدِ والأَغْرَاضِ الفَاسِدَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا الصَّبْرُ النَّافِعُ الَّذِي يَحْبِسُ بِهِ العَبْدُ نَفْسَهُ طَلَبًا لِمَرْضَاةِ رَبِّهِ، وَرَجَاءً للـقُرْبِ منه، والحظوة بثوابِهِ، وهو الصَّبْـرُ الَّذي مِنْ خَصَائصِ أَهْلِ الإِيمانِ، وأمَّا الصَّبْرُ المُشْتَرَكُ الَّذِي غَايَتُهُ التَّـجَلُّدُ، ومُنْتَهَاهُ الفَخْرُ - فهذا يَصْدُرُ مِنَ البَرِّ والفَاجِرِ، والمُؤْمِنِ والكَافِرِ، فليسَ هو المَمْدُوحُ على الحقيقَةِ»[1].

قَالَ الشَّاعِرُ:

وإنيِّ لأُغْضِي[2] مُقْلَتَيَّ[3] عَلَى القَذَى ▫▪▫ وأَلْبَسُ ثَوبَ الصَّبْـرِ أَبْيَضَ أَبْلَجَـا[4]

وإنِّي لأَدعُـو اللهَ، والأَمْـرُ ضَـيِّقٌ ▫▪▫ عَلَيَّ، فـمـا يَنْفَكُّ أَنْ يَتَـفَـرَّجَـا

وكمْ مِنْ فَـتَى سُدَّتْ عليـه وُجُوهُهُ ▫▪▫ أَصَـابَ لَهَـا في دَعْوَةِ اللهِ مَـخْـرَجـا!

■ الثَّاني - عَدَمُ شَكْوَى اللهِ إلى العِبادِ:

شَكْوَى اللهِ إلى العِبادِ تُنَافِي الصَّبرَ، وتُخْرِجُهُ إلى التَّسَخُّطِ والجَزَعِ.

---

(١) «تفسير ابن سَعْديٍّ» (ص٤١٧).
(٢) الإغضاء: انطباقُ الجَفْنَيْنِ.
(٣) المُقْلَة: شَحْمَةُ العين الجامعة للبياض والسَّواد، والجمعُ مُقَلٌ.
(٤) الأَبْلَجُ: المُضِيءُ المُشْرِقُ.

قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ- فيما يَرْويهِ عنْ ربِّه: «قالَ اللهُ - سبحانه وتعالى -: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدي المؤمنَ، فلَمْ يَشْكُني إلى عُوَّادِهِ[1]، أَطْلَقْتُهُ منْ أساري، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لحماً خيراً منْ لحْمِهِ، ودَماً خيراً منْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ العَمَلَ»[2].

وقالَ الشَّاعرُ:

وإذا عَرَتْكَ[3] بَلِيَّةٌ فاصبِرْ لَهَا ... صَبْرَ الكَرِيمِ، فَإِنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ

وإذا شَكَوْتَ إلى ابْنِ آدَمَ إنَّما ... تَشْكُو الرَّحيمَ إلى الذي لا يَرْحَمُ[4]

وقال المُتَنَبِّي:

ولا تَشَكَّ[5] إلى خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ ... شَكْوَى الجَرِيحِ إلى الغِرْبانِ والرَّخَمِ[6][7]

وقال آخر:

لا تَشْكُوَنَّ إلى صديقٍ حالةً ... تَأْتيكَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ

فَلَرَحْمَةُ المُتَوَجِّعِينَ مَرَارَةٌ ... في القَلْبِ مِثْلُ شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ

---

(١) عُوَّاده: زُوَّاره، والمفردُ: عائدٌ.

(٢) رواه الحاكمُ (١/ ٣٤٩)، والبيهقيُّ (٣/ ٣٧٥)، وإسنادُهُ صحيحٌ، ورجالُهُ ثِقاتٌ.

(٣) عَرَتْكَ: أصابتْكَ.

(٤) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٥٦٦).

(٥) تَشَكَّ: مُضارع من التَّشكِّي، أصلُهُ تَتَشكَّى، فحُذِفَتْ إحدى التَّاءَيْنِ تخفيفًا، ثُمَّ حُذِف حرف العلَّة - وهو الألف - للجازم.

(٦) الرَّخَمُ - بفتحتين -: جمعُ رَخَمَة، وهي طائرٌ أَبْقَعُ (أيْ فيه سوادٌ وبياضٌ) يُشْبه النَّسْرَ في الخِلْقَة.

(٧) يقول: لا تَشَكَّ إلى أَحَدٍ ما يَنْزِلُ بك من ضُرٍّ؛ لئَلاَّ تُشْمِتَهُ بشَكْوَاكَ، فيكون حالُكَ كَحَالِ الجريحِ الذي يَشْكُو جِراحَهُ إلى الطُّيورِ الَّتي تَرْقُبُ مَوْتَهُ لتأكُلَهُ.

■ **الثَّالثُ ـ أنْ يكونَ في ساعة المُصيبة:**

الصَّبْرُ المحمودُ المأجورُ عليه صَاحِبُهُ ما كَانَ في أَوَانِه[1]، أمَّا إذا فَاتَ الأَوَانُ فَلا فَائِدةَ مِنْهُ.

عَن أبي أُمَامَةَ -رضي الله عنه- عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «يقولُ اللهُ - سبحانه -: ابنَ آدمَ، إنْ صَبَرْتَ واحْتَسَبْتَ[2] عندَ الصَّدْمَةِ الأُولى، لَمْ أَرْضَ لَكَ ثَوَابًا دُونَ الجنَّةِ»[3][4].

قالَ الخطَّابيُّ - يرحمه الله -:

«المعنى أنَّ الصَّبرَ الَّذي يُحْمَدُ عليه صاحبُهُ ما كان عندَ مُفَاجَأةِ المُصِيبة، بخلافِ ما بَعْدَ ذلك؛ فإنَّه مَعَ الأيَّامِ يَسْلُو»[5].

وعَنْ أَنَسٍ -رضي الله عنه- قَالَ: مَرَّ النَّبيُّ -ﷺ- بامْرَأةٍ تبكي عندَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللهَ واصْبِرِي». قالتْ: «إلَيْكَ[6] عنِّي؛ فإنَّكَ لم تُصَبْ بمُصِيبَتِي». ولَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إنَّهُ النَّبيُّ -ﷺ-، فأتَتْ بابَ النَّبيِّ -ﷺ- فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بوَّابِينَ، فقالَتْ: «لَمْ أَعْرِفْكَ». فَقَالَ: «إنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»[7].

---

(١) أوَانه: وقْته، والجَمْعُ آونَةٌ كزمَانٍ وأزْمِنَة.
(٢) احتسبْتَ: رَجَوتَ ثوابَ صبرك على مُصَابك من اللهِ، وادَّخَرْتَهُ عندَهُ.
(٣) رواه ابن ماجَة (١٥٩٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح سُنن ابن ماجه» (١٥٩٧).
(٤) انظر «تسلية أهل المَصَائب» (ص٣٦).
(٥) «فتح الباري» (٣/ ١٥٠).
(٦) إليك: اسم فعل أمر بمعنى ابتعدْ وتَنَحَّ.
(٧) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ (١٢٥٢) و(١٢٨٣) و (١٣٠٢) و (٧١٥٤)، ومسلمٌ (٩٢٦).

قال أَحَدُ العُلَماءِ:

ولقَدْ ذَكَرْتُ اللهَ سَاعةَ خَوفِهِ ■ لِلْبَاسِلِينَ[١] مَعَ القَنَا[٢] الخَطَّارِ[٣]

فَنَسِيْتُ كُلَّ لَذَائِذٍ جَيَّاشَةٍ ■ يَوْمَ الوَغَى[٤] للواحِدِ القَهَّارِ

وقال المُتَنَبِّي:

رَمَانِي الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ[٥] حتَّى ■ فُؤَادي في غِشَاءٍ[٦] مِنْ نِبَالِ[٧]

فَصِرْتُ إذا أَصَابَتْني سِهَامٌ ■ تَكَسَّرَتِ النِّصالُ[٨] على النِّصَالِ[٩]

فَعِشْتُ ولا أُبَالي بالرَّزَايا؛ ■ لأنيِّ مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالي

الأَسْبَابُ المُعِينَةُ عَلَى الصَّبْرِ:

وثَمَّةُ أَسْبَابٍ تُعِينُ الْعَبْدَ وتصبّره عِنْدَ نُزُولِ الْمُصِيبَةِ أَوِ الْبَلاءِ، وهِيَ ما يَأْتِي:

السَّبَبُ الأَوَّل - شُهُودُ جَزَائِهَا وثَوَابها.

السَّبَبُ الثَّانِي - شُهُودُ تكفيرها لِلسَّيِّئَاتِ وَمَحْوِها لَهَا.

---

(١) الباسلُونَ: الشُّجْعانُ الأَبْطَالُ وبابه ظَرُفَ.

(٢) القَنَا: جمعُ قَنَاة، وهي الرُّمْحُ، ويُجْمَعُ - أيْضًا - عَلَى قَنَوَاتٍ.

(٣) يُقَالُ: رُمْحٌ خَطَّارٌ - بالتَّشْديد - : أي ذُو اهْتِزازٍ.

(٤) الوَغَى: الحَرْب، سُمِّيَتْ بذلك لما فيها من الصَّوْتِ والجَلَبَةِ.

(٥) الأَرْزَاء: المَصَائب، والمفرد رُزْءٌ.

(٦) الغشاءُ - بالكسر - : الغلاَف والغطَاء، والجمع أَغْشِيَةٌ.

(٧) النِّبال - بالكسر - : جمعُ نَبْلٍ - بالفتح - وهي السِّهَامُ العرَبِيَّة، وهي مُؤَنَّثَة لا واحِدَ لَهَا من لَفْظِهَا، وتُجْمَعُ - أيْضًا - علَى أَنْبَال.

(٨) النِّصَال: الحَدَائدُ الَّتي في رأْس السَّهام، مفردُها نَصْلٌ، وتُجْمَعُ - أيْضًا - في الكَثْرَةِ عَلَى نُصُولٍ، وفي القلَّة علَى أَنْصُلٍ.

(٩) يقول: كَثُرَتْ عليَّ مَصَائبُ الدَّهْرِ، حتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ قلبي موضعٌ إلاَّ أصابه سَهْمٌ منها، فصار في غلاف من السِّهام، فصرتُ - بَعْدَ ذلك - إذا أصابتْني سهامٌ من تلك المَصَائب، لا تجدُ مَوْضعًا تَنْفُذُ منه إلَى قلبي، وإنَّما تقعُ نصَالُها على نِصالِ السِّهامِ الَّتي قَبْلَهَا، فتنكسر عليها.

السَّبَبُ الثَّالِث - شُهُود القدر السَّابق الجاري بهـا، وأنّها مُقَدَّرة في أُمِّ الكتابِ قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ فَلابُدَّ منهَا، فَجَزَعُهُ لا يَزِيدُهُ إلاَّ بَلاءً.

السَّبَبُ الرَّابع - شُهُودُ حقِّ اللهِ عَلَيْهِ في تِلْكَ الْبَلْوَى، وواجِبَهُ فيها الصَّبْر بلا خلاف بين الأُمَّة.

السَّبَبُ الخَامِس - شُهُودُ تَرَتُّبِهَا عَلَيْهِ بذَنْبِه كَـمَا قَالَ اللهُ - سبْحَانَهُ وتَعَالَى-: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (سورة الشُّورى: ٣٠) فَهَذَا عَام في كُلِّ مُصيبَة دَقِيقَة وَجَليلَة، فَشَغلهُ شُهُودُ هَذَا السَّبَب بالاسْتغْفَارِ الَّذي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ في دَفْعِ تِلْكَ الْمُصيبَة.

السَّبَبُ السَّادِس - أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ قَد ارْتَضَـاهَا لَهُ وَاخْتَـارَهَا وَقَسمـها، وأَنَّ العُبُوديَّة تَقْتَضِي رِضَاهُ بمَا رَضِي لَهُ بِه سَيِّده وَمَوْلاهُ، فَإِنْ لَمْ يَعْـرِفْ قَدر المقام حَقَّهُ فَـهوَ لضَعْفـه، فَلْيَنْزِلْ إِلَى مَقَامِ الصَّبْـرِ عَلَيْهَا، فَإِنْ نَزَلَ عَنْهُ نَـزَلَ إِلَى مَقَامِ الظُّلْمِ وَتَعَدَّى الحَقَّ.

السَّبَبُ السَّابع - أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذه الْمُصِـيبَةَ هي دَوَاءٌ نَافِعٌ سَـاقَهُ إِلَيْـه الطَّبِيبُ العَليم بِمَصْلَحَـته الرَّحِيمُ بِهِ، فَلْيَصْبِـرْ عَلَى تَجرُّعِهِ وَلا يَتَقَيَّـأْهُ بِتَسَخُّطِهِ وَشَكْوَاهُ فَيَذْهَبَ نَفْعُهُ بَاطلاً.

السَّبَبُ الثَّامِن - أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ فِي عُقْبَى هَذَا الدَّوَاء مِنَ الشِّفَاءِ وَالْعَافِيَة وَالصّحة وَزَوَال الأَلَم تَحْصُلُ بدُونه.

السَّبَبُ التَّاسع - أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْمُصِيبَـةَ مَا جَاءَتْ لِتُهْلِكَهُ وَتَقْـتُلَهُ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ لِتَمْتَحِنَ صَبرَهُ وَتَبْتَليه.

السَّبَبُ الْعَاشر - أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ يُربِّي عَـبْدَهُ عَلَى السَّـرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالنِّعْـمة وَالْبلاء[1].

---

(١) انظر «طريق الهجرتين وباب السّعادتين» (ص٢٧٦).

الانتصَـارُ

العَـفْوُ ليسَ مـحمـودًا مُطْلَقًا، بَلْ منه مـا يكونُ مَحْـمُودًا، ومنه مـا يكونُ مَذْمُـومًا، فيكون مَحْـمُودًا إذا كَانَ في مَحَلِّه، ويَكُونُ مَـذْمُومًا إذا كَانَ في غـيرِ مَحَلِّه، وإليكَ التَّفصيل:

قَالَ اللهُ -سبْـحَانَهُ وتَعَالَى -: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ[1] (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا[2] فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[3] (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (سورة الشورى: ٣٩-٤١).

فَجَعَلَ اللهُ - سبْحَانَهُ وتَعَالَى - العَفْوَ مَقْرُونًا بِالإِصْلاحِ، فَإِذَا كَانَ العَفْوُ غَيْرَ إِصْلاحٍ، فَالانْتِصَارُ أَفْضَلُ.

ويُوَضِّحُ الإِمَامُ ابنُ العَـرَبيِّ هَذَا التَّسَاؤُلَ: «إِنْ كَـانَ الباغي مُعْلِنًا بالفُـجُورِ، وَقِحًا في الجُمْهُورِ، مُؤْذِيًا لِلصَّغيرِ والكَبيرِ ـ فَيَكُونُ الانْتِقَامُ مِنْهُ أَفْضَلَ».

---

(١) ﴿يَنتَصِرُونَ﴾: أَيْ يَنْتَقِمون مِمَّنْ بَغَى عليهم، ولا يَسْتَسْلِمون لظُلْم المعتدي.

(٢) ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾: أَيْ جزاءُ العُدوان أن ينتصرَ المظلوم مِمَّن ظَلَمَهُ بِمثْلِ عُدوانه من غيرِ زيادة.

(٣) قال العلاَّمةُ ابنُ سَعْديٍّ ـ يرحمـه الله ـ في تفسير قوله - تعالى -: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾: «يجزيه أجرًا عظيـمًا، وثوابًا كثيرًا، وشَـرَطَ اللهُ في العَفْوِ الإصلاحَ فيـه؛ ليدُلَّ ذلك على أنَّه إذا كان الجاني لا يليقُ العَـفْوُ عنه، وكانتِ المصلحةُ الشَّـرعيَّةُ تقتـضي عُقُوبَتَهُ ـ فـإنَّهُ في هذه الحالِ لا يكونُ مأمـورًا به». وقال في تـفسيـر قوله - تعـالى -: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: «الَّذِيْنَ يَجنُون على غـيرهم ابتداءً، أو يُقابلون الجاني بأكثرَ مِنْ جنايتِه، فالزِّيادةُ ظُلْمٌ». «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص٧٦٠).

وَيَصِفُ الحالَةَ المُقْتَضِيَةَ للعفْوِ، فَيَقُولُ: «أَنْ تكون الفلتة، أو يقع ذلك ممَّنْ يَعْتَرِفُ بالزَّلَّة، ويسألُ المغفرةَ ـ فالعَفْوُ ها هنا أفضلُ»[1].

وأَكَّدَ هذا المعنى الإمامُ الطَّبَرِيُّ في تَفْسِيرِه، وَوَافَقَهُ ابنُ العَرَبيِّ في أنَّ أَفْضَلِيَّةَ الانتصار تُفْهَمُ مِنْ قَوْلِ إبراهيمَ النَّخَعيِّ عن السَّلَفِ:

«كانوا يكرهونَ أنْ يذلُّوا أنفسَهُم، فَتَجْتَرِئ عليهمُ الفُسَّاقُ»[2].

وَخَصَّصَ العفو فيما إذا كَانَ الجاني نَادمًا مُقْلعًا.

وَاسْتَحْسَنَ القُرْطُبيُّ هذا التَّفصيلَ وأقَرَّهُ، وحَمَلَ الغُفْرَانَ على غيرِ المُصرِّ، وقال: «فأمَّا المُصرُّ على البَغْيِ والظُّلمِ فالأَفْضَلُ الانْتصَارُ منْهُ»[3].

وَهَا هِيَ أُمُّ المؤمنينَ عائشةُ -رضي الله عنها- تنتصرُ من أُمِّ المؤمنين زَيْنَبَ -رضي الله عنها- أمامَ رَسُولِ الله -صلى الله عليه وسلم- لَمَّا شَعَرَتْ أنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يُقرُّهَا على هذا الانتصار.

عَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالتْ: **أرسل أزواجُ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- فاطمةَ بنتَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم-، فاسْتَأذَنَتْ عليه، وهو مُضْطَجعٌ مَعِيَ في مِرْطِي[4]، فَأَذِنَ لَهَا، فقالتْ: يا رسولَ الله، إنَّ أزواجَكَ أَرْسَلْنَني إليك، يَسْأَلْنَكَ العَدْلَ[5] في ابْنَةِ أبي قُحَافَةَ».**

(١) «تفسير القُرطُبيِّ» (١٦/ ٣٩).
(٢) رواه البخاريُّ.
(٣) «تفسير القُرطُبيِّ» (١٦/ ٣٩).
(٤) المِرْطُ: واحد المُرُوط، وهي أَكْسِيةٌ من صُوف أو خَزٍّ ـ أي حرير ـ كان يُؤْتَزَرُ بها.
(٥) قال بعضُ العلماء: أيْ يَطْلُبْنَ منك العَدْلَ في المحبَّة القَلْبيَّة، إذْ كُنَّ يَشْعُرْنَ أنَّ لها في قلبه منزلةً ليستْ لغيرها، وكُنَّ يَرَيْنَ هَدَايا النَّاسِ تأتي حينَ يكونُ في بيتِ عائشةَ.

وأنا ساكتةٌ، قالتْ: فقال لها رسولُ اللهِ - ﷺ -: «أَيْ بُنَيَّةُ، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ ما أُحِبُّ؟». فقالتْ: «بَلَى». قال: «فَأَحِبِّي هذهِ». قالتْ: فقامتْ فاطمةُ حينَ سَمِعَتْ ذلك مِنْ رسولِ اللهِ - ﷺ -، فَرَجَعَتْ إلى أزواجِ النَّبيِّ - ﷺ -، فَأَخْبَرَتْهُنَّ بالَّذي قَالَتْ، وبالَّذي قَالَ لها رسولُ اللهِ - ﷺ -، فَقُلْنَ لها: «ما نَرَاكِ أَغْنَيْتِ عنَّا منْ شيءٍ، فَارْجِعي إلى رسولِ اللهِ - ﷺ -، فقولي له: «إنَّ أزواجَكَ يَنْشُدْنَكَ العَدْلَ في ابنةِ أبي قُحَافةَ». فقالتْ فاطمةُ: «واللهِ، لا أُكَلِّمُهُ أبَدًا».

قَالتْ عائشةُ - رضي الله عنها -: فأرسل أزواجُ النَّبيِّ - ﷺ - زَيْنَبَ بنتَ جَحْشٍ زوجَ النَّبيِّ - ﷺ -، وهي التي كانتْ تُسَامِيني [(١)] مِنْهُنَّ في المنزلةِ عندَ رسولِ اللهِ - ﷺ -، ولم أَرَ امْرأةً - قَطُّ - خيرًا في الدِّينِ من زَيْنَبَ، وأتْقَى للهِ، وأصدقَ حديثًا، وأوصلَ للرَّحِمِ، وأعظمَ صَدَقةً، وأشدَّ ابْتِذالاً لنَفْسِها في العَمَلِ الذي تَصَدَّقُ به، وتقرَّبُ بِهِ إلى اللهِ - تعالى -، ما عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ [(٢)] كانتْ فيها، تُسْرِعُ منها الفَيْئَةَ [(٣)]، قالتْ: فاستأذنتْ على رسولِ اللهِ - ﷺ -، ورَسولُ اللهِ - ﷺ - مَعَ عائشةَ على الحالِ التي دَخَلَتْ فاطمةُ عليها وهو بها، فأذِنَ لَهَا رسولُ اللهِ - ﷺ -، فقالتْ: «يا رسولَ اللهِ، إنَّ أزواجَكَ أَرْسَلْنَني إليك، يَسْأَلْنَكَ العَدْلَ في ابْنَةِ أَبي قُحَافَةَ». قالتْ: ثُمَّ وَقَعَتْ بي [(٤)]، فاستطالتْ عليَّ، وأنا أَرْقُبُ رسولَ اللهِ - ﷺ -، وأَرْقُبُ طَرْفَهُ [(٥)]، هَلْ يَأْذَنُ لي فيها.

---

(١) تُسَامِيني: أيْ تُعادِلُني وتُضَاهِيني في الخُطُورة والمنزلةِ الرَّفيعة، مأخوذٌ من السُّمُوِّ، وهو العُلُوُّ والارتفاعُ.

(٢) سَوْرَة من حِدَّة: هي شِدَّةُ الخُلُق وثَوَرانه.

(٣) الفَيْئ: الرُّجُوع مصدر فَاءَ يَفِيءُ. ومعنى الكلام: أنَّها كاملةُ الأوصاف إلاَّ أنَّ فيها شدَّةَ خُلُقٍ، وَسُرْعَةَ غَضَبٍ، تُسْرِعُ منها الرُّجوع، أي إذا وقع ذلك منها رَجَعَتْ عنه سريعًا، ولا تُصِرُّ عليه. وفي كلام عائشة - رضي الله عنها - أدبُ النُّبوَّة، فَمَعَ مُبَادأتها بالسِّباب لم تتجاوزْ حدَّ العَدْلِ، ولمْ تغمطْها حقَّها.

(٤) وَقَعَتْ بي: نالتْ مِنِّي.

(٥) الطَّرْفُ: تحريكُ الجَفْنِ، أو تَحْريكُ العَيْنِ.

قَالَتْ: فَلَمْ تَبْرَحْ زَيْنَبُ حتَّى عَرَفْتُ أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - لا يَكْرَهُ أَنْ أنْتَصِرَ. قالتْ: فلمَّا وَقَعْتُ بها لَمْ أَنْشَبْهَا[1] حِيْنَ[2] أَنْحَيْتُ عليها[3]. قالتْ: فقال رسولُ اللهِ - ﷺ - وتَبَسَّمَ: «إنَّها ابْنَةُ أبي بَكْرٍ»[4].

■ لابُدَّ مِنْ مُرَاعاةِ المصالحِ والمفَاسِدِ:

أَيْ أخي في اللهِ، اعلمْ ـ علَّمَنِي اللهُ وإيَّاكَ! ـ أنَّ بعضَ انتصارِكَ مِنْ أخيكَ المسيءِ إِلَيْكَ قَدْ يزيدُ الشَّرَّ، فقدِّرِ المصَالِحَ والمفاسِدَ بقَدْرِها، فإذا عَلِمْتَ أنَّ انتصارَكَ سوفَ يَجْعَلُهُ يعودُ إلى رُشْدِهِ، ويَقْمَعُ شَرَّهُ، فانتصِرْ منه، وإلاَّ فَعَلَيْكَ أنْ تَسُدَّ أَبْوَابَ الشَّيطَانِ.

عن أبي هُرَيرةَ - رضي الله عنه -: أَنَّ رجُلاً كان يَسُبُّ أبا بَكْرٍ فآذاهُ، فَصَمَتَ عنه أبو بَكْرٍ، ثُمَّ آذاهُ الثَّانيةَ، فَصَمَتَ عنه أبو بَكْرٍ، ثُمَّ آذاهُ الثَّالثةَ، فانْتصرَ منه أبو بَكْرٍ، فقامَ رسولُ اللهِ - ﷺ - حِيْنَ انْتَصَرَ أبو بَكْرٍ، فقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «أَوَجَدْتَ عليَّ[5]، يا رَسُولَ اللهِ؟!». فقَالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُكَذِّبُهُ بما قَالَ لَكَ، فَلَمَّا انْتصرْتَ وَقَعَ الشَّيطانُ، فَلَمْ أَكُنْ لأجلِسَ إذْ وَقَعَ الشَّيْطَانُ»[6].

---

(١) لم أَنْشَبْهَا: لَمْ أُمْهِلْهَا.

(٢) في بعض النُّسخ (حتَّى) بدل (حين)، وكلاهما صحيحٌ.

(٣) أنحيْتُ عليها: قَصَدْتُها واعتمدتُها بالمُعَارضة.

(٤) رواه مسلمٌ (٢٤٤٢).

(٥) وَجَدَ: وَجَدَ الشَّيْءَ: أصابه. ووَجَدَ المالَ: اسْتَغْنَى به. ووَجَدَ عليه: غَضِبَ. ووَجَدَ له: حَزِنَ عليه. وَوَجَدَ بفُلانٍ: أحبَّه حبّاً قَوِيّاً.

(٦) رواه أبو داودَ (٤٨٩٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٦٧٥٨)، و«الصَّحيحة» (٢٣٧٦).

قَالَ الخَطَّابِيُّ ـ يرحمه الله ـ في شَرْحِ هذا الحديث:

«إنَّما وَقَعَ الشَّيطانُ حِينَ انْتَصَرَ أبو بكرٍ؛ فَإِنَّ انْتصَارَهُ يُغري صاحِبَهُ، سِيَّما وقَدْ بَدَا الشَّرُّ منه بتكَرُّرِ الإِساءَةِ بالتَّزَيُّدِ والتَّمَادِي، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَباً في تَفَاقُمِ الخَطْبِ»[1].

قَالَ الشَّاعِرُ:

إنَّا لَقَومٌ أَبَتْ[2] أَخْلاَقُنا ـ شَرَفاً ـ ▪ أَنْ نَبْتَدي بالأَذَى مَنْ لَيْسَ يُؤْذِينَا

بِيضٌ صَنَائِعُنا[3]، سُودٌ وَقَائِعُنا[4] ▪ خُضْرٌ مَرَابِعُنا[5]، حُمْرٌ مَوَاضِينَا[6]

▪ فائِدةٌ مُهِمَّةٌ تتعلَّق بالانتصار:

قَالَ العَلاَّمَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالحِ العُثَيْمِين ـ يرحمه الله ـ:

«وإِنَّني بِهَذِهِ المُناسَبَةِ أَوَدُّ أنْ أُنبِّهَ على مسألةٍ يفعلُها كثيرٌ من النَّاس بقصْدِ الإحْسَانِ، وهي: أنْ تقعَ حادثةٌ من شَخْصٍ، فَيَهْلِكُ بسببِهَا شَخْصٌ آخَرُ، فيأتي أَوْلِيَاءُ المقتولِ، فَيُسْقِطُونَ الدِّيَةَ عَنْ هذا الجاني الَّذي فَعَلَ الحَادِثَ، فهل إسقاطهم للدِّيَةِ مَحْمُودٌ، وتُعْتَبَرُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، أَمْ في ذَلِكَ تفصيلٌ؟.

---

(١) «شرح سُنن أبي داودَ معالم السُّنن» (٥/ ٢٠٤).

(٢) أَبَتْ: كَرِهَتْ ورَفَضَتْ.

(٣) الصَّنائعُ: جمعُ صنيعةٍ، وهي النِّعمةُ والإحْسَانُ.

(٤) الوقائع: جمع وقيعة، وهي المعركة.

(٥) المَرَابعُ: جَمْعُ مَرْبَعٍ، وهو مَنْزِلُ القَوْمِ في الرَّبيعِ خاصَّةً.

(٦) المَوَاضِي: السُّيوفُ القاطعةُ.

في ذلكَ تفصيلٌ: فلابُدَّ أنْ نتأمَّلَ ونُفكِّرَ في حَالِ الجَاني الَّذي وَقَعَ مِنْهُ الحادثُ، هَلْ هُوَ مِنَ النَّاسِ المعروفينَ بالتَّهَوُّرِ، وعَدَمِ المُبَالاةِ؟، هل هو مِنَ الطِّرَازِ[1] الَّذي يقولُ: أنَا لا أُبالي أنْ أدهسَ شَخْصاً؛ لأنَّ دِيَتَهُ في الدُّرْجِ[2] - والعياذُ باللهِ - ؟.

أم أنَّهُ رجلٌ حَصَلَتْ منه هذه الحادثةُ مَعَ كمالِ التَّعقُّلِ، وكمالِ الاتِّزَانِ، ولَكِنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ مِقْدَرًا؟.

وَإِنْ كَانَ مِنَ هذا الطِّرازِ الأخيرِ، فالعَفْوُ في حقِّهِ أَوْلَى، ولكِنْ - حتَّى وإنْ كَانَ مِنْ هذا الطِّرَازِ المُتَعَقِّلِ المتَّزِنِ ـ يجب قَبْلَ أنْ نَعْفُوَ عَنْهُ أَنْ نَنْظُرَ هل على المَيِّتِ دَيْنٌ؟، فإذا كانَ على المَيِّتِ دَيْنٌ، فَإِنَّه لا يُمْكِنُ أَنْ نَعفُوَ، ولو عَفَوْنَا فإنَّ عَفْوَنَا لا يُعْتَبَرُ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ رُبَّمَا يَغْفُلُ عنها كثيرٌ مِنَ النَّاسِ، ونحنُ نقولُ ذلك؛ لأنَّ الوَرَثَةَ يتلقَّونَ الاستحقاقَ لهذه الدِّيَةِ مِنَ المَيِّتِ الَّذي أُصيبَ بالحادثِ، ولا يَرِدُ استحقاقُهُم إلاَّ بَعْدَ قَضَاءِ الدَّيْنِ، إنْ كَانَ المَيِّتُ مَدِينًا، ولِهَذَا لَمَّا ذكر الميراثَ قال: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ (سورة النساء: ١١)[3].

■ **فائدةٌ:**

قَدْ يكونُ الرَّجُلُ مَغْلُوبًا على أَمْرِهِ[4]، فهذا عليه أنْ يتأسَّى بنُوحٍ - عليه السلام -، فحينَمَا عَجَزَ عن قومِهِ، توجَّه بالدُّعَاءِ إلى ربِّهِ، قَالَ اللهُ - تعالى - حاكيًا عنه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ (سورة القمر: ١٠).

---

(١) الطِّراز: النَّوع والنَّمَط، والجمعُ أَطْرِزةٌ وطُرُزٌ.
(٢) الدُّرْج: الخِزَانة، جمعُهُ دِرَجَةٌ، وأَدْراجٌ، ودُرُوجٌ.
(٣) «مكارم الأخلاق» لابن عُثَيمين (ص٢٨).
(٤) مَغْلُوبًا على أمره: أي غير قادرٍ على الانتصار ممَّن ظَلَمَهُ.

فهذا - لَعَمْري - أَعْظَمُ الانتصارِ، فَالرَّجُلُ المغلوبُ على أَمْرِهِ يَنْصُرُهُ اللهُ، أَلاَ ترى كَيْفَ اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ نُوحٍ، فآتاهُ سُؤْلَهُ بِأَنِ انْتَصَرَ لَهُ مِنْ قَوْمِه، قَالَ اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ[1]﴾ (سورة القمر: ١١-١٣).

فَدَعْوَةُ المظلومِ لَيْسَ بَيْنَها وبَيْنَ اللهِ سِتْرٌ أو تَأخيرٌ.

عن أَنَسِ بْنِ مالك -رضي الله عنه- قالَ: قال رسولُ اللهِ -ﷺ-: «اتَّقُوا دَعْوَةَ المَظْلُومِ - وإِنْ كانَ كافراً[2] -؛ فإنَّه ليس دُونَها حِجَابٌ»[3].

وعن خُزَيمَةَ بْنِ ثَابِتٍ -رضي الله عنه- أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: «اتَّقُوا دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فإنَّها تُحْمَلُ على الغَمَامِ، يقولُ اللهُ: وَعِزَّتِي وَجَلالي، لأَنْصُرَنَّكَ ولو بَعْدَ حِينٍ»[4].

وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «اتَّقُوا دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فإنَّها تَصْعَدُ إلى السَّماءِ كأنَّها شَرَارَةٌ[5]»[6].

---

(١) الدُّسُرُ: الخُيُوط الَّتِي تُشَدُّ بِهَا أَلْوَاحُ السَّفِينَة. وَقِيلَ: هِيَ المَسَامِير، والمُفْرَدُ دِسَارٌ بالفَتْح.

(٢) قال شيخ الإسلام ابنُ تَيْمِيَّةَ - يرحمه الله -: «فليس كُلُّ مَنْ مَتَّعَهُ اللهُ برزقٍ ونَصْرٍ - إمَّا إجابةً لدُعائه، وإمَّا بدون ذلك - يكونُ مِمَّن يُحِبُّهُ اللهُ ويُوَالِيه، بل هو - سبحانه - يرزقُ المؤمنَ والكافرَ، والبَرَّ والفاجرَ، وقد يُجيبُ دُعاءَهُمْ، ويُعْطِيهِم سُؤَالَهُمْ في الدُّنيا، وما لهم في الآخرة مِنْ خَلاَقٍ». «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (ص٤١٣).

(٣) رواه أحمدُ في «المسند» (٣/ ١٥٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١١٩)، و«الصَّحيحة» (٧٦٧).

(٤) رواه الطَّبرانيُّ في «الكبير»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع»، و«الصَّحيحة» (٨٦٨).

(٥) الشَّرَارة - بالفتح -: واحدة الشَّرَار، وهو ما يتطايرُ مِنَ النَّار.

(٦) رواه الحاكمُ في «المستدرك» (١/ ٢٩)، وصَحَّحَه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١١٨)، و«الصَّحيحة» (٨٧١).

وَوَصَفَ أَحَدُ الشُّعَرَاءِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَقَالَ:

وَسَارِيَةٍ لَمْ تَسِرْ في الأَرْضِ تَبْتَغِي ▪▪▪ مَحَلاً، وَلَمْ يَقْطَعْ بِهَا الْبِيدَ[(١)] قَاطِعُ

سَرَتْ حَيْثُ لَمْ تَسْرِ الرِّكَابُ[(٢)]، وَلَمْ تُنِخْ[(٣)] ▪▪▪ لِوِرْدٍ، وَلَمْ يَقْصُرْ لَهَا الْقَيْدَ مَانِعُ

تَظَلُّ وَرَاءَ اللَّيْلِ، وَاللَّيْلُ سَاقِطٌ ▪▪▪ بِأَوْرَاقِهِ، فِيهِ سَمِيرٌ[(٤)] وَهَاجِعُ[(٥)]

تَفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لِوَفْدِهَا ▪▪▪ إِذَا قَرَعَ الأَبْوَابَ مِنْهُنَّ قَارِعُ

إِذَا سَأَلَتْ لَمْ يَرُدَّ اللهُ سُؤْلَهَا ▪▪▪ عَلَى أَهْلِهَا، وَاللهُ رَاءٍ وَسَامِعُ[(٦)]



(١) البيد - بوزن البِيض - : جمعُ بَيْدَاءَ، وهي الصَّحَرَاء القَاحِلَة.
(٢) الرِّكَاب: الإِبِل الَّتِي يُسَارُ عَلَيْهَا، وَلا وَاحِدَ لَهَا مِنْ لَفْظِهَا.
(٣) أَنَاخَ الجَمَلَ: أَبْرَكَهُ.
(٤) سَمِير: ساهر.
(٥) هاجع: نائم.
(٦) «العِقْد الفَرِيد» (٣/ ٢٢٧).

الإِنْصَافُ

الإنصافُ خَصْلَةٌ شَرِيفةٌ، وخَلَّةٌ كريمةٌ، يدلُّ على نفسٍ مطمئنَّةٍ، وأُفْقٍ واسعٍ، ونَظَرٍ في العَوَاقب بعيدٍ.

ويُعَرَّفُ بأنَّه: استِيفَاءُ الحُقُوقِ لأربابِهَا، واسْتِخْرَاجُهَا بالأَيْدِي العَادِلَةِ، والسِّيَاسَةِ الفَاضِلَةِ.

وَقَالَ ابْنُ القيِّمِ - يرحمُه اللهُ - في إِنْصَافِ النَّاسِ:

«أَنْ تُؤَدِّيَ حُقُوقَهُمْ، وَأَلاَّ تُطالِبَهُمْ بما ليس لك، وألاَّ تَحْمِلَهُمْ فوقَ وُسْعِهِم، وأنْ تُعامِلَهُم بما تُحِبُّ أنْ يُعَامِلُوك به، وأنْ تعفوهم مِمَّا تحبُّ أنْ يَعْفُوك منه، وأنْ تَحْكُمَ لهم - أو عليهم - بِمَا تَحْكُمُ به لنَفْسِكَ أو عَلَيْهَا»[1].

والإِنْصَافُ والعَدْلُ تَوْءَمان، نَتِيجَتُهُمَا عُلُوُّ الهِمَّةِ، وَبَرَاءَةُ الذِّمَّةِ باكتِسَابِ الفَضَائِلِ، واجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ[2].

وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بالإِنْصَافِ، ونَهَى أنْ يَحْمِلَنا بُغْضُنا للكُفَّار على عَدَمِ الإِنْصَاف، فَقَالَ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة:٨).

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٤٠٧) بتصرُّف.
(٢) «التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف» (ص٦٤).

قَالَ شيخُ الإسلامِ - يرحمه اللهُ -:

«فَنَهَى أنْ يَحْـمِلَ المؤمنينَ بُغْضُهُمْ لِـلْكفَّار عَلَى ألاَّ يَعْدِلُـوا، فكَيْفَ إذَا كَانَ البُغْضُ لفَاسِقٍ، أَوْ مُبْتَدِعٍ، أَوْ مُتأَوِّلٍ مِنْ أَهْلِ الإيمانِ؟!، فهُوَ أولى أَنْ يجبَ عَلَيْهِ ألاَّ يَحْمِلَهُ ذَلِكَ على ألاَّ يَعْدِلَ عَلَى مُؤْمِنٍ، وَإِنْ كَانَ ظَالمًا لَهُ»[1].

وَقَالَ ابنُ كثيرٍ - يرحمه اللهُ - في تفسيرِ هَذِهِ الآيةِ:

«أَيْ لا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْـضُ قَوْمٍ على تركِ العَدْلِ؛ فَـإِنَّ العَدْلَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، في كُلِّ أحدٍ، في كُلِّ حَالٍ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا عَامَلْتَ مَنْ عَصَى اللهَ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللهَ فِيهِ»[2].

وَقَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴾ (سورة المائدة: ٢).

قَالَ أبو عبيدٍ والفَرَّاءُ: «أَيْ لا يُكْسِبَـنَّكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ أَنْ تَعْـتَدُوا[3] الحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ، والْعَدْلَ إلى الظُّلْمِ»[4].

فَمَا أَجْـمَلَ أَنْ يَتَحَلَّى المَرْءُ بِالإِنْصَافِ!، فَهُوَ مِنْ صِـفَاتِ الرَّبَّانِيِّينَ الَّذينَ لا يَرْجُونَ إلاَّ الحَقَّ.

---

(١) «الاستقامة» (١/ ٣٨).
(٢) «تفسيرُ ابنِ كثيرٍ» (٢/ ٧).
(٣) تعتدوا: تتجاوزوا.
(٤) «تفسير القُرْطُبيِّ» (٦/ ٤٥).

قال ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ:

وَتَعَــرَّ مِنْ ثَوبَيْنِ مَنْ يَلْبَسْــهُــمَـا ■ يَلْقَى الرَّدَى بمذَمَّــــةٍ وهَوَانِ[1]

ثوب مِنَ الجَــهْلِ المُرَكَّبِ فَــوقَــهُ ■ ثوبُ التَّــعَــصُّبِ، بِئْــسَتِ الثَّــوبانِ

وتَحَلَّ بالإنْصَــافِ أَفْــخَــرَ حُلَّةٍ ■ زِينَتْ بهـا الأَعْطَافُ[2] والكَتِفَانِ[3]

وَمِنْ إنْصَاف الْعِبَـاد إنْصَافُهُمْ في الأَمْوَالِ والمُعَامَـلات، والحُجَجِ والمَقَالات، وَقَدْ عَـابَ اللهُ -سُبْحَـانَهُ وَتَعَالَى - الَّذينَ يَبْخَسُونَ النَّاسَ أَشْيَـاءَهُمْ، وأَوْعَدَهُم بالخَسَارِ والهَلاكِ، فَقَـالَ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى -: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (سورة المطففين: ١-٣).

قالَ العلاَّمةُ ابْنُ سَعْديٍّ - يرحمه اللهُ -:

«دلَّت الآيَةُ الكَرِيمةُ على أنَّ الإنْسَـانَ كَمَـا يَأْخُـذُ مِنَ النَّاسِ الَّذي لَهُ، يَجبُ عليه أنْ يُعْطِيَـهُمْ كُلَّ مَا لَهُمْ مِنَ الأَمْـوَالِ والمُعَامَلاتِ، بَلْ يَدْخُلُ في عُـمُومِ هذا الحُجَجُ والمَقَـالاتُ، فَإِنَّهُ كَمَا أنَّ المتناظِرَيْنَ قَـدْ جَرَتِ العادةُ أنَّ كُلَّ واحد منـهما يَحْرِصُ على مَـا لَهُ مِنَ الحُجَجِ، فَيَـجبُ عليه ـ أَيْضًا ـ أَنْ يُبَـيِّنَ ما لخَصْـمِهِ من الحُجَجِ التي لا يعلمُهَا، وأنْ يَنْظُرَ في أَدلَّة خَصْـمه كَمَا يَنْظُرُ في أَدلَّته هو، وفي هذا الموضِعِ يُعْرَفُ إنْصَافُ الإنْسانِ مِنْ تَعَصُّـبِهِ واعْتِسَافِهِ[4]، وتَوَاضُعُهُ مِنْ كِبْرِهِ، وعَقْلُهُ من سَفَهِهِ»[5].

---

(١) الهَوَان: الخِزْيُ والعَارُ.
(٢) الأعطافُ: جمعُ عِطْف، وهو جانبُ الإنسانِ من لَدُن رأسه إلى وَرِكِه.
(٣) «نُونيَّة ابن القيِّم» (١/ ٥٢).
(٤) الاعتساف: أشدُّ الظُّلم.
(٥) «تفسير ابن سَعْديٍّ» (ص٩١٥).

وَمِنَ الإنصافِ - أيضًا - قَبُولُ الحقِّ من كُلِّ مَنْ قاله، كائنًا مَنْ كَانَ، حتَّى مِنَ المُبْتَدِعِ بَلْ وَمِنَ الكَافِرِ؛ لأَنَّهُ إِنْ رَدَّ قَوْلَهُ فَقَدْ رَدَّ الحَقَّ.

أَلاَ ترى أنَّ ملكةَ سَبَإٍ في حالِ كونها تسجدُ للشَّمْسِ من دُوْنِ اللهِ هي وقَوْمُهَا، لَمَّا قَالَتْ كلامًا حَقًّا صَدَّقَهَا اللهُ فيه، ولم يَكُنْ كُفْرُها مَانعًا مِنْ تَصْديقها في الحقِّ الَّذي قَالَتْهُ، وذلكَ في قَوْلِهَا فيما حكَى اللهُ عَنْهَا: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ (سورة النمل: ٣٤).

قَالَ القُرْطُبِيُّ - يرحمه اللهُ -:

«أَيْ أَهَانُوا شُرَفَاءَهَا؛ لِتَسْتَقِيمَ لَهُمُ الأُمُورُ، فَصَدَّقَ اللهُ قَولَهَا: ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة النمل: ٣٤).

قَالَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ - يرحمه اللهُ -: قولُهُ -تعالى-: ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ هنا وَقْفٌ تامٌّ، فقال اللهُ -سبحانه وتعالى- تحقيقًا لقولها: ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[(١)]».

وعَنْ قتيلةَ بنتِ صَيْفيٍّ الجُهَنِيَّةِ قالتْ: **أَتَى حِبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ رسولَ اللهِ - ﷺ - فقَالَ: «يا محمَّدُ، نِعْمَ القومُ أنتم، لَوْلاَ أنَّكُمْ تُشْرِكونَ!». فقالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «سُبْحَانَ اللهِ، وما ذَاكَ؟!». قَالَ: «تقولونَ - إذا حَلَفْتُمْ -: والكَعْبَةِ!». قالتْ: فأمهلَ رسولُ اللهِ - ﷺ - شيئًا، ثُمَّ قال: «إنَّهُ قَدْ قالَ، فمَنْ حَلَفَ فَلْيَحْلِفْ بربِّ الكَعْبَةِ». قالَ: «يا محمَّدُ، نِعْمَ القومُ أنتم، لولا أنَّكُمْ تَجْعَلُونَ للهِ نِدًّا[(٢)]!». قَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ، وما ذَاكَ؟!».**

---

(١) «تفسير القُرْطبيِّ» (١٣/ ١٧٤).

(٢) النِّدُّ - بالكسر -: المثيلُ وَالنَّظِيرُ، والجمعُ أَنْدَادٌ.

قال: «تقولون: ما شَاءَ اللهُ وشئْتُ». قالتْ: فأمهل رسولُ اللهِ - ﷺ - شيئًا، ثُمَّ قالَ: «إنَّهُ قَدْ قال، فمَنْ قال: ما شاء اللهُ، فَلْيَفْصِلْ بَيْنَهُمَا ثُمَّ شئتُ»[1].

وما أجملَ قولَ الشَّاعر:

لا تَحْقِرَنَّ الرَّأْيَ وهو موافقٌ ▪▪▪ حُكْمَ الصَّوابِ، إذا أَتَى مِنْ نَاقِصِ

فالدُّرُّ ـ وهو أَعَزُّ شَيْءٍ يُقْتَنَى ـ ▪▪▪ ما حَطَّ قيمتَهُ هَوَانُ الغائِصِ

وجاء في قصَّة أبي هُرَيرَةَ مَعَ الشَّيطانِ الَّذي أَرَادَ أنْ يَسرِقَ منْ طَعَامِ الزَّكَاة، فَأَمْسكَهُ ثُمَّ أطْلَقَهُ، ثُمَّ قالَ له في الثَّالثَة: «لأرْفَعَنَّكَ إلى رسولِ اللهِ - ﷺ -، وهذا آخرُ ثلاثِ مَرَّاتٍ، أنَّكَ تَزْعُمُ لا تعودُ، ثُمَّ تعودُ». قال: «دَعْني أُعَلِّمْكَ كلماتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بها». قلتُ: «ما هُنَّ؟». قال: «إذا أَوَيْتَ إلى فِرَاشِكَ، فاقْرأْ آيةَ الكُرسِيِّ: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٥). حتَّى تَخْتِمَ الآيةَ؛ فإنَّك لنْ يزالَ عليك منَ اللهِ حافظٌ، ولا يَقْرَبُكَ شيطانٌ حتَّى تُصْبِحَ». قال أبو هُرَيْرَةَ: فخلَّيْتُ سبيلَهُ، فأصبحتُ، فقال لي رسولُ اللهِ - ﷺ -: «ما فَعَلَ أَسيرُكَ البارحةَ[2]؟». قُلْتُ: «يا رسولَ اللهِ، زَعَمَ أنَّه يُعَلِّمُني كلماتٍ يَنْفَعُني اللهُ بها، فخلَّيْتُ سبيلَهُ». قال: «ما هِيَ؟». قلتُ: «قَالَ لي: إذا أَوَيْتَ إلى فِرَاشِكَ، فاقْرَأْ آيةَ الكُرسِيِّ: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾. وقال لي: لَنْ يزالَ عليك مِنَ اللهِ حافظٌ، ولا يَقْرَبُكَ شيطانٌ حتَّى تُصْبِحَ» ـ وكانوا أَحْرَصَ شيءٍ على الخير ـ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وهو كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخاطِبُ مُنْذُ ثلاثِ ليالٍ، يا أبا هُرَيرَةَ؟». قال: «لا». قال: «ذَاكَ شيطانٌ»[3].

---

(١) رواه أحمدُ (٦/ ٣٧١-٣٧٢)، والحاكمُ (٤/ ٢٩٧)، وصحَّحه، ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٢١٤)، و«الصَّحيحة» (١٣٦).

(٢) البارحة: اللَّيلة الماضية.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٣١١) و (٣٢٧٥) و (٥٠١٠).

وفي هذا الباب يقول شيخُ الإسلام ابنُ تَيْمِيَّةَ - يرحمه الله - :

«واللهُ أَمَرَنَا ألاَّ نَقُولَ عَلَيْه إلاَّ الحَقَّ، وَأَلاَّ نَقُولَ عَلَيْه إلاَّ بعلمٍ، وأمرَنا بالعَدْلِ والقِسْطِ، فلا يَجُوزُ إذَا قَالَ يهوديٌّ أو نَصْرانيٌّ - فضلاً عن الرَّافضيِّ - قولاً فيه حقٌّ - أنْ نتركَهُ، أو نَرُدَّهُ كُلَّهُ، بَلْ لا نردّ إلاَّ ما فيه مِنَ البَاطِلِ دُونَ مَا فِيهِ مِنَ الحَقِّ»[1].

وما أجملَ ما قَالَهُ الشَّاعِرُ عبدُه محمدً العماد - حفظه اللهُ -:

أَنْصِفْ وإنْ كُنْتَ ذا جاهٍ وَمَرْتَبَةٍ ◘◘◘ وَعُدْ إلى الحَقِّ مَهْمَا كُنْتَ مُقْتَدِرَا

فَمَنْ تَكَبَّرَ في حَقٍّ أُهِيْنَ بِهِ ◘◘◘ ومَنْ تَوَاضَعَ في حَقٍّ فَقَدْ كَبُرَا

وقال الآخرُ:

ولَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإِنْصَافِ قَاطِعَةً ◘◘◘ بَيْنَ الرِّجَالِ، وإنْ كَانُوا ذَوِي رَحِمِ



(١) «منهج السُّنَّة النَّبويَّة» (٢/ ٣٤٢).

المُـدَاراةُ

المُدَاراةُ دليلٌ عَلَى كَمَالِ العَقْلِ، وحُسْنِ الخُلُقِ، ومتانة الدِّين، بها ينالُ المَرْءُ سَبيلَ الرَّاحَةِ في الدُّنْيَا، والأَجْرَ والثَّوَابَ في الآخِرَةِ، وَلابُدَّ منها في الحَيَاةِ لاتِّقَاءِ شرِّ الأَشْرَارِ، وَدَوَامِ مُعَاشَرَةِ الأَخْيَارِ.

والفَرْقُ بَيْنَ المُداراة والمُدَاهنة: أنَّ المُداراةَ بَذْلُ الدُّنيا لصلاحِ الدُّنيا، أو الدِّينِ، أو هُمَا معًا، وهي مُباحةٌ، ورُبَّمَا استُحِبَّتْ. والمُدَاهَنَةُ تَرْكُ الدِّينِ لصَلاحِ الدُّنيا، فهي مُحَرَّمةٌ.

فالمُداراةُ ـ إذًا ـ إنَّمَا تَكُونُ في أُمُورِ الدُّنْيَا فقط.

وتُعَرَّفُ المُدَاراةُ بأنَّها: المُلاينَةُ والمُلاطَفَةُ، وأصلُهـا المُخَاتَلَةُ، ومنه الدِّرَايَةُ، وهو العلمُ مَعَ تَكَلُّفٍ وحيلةٍ[1].

وَقَالَ ابنُ بطَّالٍ - يرحمه اللهُ -:

«المُدَارَاةُ: خَفْضُ الجَنَاحِ للنَّاسِ، ولِينُ الكَلامِ، وتَرْكُ الإغْلاظِ لهم في القولِ، وذلكَ مِنْ أَقْوَى أسبابِ الأُلْفَةِ»[2].

وَقَالَ ابنُ حَجَرٍ - يرحمه اللهُ -:

«المُدَاراةُ: الدَّفْعُ بِرِفْقٍ»[3].

---

(١) «التوَّقيف على مُهمَّات التَّعاريف» (ص٣٠١).
(٢) «فتح الباري» (١٠/٥٤٥).
(٣) المرجع السَّابق (١٠/٥٢٨).

والمُدَارَاةُ لابُدَّ منها في الحيَاةِ؛ وذَلِكَ لأَنَّ النَّاسَ لَهُمْ طَبَائِعُ مُختَلِفَةٌ، هي أَشْبَهُ مَا تَكُونُ بِبَصْمَةِ اليَدِ.

وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ - يرحمه اللهُ -:

«الواجبُ على العاقلِ أنْ يُدَارِيَ النَّاسَ مُدَاراةَ الرَّجلِ السَّابحِ في الماءِ الجاري، ومَنْ ذَهَبَ إِلَى عِشْرَةِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، كدَّرَ على نَفْسِه عَيْشَهُ، ولم تَصْفُ له مَوَدَّتُهُ؛ لأنَّ وِدَادَ النَّاسِ لا يُسْتَجْلَبُ إلاَّ بمُسَاعَدَتِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْه، إلاَّ أَنْ يَكُونَ مَأْثَمًا، فَإِذَا كَانَتْ حَالَةُ مَعْصِيَة فلا سمعَ ولا طَاعَةَ، والبَشَرُ قَدْ رُكِّبَ فيهم أهواءٌ مُختلفةٌ، وطبائعُ مُتباينةٌ، فَكَمَا يَشُقُّ عليكَ تَرْكُ ما جُبِلْتَ عليه، فكَذَلكَ يَشُقُّ على غَيْرِكَ مُجَانَبَةُ مِثْله، فَلَيْسَ إِلَى صَفْوِ وِدَادِهِمْ سَبِيلٌ إلاَّ بمُعَاشَرَتِهِمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ، وَالإِغْضَاءِ[1] عن مُخَالَفَتِهِم في كُلِّ الأَوْقَات، إذْ أَنَّ مَنْ لم يُعاشِرِ النَّاسَ على لُزُومِ الإِغْضَاءِ عَمَّا يأتونَ مِنَ المَكْرُوه، وتَرك التَّوقُّع لما يأتون من المحبوب ـ كَانَ إلى تكْديرِ عَيْشِه أَقْرَبَ منه إِلَى صَفَائه، وَإِلَى أَنْ يَدْفَعَهُ الوقت إلى العَدَاوَةِ والبغْضَاءِ أَقْرَبَ منه إلى أنْ ينالَ منهُمُ الودَادَ وتَرْكَ الشَّحْنَاء، ومَنْ لم يُدَارِ صديقَ السُّوءِ، كما يُدَارِي صديقَ الصِّدْقِ ـ ليسَ بِحَازِمٍ، ولقد أَحْسَنَ الَّذِي يقولُ:

تجنَّبْ صديقَ السُّوءِ، واصْرِمْ[2] حِبَالَهُ ❊ وإنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا[3] فَدَارِهِ
وأَحْبِبْ حبيبَ الصِّدْقِ، واحْذَرْ مِرَاءَهُ ❊ تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ

وَذَلِكَ لأَنَّهُ إذا كَانَ كُلَّمَا رَأَى من أحدٍ زَلَّةً فَرَفَضَهُ لِزَلَّته، بَقِيَ وحيدًا لا يجد

---

(١) الإغضاء: التَّغافُل.
(٢) اصْرِمْ: اقطعْ.
(٣) مَحيصًا: مَفَرًا.

مَنْ يُعَاشِـره، وفريدًا لا يجدُ مَنْ يُخَادِنُ، بل يُغْـضِي على الأَخِ الصَّادق زَلاَّته، ولا يُناقش الصَّديقَ السَّيِّئَ على عَثَراته، وَقَدْ قَالَ مَنْصُورُ بنُ مُحَمَّد الكُرَيْزِيُّ:

أُغَمِّضُ عيني عَنْ صديقي كأنَّني ◼ لَدَيْه بما يَأْتي مِنَ القُبْحِ جاهلُ

وَمَا بي جَهْلٌ غَيْرَ أنَّ خَليقَتي ◼ تُطِيقُ احتمالَ الكُرْهِ فيما أُحاوِلُ

مَتَى مَا يَرِبْني[1] مَفْصِلٌ فَقَطَعْتُهُ ◼ بَقِيْتُ وَمَا لي في نُهُوضِي مَفَاصِلُ

ولكنْ أُداريهِ، وإنْ صَحَّ شَدَّني ◼ فَإِنْ هو أَعْيَا كَانَ فيه تَحَامُلُ[2][3]

وللهِ دَرُّ بشَّارِ بْنِ بُرْدٍ حينَ قَالَ:

إذا كُنْتَ في كُلِّ الأُمُورِ مُعَاتِبًا ◼ صديقَكَ، لَمْ تَلْقَ الَّذي لا تُعَاتِبُهْ

وإنْ أنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا على القَذَى ◼ ظَمِئْتَ، وأيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ؟!

فَعِشْ واحِدًا، أو صِلْ أَخَاكَ، فَإِنَّهُ ◼ مُقَارِفُ ذَنْبٍ[4] مَرَّةً ومُجَانِبُهْ[5]

فَالْزَمْ - أخي في الله - غرز المُداراة؛ فَإِنَّها مِنْ أَخْلاقِ المؤمنينَ.

عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قالتْ: استأذَنَ على النَّبيِّ - ﷺ - رجلٌ، فقال: «ائْذَنُوا له، فَبِئْسَ ابنُ العَشِيْرَةِ[6] - أو بِئْسَ أخو العَشِيرةِ -». فلمَّا دَخَلَ أَلاَنَ له الكلامَ، فقلتُ له: «يا رسولَ الله، قُلْتَ له ما قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ له في القَوْلِ؟!». فقال: «أَيْ عائشةُ، إنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلةً عندَ اللهِ يومَ القيامةِ مَنْ تَرَكَهُ - أو وَدَعَهُ - النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»[7].

---

(١) رَابَهُ الشَّيْءُ: رأى منه ما يَرِيبُهُ ويَكْرَهُهُ.
(٢) التَّحَامُل: التَّكْليفُ بِمَا لا يُطَاق.
(٣) «روضة العقلاء» (ص٧٢ -٧٣) بتصرُّف.
(٤) مُقارِفُ ذَنْب: مُرْتَكِبُهُ.
(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٨).
(٦) العشيرة: القبيلة، أي بِئْسَ هذا الرَّجلُ منها.
(٧) رواه البخاريُّ (٦٠٣٢) و (٦٠٥٤) و (٦١٣١)، ومسلمٌ (٢٥٩١).

قَالَ ابنُ بَطالٍ - يرحمه اللهُ -:

«المُداراةُ منْ أَخْلاقِ المؤمنينَ، وهِيَ مِنْ أَقْـوَى أَسْبَابِ الأُلْفَةِ بَيْنَهُـمْ، فَإِنْ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ المُدَارَاةَ هي المُدَاهَنَةُ، وهذا غَلَطٌ؛ لأَنَّ المُداراةَ مندوبٌ إليها، والمُداهَنَةُ مُحَرَّمَةٌ، والفَرْقُ بَيْنَهُـما أنَّ المُداهَنَةَ مِنَ الدِّهان، وَهُوَ الَّذي يُظْهِرُ الشَّيْءَ، ويَسْتُرُ باطنَهُ، وقَدْ فَسَّـرَهَا (يَعْنِي المُدَارَاةَ) العُلَمَاءُ بأَنَّهَا: مُعَـاشَرَةُ الفَاسِقِ في النَّهْي عن فعْلِه، وتَرْكُ الإغْلاظِ عليه حَيْثُ لا يظهرُ ما هو فيه، والإنكارُ عليه بلُطْفِ القولِ والفعلِ، ولا سِيَّما إذا احْتِيجَ إلى تَأْليفِه»[1].

وقَالَ الخطَّابي - يرحمه اللهُ -:

مـا دُمْتَ حـيّاً فَـدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... فَـإِنَّمَـا أَنْتَ فـي دَارِ المُـدَارَاةِ
مَنْ يَدْرِ دَارَى، ومَنْ لَم يَدْرِ سَوْفَ يَرَى ... عـمَّـا قليلٍ نَديمًا للنَّدامَـاتِ[2]

وعلى هذا الخُلُقِ العظيمِ سار سَلَفُنا الصَّالحُ، فكانوا يُدَارونَ ما لابُدَّ لهم مِنْ مُعَاشَرَتِهِ، أَوِ احْتَاجُوا إلى تأليفِه.

قَـالَ معـاويةُ - رضي الله عنه -: «لَوْ أنَّ بَيْنِي وبَيْنَ النَّاسِ شَعْـرَةً مَـا انْقَطَعَتْ». قيلَ: «وكيف؟!». قال: «لأنَّهُم إِنْ مَدُّوها خَلَّيْتُها، وَإِنْ خلَّوْا مَدَدْتُها»[3].

وقَالَ عبدُه مُحَمَّد العماد:

تَدَارَوْا، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا سَاءَ حَالُكُمْ ... وَشَاعَتْ خُصُومَاتٌ أَتَتْ بِالمَصَائِبِ
سَتَنْقَطِعُ الأَسْبَابُ[4] - لا شَكَّ حينَهَا - ... إِذَا شُدَّتِ الأَسْبَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٥٤٥).
(٢) «الآداب الشَّرعية» (١/ ١٠٠).
(٣) «روضة العقلاء» (ص٧٢).
(٤) الأسبابُ: جمعُ سَبَبٍ، وهُوَ الحَبْلُ.

وَقَـالَ أبو الدَّرْداءِ لأُمِّ الدَّرْداءِ -رضي الله عنهما-: «إذا غَضِبْتُ فَرَضِّيني، وإذا غَضِبْتِ رَضَّيتُكِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هذا، ما أَسْرَعَ مَا نَفْتَرِقُ»[1].

وقَالَ عبْده مُحَمَّد العماد:

وَدَارِ أَخَاكَ بالحُسْنَى تَجِدْهُ ▪▪▪ يُحِبُّكَ دُونَ كُلِّ العاذلينا
وَيَسْمَعُ مِنْكَ، إنْ أَلْقَيْتَ نُصْحًا ▪▪▪ وَقَدْ أَعْيَا سِوَاكَ النَّاصِحِينَا

وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ - يرحمه اللهُ -:

«وكانوا يقولون: المُداراةُ نِصْفُ العَقْلِ، وأنَا أقولُ: هي العَقْلُ كُلُّهُ»[2].

وَقَالَ الإمامُ الشَّافعيُّ:

وَأَنْزَلَني طُولُ النَّوى[3] دَارَ غُرْبَةٍ ▪▪▪ إذا شِئْتُ لاقَيْتُ امْرَأً لا أُشاكِلُهُ[4]
فَحَامَقْتُهُ[5] حتَّى يُقَالَ سَجِيَّةٌ[6] ▪▪▪ ولو كان ذا عَقْلٍ لَكُنْتُ أُعَاقِلُهُ[7][8]

وقال بشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

خَلِيلَيَّ، إنَّ العُسْرَ سَوْفَ يُفِيقُ ▪▪▪ وإنَّ يَسَارًا في غَدٍ لخَلِيقُ
وما أنا إلاَّ كالزَّمانِ إذا صَحَا ▪▪▪ صَحَوْتُ، وإنْ مَاقَ[9] الزَّمانُ أَمُوقُ[10]

---

(١) «روضة العُقَلاء» (ص٧٢).
(٢) «الآداب الشَّرعية» (٣/ ٤٦٨).
(٣) النَّوَى: أرادَ به البُعْدَ عن العُقَلاءِ وأَهْلِ الدِّين إلى أَهْلِ الهَزْلِ والمَجَانَة تَصَنُّعًا.
(٤) أشاكِلُهُ: أُشابِهُهُ وأُماثِلُهُ.
(٥) فحامَقْتُهُ: جارَيْتُهُ في حُمْقِه.
(٦) السَّجيَّةُ: الخُلُقُ والطَّبيعةُ، والجمع سَجَايَا.
(٧) أعاقِلُهُ: أُجاريه في عَقْله.
(٨) «عيون الأخبار» (٣/ ٣٠).
(٩) المُوقُ: الحُمْقُ في غَبَاوةٍ.
(١٠) «عيون الأخبار» (٣/ ٣٠).

الصِّدْقُ

الصِّدْقُ خَصْلَةٌ محمودةٌ، وسجيَّةٌ ممدوحةٌ، والصِّدقُ: هو أنْ يخبرَ الإنسانُ عمَّا يعتقدُ أنَّه الحَقُّ، وإنَّه مُطَابِقٌ للواقِعِ بلا زيادةٍ ولا نُقْصانٍ، بلا وَكْسٍ[1]، ولا شَطَطٍ[2]، وليسَ الإخبارُ - أيضًا - مقصورًا على القَوْلِ فحسب، بَلْ قَدْ يكونُ بالفِعْلِ: كَالإشَارَةِ باليدِ، أو هَزِّ الرَّأْسِ، وقد يكون بالسُّكُوتِ.

والصَّادِقُ مَعَ اللهِ ومَعَ النَّاسِ ظَاهِرُهُ كَبَاطِنِهِ؛ لذلكَ ذكرَ اللهُ المنافقَ في الصُّورةِ المقابلةِ للصَّادِقِ، فَقَالَ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى-: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٤).

والصِّدْقُ طريقٌ إلى الجنَّةِ، كَمَا أنَّ الكَذِبَ طَرِيقٌ إلى النَّارِ.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدي إلى الجنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتَّى يُكْتَبَ عندَ اللهِ صِدِّيقًا، وإنَّ الكَذِبَ يَهْدي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدي إلى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتَّى يُكْتَبَ عندَ اللهِ كَذَّابًا»[3].

والصِّدقُ طُمَأْنينةٌ، وصاحِبُهُ كريمٌ عزيزٌ، والكَذِبُ رِيبةٌ، وَصَاحِبُهُ مَهِينٌ ذليلٌ.

---

(١) الوَكْسُ: النَّقْصُ، وبابُهُ وَعَدَ.
(٢) الشَّطَطُ - بفتحتين -: مُجَاوَزَةُ القَدْرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ.
(٣) رواه البخاريُّ (٦٠٩٤)، ومسلمٌ (٢٦٠٧).

عَنِ الحَسَنِ بْنِ عليٍّ -رضي الله عنه- قَالَ: حَفِظْتُ مِنَ رسولِ اللهِ -ﷺ-: «دَعْ ما يَرِيبُكَ[(١)] إلى ما لاَ يَرِيبُكَ، فإنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنينةٌ، والكَذِبَ رِيبَةٌ»[(٢)].

قَالَ الشَّاعِرُ:

إذا قُلْتُ قولاً كُنْتُ لِلْقَوْلِ فَاعِلاً ▫▪▫ وَكَانَ حَيَائِي كَافِلِي وضَمِينِي

تُبَشِّرُ عَنِّي بالوَفَاءِ بَشَاشَتِي ▫▪▫ ويَنْطِقُ نُورُ الصِّدْقِ فَوْقَ جَبِينِي

والصِّدْقُ - أيضًا - سببٌ من أَسْبَابِ البَرَكَةِ في الأَرْزَاقِ.

عَنْ أَبِي خَالِدٍ حكيمِ بْنِ حِزَامٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -ﷺ-: «البَيِّعَانِ بالخِيارِ ما لم يَتَفَرَّقَا، فإنْ صَدَقَا وبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا في بَيْعِهِمَا، وإنْ كَتَمَا وكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا[(٣)]»[(٤)].

والصِّدْقُ مِنْ أُصُولِ الأَخْلاقِ الَّتي يَتَفَرَّعُ عَنْهَا غَيْرُهَا.

قَالَ الحَارِثُ المحاسبيُّ - يرحمُهُ اللهُ -:

«وَاعْلَمْ - رحمَكَ اللهُ - أنَّ الصِّدْقَ والإِخْلاصَ أَصْلُ كُلِّ حَالٍ، فَمِنَ الصِّدْقِ يَتَشَعَّبُ الصَّبْرُ، والقَنَاعَةُ، والزُّهْدُ، والرِّضَى، وَالأُنْسُ.

وعَنِ الإِخْلاصِ يَتَشَعَّبُ اليقينُ، والخَوْفُ، والمحبَّةُ، والإِجْلالُ، والحَيَاءُ، والتَّعْظِيمُ.

---

(١) ما يَرِيبُكَ: ما تَشُكُّ في حِلِّه.

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٥١٨)، وروى النَّسَائيُّ شَطْرَهُ الأوَّلَ (٥٧١٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/٣٣٧٨).

(٣) مُحِقَتْ بركةُ بَيْعِهما: ذهبتِ البركةُ، ولم يَحْصُلا إلاَّ على التَّعَبِ.

(٤) رواه البخاريُّ (٢٠٧٩) و (٢٠٨٢) و (٢١٠٩) و (٢١١٠) و (٢١١٤)، ومسلمٌ (١٥٣٢).

فالصِّدْقُ في ثلاثة أشياءَ لا تَتِمُّ إلاَّ به: صِدْقُ القَلْبِ بالإيمانِ تحقيقًا، وَصِدْقُ النِّيَّةِ فِي الأَعْمَالِ، وصِدْقُ اللَّفظ في الكلامِ»[1].

قَالَ الشَّاعِرُ:

إنْ يَكُنْ في الكَلامِ صِدْقٌ وكَذِبٌ ▫▪▫ وَلَدَى القَلْبِ سِرُّهُ المَكْنُونُ[2]

فَعلى الصِّدْقِ في العُيُونِ دَلِيلٌ ▫▪▫ وعَلَى الوَجْهِ شَاهِدٌ لا يَمِينُ[3]

وَقَالَ أبو حَاتِمٍ - يرحمهُ اللهُ -:

«إنَّ اللهَ -جلَّ وعلا- فضَّلَ اللِّسانَ علَى سَائِرِ الجَوَارِحِ، وَرَفَعَ دَرَجَتَهُ، وَأَبَانَ فَضِيلَتَهُ بِأَنْ أَنْطَقَهُ - مِنْ بَيْنِ سَائرِ الجَوَارِحِ - بِتَوْحِيدِهِ، فَلا يَجِبُ لِلْعَاقِلِ أنَّ يُعَوِّدَ آلةً خَلَقَهَا اللهُ للنُّطْقِ بِتَوْحِيدِهِ بالكَذِبِ، بَلْ يَجِبُ عليه المداوَمَةُ بِرِعَايَتِه بِلُزُومِ الصِّدْقِ، وَمَا يَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ فِي دَارَيْهِ؛ لأَنَّ اللِّسَانَ يَقْتَضِي مَا عُوِّدَ: إنْ صِدْقًا فَصِدْقًا، وَإِنْ كَذِبًا فَكَذِبًا»[4].

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

عَوِّدْ لِسَانَكَ قَوْلَ الصِّدْقِ تَحْظَ بِهِ ▫▪▫ إنَّ اللِّسَانَ لما عَوَّدْتَ مُعْتَادُ

مُوَكَّلٌ بِتَقَاضِي مَا سَنَنْتَ لَهُ ▫▪▫ في الخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَانْظُرْ كَيْفَ تَرْتَادُ[5]

---

(١) «هداية المسترشدين» (ص١٧٠).

(٢) المَكْنُون: المَسْتُور.

(٣) يَمِينُ: يكْذِبُ، يُقَالُ: مَانَ الرَّجُلُ مَيْنًا فَهُوَ مَائِنٌ وَمَيُونٌ.

(٤) «روضة العقلاء» (ص٥١).

(٥) «أدَبُ الدُّنْيَا والدِّينِ» (ص٢٦٣).

وَقَالَ آخَرُ:

عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ، وَلَوْ أَنَّهُ ■ أَحْرَقَكَ الصِّدْقُ بِنَارِ الوَعِيدْ
وَابْغِ رِضَى اللهِ، فَأَبْغَى[1] الوَرَى[2] ■ مَنْ أَسْخَطَ المَوْلَى، وأَرْضَى العَبِيدْ[3]

وقال آخرُ:

كَمْ من حسيب كريمٍ كان ذا شَرَفٍ ■ قَدْ شَانَهُ الكذبُ وسطَ الحَيِّ إنْ عَمدَا
وآخر كان صُعْلُوكًا[4]، فَشَرَّفَهُ ■ صِدْقُ الحَديثِ، وقولٌ جانبَ الفَنَدَا[5]
فَصَارَ هذا شريفًا فَوْقَ صَاحِبِهِ ■ وصار هذا وَضِيعًا تَحْتَهُ أَبَدَا[6]



---

(١) أَبْغَى: أَظْلَمُ.
(٢) الوَرَى: الخَلْق والنَّاس.
(٣) «جواهر الأدب» (ص٢٤٣).
(٤) صُعْلُوكًا: فقيرًا، جمعه صَعَاليك.
(٥) الفَنَدُ - بفتحتين -: الكَذِبُ.
(٦) «روضة العقلاء» (ص٥٥).

حُسْنُ الظَّنِّ بمَنْ ظاهرُهُ الخيرُ، وَعَدَمُ التَّجسُّسِ عليه

الرَّجلُ صَاحِبُ الأَخْلاقِ الطَّيِّبةِ لا يظنُّ بإخوَانه المُسْلمينَ إلاَّ خيرًا، فهو يَمْتَثِلُ لأمرِ اللهِ القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (سورة الحجرات: ١٢).

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ في قَوْلِه -تعالى-: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾: هو أنْ تَظُنَّ بأهلِ الخير سُوْءًا، فأمَّا أهلُ السُّوءِ والفسوقِ فلنا أنْ نَظُنَّ بهم مِثْلَ الَّذي ظَهَرَ لَنَا.

▪ حُكْمُ سُوءِ الظَّنِّ:

عَدَّ الإمامُ ابنُ حَجَرٍ الهَيْتَمِيُّ سوءَ الظَّنِّ بالمسلم منَ الكَبَائرِ البَاطنَة، وَذَكَرَ أَنَّهُ ممَّا يَجِبُ على المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهَا (الكبيرة الحادية والثَّلاثون)، وقالَ:

«وهذه الْكَبَائرُ ممَّا يَجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهَا؛ ليُعَالِجَ زَوَالَهَا؛ لأَنَّ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مَرَضٌ منها لم يَلْقَ اللهَ - والْعِيَاذُ باللهِ - بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، وهَذه الكَبَائرُ يُذَمُّ العبدُ عليها أعظَمَ ممَّا يُذَمُّ عَلَى الزِّنَى، والسَّرِقَة، وسُوءِ أثرها ودَوَامِه، إذْ أَنَّ آثَارَ هذه رَاسِخَةٌ في القَلْبِ، بِخِلافِ آثَارِ معاصي الجَوَارِحِ فإنَّها سَرِيعَةُ الزَّوَالِ، تَزُولُ بالتَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ، والحَسَنَاتِ الماحيةِ». ونقل عن ابن النَّجَّارِ قولَهُ: «مَنْ أَسَاءَ بأَخيه الظَّنَّ، فَقَدْ أَسَاءَ بربِّه؛ إنَّ اللهَ - تعالى- يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾»[1].

▪ أقسامُ سُوءِ الظَّنِّ:

قَسَّمَ ابنُ حَجَرٍ الهَيْتَمِيُّ - يرحمه الله - سوءَ الظَّنِّ إلى قسمين، كلاهما منَ الكبائر:

---

(١) «الزَّواجر» (ص١١٤).

١ ـ سوء الظَّنِّ بالله:

قال: «وهذا أبلغُ في الذَّنبِ منَ اليَأْسِ والقُنُوطِ (وكلاهما كبيرةٌ)؛ وذلك لأنَّه يَأسٌ وقُنُوطٌ وزيادةٌ لتجويزه على الله -سبحانه وتعالى- بِمَا لا يَليقُ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ».

٢ ـ سوء الظَّنِّ بالمسلمين:

قَالَ: «وهو ـ أيضًا ـ منَ الكَبَائِرِ؛ وَذَلِكَ أنَّ مَنْ حَكَمَ بشرٍّ على غيره بمُجَرَّدِ الظَّنِّ، حَمَلَهُ الشَّيطانُ على احتقاره، وعَدَمِ القيام بحقوقه، والتَّواني في إكرامه، وإطالة اللِّسان في عِرْضِه، وكُلُّ هذه مُهْلِكَاتٌ، وكُلُّ مَنْ رأيْتَهُ سيِّئَ الظَّنِّ بالنَّاسِ، طالبًا لإظهارِ مَعَايِبِهِم ـ فاعْلَمْ أنَّ ذلكَ لخبْثِ باطنه، وسُوءِ طَوِيَّتِه، فَإنَّ المُؤْمِنَ يَطْلُبُ المَعَاذِيرَ لِسَلامَةِ بَاطِنِه، والمُنَافِقَ يطلبُ العُيُوبَ لخُبْثِ بَاطِنِه»[١].

ولقد حذَّرَنا نبيُّنا -ﷺ- من الظَّنِّ السَّيِّئِ بِمَنْ ظاهِرُهُ الخيرُ مِنَ المُسلمينَ، وبيَّنَ لنا أنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديثِ.

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -ﷺ-: **«إيَّاكُمْ والظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديثِ، ولا تَجَسَّسُوا[٢]، ولا تَحَسَّسُوا[٣]»[٤]**.

---

(١) «الزَّواجر» (ص١١٤).

(٢) التَّجسُّسُ المنهيُّ عنه: هو البحثُ عن عُيُوبِ النَّاس، والاطِّلاعُ على عوراتهم، وهذا هو الَّذي نَهَى اللهُ عنه، وحذَّر منه رسولُ الله -ﷺ- كما في حديث أبي هريرةَ هذا، وكما في حديث ابن عبَّاسٍ -رضي الله عنهما- عن النَّبيِّ -ﷺ- قال: «مَنِ استَمَعَ إلى حديثِ قومٍ -وهُمْ له كارهون، أو يَفِرُّونَ منه- صُبَّ في أُذُنِه الآنُكُ -أي الرَّصَاصُ المُذابُ- يومَ القيامة». رواه البخاريُّ (٧٠٤٢). ويُستثنَى مِن التَّجسُّسِ التَّجسسُ على أهلِ الفساد والرِّيَبِ لمنع فسادهم، وكَذلكَ الأعداءُ لقطْعِ دَابِرِهِم، وكَفِّ شَرِّهم. ومثلُهُ سُوءُ الظَّنِّ بِمَنْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عداوةٌ أو شَحْناءُ، ولاسِيَّما بمكائدِهِ ومكْرِهِ فقط؛ لئلاَّ يَمْكُرَ بك، ويُصَادِفَكَ على غِرَّةٍ -أي غَفْلَةٍ- منْكَ.

(٣) الفرقُ بَيْنَ التَّجَسُّسِ وَالتَّحَسُّسِ: أَنَّ التَّجَسُّسَ يكُونُ فِيمَا يَطْلُبُهُ الإنْسَانُ لِنَفْسِهِ مِنْ عُيُوبِ المُسْلِمينَ وعوراتهم، والتَّجسُّس أنْ يَكُونَ رسولاً لغيره.

(٤) رواه البخاريُّ (٥١٤٣) و (٦٠٦٣) و (٦٠٦٦) و (٦٧٢٤)، ومسلمٌ (٢٥٦٣).

قالَ الحافظُ - يرحمه اللهُ -:

«قَالَ الخطَّابِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: وهو تحقيقُ الظَّنِّ وتصديقُهُ دُونَ ما يَهْجِسُ في النَّفْسِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لا يُمْلَكُ.

ومُرَادُ الخطَّابيِّ أنَّ المُحَرَّمَ من الظَّنِّ ما يستمرُّ صاحبُهُ عليه، ويستقرُّ في قَلْبِه، دُونَ ما يَعْرِضُ في القَلْبِ ولا يَستَقِرُّ؛ فَإِنَّ هذا لا يُكَلَّفُ به كَمَا سَبَقَ في حَدِيث: «تَجَاوَزَ اللهُ - تَعَالَى - عَمَّا تَحَدَّثَتْ بِهِ الأُمَّةُ، مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ أو تَعْمَلْ»[1] وَسَبَقَ تَأْوِيلُهُ عَلَى الخَوَاطِرِ الَّتِي لا تَسْتَقِرُّ، قَالَهُ النَّوَوِيُّ»[2].

وقَالَ القُرْطُبِيُّ - يرحمه اللهُ -:

«المُرادُ بالظَّنِّ هُنَا التُّهْمَةُ الَّتي لا سَبَبَ لها: كَمَنْ يتَّهِمُ رَجُلاً بالفَاحِشَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يظهرَ عليه ما يَقْتَضِيه؛ وَلِذَلِكَ عَطَفَ عليه بِقَوْلِه: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾.

وذَلِكَ أَنَّ الشَّخْصَ يقعُ لَهُ خاطرُ التُّهَمَةِ، فَيُرِيدُ أنْ يَتَحَقَّقَ، فَيَتَجَسَّسُ ويبحثُ ويستمعُ، فَنُهِيَ عَنْ ذَلِكَ، وهذا الحديثُ يُوافقُ قَوْلَهُ -تعالى-: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾ (سورة الحجرات: ١٢).

فَدَلَّ سِيَاقُ الآيَة عَلَى الأَمْرِ بِصَوْنِ عِرْضِ المسلمِ غَايَةَ الصِّيَانَة لتَقَدُّمِ النَّهْي عَنِ الخَوْضِ فِيهِ بِالظَّنِّ، فَإِنْ قَالَ الظَّانُّ: أبحثُ لأَتَحَقَّقَ، قِيلَ لَهُ: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾، فإنْ قَالَ: تحقَّقْتُ من غيرِ تجسُّسٍ. قيل له: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾»[3].

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٥٢٨) و(٦٦٦٤)، ومسلمٌ (١٢٧) عن أبي هُريرةَ مرفوعًا.
(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٦/١٠١).
(٣) «فتح الباري» (١٠/٤٩٦).

تَجَنُّبُ الغَضَبِ

الغَضَبُ: نَقِيضُ الرِّضَى، وهو تَغَـيُّرٌ يَحْصُلُ عِنْدَ فَوَرَانِ دَمِ القَلْبِ، لِـيَحْصُلَ عنه التَّشَفِّي في الصَّدْرِ[١].

وَأَسْبَابُ الغَضَبِ: الزَّهْوُ[٢]، والعُجْبُ، والمَزْحُ، والمُمَارَاة[٣]، والمُضَادَّةُ، والغَدْرُ، وشِدَّةُ الحِرْصِ عَلَى فُضُولِ[٤] المالِ والجَاهِ، وهَذِه أَخْلاقٌ رديئةٌ، مذمومةٌ شَرْعًا[٥].

والغَضَبُ مَـدْخَلٌ عَظِيمٌ مِنْ مَدَاخِلِ الشَّـيْطَانِ الكُبْرَى؛ لأنَّ الشَّـيطانَ يلعبُ بالغَضْبانِ كما يلعبُ بالكُرَةِ الصِّبيانُ، وأكبرُ دليلٍ على ذَلِكَ المُشاهَدَةُ بِالْعِيَانِ.

قَالَ أبو حامدٍ الغزاليُّ - يرحمُهُ اللهُ -:

«يَتَـصاعـدُ عندَ شـدَّةِ الغَـضَبِ - مِنْ غَلَيَـانِ دَمِ القَلْبِ - دُخَـانٌ مُظْلِمٌ إلى الدِّماغِ، يستولِي على معَادنِ الفكْرِ، وربَّمَـا يَتَعَدَّى إلى معادنِ الحِسِّ، فَتُظْلِمُ عينُهُ حَتَّى لا يَرَى بِعَـينِه، وتَسْوَدُّ عَلَيْهِ الدُّنيا بأسْـرِهَا، ويكونُ دِمَاغُهُ عَلَى مِـثَالِ كَهْفٍ اضْطرَمَتْ فيه نارٌ، فاسْوَدَّ جَوُّهُ، وحَمِيَ مُسْتَقَرُّهُ، وامتلأتْ بالدُّخَانِ جَوَانِبُهُ، وربَّما تقَوَى نارُ الغَضَبِ، فَتَفْنَى الرُّطُوبَةُ الَّتي بِهَا حَيَاةُ القَلْبِ، فَيمُوتُ صَاحِبُهُ غَيْظًا.

---

(١) «التَّعريفات» (ص١٧٨).
(٢) الزَّهْوُ: الكِبرُ والفَخْرُ.
(٣) المُمَارَاة: المُجَادلة.
(٤) فُضُول: جمعُ فَضْلٍ، وهو ما زاد عن الحاجةِ.
(٥) انظر «منهاج القاصدين» (ص١٨٠).

وَمِنْ آثَارِ هَذَا الغَضَبِ في الظَّاهِرِ تَغَيُّرُ اللَّونِ، وَشِدَّةُ الرِّعْدَةِ فِي الأَطْرَافِ، وخُروجُ الأَفْعَالِ عَنِ التَّرْتِيبِ والنِّظَامِ، وَاضْطِرَابُ الحَرَكَةِ والكَلامِ، حتَّى يَظْهَرَ الزَّبَدُ[(١)] عَلَى الأَشْدَاقِ[(٢)]، وتَحْمَرَّ الأَحْدَاقُ، وتنقلبَ المَنَاخِرُ[(٣)]، وتَسْتَحِيلَ الخِلْقَةُ، ولو رأى الغَضْبَانُ في حَالَةِ غَضَبِهِ قُبْحَ صُورَتِه، لَسكَنَ غَضَبُهُ حياءً من قُبْحِ صُورتِهِ، واستحالةِ خِلْقَتِهِ، وقُبْحُ باطِنِهِ أَعْظَمُ من قُبْحِ ظَاهِرِهِ؛ فإنَّ الظَّاهِرَ عُنْوانُ الباطِنِ، فَهَذَا أَثَرُهُ في الجَسَدِ.

وأمَّا أثرُهُ في اللِّسان فانطلاقُهُ بالشَّتْمِ والفُحْشِ مِنَ الكَلامِ الَّذي يستحيي منه ذُو العَقْلِ، ويَسْتحِي منه قَائِلُهُ عِنْدَ فُتُورِ الغَضَبِ، وَذَلِكَ مَعَ تَخَبُّطِ النَّظْمِ، واضْطِرَابِ اللَّفْظِ.

وَأَمَّا أَثَرُهُ على الأَعْضَاءِ فالضَّرْبُ، والتَّهَجُّمُ، والتَّمزيقُ، والقَتْلُ، والجَرْحُ عِنْدَ التَّمكُّنِ مِنْ غَيْرِ مُبَالاةٍ، فَإِنْ هَرَبَ منه المَغْضُوبُ عَلَيْه، أَوْ فَاتَهُ بسببٍ وعَجَزَ عن التَّشفِّي - رَجَعَ الغَضَبُ على صَاحِبِه، فَمَزَّقَ ثَوْبَ نَفْسِه، ويَلْطُمُ نَفْسَهُ، وَقَدْ يَضْرِبُ بِيَدِهِ عَلَى الأَرْضِ، وَرُبَّمَا يَضْرِبُ الجَمَادات، ويَتَعَاطَى أَفْعَالَ المَجَانِينَ.

أَمَّا أَثَرُهُ في القَلْبِ مَعَ المَغْضُوبِ عَلَيْه فالحِقْدُ، والحَسَدُ، وَإِضْمَارُ السُّوءِ، والشَّمَاتَةُ بِالمسَاءَاتِ، والحُزْنُ بالسُّرُورِ، والعَزْمُ عَلَى إِفْشَاءِ السِّرِّ، وهَتْكِ السِّتْرِ، والاستِهْزَاءُ، وغيرُ ذلكَ مِنَ القَبَائِحِ» اهـ ملخصًا[(٤)].

(١) الزَّبَدُ: الرَّغْوَةُ.
(٢) الأشْدَاق: جمعُ شِدْقٍ، وهو زاويةُ الفَمِ مِمَّا تحتَ الخَدِّ.
(٣) المناخر: جمعُ مَنْخِرٍ - بفتح الميم وقد تُكْسَرُ إِتْبَاعًا لكسرة الخاء - وَهُوَ ثَقْبُ الأَنْف.
(٤) «الإحياء» (٣/ ١٦٤).

وكُلَّما فَتَـرَ غَضَبُ الإنْسَانُ وسكَنَ، أثَارَهُ الشَّيطانُ بمثل قوله: هُوَ مُـسْتَهْزِئٌ بك، لابُدَّ أنْ تنتَقِمَ منه، وغـير ذلك ممَّا يُثيـرُ الغَضَبَ، ويُؤَجِّجُ نَارَهُ، وَمِنْ هُنَا يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ الأَرِيب[1] الحازم أنْ يَغْلِبَ شَـيْطَانَهُ، ويكظِمَ غَيْظَـهُ، ويلتمِسَ العُذْرَ لأخيه.

عن أنسٍ -رضي الله عنه- أنَّ النَّبيَّ -عليه السلام- مَرَّ عـلى قومٍ يصطرعونَ، فَـقَالَ: «ما هذا؟» قَالوا: «فلانٌ ما يصارعُ أحداً إلاَّ صَرَعَهُ!». قال: «أفلا أدُلُّكم على مَنْ هو أشدُّ منه؟ رجلٌ كلمهُ رجلٌ، فكظم غَيْظَهُ، فَغَلَبَهُ وغَلَبَ شيطانَهُ، وغَلَبَ شيطانَ صاحبِهِ»[2].

والغَضَبُ يجمع الشَّرَّ كُلَّهُ.

فَـعَنْ أبي هُرَيرَةَ -رضي الله عنه- أنَّ رَجُلاً قَـالَ للنَّبيِّ -عليه السلام-: «أَوْصِنِي». قَـالَ: «لا تَغْضَبْ». فردَّدَ مِرَارًا، قال: «لاتَغْضَبْ»[3].

زَادَ أحمدُ في رواية: قَالَ الرَّجلُ: «ففكَّرتُ حين قَالَ النَّبيُّ - ﷺ - ما قَالَ، فإذا الغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ»[4].

والغَضَبُ - إذا كَـانَ بغيرِ حَقٍّ - مِنْ أَخْلاقِ النَّاقِـصِينَ الَّذِينَ لا يقدرونَ على ضَبْطِ أعصابهم تُجَاهَ انفعالاتِهِم العجولةِ.

قَالَ صَاحِبُ «الإِحْياء»: «مِـمَّا يدلُّ عَلَى أنَّ الغَضَبَ مِنْ أخلاق النَّاقصينَ أنَّ المريضَ أَسرعُ غَضَبًا من الصَّحيحِ، والمرأةَ أسرعُ غضبًا مِنَ الرَّجُلِ، والصَّبيَّ أَسْرَعُ غَضبًا مِنَ الرَّجُلِ الكَبِيرِ، والشَّيخَ الـضَّعيفَ أَسْرَعُ غَضبًا مِنَ الكَهْلِ ، وذَا الخُلُقِ

---

(١) الأريب: العَاقِلُ.
(٢) رواه البزَّارُ، وقال الحافظُ في «الفتح» (١٠/ ٥١٩): سَنَدُهُ حَسَنٌ.
(٣) رواه البخاريُّ (٦١١٦).
(٤) «مسند أحمد» (٥/ ٣٧٣) بسندٍ صحيحٍ.

السَّيِّئ والرَّذَائِلِ القَبِيحَة أَسْرَعُ غَضَبًا مِنْ صَاحِبِ الفَضَائِلِ، فَالرَّذْلُ[١] يغضبُ لِشَهْوَتِه إِذَا فَاتَتْهُ اللُّقْمَةُ، ولِبُخْلِه إِذَا فَاتَتْهُ الحَبَّةُ، حتَّى إِنَّه يغضَبُ على أهلِه، وولَدِه، وأَصْحَابِه، بَلِ القَوِيُّ مَنْ يَمْلِكُ نفسَهُ عندَ الغَضَبِ»[٢].

▪ علاجُ الغَضَبِ وتَسْكِينُهُ:

يُعالَجُ الغَضَبُ إذا هَاجَ بِأُمورٍ ذَكَرَهَا العُلَمَاءُ[٣]، منها:

١ - أنْ يذكرَ اللهَ - عزَّ وجلَّ -، فيدعوه ذلك إلى الخوفِ منْهُ، وَيَبْعَثُهُ الخَوْفُ منه إلى الطَّاعَةِ له، فَعِنْدَ ذلكَ يزولُ الغَضَبُ.

قَالَ اللهُ - تعالى -: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ (سورة الكهف: ٢٤).

قَالَ عِكْرِمَةُ: يعني إذا غَضِبْتَ.

وقَالَ اللهُ -تعالى-: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠٠-٢٠١).

ومعنى قوله: ﴿ يَنزَغَنَّكَ ﴾ أي: يُغْضِبَنَّكَ. وقولُهُ: ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يعني: أنَّه سميعٌ بجَهْلِ مَنْ جَهِلَ، عليمٌ بما يُذْهِبُ عنك الغَضَبَ.

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ -رضي الله عنه- قَالَ: **اسْتَبَّ رَجُلانِ عندَ النَّبِيِّ - ﷺ -، فَجَعَلَ أَحَدُهما يَغْضَبُ، وَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ، وتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُ[٤]، فَنَظَرَ إليه النَّبِيُّ - ﷺ - فَقَالَ:** «إنِّي

---

(١) الرَّذْلُ: الدُّونُ الخَسِيسُ، وبابُهُ ظَرُفَ، والجَمْعُ رُذُولٌ، وأَرْذَالٌ، ورُذَلاءُ.

(٢) «الإحياء» (٣/١٦٨) بتصرُّف.

(٣) انظر «أدب الدُّنيا والدِّين» (٢٥٨ - ٢٦٠)، و«الإحياء» (٣/١٦٩ - ١٧٠)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص١٨٠ - ١٨١)، و«نظرة النعيم» (١١/٥٠٧٨).

(٤) الأَوْدَاج: جمع وَدَجٍ - بفتحتين -، وهو عِرْقٌ في العُنُقِ، وهُمَا وَدَجَانِ.

لأعلَمُ كلمةً لو قالها لَذَهَبَ عنه ما يَجِدُ: أَعُوذُ باللهِ منَ الشَّيطانِ الرَّجيم». فقامَ إلى الرَّجلِ رجلٌ مِمَّنْ سَمِعَ النَّبيَّ -ﷺ-، فقال: «هل تَدْري ما قال رسولُ الله -ﷺ- آنفًا[(١)]؟». قال: «لا». قال: «إنِّي لأعلمُ كلمةً لو قالها لذَهَبَ عنه ما يَجِدُ: أَعُوذُ باللهِ منَ الشَّيطانِ الرَّجيم». فقال الرَّجلُ: «أَمَجْنُونٌ تَرَاني؟!»[(٢)].

وقوله: ﴿طَائِفٌ﴾ فسَّره بَعْضُهم بالغَضَب. وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي: عقابَ الله، وجزيلَ ثَوَابِه ووَعْدَهُ.

رُوِيَ أنَّ عَبْدَ الله بن مُسْلِم بن محارب قالَ لهارونَ الرَّشيد: «يا أميرَ المؤمنينَ، أسألُكَ بالَّذي أنت بَيْنَ يَدَيْه أَذَلُّ منِّي بَيْنَ يَدَيْكَ، وبالَّذي هُوَ أقدرُ على عقَابِكَ منْكَ على عقَابِي- لما عَفَوْتَ عَنِّي» فَعَفَا عنه لما ذكَّره قُدْرَةَ الله -تعالى-.

فيا أخي، قُدْرَةُ الله أعظمُ منْ قُدْرَة عبَاده، فَلَوْ أَمْضَيْتَ غَضَبَكَ على أَخيكَ، لَمْ تَأْمَنْ أنْ يُمْضي اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- غَضَبَهُ عَلَيْكَ يَوْمَ القيَامَة، فَأَنْتَ أحوجُ ما تكونُ إلى العَفْو.

٢- أنْ يتحوَّلَ من الحالِ الَّتي كان عليها، فإنْ كان قائمًا جَلَسَ، وإنْ كان جالسًا اضْطَجَعَ.

عَنْ أبي ذَرٍّ -رضي الله عنه- قَالَ: إنَّ رسولَ الله -ﷺ- قَالَ لنا: «إذا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وهو قائمٌ فَلْيَجْلِسْ، فإنْ ذَهَبَ عنه الغَضَبُ، وإلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ»[(٣)].

٣- أنْ يتفكَّرَ في الأخبارِ الواردَةِ في فَضْلِ كَظْمِ الغيظِ، والعَفْوِ، والحلْمِ، والاحتمالِ، فيرغب في ثوابِ ذلك، فتمنعه شدَّةُ الحرْصِ على ثوابِ هذهِ الفضائلِ عَنِ التَّشَفِّي والانتقامِ، ويَنْطفئ عنه غَيْظُهُ.

---

(١) آنفًا: سالفًا.

(٢) رواه البخاريُّ (٣٢٨٢) و (٦٠٤٨) و (٦١١٥)، ومسلمٌ (٢٦١٠).

(٣) رواه أَحْمَد (٥/ ١٥٢)، وأبو داودَ (٤٧٨٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٦٩٤).

وقد سبقَ ذكرُ بعض تلك الأخبار في باب الحِلْم، ونَذْكُرُ منها هنا الآتي:

قَالَ اللهُ - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (سورة الشورى: ٣٧).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قالَ: قَالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «ما مِنْ جُرْعَةٍ أعظمُ أَجْرًا عندَ اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ، كَظَمَهَا عَبْدٌ ابتغاءَ وَجْهِ اللهِ»[١].

٤ - أنْ يَسْكُتَ؛ لأنَّهُ يكونُ في هذه الحالةِ أقربَ إلى الخَطَإ، فالسُّكوتُ أَسْلَمُ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «إذا غَضِبَ أحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ»[٢].

٥ - أنْ يعلمَ أنَّ القُوَّةَ الحقيقيَّةَ هي التَّحَكُّمُ في النَّفْسِ عندَ الغَضَبِ.

عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أنَّ رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «ليس الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ[٣]، إنَّما الشَّديدُ الَّذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عندَ الغَضَبِ»[٤].

٦ - أنْ يعلمَ أنَّ غَضَبَهُ إنَّما كان من شيءٍ جَرَى على وَفْقِ مُراد الله - سبحانه وتعالى - لا على وَفْقِ مُرادِهِ، فكيْفَ يكونُ مُرَادُ نَفْسِهِ أَوْلَى من مُرَادِ اللهِ - سبحانه وتعالى -؟!.

٧ - أنْ يتذَكَّرَ أنَّ الشَّيطانَ هو الدَّافعُ له، والمعينُ عليه.

أَسْمَعَ رجلٌ عُمَرَ بْنَ عبدِ العزيزِ كلامًا، فَقَالَ عُمَرُ: «**أَرَدْتَ أنْ يستفزَّني الشيطانُ لعزَّةِ السُّلطَانِ، فأنالُ منكَ اليومَ ما تنالَهُ منِّي غداً، انصرفْ رَحِمَكَ اللهُ!**».

---

(١) رواه ابْنُ ماجَة (٤١٨٩)، وفي «الزَّوائد»: إسنادُهُ صحيحٌ، ورجَالُهُ ثِقَاتٌ.

(٢) رواه أحمدُ في «المسند» عن ابن عبَّاسٍ، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» عن أبي هُرَيرةَ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٦٩٣)، و«الصَّحيحة» (١٣٧٥).

(٣) الصُّرَعَة - بفتح الرَّاء -: الذي يَصْرَعُ النَّاسَ ويغلبُهُمْ. والصُّرْعَة - بسكون الرَّاء -: الضَّعيفُ الذي يَصْرَعُهُ النَّاسُ ويغلبونه.

(٤) رواه البخاريُّ (٦١١٤)، ومسلمٌ (٢٦٠٩).

٨ـ أنْ يتذكَّرَ ما يَئُوْلُ إليه الغَضَبُ منَ النَّدمِ، ومَذَمَّةِ الانتقامِ، فإنَّه إنْ كان فيه رغوةُ العِزَّةِ، لكنَّها لا تَلْبَثُ حتَّى تُفْضي بصاحبِها إلى ذُلِّ الاعتذارِ، كما قيل:

وإذا ما اعْتَرَتْكَ في الغَضَبِ العِزْ ... زَةُ، فاذْكُرْ تَذَلُّلَ الاعْتِذَارِ

٩ ـ أنْ يُحَذِّرَ نَفْسَهُ عَاقِبَةَ العَدَاوَةِ والانتقامِ، وتشميرِ العدوِّ في هَدْمِ أَعْرَاضِهِ، والشَّمَاتَةِ بِمَصَائِبِهِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ لا يخلو منَ المَصَائِبِ، وهذا ما يُعْرَفُ بِتَسْلِيطِ شَهْوَةٍ على غَضَبٍ، ولا ثوابَ عَلَيْهِ، إلاَّ أَنْ يَكُونَ خائفًا منْ أنْ يَتَغَيَّرَ عليه أمرٌ يُعِينُهُ على الآخِرَةِ، فَيُثَابُ على ذَلِكَ.

١٠ ـ أنْ يتذكَّرَ أَنَّ القلوبَ تنحرفُ عنه، وتحذرُ القُرْبَ منه، فيبتعد الخَلْقُ عنه، فيبقى وحيداً فريداً، فإنَّ ذلك جديرٌ بصَرْفِ الغَضَبِ عَنْهُ.

وحيداً منَ الخُلاَّنِ في كُلِّ بَلْدَةٍ ... إذا عَظُمَ المَطْلُوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ

١١ ـ أنْ يتفكَّرَ في قُبْحِ صُورَتِهِ عِنْدَ الغَضَبِ، وأنَّه يُشْبِهُ حينئذٍ الكَلْبَ الضَّارِيَ[1]، والسَّبُعَ[2] العادِيَ، وأنَّه أبعدُ ما يكونُ مجانبةً لأخلاقِ الأنبياءِ، والعلماءِ، والفُضَلاءِ في أخلاقِهِمْ.

١٢ ـ أنْ يذْكُرَ انعطافَ القلوبِ عليه، ومَيْلَ النُّفُوسِ إليه، فلا يَرَى إضاعَةَ ذلكَ بتنفيرِ النَّاسِ منه، فَيَرْغَبُ في التَّأَلُّفِ وجميلِ الثَّناءِ، وَيَكُفُّ عن مُتَابَعَةِ الغَضَبِ.

---

(١) الضَّاري: المتوحِّش المُتعوِّدُ عَلَى الصَّيْد.

(٢) السَّبُع ـ بضمِّ الباء ـ: كُلُّ حيوانٍ مُفْتَرِسٍ، والجَمْعُ سِبَاعٌ، وأَسْبُعٌ، وَسُبُوعٌ.

■ **أقسامُ الغضب:**

الغَضَبُ ضَرْبانِ: غضبٌ للنَّفْسِ، وغَضَبٌ للهِ - جلَّ وعلا -.

فأمَّا الأوَّلُ فهو مذمومٌ، وقد تقدَّمَ بيانُهُ، وأمَّا الثَّاني فهو محمودٌ، بل مندوبٌ إليه.

عن عَائشَةَ - رضي الله عنها - قالتْ: **«ما انْتَقَمَ رسولُ اللهِ - ﷺ - لنفسِهِ في شيْءٍ قَطُّ، إلاَّ أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ بها للهِ»** [(١)].

فكَانَ - عليه الصلاة والسلام - إذا ما رأى مُخَالفةً شرعيَّةً غَضِبَ، واحْمَرَّ وَجْهُهُ، ولم يَسْكُتْ حتَّى يُغيِّرَها.

فعن عَائشَةَ ـ أيضًا ـ قالتْ: **قَدِمَ رسولُ اللهِ - ﷺ - من سَفَرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً** [(٢)] **لي بِقِرَامٍ** [(٣)] **فيه تَمَاثِيلُ، فلمَّا رآه رسولُ اللهِ - ﷺ - هَتَكَهُ** [(٤)]**، وتَلَوَّنَ وَجْهُهُ، وقال: «يا عائشةُ، أشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عندَ اللهِ يومَ القيامةِ الَّذِيْنَ يُضَاهُونَ** [(٥)] **بِخَلْقِ اللهِ».** قالتْ: **«فقطعْنَاه، فجعلْنَا منه وِسَادَةً أو وِسَادَتَيْنِ»** [(٦)].

وعن عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ: **بَيْنَا النَّبِيُّ - ﷺ - يُصلِّي، رأى في قِبْلَةِ المسْجِدِ نُخَامةً، فَحَكَّها بيدِهِ، فَتَغَيَّظَ، ثُمَّ قال: «إنَّ أحَدَكُمْ إذا كان في الصَّلاةِ، فإنَّ اللهَ حِيَالَ** [(٧)] **وَجْهِهِ؛ فلا يَتَنَخَّمَنَّ حِيَالَ وَجْهِهِ في الصَّلاةِ»** [(٨)].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٥٦٠) و(٦١٢٦) و(٦٧٨٦) و(٦٨٥٣)، ومسلمٌ (٢٣٢٧).
(٢) سَهْوَةً: رَفًّا ذو طاقة.
(٣) القِرَامُ: ستَارٌ رقيقٌ.
(٤) هَتَكَهُ: خَرَقَهُ وأفْسَدَ الصُّورةَ الَّتي فيه، وبَابُهُ ضَرَبَ.
(٥) يُضَاهُون: يُشَابِهُون، ويُشَاكِلونَ.
(٦) رواه البخاريُّ (٢٤٧٩) و(٥٩٥٤) و(٥٩٥٥) و(٦١٠٩)، ومسلمٌ (٢١٠٦).
(٧) حِيَالَ: قِبَلَ.
(٨) رواه البخاريُّ (٤٠٦) و(٧٥٣) و(١٢١٣) و(٦١١١)، ومسلمٌ (٥٤٧).

تجنُّبُ الحقْدِ

الحِقْدُ: هو طَلَبُ الانتقـامِ، وتحقيقـه: أنَّ الغَضَبَ إذا لَزِمَ كَظْمُهُ لعَـجْزٍ عَنِ التَّشفِّي في الحالِ، رَجَعَ إلى البَاطِنِ، واحْتَقَنَ فيه، فَصَارَ حِقْدًا[١].

وَقِيلَ: «هو سوءُ الظَّنِّ في القَلْبِ على الخَلائِقِ لأَجْلِ العَدَاوَةِ»[٢].

وقَالَ الجَاحِظُ: «الحِقْدُ: هو إضْمَارُ الشَّـرِّ للجاني، إذا لم يَتَمكَّنْ مِنَ الانتقامِ منه، فأخفى ذلك الاعتقادَ إلى وَقْتِ إمكانِ الفُرْصَةِ»[٣].

■ سببُ الحِقْدِ:

قَالَ الغَزَالِيُّ - يرحمه اللهُ -:

«إِنَّ مَنْ آذَاهُ شَـخْصٌ بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْـبَابِ، وخَـالَفَهُ في غَـرَضِهِ بِوَجْـهٍ مِنَ الوُجُوهِ ـ أَبْغَضَـهُ قَلْبُهُ، وغَضِبَ عَلَيْهِ، ورسخَ في نَفْـسِهِ الحِقْدُ، والحِقْـدُ يقتضي التَّشَفِّي والانتقامَ، فَإِنْ عَجَزَ المُبْـغِضُ عَنْ أَنْ يَتَشَفَّى بِنَفْسِهِ، أَحَبَّ أنْ يَتَشَفَّى منهُ الزَّمانُ»[٤].

---

(١) «التَّعريفات» (ص٩٥).
(٢) المرجع السَّابق (ص٩٦).
(٣) «تهذيب الأخلاق» (ص٣٣).
(٤) «الإحياء» (٣/ ١٨٩).

حُكْمُ الحِقْدِ:

ذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ الهيثميُّ الحِقْدَ مع كُلٍّ مِنَ الغَضَبِ بالباطلِ والحَسَدِ، على أنَّها جَميعًا مِنْ كَبَائرِ الباطنِ، وَعَلَّلَ جَمْعَهُ لهَذِه الكبَائرِ الثَّلاث بقوله: «لَمَّا كانتْ بمنزلةِ خَصْلَةٍ واحدة، وذَمُّ كُلٍّ يَسْتَلْزِمُ ذَمَّ الآخرِ؛ لأنَّ الفَرْعَ وفَرْعَهُ يستلزمُ ذمَّ الأَصْلِ وأَصْلِه، وبالعَكْسِ»[(١)].

وَسَلامَةُ الصَّدْرِ مِنَ الحِقْدِ والحَسَدِ هي الصِّفَةُ البَارِزَةُ في حياةِ الصَّحَابَةِ، والخَلَّةُ العظيمةُ الَّتي رفعتْ مِنْ أَقْدَارِهِمْ، فَقَدْ أَشَارَ النَّبيُّ -ﷺ- إلى أحَدِ الصَّحَابَةِ - ثلاثًا - إلى أنَّه من أهْلِ الجنَّةِ، فذهبَ إليه عبدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ -رضي الله عنهما-، وبَاتَ عندَه ثلاثَ ليالٍ؛ كي ينظرَ ما هُوَ العملُ الَّذي بَلَغَ بِهِ إلَى هَذِهِ المنزلَةِ، فَلَمْ يَرَهُ فَعَلَ كَبِيرَ عَمَلٍ، فَعَجِبَ عبدُ الله مِنْ حَالِه، وسَأَلَهُ: «مَا الَّذي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ الله -ﷺ-؟!».

فَقَالَ الرَّجُلُ: «مَا هُوَ إلاَّ مَا رأيْتَ، غَيْرَ أنِّي لا أَجِدُ في نَفْسِي لأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمينَ غِشًّا، ولا أَحْسُدُ أَحَدًا على خيرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إيَّاهُ».

فَقَالَ عبدُ الله: «هذا الَّذي بَلَغَ بِكَ، وهي الَّتي لا أُطيقُ؟!»[(٢)].

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ دينارٍ لأبي بشيرٍ (وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ بن أبي طَالب -رضي الله عنه-): «أَخْبِرْني عَنْ أَعْمَالِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا». قَالَ: «كَانُوا يعملون يسيراً، ويُؤْجَرُون كثيراً». فَقَالَ سُفْيانُ: «وَلِمَ ذلك؟!». قَالَ: «لسَلامةِ صُدُوْرِهِمْ!»[(٣)].

---

(١) «الزَّواجر» (١/ ٥٢).
(٢) رواه أحمدُ في «المسند» بإسناد صحيح (٣/ ١٦٦).
(٣) رواه هَنَّاد في «الزُّهْد» (٢/ ٦٠٠).

قالَ المُقَنَّعُ الكِنْدِيُّ وهُوَ مُحَمَّدُ بنُ عُميرة:

إنَّ الذي بَيْني وبَيْنَ بَني أَبي ▪ وبَيْنَ بَني عَمِّي ـ لَمُخْتَلِفٌ جِداً
إذا أَكَلُوا لحَمْي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ▪ وإنْ هَتَكُوا مَجْدي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدا
ولا أحْمِلُ الحِقْدَ القَديمَ عَلَيْهِمُ ▪ وليس رَئيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدا

وقال آخر:

إنَّ في النَّفسِ بغْضَةً لأُناسٍ ▪ أَصْلِحَنِّي وَحَبِّبَنْهُمْ إلَيَّا
واغْسِلِ الحِقْدَ والهَوَى مِنْ فُؤَادِي ▪ واجْعَلَنِّي لكُلِّ حقٍّ وَلِيَّا

والحِقْدُ إذَا لَمْ يُعالَجْ قد يُفْضي إلى العَدَاوةِ، ما من ذلك بُدٌّ، كما قيلَ:

بَني عَمِّنا، إنَّ العَداوةَ شَأْنُها ▪ ضَغَائِنُ[1] تَبْقَى في نُفُوسِ الأقَارِبِ

■ علاجُ الحقْد:

والعِلاجُ الأَنْجَحُ يستلزمُ مِنَ المحقودِ عَلَيْه ـ إنْ كَانَ عَادِياً ـ أنْ يُقْلِعَ عَنْ غيِّه، ويُصْلِحَ سيرَتَهُ، وأنْ يَعْلَمَ أنَّهُ لَنْ يُستَلَّ الحِقْدُ مِنْ قَلْبِ صَاحِبِهِ إلاَّ إذَا عَادَ عليه بما يُطَمْئِنُهُ ويُرْضِيهِ، وعليه أنْ يُصْلِحَ مِنْ شَأْنِه، ويُطَيِّبَ خَاطِرَهُ، وَعَلَى الطَّرَفِ الآخَرِ أنْ يَلينَ ويسمعَ، ويتقبَّلَ العُذْرَ، وبِهَذَا تَمُوتُ الأَحْقَادُ، وتَحِلُّ المحبَّةُ والأُلْفَةُ[2].

(١) ضَغَائِن: جمعُ ضَغينة، وهي الحِقْدُ.
(٢) انظر «نظرة النَّعيم» (١٠/ ٤٤٣٢).

قَالَ العلاءُ بْنُ الحَضْرَمِيّ:

وحَيٍّ ذَوِي الأَضْـغَـانِ تَسْبِ قُلُوبَهُم ▫▪▫ تَحِيَّتَكَ القُرْبَى، فقَدْ تُرْقَعُ النَّعَلْ
فإنْ دَحَسُوا[1] بالكُرْهِ فَاعْفُ تَكَرُّمًا ▫▪▫ وإنْ خَنَسُوا[2] عَنْكَ الحديثَ فلا تَسَلْ
فَإنَّ الذي يُؤْذِيْكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ ▫▪▫ وإنَّ الذي قَالُوا وَرَاءَكَ لم يُقَلْ[3]

والحِقْدُ مَهْمَا بَلَغَ صَاحِبُهُ في إخْفَائِه، فَلابُدَّ أنْ يَظْهَرَ؛ فالعيونُ ـ كَمَا قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ مغاريفُ القلوبِ، بها يُعرفُ ما في القلوبِ، وإنْ لم يتكلَّمْ صاحبُها.

وللهِ درُّ القائلِ:

إنَّ العُيُونَ لَتُبْدِي في نَوَاظِرِها ▫▪▫ ما في القُلُوبِ مِنَ البَغْضَاءِ والإِحَنِ[4]

وقالَ آخرُ ـ وأحسنَ ـ:

العَيْنُ تُبْدِي الذي في قَلْبِ صاحِبِهَا ▫▪▫ مِنَ الشَّنَاءَةِ[5]، أو حُبٍّ إذا كَانَا
إنَّ البَغِيْضَ له عَيْنٌ يُصَدِّقُهَا ▫▪▫ لا يستطيعُ لِمَا في القَلْبِ كِتْمَانَا
فَالعَيْنُ تَنْطِقُ والأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ ▫▪▫ حتَّى تَرَى مِنْ صَمِيْمِ القَلْبِ تِبْيَانا

وَكَمَا يظهرُ على العُيُونِ، فهو يظهرُ على صَفَحَاتِ الوَجْهِ، وفَلَتَاتِ اللِّسَانِ، كَمَا قَالَ عُثْمانُ ـ رضي الله عنه ـ: «مَا أَسَرَّ أحَدٌ سَرِيرةً إلاَّ أَظْهَرَهَا اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على صَفَحَاتِ وَجْهِهِ، وفَلَتَاتِ لِسَانِه»[6].

(١) دحس بين القوم: أَفْسَدَ بينهم.
(٢) خَنَسُوا: أَخْفُوا.
(٣) «عُيُونُ الأَخْبَارِ» (٢/ ٤١٥).
(٤) الإِحَن: جمعُ إِحْنَة، وهي الحِقْدُ.
(٥) الشَّنَاءَة: الكُرْه والبُغْض.
(٦) «الآداب الشرعيَّة» (١/ ١٣٦).

وَقَـالَ ابنُ عقـيلٍ - يرحمـه اللهُ -: «للإيمانِ رَوَائحُ ولَوَائِحُ لا تخـفى على اطِّلاعِ مُكَلَّفٍ، وَذَلِكَ بالتَّلَمُّحِ للمُتَفَرِّسِ، وقَلَّ أنْ يُضْمِـرَ شيْئًا إلاَّ أَظْهَرَهَا الزَّمَانُ عَلَى فَلَتَاتِ لِسَانِه، وَصَفَحَاتِ وَجْهِه»(١).

وما أجملَ ما قالَه عَمْرُو بن كُلْثُوم:

وإنَّ الضِّغْنَ(٢) بَعْدَ الضِّغْنِ يَفْشُو ▫▪▫ عَلَيْكَ ويُخْـرِجُ الداءَ الدَّفِـيْنَا(٣)

ولا يَحْمِلُ الحِقْدَ إلاَّ دَنِيْءُ الهمَّةِ، مَهِيْنُ النَّفْسِ، ولَنْ تجدَ عاليَ الهِمَّةِ، عزيزَ النَّفسِ، كَرِيمَ السَّجَايا، عريقَ الأَصْلِ - يحملُ الحـقدَ في نَفْسِه، حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ، وإذا وجَدْتَ حَقُودًا بهَذِه الصِّفَاتِ، فَاعْلَمْ أنَّهُ لا يَنْبُلُ ولا يَسُودُ.

قَالَ شَاعِرُ الدُّنيا وشاغِلُ النَّاسِ أبو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:

لا يَحْمِلُ الحِقْدَ مَنْ تَعْلُو بِهِ الرُّتَبُ ▫▪▫ ولاَ يَنَالُ العُلَى مَنْ طَبْعُـهُ الغَضَبُ



(١) المرجع السَّابق.
(٢) الضِّغْن - بالكسر -: الحِقْدُ، وبابُهُ فرح، والجمعُ: أَضْغَانٌ.
(٣) «تفسير القُرْطُبيِّ» (١٦/ ٢٥١).

تَجَنُّبُ الحَسَدِ

الحسدُ: هو تَمَنِّي زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنِ المُنْعَمِ عليـه، وهوَ مَرَضٌ نَفْسِيٌّ، لا يَكَادُ يَسْلَمُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَلِهَـذا قِيلَ: «مَا خَلاَ جَـسَدٌ مِنْ حَسَـدٍ، ولَكِن اللَّئِـيم يُبْدِيـه، والكَرِيمُ يُخْفِيه»[(١)].

وقيلَ لِلْـحَسَـنِ البَصْــرِيِّ: «أَيَحْسُـدُ المؤمـنُ؟». فَـقَالَ: «ما أَنْـسَاكَ إِخـوَةَ يُوسُفَ - عليه السلام -؟!، لا أَبَا لَكَ، ولكن عَمِّهِ في صَـدْرِكَ، فَإِنَّهُ لا يَضُرُّكَ، مَا لَمْ تَعْدُ به يداً ولِسَانًا»[(٢)].

والحَسَدُ خُلُقٌ ذميمٌ، ناهيكَ به شراً، فَـهُوَ أَوَّلُ ذَنبٍ عُصِيَ اللهُ به في السَّمَاء، وأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ في الأَرْضِ، فـفـي السَّمـاء حَـسَـدَ عَـدُوُّ الله إبليـسُ أبانـا آدمَ - عليه السلام -، وفي الأَرْضِ حَسَدَ ابنُ آدمَ قَابيلُ أَخَاهُ هَابِيلَ حتَّى قتلَهُ!.

■ أسبابُ الحَسَدِ:

قَالَ الماورديُّ - يرحمه الله -:

«واعلمْ أنَّ دواعِيَ الحَسَدِ ثلاثةٌ:

أحَدُها - بُغْضُ المحسودِ، فَيَأْسَى عليه بفضيلةٍ تَظْهَرُ، أو مَنْقَبَةٍ[(٣)] تُشْكَرُ، فيثيرُ حَسَدًا قد خامَرَ بُغْضًا.

وهذا النَّوعُ لا يكونُ عاماً -وإنْ كانَ أَضرَّهَا-؛ لأنَّه ليسَ يبغضُ كُلَّ النَّاسِ.

---

(١) و(٢) «مكارم الأخلاق» لابن تيميَّة (ص٢٤٧).
(٣) مَنْقَبَة: فضيلة، والجمعُ مَنَاقِبُ.

والثَّاني - أنْ يظهـرَ منَ المحسـود فَـضْلٌ يَعْجـزُ عَنْهُ، فَيَـكْرَهُ تقدُّمَـهُ فيـه، وَاخْتِصَاصَهُ بِهِ، فَيُثِيرُ ذَلِكَ حَسَدًا، لَوْلاهُ لَكَفَّ عنه.

وهذا أوسطها؛ لأَنَّهُ لا يَحْسُدُ الأَكْفَاءَ[1] مَنْ دَنَا، وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ بِحَسَدِ مَنْ عَلاَ، وقَدْ يَمتَزِجُ بِهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْمُنافَسَةِ، ولَكِنَّهَا مَعَ عَجْزٍ؛ فلذلك صارتْ حَسَدًا.

والثَّالث - أنْ يكُونَ في الحَاسِـدِ شُحٌّ بالفضَائِلِ، وبُخْلٌ بالنِّعَم، وليـستْ إليه فَيَمْنَعَ منها، ولا بيده فَيَدْفَعَ عنها، لأنَّها مواهبُ قَدْ مَنَحَهَا اللهُ مَنْ شَاءَ، فَيَسْخَطُ على اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - في قَضَائِه، ويَحْـسُدُ على مَا مَنَحَ مِنْ عَطَائِه، وَإِنْ كَانَتْ نِعَمُ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عندَهُ أكثرَ، ومنحُهُ عليه أظهرَ.

وهذا النَّوعُ مِنَ الحَسَد أَعَمُّـهَا وَأَخْبَثُهَا، إذْ لَيْسَ لصَاحِـبِهِ رَاحَةٌ، وَلا لرضَاه غَايَةٌ، فَإِن اقـتَرَنَ بِشَرٍّ وَقُدْرَة كَانَ بُوراً وانْتِـقَامًا، وَإِنْ صَادَفَ عَجْزًا وَمَـهَانَةً كَانَ كَمَدًا وسَقَاماً[2]، وقَدْ قَالَ عَبْدُ الحميدِ: الحسودُ مِنَ الهَمِّ كَسَاقِي السُّمِّ، فَإِنْ سَرَى سُمُّهُ زَالَ عَنْهُ غَمُّهُ»[3].

■ **أقسامُ الحَسَدِ:**

قَسَّمَ العُلَمَاءُ الحَسَدَ إلى قِسْمَين: حقيقيٌّ، ومجازيٌّ.

فالحقيقيُّ: تَمَنِّي زَوَالَ النِّعْمَة عَنْ صَاحِبِهَا، وَهَذَا حَرَامٌ بِإِجْـمَاعِ الأُمَّةِ مَعَ النُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ.

---

(١) **الأكْفَاء**: جَمْعُ كُفْء، وهو المِثْلُ والنَّظِيرُ.

(٢) **السَّقام** - بالفتح -: المَرَضُ.

(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٠ - ٢٧١).

وأمَّا المَجَازِيُّ فهو الغِبْطَةُ: وهُوَ أَنْ يَتَمَنَّى مِثْلَ النِّعْمَـةِ الَّتِي عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ زَوَالِهَا عَنْ صَاحِبِـهَا، فَإِذَا كَانَتْ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا كَانَتْ مُبَـاحَةً، وإنْ كانتْ طاعةً فهي مُسْتَحَبَّةٌ[1].

وقالَ القُرْطبيُّ - يرحمُه اللهُ -:

«الحسدُ نوعانِ: محمودٌ، ومَذْمومٌ.

فالمذمومُ: أنْ تَتَمَنَّى زَوَالَ نِعْمَـةِ اللهِ عَنْ أَخِيكَ المُسْلِم، وسواءٌ تَمَنَّيْتَ - مَعَ ذَلِكَ - أَنْ تَعُـودَ إِلَيْكَ أَوَّلاً، وَهَذَا النَّوْعُ الَّذِي ذَمَّهُ اللهُ فِي كِـتَابِهِ بِقَـوْلِهِ: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ (سورة النساء: ٥٤).

وَإِنَّمَا كَانَ مَذْمُومًا؛ لأَنَّ فِيهِ تَسْفِيهُ الحَقِّ -سُبْحَانَهُ- وأنَّه أَنْعَمَ على مَنْ لا يستحقُّ»[2].

وقَالَ الرَّازِي: «إذا أَنْعَمَ اللهُ على أَخِـيكَ بنعمَةٍ، فَـإِنْ أَرَدْتَ زَوَالَهَا فَـهَذَا هُوَ الحَسَدُ، وَإِنِ اشْتَهَيْتَ لِنَفْسِكَ مِثْلَهَا فـهذا هُوَ الغِبْطَةُ والمنافَسَةُ، وَأَمَّا الأَوَّلُ فَحَرَامٌ بِكُلِّ حَالٍ، إلاَّ نعمةً أَصَـابَهَا فَاجِرٌ أو كافرٌ يَسْتَعِينُ بها علـى الشَّرِّ والفَسَادِ، فلا يَضُرُّكَ مَحَبَّتُكَ لِزَوَالِهَا؛ فَإِنَّكَ مَا تُحِبُّ زَوَالَها مِنْ حيثُ إِنَّها نِعْمَةٌ، بَلْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا يُتَوَسَّلُ بِهَا إِلَى الفَسَادِ والشَّرِّ والأَذَى»[3].

وقَدْ نهَى رسولُ اللهِ - ﷺ - عَنِ الحَسَدِ.

فعن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «**إيَّاكُمْ والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ، ولا تحَسَّسُوا، ولا تجسَّسُوا، ولا تنافسوا، ولا تَحَاسَدُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا**[4]**، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا**»[5].

---

(١) «شرح مسلم» (٢/ ٤٦٤).
(٢) «تفسير القُرْطُبيِّ» (٣/ ٧١).
(٣) «التَّفسير الكبير» (٣/ ٢٣٨).
(٤) لا تَدَابَرُوا: لا تَقَاطَعُوا وَلا تَعادوا.
(٥) تقدَّم تخريجه.

وعنه - أيضاً - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «لا حَسَدَ إلاَّ في اثنتَيْنِ: رجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرآنَ، فهو يَتْلُوهُ آنَاءَ[(١)] اللَّيلِ، وآناءَ النَّهارِ، فسَمِعَهُ جارٌ له، فقال: لَيْتَني أُوْتِيْتُ مِثْلَما أُوتيَ فُلاَنٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَما يَعْمَلُ، ورجلٌ آتاه اللهُ مالاً، فهو يُهْلِكُهُ في الحقِّ[(٢)]، فقال رَجُلٌ: لَيْتَني أُوْتيتُ مِثْلَما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَمَا يَعْمَلُ»[(٣)].

قالَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ - يرحمه اللهُ -:

«وأمَّا الحَسَدُ المذكورُ في الحديثِ فهو الغِبْطَةُ، وأطلَقَ الحَسَدَ عليها مجازًا، وهي أنْ يتمنَّى له مِثْلَ ما لِغَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزُولَ عنه، والحِرْصُ عَلَى هذا يُسمَّى مُنَافَسَةً، فَإِنْ كَانَ في الطَّاعَةِ فهو محمودٌ، ومنه: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (سورة المطففين:٢٦). وَإِنْ كَانَ في المَعْصِيَةِ فَهُوَ مَذْمُومٌ، وَمِنْهُ: «ولا تنافسوا»، وإنْ كَانَ في الجائِزَاتِ فَهُوَ مُباحٌ»[(٤)].

قَالَ الشَّاعِرُ:

احْرِصْ علي جَمْعِ الفَضَائِلِ واجْتَهِدْ ▫▪▫ وَتَجَافَى عَنْ حَمْلِ الضَّغِينةِ والحَسَدْ
اصْبِرْ على كَيْدِ الحَسُودِ مُدَارِيًا ▫▪▫ يا صَاحِ[(٥)]، بَعْدَ الموتِ يَنْقَطِعُ الحَسَدْ

والحَسَدُ غالبًا ما يُوجَدُ لمن عَظُمَتْ نعمةُ اللهِ عَلَيْهِ، وأَمَّا التَّافهُ المسكينُ فَلا

---

(١) **الآناء**: السَّاعات، قَالَ الأَخْفَشُ: وَاحِدُها إِنًى، وقيلَ: وَاحِدُهَا إِنْيٌ، وَإِنْوٌ، يُقَالُ: مَضَى مِنَ اللَّيْلِ إِنْيَان وَإِنْوَان.
(٢) أي: يُنْفِقُهُ في الطَّاعات.
(٣) رواه البخاري (٥٠٢٦) و(٧٢٣٢) و(٧٥٢٨).
(٤) فتح الباري» (١/ ١٦٧).
(٥) **صاح**: مُرَخَّم صاحب، وهو مرخَّم ترخيمًا غيرَ قياسيٍّ جاز هنا للضَّرورةِ الشِّعريَّةِ؛ لأنَّه نكرةٌ، والقياسُ ألاَّ يُرَخَّمَ ممَّا ليس آخره تاءٌ إلاَّ العَلَم.

حُسَّـادَ له، ولهذا قالَ شـيخُ الإسلامِ وعَلَمُ الأَعْلامِ ابْنُ تَيْـميَّةَ -يرحـمه اللهُ-: «والحَسَدُ في الأَصْلِ إِنَّمَا يَقَعُ لما يَحْصُلُ لِلْغَيْرِ في السُّؤْدَدِ والرِّيَاسَةِ، وإلاَّ فَالْعَامِلُ لا يُحْسَدُ في العَادَةِ، ولو كَانَ تنعُّمُهُ بالأَكْلِ، والشُّرْبِ، والنِّكَاحِ أكثرَ من غَيْرِه، بِخِلافِ هذين النَّوعَين، فَإِنَّهُمَا يُحْسَدان كَثِيرًا، ولَهَذَا يُوجَدُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ لهم أتباعٌ مِنَ الحَسَد ما لا يُوجَدُ فيمن لَيْسَ كَذَلِكَ، وكَذَلكَ فِيمَنْ لَهُ أَتْبَاعٌ بِسَبَبِ إِنْفَـاقِ مَاله، فَـهَذا يَنْفَعُ النَّاسَ بِقُـوتِ القُلُوبِ، وهذا يَنْفَـعُهُمْ بِقُـوتِ الأَبْدَانِ، والنَّاسُ كُلُّهُم مُحتاجونَ إلى مَا يُصْلِحهم مِنْ هذا وهذا»[1].

وَمِنَ اللَّطائف أَنَّ الإمامَ محمَّـدَ بْنَ إبراهيمَ الوزيرَ - يرحمه اللهُ- شَكَا لابْنِ عمٍّ له كَثْرَةَ الحُسَّادِ، فَرَدَّ عليه قَائلاً:

وشَكَوْتَ مِنْ ظُلْمِ الوُشَاةِ، ولَنْ تَجِدَ ... ذا سُـؤْدَدٍ إلاَّ أُصِـيْبَ بِحُـسَّـدِ
لا زِلْتَ - يا سِبْطَ[2] الكِرَامِ - مُحَسَّدًا ... والتَّـافِـهُ المسكينُ غَـيْـرُ مُـحَـسَّـدِ

وقَالَ أبو الجويريَةَ العبديُّ:

فـمَـا زِلْتَ تُعْطِينِي ومـالـيَ حـاسـدٌ ... مِنَ النَّاسِ، حتَّى صِرْتُ أُرْجَى وأُحْسَدُ

وقالَ أبو نُوَاسٍ:

دَعِـينِي أُكَـثِّـرْ حَـاسِـدِيَّ بِرِحْلَةٍ ... إلى بَلَدٍ فِـيْـهِ الخَـصِـيبُ أَمِـيـرُ

وقَالَ البُحْتُرِيُّ:

وأَلْبَسْتَنِي النُّعْمَى الَّتي غَيَّرَتْ أَخِي ... عَلَيَّ، فَـأَضْحَى نَازِحَ[3] الوُدِّ أَجْنَبَـا[4]

---

(١) «مكارم الأخلاق» لابن تيميَّة (ص٢٤٢).
(٢) سِبْط: واحد الأَسْبَاطِ، وهم وَلَدُ الوَلَدِ، ويغلبُ على إطلاقه وَلَدُ البِنْتِ، يُقابلُ الحَفِيْدَ ولد الولد.
(٣) نازح: بعيد.
(٤) الأجْنَب: الأَجْنَبِيُّ.

وقالَ أبو الطَّيِّب مُخَاطبًا سيفَ الدَّولة:

أَزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عنِّي بِكَبْتِهِمُ[(١)] ▫▪▫ فـأنت الَّذي صَيَّـرتَهُـمْ ليَ حُسَّـدا[(٢)]

وكُلَّما ارتفع الإنسان في هذه الحياة، كُلَّما كَثُرَ حُسَّادُهُ، كما قيل:

وإذا الفَـتَى بَلَغَ السَّمـاءَ بمَجْـدِهِ ▫▪▫ كَـانَتْ كَـأعْـدَادِ النُّجُـوم عِـدَاه[(٣)]

وَرَمَـوْهُ عَنْ قَـوْسٍ بِكُلِّ عَظِيـمَـةٍ ▫▪▫ لا يَـبْلُغُــونَ بمـا جَنَوْهُ مَــدَاهُ

وغالبًا مـا يكونُ الحَسَدُ سَبَـبًا في ازدِيَادِ المحسودِ مِنَ الفَضَـائِلِ، وَتَخَلِّيه عَنِ الرَّذَائِلِ، كَمَا قِيلَ:

عُـدَاتي[(٤)] لَهُمْ فَـضْلٌ عليَّ وَمِنَّةٌ ▫▪▫ فـلا أَبْعَـدَ الرَّحـمنُ عنِّي الأعَـادِيَا

هُمْ بَحَـثُوا عَنْ سَوْءَتي فَاجْتَنَبْتُهَا ▫▪▫ وهُمْ نَافَسُوني فَاكْتَسَبْتُ المَعَاليا

ويكُونُ الحَسَدُ - أيضًا - سببًا في نَشْرِ فَضَائِلِ المحْسُودِ، كَمَا قَالَ الطَّائيُّ:

وَإذا أَرَادَ اللهُ نَشْـرَ فَـضِـيلَةٍ ▫▪▫ طُوِيَتْ، أَتَاحَ لَهَـا لسـانَ حَسُـودِ

لولا اشْـتِعَـالُ النَّارِ فيمـا جَاوَرَتْ ▫▪▫ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ[(٥)] العُودِ[(٦)]

لولا التَّـخَـوُّفُ للعَـوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ ▫▪▫ للحـاسِدِ النُّعْمَى على المَحْسُودِ[(٧)]

---

(١) الكَبْتُ - بالفتح -: الصَّرْفُ والإذْلال، وبَابُهُ ضَرَبَ.

(٢) يقول: أنت صَيَّرتهم حاسدين لي بما أَفَضْتَ عليَّ من نعمتك، فاصرفْ شَرَّ حَسَدِهم عنِّي بإذلالهم.

(٣) العِدَى: الأعداء.

(٤) العُدَاة - بالضَّمِّ -: الأَعْدَاء.

(٥) العَرْف: الرَّائحة، وأكثرُ استعماله في الطِّيب منها.

(٦) العُود: نَوْعٌ من الطِّيب يُتَبَخَّرُ به، ورائحتُهُ طيِّبةٌ.

(٧) «عيون الأخبار» (٢/ ٥ - ٤).

وأكثر ما يوجدُ الحَسَدُ بينَ الأقران[1].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تيـمِيَةَ - يرحمه اللهُ -: «وهكَذا الحَسَـدُ يَقَعُ كَثِيرًا بَيْنَ المُتَشَـارِكِينَ في رِئَاسَةٍ أو مَالٍ، إِذَا أَخَذَ بَعْـضُهُمْ قِسْطًا مِنْ ذَلِكَ وَفَـاتَ الآخَرَ، ويكونُ بينَ النُّظَرَاءِ لكَرَاهَةِ أَحَدِهِمَا أَنْ يَفْضُلَ الآخَرُ علـيه: كحَسَدِ إخْوَةِ يُوسُفَ - عليه السلام -، وكَحَسَدِ ابْنَيْ آدَمَ أَحَدِهِمَا لأخيه، فَإِنَّ حَسَدَهُ لكون أَنَّ الله تقبَّلَ قُرْبَانَهُ هذا، ولَمْ يَتَقَبَّلْ قُرْبَـانَ هَـذَا، فَحَسَـدَهُ على مَا فَضَّلَهُ اللهُ مِنَ الإِيـمَانِ والتَّـقْـوَى - كحَسَدِ اليهودِ لِلْمسلمينَ - وَقَتَلَهُ على ذَلِكَ»[2].

قَالَ الشَّاعِرُ:

أيا حَـاسِـداً لي عَلَى نِعْـمَـتي ▫▪▫ أَتَـدْرِي عَـلَـى مَـنْ أَسَــأْتَ الأَدَبْ؟!
أَسَــأْتَ عـلـى اللهِ فـي حُـكْـمِـهِ؛ ▫▪▫ لأنَّـكَ لَـمْ تَـرْضَ لِـي مَـا وَهَـبْ
فَـأَخْـزَاكَ رَبِّـي بِـأَنْ زَادَنِـي ▫▪▫ وسَـدَّ عليكَ وُجُـوهَ الطَّلَبْ[3]

وقالَ ابن حِبَّانَ - يرحمه الله -:

«العَاقِلُ إذا خَطَرَ بِبَـالِه ضَرْبٌ من الحَسَـدِ لأَخِيه أبلَغَ المجـهودَ في كِتْـمَانه، وتَرَكَ إِبْدَاءَ مَا خَطَـرَ بِبَاله، وأَكْثَـرُ ما يُوجَدُ الحَـسَدُ بينَ الأَقْـرَانِ، أَوْ مِنْ تَقَارُبِ الشَّكْلِ[4]؛ لأَنَّ الكَتَبَـةَ لا يَحْسُدُهَا إلاَّ الكَتَـبَةُ، كَمَا أَنَّ الحَـجَبَةَ لا يَحْـسُدُهَا إلاَّ الحَجَـبَةُ، ولَنْ يَبْلُغَ المرءُ مَرْتَبَةً مِنْ مَـرَاتِبِ هَذِهِ الدُّنيا إلاَّ وَجَدَ فِـيهَا مَنْ يُبْغِـضُهُ عليها، أَوْ يَحْسُدُهُ فيها»[5].

---

(١) الأَقْران: جمع قِرْن - بالكسر -، وهو النَّظير في العلم، والشَّجاعة، وغيرهما.
(٢) «مكارم الأخلاق» لابن تيميَّةَ (ص٢٤٨). (٣) «جواهر الأدب» (ص٧٢١).
(٤) الشَّكْل - بالفتح -: الشِّبه، والجمعُ أَشْكَالٌ، وشُكُولٌ.
(٥) «روضة العقلاء» (ص١٣٦).

قال الشَّاعرُ:

وَتَرَى اللَّبِيبَ مُحَسَّداً لَمْ يَجْتَرِمْ ▫▪▫ شَتْمَ الرِّجَالِ، وَعِرْضُهُ مَشْتُومُ

حَسَدُوا الفَتَى إذ لم يَنَالُوا سَعْيَهُ ▫▪▫ فَالنَّاسُ أَعْدَاءٌ له وخُصُومُ

كضَرَائرِ[1] الحَسْنَاءِ قُلْنَ لوَجْهِهَا ▫▪▫ -حَسَداً وَظُلْمَاً-: إنَّهُ لَدَمِيمُ[2]

■ أسبابُ رفْعِ شرِّ الحَاسدِ عَنِ المحسودِ:

يَنْدَفِعُ شرُّ الحَاسدِ عن المحسودِ بِعَشَرَةِ أَسْبَابٍ:

أحدها - الاستعاذة من شرِّ هذا الحَاسد: كما أمرَ اللهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (سورة الفلق: ٥).

ثانيها - تقوى الله: فمَنِ اتَّقَى اللهَ أنجاه من كُلِّ كَرْبٍ في الدُّنيا والآخرة، ولم يكِلْهُ إلى غَيْرِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، كما قَالَ اللهُ -تعالى-: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ (سورة الطلاق: ٢).

وقَالَ اللهُ -تعالى-: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ (سورة آل عمران: ١٢٠).

وقَالَ النَّبيُّ -ﷺ- لعبدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما-: «يا غُلامُ، إنِّي أُعَلِّمُكَ كلماتٍ: احفظِ الله يَحْفَظْكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ[3]...»[4].

ثالثها - التَّوكُّلُ على الله: فهو من أقوى الأسباب التي يَدْفَعُ بهَا المحسودُ ما لا يُطِيقُ منْ أَذَى الحَاسد، وبَغْيِه وعُدْوَانِه، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى الله كَفَاه، ومَنْ كانَ اللهُ كَافِيَهُ وواقِيَهُ، فَلا مَطْمَعَ فيه لعَدُوِّه.

---

(١) ضرائر: جمعُ ضَرَّةٍ - بفتح الضَّادِ -، وضَرَّةُ المرأةِ: امْرَأَةُ زَوْجِهَا.
(٢) «عيُونُ الأَخْبَارِ» (٢/ ٤٠٦).
(٣) تُجَاهَكَ -بضَمِّ التَّاء وكَسْرِهَا-: أمامك، فأينما تَوَجَّهْتَ لكان مَعَكَ بالحفظِ والإحاطَةِ، والتَّأييدِ والإعانة.
(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٥١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في«صحيح الجامع» (٢/ ٧٩٥٧).

يَقُولُ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (سورة الطلاق: ٣).

يقولُ العلاَّمةُ ابنُ سَعْديٍّ في تفسيرِ هَذه الآيَة: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ «أي: في أمرِ دينِه ودُنْيَاهُ، بأَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى الله في جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ، ودَفْعِ مَا يَضُرُّهُ، وَيَثِقُ بِهِ فِي تَسْهِيلِ ذَلِكَ. ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي: كَافِيهِ الأمر الذي توكَّلَ عليه به، وإذا كَانَ الأَمْرُ في كَفَالَةِ الغَنِيِّ القَوِيِّ العَزِيزِ الرَّحِيمِ، فهو أَقْرَبُ إِلَى العَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ولَكِنْ رُبَّمَا أَنَّ الحِكْمَةَ الإِلَهِيَّةَ اقْتَضَتْ تأخيرَهُ إلى الوَقْتِ المُنَاسِبِ لهُ؛ فَلِهَذَا قَالَ -تعالى-: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أَي: لابُدَّ مِنْ نُفُوذِ قضَائه وقَدَره، ولكنَّه: ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ أي: وقتًا ومِقْداراً، لا يَتَعَدَّاهُ ولا يَقْصُرُ عَنْهُ»[1].

رابعها ـ الصَّبر على الحاسد: فما نُصِرَ محسودٌ على حَسُودٍ بمثلِ الصَّبرِ عليه، والتَّوكُّلِ علَى الله، فَعَلَى المحسُودِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى مَضَضِ[2] حاسده، وألاَّ يَستطيلَ حَسَدَهُ؛ فإنَّ حَسَدَهُ سِهَامٌ يرميها من نَفْسه إِلَى نَفْسِه وَهُوَ لا يشعرُ، وَلَوْ رَأَى المحسودُ ذلكَ لَسَرَّهُ حَسَدُهُ لَهُ، لَكِنْ لِضَعْفِ بَصِيرَتِه لا يَرَى إلاَّ صُورَةَ الحَسَدِ دُونَ آخرِه ومَآله.

قَالَ مُعاويةُ -رضي الله عنه-: «**ليسَ في خِصَالِ الشَّرِّ أَعْدَلُ مِنَ الحَسَدِ، يَقْتُلُ الحَاسِدَ قَبْلَ أنْ يَصِلَ إلى المحْسُودِ**»[3].

وَقَالَ ابنُ المعتزِّ العبَّاسيُّ:

اصْبِرْ على كَيْدِ الحَسُو … دِ؛ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا … إنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ[4]

(١) «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص ٨٧٠).
(٢) المَضَضُ: وَجَعُ المُصيبة.
(٣) و (٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص ٢٧٠).

وقالَ الطّغْرائيُّ:

اصْبِرْ على غَيْظِ الحَسُودِ؛ فَنَارُهُ ▪▪▪ تَرْمي حَشَاهُ[1] بِالعَذَابِ الخَالِدِ
أَوَ مَا رَأَيْتَ النَّارَ تَأْكُلُ نَفْسَهَا ▪▪▪ حتَّى تَعُودَ إلى الرَّمَادِ الهَامِدِ؟!
تَضْغُو[2] على المحسودِ نِعْمَةُ رَبِّهِ ▪▪▪ ويَذُوبُ مِنْ كَمَدٍ[3] فؤادُ الحاسِدِ[4]

خامسها ـ فراغ القلبِ مِنَ الاشْتِغَالِ بالحاسِدِ، والفِكْرِ فيه: فلا يلتفتُ إِلَيْهِ، وَلا يخافه، ولا يَخْطُرُهُ بِبَالِهِ، فَإِذَا خَطَرَ بِبَالِهِ بادَرَ إلى مَحْوِ ذلكَ الخاطِرِ، واشتَغَلَ بما هو أَنْفَعُ لَهُ وأَوْلَى بِهِ.

قَالَ حاتمٌ:

وكلمةِ حاسدٍ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ[5] ▪▪▪ سَمِعْتُ، فقلتُ: مُرِّي فَانْفُذِيني
وَعَابُوهَا عليَّ، ولم تَعِبْني ▪▪▪ ولمْ يَنْدَ[6] لها أبداً جَبِيني

وَقَالَ آخرُ:

دَعِ الحَسُودَ ومَا يَلْقَاهُ مِنْ كَمَدٍ ▪▪▪ يَكْفِيكَ مِنْهُ لَهِيبُ النَّارِ في كَبِدِهْ
إنْ لُمْتَ ذا حَسَدٍ نَفَّسْتَ كُرْبَتَهُ ▪▪▪ وإنْ سَكَتَّ فَقَدْ عَذَّبْتَهُ بِيَدِهْ[7]

---

(١) الحَشَا: ما انْضَمَّتْ عليه الضُّلُوعُ، وَالجَمْعُ أَحْشَاءٌ.
(٢) تَضغُو: تَربُو وتَكثُرُ.
(٣) الكَمَدُ ـ بفتحتين ـ: الحُزْنُ الشَّديدُ المكتومُ، وبَابُهُ فَرِحَ.
(٤) «جواهر الأدب» (ص٧٠٤).
(٥) جُرْم: ذَنْب، والجمعُ أَجْرَامٌ، وجُرُومٌ، وبَابُهُ ضَرَبَ.
(٦) لم يَنْدَ: لم يَعْرَقْ، ولَمْ يَبْتَلَّ، وبَابُهُ صَدِيَ.
(٧) «جواهر الأدب» (ص٧٢١).

سادسُها - الإقبالُ على الله، والإخلاص له: فَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ عامرًا بمحبَّة الله وإجلاله، وطَلَب مَرْضَاته، وذَكَرَهُ كَمَا يَذْكُرُ المُحِبُّ التَّامَّ المحبَّة محبوبَهُ المحسنَ إليه - لَمْ يَبْقَ في قَلْبِهِ مُتَّسَعٌ لِلْفِكْرِ في حَاسِدِه، والطَّرِيقِ إلى الانْتِقَامِ منه، والتدبيرِ عليه.

قَالَ اللهُ - تعالى - في حقِّ الصِّدِّيق يُوسُفَ - عليه السلام -: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٢٤).

سابعها - تجريد التَّوبة النَّصُوح إلى الله من الذُّنوبِ التي سَلَّطَتْ عليه حُسَّادَهُ: فإنَّ اللهَ -تعالى- يقول: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (سورة الشورى: ٣٠).

وَقَالَ لخير الخَلْقِ - وهُمْ أَصْحَابُ نبيِّه دونَهُ - صلى الله عليه وسلم -: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٥).

فمَا سُلِّطَ عَلَى العَبْدِ مُؤْذٍ إلاَّ بذَنْبٍ يعلمه أَوْ لا يَعلمه، وما لا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِه أَضْعَافُ أضْعَاف ما يَعْلَمُهُ منها، وَمَا يَنْسَاهُ ممَّا عَمِلَهُ أَضْعَافُ مَا يَذْكُرُهُ، فَإِذَا عُوفِيَ الْعَبْدُ مِنَ الذُّنُوبِ عُوفِيَ مِنْ مُوجِبَاتِهَا.

لَقِيَ بَعْضَ السَّلَفِ رَجُلٌ، فَأَغْلَظَ له، ونالَ منه، فقالَ له: قفْ حتَّى أَدْخُلَ البيتَ، ثُمَّ أخرجُ إليكَ، فَدَخَلَ فَسَجَدَ لله، وتضرَّعَ إليه، وَتَابَ وَأَنَابَ إلى ربِّه، ثُمَّ خَرَجَ إليه. فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعْتَ؟. فَقَالَ: تُبْتُ إلى الله مِنَ الذَّنْبِ الَّذي سَلَّطَكَ بِهِ عَلَيَّ.

فعلى المحْسُودِ أنْ يَعْكِسَ فِكْرَهُ وَنَظَرَهُ عَلَى نَفْسه وَذُنُوبِه، فيشتغل بإصْلاحهَا، وبالتَّوبَةِ منها، حينها لن يبقَى فيه فَرَاغٌ لتدبُّر ما نَزَلَ بِه، بَلْ يَتَوَلَّى هُوَ التَّوْبَةَ وإِصْلاحِ عيُوبِهِ، واللهُ يتولَّى نُصْرَتَهُ وَحِفْظَهُ، والدَّفْعَ عَنْهُ ولابُدَّ.

ثامنها - الصَّدقة والإحسان من المحسودِ إلى العبَادِ ما أمكَنَهُ: فما حَرَسَ العبدُ نعمةَ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَا يكونُ سَبَبـاً لِزَوَالِهَا - بِمِثْلِ شُكْرِهَا، فالشُّكْرُ - كما قَالَ العُلَمَاءُ - قيدٌ للموجودِ، وَصَيْدٌ لِلْمَفْقُودِ.

عَنْ أَنَسٍ -رضي الله عنه- أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «صنَائعُ المعروفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، والآفاتِ، والهَلَكَاتِ، وأهلُ المعروفِ في الدُّنيا هُمْ أهلُ المعروفِ في الآخِرَةِ»[(١)].

وَحَسَدُ الحاسدِ مِنْ أَقْوَى الأَسْبَابِ لِزَوَالِ النِّعَمِ؛ فَإِنَّهُ لا يَفْتُرُ ولا يَنِي ولا يَبرُدُ قَلْبُهُ حَتَّى تَزُولَ النِّعْمَةُ عَنِ المحْسُودِ، كما قالَ الطّغْرائيُّ:

جَامِلْ عَدُوَّكَ ما اسْتَطَعْتَ؛ فإنَّهُ ... بالرِّفْقِ يُطْمَعُ في صَلاحِ الفاسِدِ

واحْذَرْ حَسُودَكَ ما استطعتَ؛ فإنَّهُ ... إنْ نِمْتَ عَنْهُ فَلَيْسَ عَنْكَ براقِدِ

إنَّ الحَسُودَ - وإنْ أَرَاكَ تَوَدُّدًا ... مِنْهُ - أَضَرُّ مِنَ العَدُوِّ الحاقِدِ

ولَرُبَّمَا رَضِيَ العَدُوُّ إذا رَأَى ... منْكَ الجَمِيلَ، فصارَ غَيْرَ مُعانِدِ

ورِضَى الحَسُودِ زوالُ نِعْمَتِكَ الَّتي ... أُوتِيتَهَا مِنْ طارفٍ[(٢)]، أو تَالِدِ[(٣)] [(٤)]

---

(١) رواه الحاكم في «مستدركه»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٣٧٩٥)، و«الصَّحيحة» (١٩٠٨).

(٢) طارف: الأحوال الجديدة.

(٣) تالد: الأحوال القديمة.

(٤) «جواهر الأدب» (ص٤٠٧).

وقال محمودُ الورّاقُ:

أَعْطَيْتُ كُلَّ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي الرِّضى ▫▪▫ إلاَّ الحَسُودَ، فَإِنَّهُ أَعْيَانِي
مَا إنَّ لِي ذَنْبًا إِلَيْهِ عَلِمْتُهُ ▫▪▫ إلاَّ تَظَاهُرَ نِعْمَةِ الرَّحْمَنِ
وَأَبَى فَمَا يُرْضِيهِ إلاَّ ذِلَّتي ▫▪▫ وذَهَابُ أَمْوَالي، وقَطْعُ لِسَانِي[1]

فَعَلَى المحْسُودِ أنْ يُكثِرَ مِنْ صنَائِعِ المعروف؛ فَإِنَّ لَهَا أَثَرًا عَجِيبًا في دَفْعِ البلاء، وشَرِّ الحَاسد، فَقَلَّمَا يتسلَّطُ الحَسَدُ علَى مُحْسِنٍ مُتَصَدِّقٍ، وَإِنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، كَانَ مُعَامَلاً فيه باللُّطْفِ والمَعُونَةِ والتَّأْييدِ، وكَانَتْ لَهُ فِيهِ العَاقِبَةُ الحميدةُ.

تاسعها - عدمُ إخبارِ الحاسدِ بنِعْمَةِ الله عليكَ: لأنَّ ظهورَ الفَضْلِ يُثِيرُ الحَسَدَ، وحدوث النِّعمَةِ يُضَاعفُ الكَمَدَ؛ ولذلكَ قَالَ النَّبيُّ - ﷺ -: «استعينُوا على إنجاحِ الحَوَائجِ بالكِتْمَانِ؛ فإنَّ كُلَّ ذي نعمةٍ مَحْسُودٌ»[2].

عاشرها - الإحسانُ إلى الحاسدِ: وهُوَ مِنْ أَصْعَبِ الأَسْبَابِ عَلَى النَّفْسِ وأَشَقِّها عليهَا، ولا يُوَفَّقُ له إلاَّ مَنْ عَظُمَ حظُّهُ مِنَ الله، وَهُوَ إِطْفَاءُ نارِ الحَاسد بالإِحْسَانِ إليه، فكُلَّمَا ازدَادَ أذىً وشراً، وبَغْيًا وَحَسَدًا، ازدَدْتَ إِلَيْهِ إحْسَانًا، وَلَهُ نَصِيحَةً، وعليه شَفَقَةً.

وممَّا يُهَوِّنُ هذا على نَفْسِ المحسودِ، ويُطَيِّبه إليها، وينعمُها به الآتي:

١ - أنْ يعْلمَ أَنَّ مَنْ قَابَلَ إِسَاءَةَ العبادِ بالإحسَانِ إليهم، قَابَلَ اللهُ إِسَاءَتَهُ -وكُلُّنا ذوو خَطَإٍ- بالإِحْسَانِ إليه؛ فإنَّ الجزاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وكَمَا تَدينُ تُدَانُ.

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٤).
(٢) رواه الطَّبرانيُّ في «الكبير»، وأبو نُعَيم في «الحلية» عن معاذِ بْنِ جَبَلٍ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢٩٤٣)، وهو في «الصَّحيحة» (١٤٥٣).

٢ ـ أَنْ يَعْلَمَ أنَّ ذَلكَ سَبَبٌ لحصُولِه على نَصْرِ الله، وَمَعِيَّته الخَاصَّة، كَمَا قَالَ النَّبيُّ -ﷺ- للَّذي شكَا إِلَيْهِ قَرَابَتَهُ، وأنَّهُ يُحْسِنُ إِلَيْهِم، وَهُمْ يُسِيئونَ إليه ـ: «لا يزالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظهيرٌ عليهم ما دُمْتَ على ذلك»(١).

٣ ـ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ النَّاسَ يُثْنُونَ عَلَى مَنْ كَانَ هذا حالَهُ، ويَصِيرونَ كُلُّهم معه على خَصْمِه، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ سَمِعَ أَنَّهُ مُحْسِنٌ إِلَى ذَلِكَ الغير، وهُوَ مُسِيءٌ إِلَيْهِ - وَجَدَ قَلْبَهُ وَدُعَاءَهُ وَهِمَّتَهُ مَعَ المُحْسِنِ عَلَى المُسِيءِ، وَذَلِكَ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ فَطَرَ اللهُ عليه عِبَادَهُ.

ولابُدَّ للمحسودِ المُحْسِنِ مَعَ حاسِدِهِ مِنْ إِحْدَى حَالَتَيْنِ:

إِمَّا أَنْ يملكَهُ بِإِحْسَانِه فَيَسْتَعْبِدَهُ، وَيَنْقَادُ له، ويذلُّ له، ويبقى من أحبِّ النَّاس إليه، كما قَالَ أبو الفتحِ البُسْتيُّ:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ ... فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إحسانُ(٢)

وَإِمَّا أَنْ يُفَتِّتَ كَبِدَهُ، وَيَقْطَعَ دابِرَهُ، إنْ أَقَامَ عَلَى إِسَاءَته إليه، فَإِنَّهُ يُذِيقُهُ بِإِحْسَانه أضْعافَ ما ينال منه بانتقامه(٣).



(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) «جواهر الأدب» (ص٦٧٠).

(٣) انظر «التفسير القيِّم» (ص٥٨٥- ٥٩٣)، فهذه الأسباب ـ ما عدا السَّببَ التَّاسعَ ـ أخذتها منه، وقد دخلها هنا تغييرٌ اقتضاه الإيجاز من تقديمٍ وتأخيرٍ، وزيادةٍ وحذفٍ...

غَضُّ البَصَرِ

غَضُّ البصرِ مِنْ أَهَمِّ الصِّفَاتِ الَّتِي يَتَحَلَّى بهَا المُؤْمِنُ، فَالْبَصَرُ هُوَ البابُ الأكبَرُ إلَى القَلْبِ، وأَعْمَرُ طُرُقِ الحَوَاسِ إليه، وبحسبِ ذَلكَ كَثُرَ السُّقوط من جهته، ووَجَبَ عن جَمِيعِ المُحَرَّمَاتِ، وكُلٍّ ما يُخْشَى الفتنةَ من أَجْلِه[١].

قَالَ الشَّاعِرُ:

كُلُّ الحَوَادثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ ▫▪▫ ومُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ[٢]

كَمْ نَظْرَةٍ فَتَكَتْ في قلْبِ صاحِبِهَا ▫▪▫ فَتْكَ السِّهَامِ بلا قَوْسٍ ولا وَتَرِ!

وَصِفَاتُهُ أَنْ يُغْمِضَ المسلمُ بَصَرَهُ عَمَّا حُرِّمَ عليه، ولا ينظرَ إلاَّ لما أُبيحَ النَّظَرُ إلَيْهِ، وَيَدْخُلُ فيه ـ أَيْضًا ـ إغْمَاضُ الأَبصَارِ عَنِ المحارِمِ، فَإن اتَّفَقَ أنْ وَقَعَ البصرُ على مُحَرَّمٍ مِنْ غيرِ قَصْدٍ، فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ سَرِيعًا.

وَغَضُّ البَصَرِ مِنْ مكَارِمِ الأَخْلاقِ.

فَعَنْ عُبَادَةَ بن الصَّامت -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: **«اضْمَنُوا لي ستًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لكُمُ الجنَّةَ: اصْدُقُوا إذا حَدَّثْتُمْ، وأَوْفُوا إذا وَعَدْتُمْ، وأَدُّوا إذا اؤْتُمِنْتُمْ، واحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»**[٣].

(١) «تفسير القُرْطُبيِّ» (٢/١٤٨).
(٢) الشَّرَر - بفتحتين - : ما يَتَطَايَرُ مِنَ النَّار، والمُفْرَدُ شَرَرَةٌ.
(٣) رواه أحمدُ ـ واللَّفظ له ـ (٥/٣٢٣)، والحاكمُ (٤/٣٥٨ - ٣٥٩)، والخَرَائطيُّ في «مكارم الأخلاق» (٣١)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٠١٨)، و«الصَّحيحة» (١٤٧٠).

وعَنْ جَابِـرِ بْنِ عبدِ الله -رضي الله عنه- أنَّـهُ قَالَ: «سـألتُ رسـولَ اللهِ -ﷺ- عَنْ نَظَرِ الفُجَاءَةِ، فَأمَرَنِي أنْ أصْرِفَ بَصَرِي»[(١)].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ -ﷺ-: «يا مَعْشَرَ الشَّبابِ، مَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ[(٢)] فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فإنَّهُ أغَضُّ للبَصَرِ، وأحْصَنُ للفَرْجِ، ومَنْ لمْ يَسْتَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجَاءٌ[(٣)]»[(٤)].

فعليكَ - أخي في اللهِ - أنْ تَغُضَّ بَصَرَكَ عَـمَّا حَرَّمَ اللهُ فَإِنَّ: «حِفْظَ البَصَرِ أشَدُّ مِنْ حِفْظِ اللِّسَانِ»[(٥)]. كَمَا قالَ ذلكَ عبدُ اللهِ بْنِ مسعودٍ -رضي الله عنه-.

وقالَ أَنَسُ بْنُ مالكٍ -رضي الله عنه-: «إذا مرَّت بك امرأةٌ، فَغَمِّضْ عَيْنَيْكَ حتَّى تُجَاوِزَكَ»[(٦)].

ولابُدَّ مِنْ غَضِّ البَصَرِ عَنْ غَـيْرِ المَحَارِمِ، حتَّى وَلَوْ كَانَتِ المنظورُ إليـهَا فتاةً صغيرةً.

قالَ الـزُّهْـرِيُّ - يـرحمُهُ اللهُ - في النَّظَرِ إلى الَّتي لم تَـحِضْ مِنَ النِّسَاءِ: «لا يَصْلُحُ النَّظَرُ إِلَى شَيءٍ مِنْهُنَّ مِمَّن يشتهي النَّظَرَ إليه، وَإِنْ كَانَتْ صغيرةً»[(٧)].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢١٥٩).

(٢) الباءة: الزَّواج.

(٣) وجاء: جُنَّةٌ ووقاية، وأَصْلُهُ رَضُّ عُرُوقِ الأُنْثَيَيْنِ حَتَّى تَنْفَضِخَ، فَيَكُونَ شَبِيهًا بالخِصَاءِ.

(٤) رواه البخاريُّ (١٩٠٥) و(٥٠٦٥) و(٥٠٦٦)، ومسلمٌ (١٤٠٠).

(٥) «الورع» (ص٦٢).

(٦) المرجع السَّابق (ص٦٦).

(٧) «فتح الباري» (٩/١١).

وأَسْبَابُ غَضِّ البَصَرِ كَثِيرَةٌ[(١)]، لَكِنْ أعظم سببٍ لِغَضِّ البَصَرِ هُوَ تَقْوَى الله، كما قَالَ الإِمَامُ ابْنُ دقيق العيد ـ يرحمه اللهُ ـ: «إنَّ التَّقْوَى سَبَبٌ لغَضِّ البَصَرِ، وتحصينِ الفَرْجِ»[(٢)].

قَالَ الشَّاعِرُ:

وغُضَّ عَنِ المحارمِ مِنْكَ طَرْفًا[(٣)] ... طَمُوحًا، يَفْتِنُ الرَّجُلَ اللَّبِيبَا

وخائنةُ العُيُونِ كَأُسْدٍ[(٤)] غَابٍ[(٥)] ... إذا مَا أُهْمِلَتْ وَثَبَتْ وُثُوبا

ومَنْ يَغْضُضْ فُضُولَ الطَّرْفِ عَنْهَا ... يَجِدْ في قَلْبِهِ رَوْحًا[(٦)] وطِيبًا



(١) انظر كتابي «فتنة النَّظر»، فقد تكلَّمْتُ فيه عَنْ غَضِّ البَصَرِ بتوسُّعٍ، وكذلك فوائد غَضِّ البَصَرِ.
(٢) «فتح الباري» (١١/ ٩).
(٣) الطَّرْف: البصر.
(٤) الأُسْد - بضمٍّ فَسُكُونٍ - : جَمْعُ أَسَد، ويُجْمَعُ - أيضًا - علَى أُسُد، وآسَاد، وآسُد، وأُسُود، وأُسْدَان، وهو نوع من السِّبَاعِ اللَّبون المُفْتَرِسَة، ويُلَقَّبُ الأَسَدُ بِمَلِكِ الوُحُوشِ، وأُنْثَاهُ تُسَمَّى لَبُؤَةً، وَاللَّبْوَةُ لُغَةٌ فيها.
(٥) الغَابُ: جمعُ غَابَةٍ، وهِي الشَّجَرُ الكَثِيفُ المُلْتَفُّ.
(٦) رَوْحًا: راحةً.

الغَـيْـرَةُ

الغَيْرَةُ: هي مَا رَكَّبَـهُ اللهُ في العَبْدِ مِنْ قُوَّةٍ روحيَّةٍ، تحـمي المحَارِمَ والشَّرَفَ والعَفَـافَ، وهي ـ كَمَا عَـرَّفَهَا ابْنُ حَـجَرٍ ـ مُشْـتَقَّةٌ مِنْ تَـغَيُّرِ الْقَلْبِ، وَهَيَـجَانِ الغَـضَبِ بِسَـبَبِ المُشَارَكَـةِ فـيمـا به الاخْـتِـصَاصُ، وأَشَـدُّ مَـا يكونَ ذلك بين الزَّوجين[١].

وهي ـ معَ ذلكَ ـ خُلُقٌ مَـحْـمُـودٌ مِنْ أَخْـلاقِ المؤمنينَ، تدلُّ على كَـمَـالِ الرُّجُولَةِ، وعُلُـوِّ الهِمَّةِ، وأَصَـالَةِ الأَخْلاقِ، وطِيبِ الأَعْـرَاقِ، بَلْ إِنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - يَغَارُ، ولا أَحَدَ من عبادِهِ أغيرُ منه.

عن عبـدِ اللهِ بْنِ مَسعودٍ -رضي الله عنه- قَـالَ: قَالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «لا أحَدَ أغيرُ مِنْ اللهِ؛ ولذلك حرَّم الفَوَاحِشَ، ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ»[٢].

وعن أبي هريرةَ -رضي الله عنه- أنَّ رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «المؤمنُ يغارُ، والله أشدُّ غَيْرًا»[٣].

وعنه ـ أيضًا ـ قَـالَ: قالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ اللهَ يَغَارُ، وإنَّ المؤمنَ يَغَارُ، وغَيْرَةُ اللهِ أنْ يَأْتِيَ المؤمنُ ما حَرَّمَ عليه»[٤].

---

(١) «فتح الـباري» (٩/ ٣٢٠)، وانظر «التَّـعريفـات» (ص١٦٣)، و«التَّوقيـف على مهـمَّات التَّعـاريف» (ص٢٥٥).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٦٣٤) و(٤٦٣٧) و (٥٢٢٠) و(٧٤٠٣)، ومسلمٌ (٢٧٦٠).

(٣) رواه مسلٌم (٢٧٦١).

(٤) رواه البخاريُّ (٥٢٢٣)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (٢٧٦١).

وعَنِ الْمُغِيرَةَ بن شُعْبَةَ قَالَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: «لو رأيتُ رجُلاً مع امرَأتي لَضَرَبْتُهُ بالسَّيفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ[١] عنه». فَبَلَغَ ذَلِكَ رسولُ اللهِ - ﷺ -، فَقَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللهِ لأنا أغيرُ منه، واللهُ أغيرُ منِّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ، ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا شَخْصَ أغيرُ مِنَ اللهِ»[٢].

وكَمَا تكونُ الغَيْرَةُ في الرِّجَالِ، تكونُ في النِّسَاءِ، فَهِيَ غَرِيزَةٌ يشتركُ فيها الرِّجَالُ والنِّسَاءُ، بَلْ قَدْ تَكُونُ مِنَ النِّسَاءِ أَشَدَّ.

فَعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: استأْذَنَتْ هَالَةُ بنتُ خُوَيْلدٍ أختُ خَديجةَ على رسول اللهِ - ﷺ -، فعَرَفَ استئذانَ خَديجةَ[٣]، فَارْتَاحَ لذلك[٤]، فقال: «اللهمَّ، هالَةُ بِنْتُ خُوَيلدٍ». فَغِرْتُ فقلْتُ: «وما تَذْكر مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عجائزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ[٥]، خَمْشَاءِ السَّاقَيْنِ، هَلَكَتْ في الدَّهْرِ، فأبْدَلك اللهُ خيراً منها»[٦].

وَعَنْهَا - أَيْضًا - قَالَتْ: كَانَ رسولُ اللهِ - ﷺ - إذا خَرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نسائِهِ، فطارَتِ القُرْعَةُ على عائشَةَ وحَفْصَةَ، فخَرَجَتَا معه جميعًا، وَكَانَ رسولُ اللهِ - ﷺ - إذا كَانَ اللَّيْلُ سَارَ مَعَ عَائِشَةَ، يَتَحَدَّثُ معها، فَقَالَتْ حَفْصَةُ لعائشةَ: «أَلاَ تَرْكَبِينَ اللَّيلةَ بَعِيري، وأَرْكَبُ بَعِيرَكِ، فَتَنْظُرِينَ وأَنْظُرُ؟». قَالَتْ: «بلى». فَرَكِبَتْ عَائِشَةُ على بعيرِ حَفْصَةَ،

---

(١) غيرَ مُصْفَحٍ: أي: ضاربه بحدِّ السَّيف، لا بصَفْحه، وصَفْحُ السَّيف: عرضُهُ وجانبُهُ، فالذي يضْرِبُ بالحَدِّ يقصدُ القتلَ بخلاف الذي يضرب بعرضِ السَّيف، فإنَّه يقصد التَّأديبَ.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٨٤٦) و(٧٤١٦)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (١٤٩٩).

(٣) وذلك لشبْهِ صوتها بصوت أختها، فتذكَّر خديجةَ بذلك.

(٤) فارتاح لذلك: أي هشَّ لمجيئها، وسُرَّ بها لتذكُّره بها خديجةَ وأيَّامَهَا.

(٥) حمراء الشِّدْقَيْن: تعني أنَّها كبيرةٌ في السِّنِّ جدًّا، قد تساقطتْ أسنانها.

(٦) رواه البخاريُّ (٣٨٢١)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (٢٤٣٧).

وركِبَتْ حفصةُ على بعيرِ عائشةَ، فجاءَ رسولُ اللهِ - ﷺ - إلى جَمَلِ عائشةَ وعليه حَفْصَةُ، فسلَّم ثُمَّ سار معها حتَّى نَزَلُوا، فافتقدَتْهُ عائشةُ فغارتْ، فلمَّا نزلوا جعلتْ تجعلُ رِجْلَيْهَا بَيْنَ الإِذْخِرِ [(١)]، وتقولُ: «يا رَبِّ، سَلِّطْ عليَّ عقْرَبًا أو حَيَّةً تَلْدَغُني، رسولُكَ ولا أستطيعُ أنْ أقولَ له شيئًا» [(٢)].

وعنها ـ أيضًا ـ قالتْ: كُنْتُ أغارُ على اللاَّتي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لرسولِ اللهِ - ﷺ -، وأقول: «أَوَتَهِبُ المَرْأَةُ نَفْسَهَا؟!». فلمَّا أَنْزَلَ اللهُ - عزَّ وجلَّ -: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ (سورة الأحزاب: ٥١).

قَالَتْ: قُلْتُ: «والله، مَا أَرَى رَبَّكَ إلاَّ يُسَارِعُ لَكَ في هَوَاكَ [(٣)]» [(٤)].

■ أقسامُ الغَيْرَةِ:

تنقسمُ الغَيْرَةُ إلى قسمين:

١ ـ محمودة: وهي الغَيْرَةُ في الرِّيْبَةِ.

٢ ـ مذمومة: وهي الغَيْرَةُ في غير رِيْبَةٍ.

فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «مِنَ الغَيْرَةِ ما يُحِبُّ اللهُ، ومِنْها ما يَكْرَهُ اللهُ، فأمَّا ما يُحِبُّ اللهُ فالغَيْرَةُ في الرِّيْبَةِ، وأمَّا ما يَكْرَهُ فالغَيْرَةُ في غَيْرِ رِيْبَةٍ» [(٥)].

---

(١) الإِذْخِر: نبت معروف طيِّب الرَّائحة، توجد فيه الهَوَامُّ غالبًا في البريَّةِ، واحِدُهُ إِذْخِرَةٌ.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٢١١)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (٢٤٤٥).

(٣) يُسَارِعُ لك في هَوَاكَ: أيْ يُخفِّفُ عنك، ويُوسِّعُ عليك في الأمور، ولهذا خيَّركَ.

(٤) رواه البخاريُّ (٤٧٨٨) و (٥١١٣)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (١٤٦٤).

(٥) رواه ابن مَاجَة (١٩٩٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٢٩٠٥).

قَالَ شيخُ الإِسْلامِ ابن تيميَّةَ - يرحمه اللهُ -:

«فَالغَيْرَةُ المحبوبةُ هي ما وافقت غَيْرَةَ اللهِ - تعالى -، وهَذِهِ الغَيْرَةُ هي أنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُ اللهِ، وهي أنْ تُؤْتَى الفَوَاحِشُ البَاطِنَةُ والظَّاهِرَةُ، لكن غَيْرَةَ العبدِ الخاصَّةِ هي مِنْ أَنْ يشركَهُ الغَيْرُ في أَهْلِهِ، فَغَيْرَتُهُ عَنْ فَاحِشَةِ أهْلِهِ لَيْسَ كَغَيْرَتِهِ مِنْ زنى الغَيْرِ؛ لأَنَّ هذا مَا يتعلَّقُ به، وذاك لا يتعلَّقُ به إلاَّ من جِهَةِ بُغْضِهِ لبغْضَةِ اللهِ؛ ولهذا كانَتِ الغَيْرَةُ الواجبَةُ عليه هي من غيرَتِهِ على أَهْلِهِ، وأَعْظَمُ ذلكَ امرأته، ثُمَّ أقاربه، ومَنْ هُوَ تَحْتَ طاعَتِهِ؛ ولهذا كان له إذا زَنَتْ أنْ يُلاعِنَهَا؛ لما عَلَيْهِ في ذلِكَ من الضَّرَرِ خلاف ما إذَا زَنَى غير امْرأَتِهِ.

ولهذا يُحَدُّ قاذفُ المرأةِ الَّتي لم يكملْ عَقْلُها وَدِينها، إذا كَانَ زوجها مُحْصَنًا في أَحَدِ القَوْلَيْنِ، وهو إِحَدَى الرِّوايتين عن أحمدَ.

فَالْغَيْرَةُ الوَاجِبَةُ ما يتَضَمَّنُهُ عَن المخزي، والغَيْرَةُ المستحبَّةُ ما أوجبتِ المستحبَّ منَ الصِّيانَةِ.

وأمَّا الغَيْرَةُ في غَيْرِ الرِّيْبَةِ - وَهِيَ الغَيْرَةُ في مُبَاحٍ لا رِيْبَةَ فيه - فهي ممَّا لا يُحِبُّهُ اللهُ، بَلْ يَنْهَى عَنْهُ إذا كَانَ فيه تَرْكُ ما أَمَرَ اللهُ؛ ولهَذَا قَالَ النَّبيُّ - ﷺ -: «لا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ، وبيُوتُهنَّ خَيْرٌ لَهنَّ»[1] »[2].

---

(١) رواه مسلم (٤٤٢)، عن ابنِ عُمَرَ.
(٢) «مكارم الأخلاق» لابن تيميَّةَ (ص١٥٦).

وضدُّ الغَيْرَةِ الدّياثةُ، وضِدُّ الغَـيُورِ الدَّيُّوثُ: وَهُوَ الَّذي يُقِرُّ السُّوءَ فِي أَهْلِه، ويَسْـمَحُ لأَهْلِه بالنَّظَرِ للـرِّجالِ العُـرَاةِ في التِّلْفَـازِ، وَهُمْ يُعَـانِقُـونَ النِّسَـاءَ، أو يَتَحَدَّثُـونَ مَعَهُنَّ، ولا غَيْرَةَ لَـهُمْ عَلَيْهِنَّ، فالدَّيُّوثُ مُنْحَطُّ القَدْرِ، دَنِيءُ الـهِمَّةِ، عديمُ الشَّرَفِ، لا يَسُودُ قَوْمَهُ، بل لا يَسُودُ قَوْمَهُ إلاَّ غَيُورٌ على مَحَارِمِه.

والدَّياثَةُ كبيرةٌ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنوبِ.

فَـعَنِ ابْنِ عُمَـرَ -رضي الله عنه- أنَّ رَسُولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قَـالَ: «ثَلاثةٌ قَـدْ حَـرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، والعَاقُّ، والدَّيُّوثُ الذي يُقِرُّ في أهْلِهِ الخُبْثَ»[1].



(١) رواه أحمدُ في «المسند»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٠٥٢).

عَدَمُ الانْشِغَالِ بعُيُوبِ النَّاسِ

العَاقِلُ هُوَ الَّذِي ينشغلُ بعُيُوبِ نَفْسِهِ عن عُـيُوبِ غَيْرِه، وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ فَلابُدَّ أَنْ ترتاحَ له النُّفُوسُ، وَتَأْنَسُ بقُرْبِهِ القُلُوبُ، فهو محبوبٌ أَيْنَمَا حَلَّ وارْتَحَلَ.

ولا ينشغلُ بعُيُوبِ النَّاسِ عَنْ عيبِ نَفْسِهِ إلاَّ غيرُ الواثقِ بنفْسه، الَّذي يُحَاولُ أَنْ يُغَطِّي عُـيُوبَهُ بِذَلِكَ الأسلوبِ الرَّخِـيصِ، وَقَدْ سَـمِعَ أَعْرَابِيٌّ رَجُـلاً يَقَعُ فِي النَّاسِ، فَقَـالَ: «قَد اسْـتَدْلَلْتُ على عُـيُوبِكَ بكَثْـرَةِ ذِكْرِك لعُـيُوبِ النَّاسِ؛ لأَنَّ الطَّالِبَ لها يَطْلُبُهَا بقَدْرِ مَا فيهِ منها».

والإِنْسانُ ـ لنَقْصه ـ يـتوصَّلُ إلى عَيْبِ أَخِيهِ مَعَ خَفَائِه، ويَنْـسَى عَيْبَ نَفْسِه مَعَ ظُهُورِهِ ظُهوراً مُسْتَحْكَمًا لا خَفَاءَ بِه.

فَعَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَـالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «يَبْـصُرُ أَحَـدُكُمُ القَذَى[1] في عَيْنِ أخيه[2]، ويَنْسَى الجِذْعَ[3] في عَيْنِه»[4].

قَالَ الشَّاعِرُ:

قَبِـيحٌ مِنَ الإنسـانِ يَنْسَى عُـيُـوبَهُ ... ويَذْكُرُ عَيْبًا في أَخِـيْهِ قَدِ اخْـتَفَى
ولو كَـانَ ذا عَـقْلٍ لَمَا عَـابَ غَـيْـرَهُ ... وفِـيـهِ عُـيُـوبٌ لو رآها قَـدِ اكْـتَـفَى

---

(١) القَذى: ما يقع في العين مِنْ تُرابٍ أو وَسَخٍ، والمُفْرَدُ قَذَاةٌ.
(٢) أي في الإسلام.
(٣) الجِذْع: واحد جُذُوعِ النَّخْلِ.
(٤) رواه ابن حِبَّـانَ في «صحيـحه» (١٨٤٨)، وأبو نُعَيْمٍ في «الحليـة» (٤/ ٩٩)، وصحَّحـه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ١٣ · ٨)، و«الصَّحيحة» (٣٣).

وقال الآخرُ:

إذا أَنْتَ عِبْتَ النَّاسَ عَابُوا وأَكْثَرُوا ... عليك، وأَبْدَوا منْكَ ما كان يُسْتَرْ

وقَدْ كَانَ في بَعْضِ الأقاويلِ قائلٌ ... لَهُ مَنْطِقٌ فيه كلامٌ مُحَبَّرُ

إذا مَا ذكرْتَ النَّاسَ فاتْرُكْ عُيُوبَهُم ... فلا عَيْبَ إلاَّ ما دونَ ما مِنْكَ يُذْكَرُ

وَإِنْ عِبْتَ قومًا بالَّذي ليس فِيهِم ... فَذلكَ عِنْدَ اللهِ والنَّاسِ أَكْبَرُ

وإنْ عِبْتَ قومًا بالَّذي فيك مِثْلُهُ ... فَكَيْفَ يَعِيبُ العُورَ مَنْ هُوَ أَعْوَرُ؟!

وَكَيْفَ يَعِيبُ النَّاسَ مَنْ عَيْبُ نَفْسِهِ ... أَشَدُّ - إذا عَدَّ العُيُوبَ - وأَنْكَرُ؟!

مَتَى تَلْتَمِسْ للنَّاسِ عَيْبًا تَجِدْ لَهُمْ ... عُيُوبًا، ولكنَّ الَّذي فيكَ أَكْثَرُ

فَسَالِمْهُمْ بالكَفِّ عَنْهُمْ؛ فإنَّهُمْ ... بِعَيْبِكَ مِنْ عَيْنَيْكَ أَهْدَى وأَبْصَرُ»[1]

ولابُدَّ للمَرْءِ منَ الوَرَعِ والكَفِّ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، فَقَدْ تَكُونُ الغَفْلَةُ عَنْ عُيُوبِ النَّفْسِ هي السَّبَبَ، كَمَا قَالَ عَوْنُ بنُ عبد الله: «مَا أَحْسَبُ أَحَدًا تَفَرَّغَ لِعَيْبِ النَّاسِ إلاَّ مِنْ غَفْلَةٍ غَفَلَهَا عَنْ نَفْسِه»[2].

وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عبدِ الله: «إذا رأيتُمُ الرَّجُلَ مُوكَّلاً بِعيُوبِ النَّاسِ، ناسيًا لعَيْبِه - فاعلموا أنَّهُ قَدْ مُكِرَ بِه»[3].

ولقي وَرِعٌ وَرِعًا، فَقَالَ له: «يا أخي، إنِّي لأُحِبُّكَ في الله». قَالَ الآخرُ: «لو عَلِمْتُ مِنْكَ مَا تَعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ، لَكَانَ لي فيمَا أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي شُغْلٌ عن بُغْضِكَ»[4].

---

(١) «روضة العقلاء» (ص١٢٥ - ١٢٦).
(٢) «صفة الصَّفْوَة» (٣/ ١٠١).
(٣) المرجع السَّابق (٣/ ٢٤٩).
(٤) «عيون الأخبار» (٦/ ٣٦٧).

قَالَ الشَّافعيُّ - يرحمهُ اللهُ -:

المَرْءُ إنْ كَانَ عَاقِلاً وَرِعَا ▪▪▪ أَشْغَلَهُ عَنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ وَرَعُهْ
كَمَا العَلِيلُ السَّقِيمُ أَشْغَلَهُ ▪▪▪ عَنْ وَجَعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَجَعُهْ[(١)]

ولا يَنْشَغِلُ بِعُيُوبِ النَّاسِ عن عُيُوب نَفْسه إلاَّ مَنْ سَفُلَتْ نَفْسُهُ، وتَعَدَّتْ به همتُهُ عَنْ نَيْلِ مكَارِمِ الأَخْلاقِ ومعاليها، بَلْ لَقَدْ عَدَّ الإِمَامُ السَّخَاوِيُّ - يرحمه اللهُ - الانْشِغَالُ بِعُيُوبِ النَّاسِ مِنْ خَوَارِمِ المُرُوءَةِ[(٢)].

ومَنْ كَلَّفَ نَفْسَهُ البَحْثَ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، بَحَثَ النَّاسُ عن عُيُوبِهِ؛ فَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ.

قَالَ الأَعْمَشُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ يقولَ: «إنِّي لأَرَى الشَّيْءَ أَكْرَهُهُ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَتَكَلَّمَ فيه إلاَّ مَخَافةُ أنْ أُبْتَلَى بمثله»[(٣)].

وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ - يرحمه اللهُ -: «عَيَّرْتُ رجلاً، وقلتُ: يا مُفْلِسُ، فأفلسْتُ بَعْدَ أربعينَ سنةً»[(٤)].

قَالَ الشَّاعرُ:

لا تَلْتَمِسْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ ما سَتَرُوا ▪▪▪ فَيَهْتِكَ اللهُ سِتْرَاً مِنْ مَسَاوِيْكَا
واذْكُرْ مَحَاسِنَ ما فيهِمْ إذا ذُكِرُوا ▪▪▪ ولا تَعِبْ أحَداً منْهُمْ بما فِيْكَا[(٥)]

---

(١) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص٧٩).
(٢) «فتح المغيث» (١/ ٢٩١).
(٣) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٧٧٥).
(٤) «صيد الخاطر» (ص٤٠).
(٥) «أَدَب الدُّنْيَا وَالدِّين» (ص٢٦٦)

حِفْظُ اللِّسَانِ

مَنَحَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الإِنْسَانَ نِعَمًا عَظِيمَةً، وَمِنْ أَعْظَمِهَا - بَعْدَ نعمَة الهُدَى والإيمانِ - نِعْمَةُ اللِّسَانِ، وَمِنْ شُكْرَانِ هذه النِّعْمَةِ أَنْ نستخْدِمَهَا في طَاعَةِ اللهِ، والامْتِنَاعِ عَنِ النُّطْقِ بِمَا لا يَسُوغُ شرعًا مِمَّا لا حَاجَةَ للمُتَكَلِّمِ بِهِ[1].

والإِنْسَانُ مَسْئُولٌ عَمَّا قَالَهُ أو تلفَّظَ بِهِ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿وَلَا تَقْفُ[2] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (سورة الإسراء:٣٦).

وقالَ اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ[3] عَتِيدٌ[4]﴾ (سورة ق:١٨).

فَعَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ حَرَكَةِ لِسَانه، فلا يتكلَّمُ إلاَّ بما هو خيرٌ، وإلاَّ فالسُّكوتُ عنه أفضل من التَّكلُّم به، اللهُمَّ إلاَّ ما تدعو إليه الحاجَةُ مِمَّا لابُدَّ مِنْهُ.

فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ، واليومِ الآخرِ، فَلْيَقُلْ خيرًا أو لِيَصْمُتْ»[5].

---

(١) «فتح الباري» (١١/٣٠٨).

(٢) لا تَقْفُ: لا تتبعْ.

(٣) رقيبٌ: مَلَكٌ يَرْقُبُهُ.

(٤) عَتِيدٌ: حَاضِرٌ مُهيَّأٌ.

(٥) رواه البخاريُّ (٦٠١٨) و(٦١٣٦) و(٦١٣٨) و(٦٣٧٥)، ومسلمٌ (٤٧).

قَالَ النَّوَوِيُّ - يرحمه اللهُ -: «وهذا الحديثُ صَرِيحٌ في أَنَّهُ ينبغي ألاَّ يَتكلَّمَ إلاَّ إذَا كَانَ الكَلَامُ خَيْرًا، وهو الَّذِي ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهُ، وَمَتَى شَكَّ في ظُهُورِ المصلحةِ فَلا يتكلَّمُ»[(١)].

قَالَ الشَّاعِرُ:

الصَّمْتُ زَيْنٌ، والسُّكُوتُ سَلامَةٌ ⁂ فإذا نَطَقْتَ فلا تَكُنْ مِكْثَارا
فإذا نَدِمْتَ عَلَى سُكُوتِكَ مَرَّةً ⁂ فَلَتَنْدَمَنَّ على الكلامِ مِرَارا[(٢)]

وَقَالَ آخَرُ:

إنَّ القَلِيلَ مِنَ الكلامِ بأَهْلِهِ ⁂ حَسَنٌ، وإنَّ كَثِيرَهُ مَمْقُوتُ
ما زَلَّ ذو صَمْتٍ، وما مِنْ مُكْثِرٍ ⁂ إلاَّ يَزِلُّ، وما يُعَابُ صَمُوتُ[(٣)]

وقال عبدُ الله بن المبارك:

واغْتَنِمْ ركعتينِ زُلْفَى[(٤)] إلى اللَّـ ⁂ ـهِ إذا كُنْتَ فارغًا مُسْتَرِيحا
وإذا ما هَمَمْتَ بالمَنْطِقِ البا ⁂ طلِ فاجعلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحا
إنَّ بَعْضَ السُّكُوتِ خيرٌ مِنَ النُّطْـ ⁂ ـقِ وإنْ كُنْتَ بالكلامِ فَصِيحا

والأَحَادِيثُ في بَيَانِ خَطَرِ اللِّسَانِ، وَشَرِّهِ عَلَى المَرْءِ - مَا لَمْ يَضْبِطْهُ - كَثِيرَةٌ، منها حديثُ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ - رضي الله عنه - قَالَ: «يا رسولَ الله، ما النَّجاةُ؟». قَالَ: «أَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ على خطيئَتِكَ»[(٥)].

---

(١) «رياض الصَّالحين» (ص٤٤٥).
(٢) و (٣) «جواهر الأدب» (ص٧١٨).
(٤) الزُّلْفَى: القُرْبَةُ وَالمَنْزِلَةُ.
(٥) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٠٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٣٩٢)، و«الصَّحيحة» (٨٩٠).

وَعَنْ سُفْيانَ بْنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ قَالَ: قلتُ: «يا رسولَ اللهِ، حدِّثْني بأمرٍ أعْتَصِمُ به». قَالَ: «قُلْ: رَبِّيَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ». قلتُ: «يا رسولَ اللهِ، ما أَخْوَفُ ما تَخَافُ عليَّ؟». فأخَذَ بلسانِ نفسِهِ، ثُمَّ قال: «هذا»[(١)].

ولَمَّا دَلَّ -ﷺ- مُعَاذًا على خِصَالِ الخيرِ - الصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحَجِّ، والصَّدقة، وقيام اللَّيل، والجهاد - قَالَ لهُ: «ألاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ ذَلِكَ كُلِّه؟». قال: «بَلَى، يا رسولَ اللهِ». فأخَذَ بِلسانِهِ، وقال: «كُفَّ عليك هذا». قال: «يا نبيَّ اللهِ، وإنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بما نتكلَّمُ بِهِ؟!». فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ[(٢)] يا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجُوهِهِمْ - أو على مَنَاخِرِهِمْ - إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»[(٣)].

وَعَنْ أَبِي سعيد الخُدْريِّ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبيِّ -ﷺ- قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسانَ[(٤)]، فتقولُ: اتَّقِ اللهَ فينا، فإنَّما نَحْنُ بكَ، فإنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وإنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا»[(٥)].

وحِفْظُ اللِّسَانِ عمَّا لا خيرَ فيه من أعظَمِ أَعْمَالِ ابن آدمَ.

فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعديِّ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «مَنْ يَضْمَنْ لي ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ[(٦)]، وما بَيْنَ رِجْلَيْهِ[(٧)]، أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»[(٨)].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤١٠)، وقال: حَسَنٌ صحيحٌ، وابْنُ مَاجَة (٣٩٧٢).

(٢) ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ: فَقَدَتْكَ.

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٦١٦)، وابن مَاجَة (٣٩٧٣)، وصَحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٥١٣٦).

(٤) تُكفِّرُ اللِّسانَ: تَذلُّ وتَخْضَعُ له، أو هو كِنايةٌ عن تنزيلِ الأعضاء اللِّسانَ منزلةَ الكافرِ بالنِّعَمِ.

(٥) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٠٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٥١).

(٦) ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ: هو اللِّسانُ. واللَّحْيانِ: هما العَظْمَانِ اللَّذانِ تَنْبُتُ عليهما الأَسْنَانُ، وَجَمْعُ لَحْيٍ أَلْحٍ عَلَى أَفْعُلٍ، وَلُحِيٌّ عَلَى فُعُولٍ.

(٧) ما بَيْنَ رِجْلَيْهِ: هو الفَرْجُ.

(٨) رواه البخاريُّ (٦٤٧٤) و(٦٨٠٧).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ»[١].

وَغَالِبُ كَلامِ ابْنِ آدَمَ عليه لا له.

فَعَنْ أُمِّ المؤْمنينَ أُمِّ حَبِيبَةَ -رضي الله عنها- عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «كُلُّ كَلامِ ابْنِ آدمَ عليه لا لَهُ، إلاَّ أَمْرًا بمعروفٍ، أو نَهْيًا عنْ مُنْكَرٍ، أو ذِكْرًا لله - عَزَّ وَجَلَّ -»[٢].

فَإِذا كَانَ الأمرُ كَذَلِكَ، فحَرِيٌّ بالْعَاقِلِ أنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ؛ لأَنَّهَا قَدْ تَزِلُّ على حِينِ غَفْلَةٍ منْهُ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: «إنَّ الْعَبْدَ ليتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ ما يتبيَّنُ[٣] ما فيها، يَهْوِي بها في النَّارِ أَبْعَدَ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمغْرِبِ»[٤].

وعنه ـ أَيْضًا ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ العَبْدَ لَيتكلَّمُ بالكَلِمَةِ من رِضْوَانِ اللهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يرفَعُهُ اللهُ بها دَرَجَاتٍ، وإنَّ العَبْدَ لَيَتكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لا يُلْقي لها بالاً، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ»[٥].

قَالَ ابنُ حَجَرٍ - يرحمه اللهُ -: «لا يُلْقِي لها بالاً: أَيْ لا يَتَأَمَّلُها بِخَاطِرِهِ، ولا يَتَفَكَّرُ في عَاقِبَتِهَا، ولا يَظُنُّ أَنَّهَا تُؤَثِّرُ شيئًا»[٦].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣١٧)، وابن مَاجَة (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٩١١).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٤١٢)، وابن مَاجَة (٣٩٧٤)، وحسَّنه الأرناؤوط في «جامع الأصول» (١١/ ٧٣١).
(٣) يتبيَّن: يفكِّر أنَّها خيرٌ أم لا.
(٤) رواه البخاريُّ (٦٤٧٧)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (٢٩٨٨).
(٥) رواه البخاريُّ (٦٤٧٨).
(٦) «فتح الباري» (١١/ ٣١١).

ولله درُّ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ -رضي الله عنه- حينَ قَالَ: «مَنْ كَثُرَ كلامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ»[(١)]، ومَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ، ومَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ كَانَتِ النَّارُ أولى بِهِ»[(٢)].

قَالَ الشَّاعِرُ:

يُصَابُ الفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بلسانِهِ ▫▪▫ وليسَ يُصَابُ المَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

فَعَثْرَتُهُ فِي القَوْلِ تُذْهِبُ رَأْسَهُ ▫▪▫ وعَثْرَتُهُ بالرِّجْلِ تَبْرَا[(٣)] على مَهْلِ[(٤)(٥)]

وَقَالَ آخرُ:

احْفَظْ لِسَانَكَ أيُّهَا الإنْسَانُ ▫▪▫ لا يَلْدَغَنَّكَ، إنَّهُ ثُعْبَانُ

كَمْ في المَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ ▫▪▫ كانتْ تَهَابُ لقاءَهُ الشُّجْعَانُ[(٦)]



(١) السَّقَطُ - بفتْحَتَيْنِ - : الخَطَأُ في الكَلامِ.

(٢) «جامع العلوم والحكَم» (ص١٦١).

(٣) تَبْرَا: تُشْفَى، وأَصلُها تَبْرَأُ، فَحُذِفَتِ الهَمْزَةُ تَسْهِيلاً.

(٤) المَهْل: التُّؤَدَةُ والتَّأَنِّي.

(٥) «شذرات الذَّهب» (٢/١٠٦).

(٦) «جواهر الأدب» (ص٧١٨).

تَجَنُّبُ آفَاتِ اللِّسَانِ

الآفةُ الأولى

الغِيبَةُ

الغِيبَةُ مِنْ أَخْطَرِ آفَاتِ اللِّسَانِ، وهِيَ مَرَضٌ خَطِيرٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ الأَحْبَابِ، ومِنْ أَحْسَنِ تَعَارِيفِها: «ذِكْرُ العَيْبِ بِظَهْرِ الغَيْبِ»[١].

وأَحْسَنُ مِنْ ذَلِكَ التَّعريفِ تعريفُ النَّبِيِّ -ﷺ- لَهَا بِأَنَّهَا: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ مِنْ خَلْفِه.

فَعَنِ المُطَّلِب بن عَبْد الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -ﷺ-: **«الغِيبَةُ: أنْ تَذْكُرَ الرَّجُلَ بما فِيهِ مِنْ خَلْفِهِ[٢]»[٣]**.

وعَنْ أبي هريرةَ -رضي الله عنه- أنَّ رَسُولَ الله -ﷺ- قَالَ: **«أَتَدْرُونَ ما الغِيبَةُ؟»**. **قَالُوا: «اللهُ ورسولُهُ أَعْلَمُ». قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ». قيل: «أَفَرأَيْتَ[٤] إنْ كَانَ**

---

(١) «التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف» (ص٢٥٤).

(٢) قال الغزاليُّ في «الإحياء» (٣/ ١٤٠): « اعْلَمْ أَنَّ حَدَّ الغِيبَةِ أَنْ تَذْكرَ أَخَاكَ بِما يكرهه لَوْ بَلَغَهُ، سواء ذكرتَهُ بنقْصٍ في بَدَنِه، أو نَسَبِه، أو فِي خُلُقِـهِ، أو فِي فِعْلِهِ، أو فِي قَوْلِهِ، أو فِي دِينِه، أَوْ في دُنْيَاهُ، وحتَّى في ثَوْبِه، ودَارِه، ودَابَّتِه».

(٣) رواه الخرائطيُّ في «مساوئ الأخلاق»، ورواه مالكٌ بمعناه مُرْسَلاً، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٤١٨٦)، و«الصَّحيحة» (١٩٩٢).

(٤) أَفَرَأَيْتَ: أَخْبِرْني.

في أخي ما أقولُ؟». قال: «إنْ كان فيه ما تقولُ فقد اغْتَبْتَهُ، وإنْ لم يكنْ فيه ما تقولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[1] [2].

■ أسبابُ الغِيبَةِ:

بَوَاعثُ الغِيْبَةِ كثيرةٌ، منها:

١ ـ شِفَاءُ المغتابِ غَيْظَهُ بذكْرِ مَسَاوي مَنْ يغتابُهُ.

٢ ـ مُجَامَلَةُ الأَقْرَانِ والرِّفَاقِ، ومشارَكَتُهُمْ فيما يَخُوضُونَ فيه مِنَ الغِيْبَةِ.

٣ ـ ظَنُّ المُغْتَابِ في غَيْرِهِ ظَنّاً سيِّئًا مَدْعاةٌ إلى الغِيْبَةِ.

٤ ـ أنْ يُبَرِّئَ المغتابُ نَفْسَهُ مِنْ شَيْءٍ، ويَنْسُبَهُ إلى غيره، أو يَذْكُرَ غَيْرَهُ بأنَّه مُشَارِكٌ له.

٥ ـ رَفْعُ النَّفْسِ وتَزْكِيَتُهَا بتنقيصِ الغَيْرِ.

٦ ـ حَسَدُ مَنْ يُثْني عليه النَّاسُ، ويذْكُرونَهُ بخيرٍ.

٧ ـ الاستهزاءُ والسُّخْرِيَّةُ، وتحقيرُ الآخرين[3].

■ حُكْمُ الغِيْبَةِ:

الغِيْبَةُ من كَبَائِرِ الذُّنوبِ، وهي مُحَرَّمةٌ بإجْمَاعِ المسلمينَ، تظَاهَرَتْ على تحريمها أَدِلَّةُ الكِتَابِ، والسُّنَّةِ، وإِجْمَاعِ الأُمَّةِ[4].

---

(١) بَهَتَّهُ: افتريْتَ عليه الكَذِبَ، يُقَالُ: بَهَتَهُ بَهتًا وبُهْتَانًا: أيْ قَالَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْعَلْهُ، وبَابُهُ قَطَعَ.

(٢) رواه مسلمٌ (٢٥٨٩).

(٣) انظر «الإحياء» (٣/ ١٤٣ - ١٤٤) بتصرُّفٍ بإفادة «نظرة النَّعيم» (١١/ ٥١٦٣).

(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٤٧٣).

قالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى -: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الحجرات: ١٢).

فَالَّذِي يذمُّ أَخَاهُ في غَيْـبَتِهِ كَمَنْ يَنْهَشُهُ وَيَأْكُلُ لَـحْـمَهُ وهو مَيِّتٌ، لا يحسُّ ألمَ النَّهْشِ والأَكْلِ.

قَالَ ابْنُ كَثِير - يرحمه اللهُ - في تفسيرِ هذه الآية: «أي كما تَكْرَهُونَ هَذَا طَبْعاً، فَاكرهوه شَرْعًا؛ فَإِنَّ عُقُوبَتَهُ أشدُّ مِنْ هذا، وهَذَا مِنَ التَّنفيرِ عنها، والتَّحْذِيرِ منه»[١].

وَعَنْ أَنْس بْنِ مَـالِكٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَـالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «لمَّا عُـرِجَ بي مَرَرْتُ بقوم لَهُمْ أظفارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمِشُونَ[٢] وَجُوهَهُمْ وصُدُورَهُمْ، فقلتُ: مَنْ هؤلاءِ يا جبريلُ؟!. قال: هؤلاءِ الذين يأكلون لحومَ النَّاسِ، ويَقَعُونَ في أَعْرَاضِهِمْ»[٣].

وعن أبي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بلسانِهِ، ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا المسلمين، ولا تتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فإنَّهُ مَنْ تتبَّعَ عَوْرَةَ أخيه المسلم، تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، يَفْضَحْهُ ولو في جَوْفِ بَيْتِهِ»[٤].

وعن عائشـةَ - رضي الله عنها - قالتْ: قُلْتُ للنَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم -: «حَسْبُكَ[٥] مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا[٦] - قالَ بَعْضُ الرُّواةِ: تعني قَـصِيرةً -» فـقال: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لو مُزِجَ بها

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٥٤).
(٢) يَخْمِشُونَ: يَجْرَحُونَ.
(٣) رواه أبو داودَ (٤٨٧٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٢١٣)، و«الصَّحيحة» (٥٣٣).
(٤) رواه أحمد (٤/ ٤٢٠ - ٤٢١) وأبو داودَ (٤٨٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٧٩٨٤).
(٥) حَسْبُكَ: كافيك.
(٦) استدلَّ العلماءُ بهذا الحـديث بأنَّ الغِيبَةَ تقعُ بغير اللِّسان. قال النَّوويُّ: «وكـذَا سائر ما يُتوصَّلُ به إلى فَهْمِ المقصود: كأنْ يمشيَ مِشْيَتَهُ فهو غِيبَةٌ، بل هو أعظمُ من الغِيبَةِ» «الزَّواجر» (٢/ ١٧).

البَحْرُ لَمَزَجَتْهُ». قالتْ: «وحَكَيْتُ له إنسانًا»[(١)]، فقال: «ما أُحِبُّ أنِّي حَكَيْتُ إنسانًا وأنَّ لي كَذَا وكَذَا»[(٢)].

قَالَ النَّوَوِيُّ - يرحمه اللهُ -: «ومعنى مَزَجَتْهُ: خالطَتْهُ مُخَالطةً يتغيَّرُ بها طَعْمُهُ، أو رِيحُهُ لشِدَّةِ نَتْنِهَا وقُبْحِهَا، وهذا الحديثُ مِنْ أبلغِ الزَّواجِرِ عَنِ الغِيبَةِ»[(٣)].

وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «كُلُّ المسلمِ على المسلمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، ومَالُهُ، وعِرْضُهُ[(٤)]»[(٥)].

وعَنِ ابْنِ عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - أنَّ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - خَطَبَ النَّاسَ يومَ النَّحْرِ، فَقَالَ: «يا أيُّها النَّاسُ، أيُّ يومٍ هذا؟». قالوا: «يومٌ حَرَامٌ». قال: «فَأَيُّ بَلَدٍ هذا؟». قالوا: «بَلَدٌ حَرَامٌ». قال: «فأيُّ شَهْرٍ هذا؟». قالوا: «شَهْرٌ حَرَامٌ». قال: «فإنَّ دِمَاءَكُمْ، وأموالَكُمْ، وأعراضَكُمْ عليكم حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يومِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا». فأعادها مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رأسَهُ، فقال: «اللهُمَّ، هل بَلَّغْتُ؟، اللهُمَّ، هل بَلَّغْتُ؟».

قَالَ ابْنُ عبَّاسٍ - رضي الله عنهما -: «فوالذي نَفْسي بيدِهِ، إنَّها لَوَصِيَّتُهُ إلى أُمَّتِهِ: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ، لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[(٦)].

---

(١) **حَكَيْتُ له إنسانًا**: أي حَكَيْتُ له حَرَكَةَ إنسانٍ يكرهها، بمعنى: فَعَلْتُ مِثْلَ فعْله.

(٢) رواه أبو داودَ (٤٨٧٥)، والتِّرمذيُّ (٢٥٠٢)، وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥١٤٠ و٥٥١٥).

(٣) «رياض الصَّالحين» (ص٤٤٨).

(٤) **العِرْض** - بالكسر -: الحَسَبُ.

(٥) رواه مسلمٌ (٢٥٦٤).

(٦) رواه البخاريُّ (١٧٣٩).

إنَّ لِلْغَيْبَةِ خَطَرًا عَظِيمًا، وحَسْبُكَ مِنْ ذَلِكَ أنَّ مَنْ نَقَعُ فيه يَرْتَعُ في حَسَنَاتِنَا.

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: «واللهِ، لَلْغِيْبَةُ أَسْرَعُ في دِيْنِ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ مِنَ الأَكلة[1] في الجَسَدِ»[2].

وقيلَ لَهُ: إنَّ فُلانًا قَد اغْتَابَكَ، فَبَعَثَ إليه رُطَبًا على طَبَقٍ، وقالَ: «قَدْ بَلَغَنِي أنَّك أَهْدَيْتَ إِلَيَّ مِنْ حَسَنَاتِكَ، فَأَرَدْتُ أنْ أُكَافِئَكَ عليها، فاعْذُرْنِي فَإِنِّي لا أَقْدِرُ أنْ أُكافئَكَ على التَّمَامِ»[3].

وكَتَبَ أَشْهَبُ بن عبد العزيز إلى رجلٍ كانَ يقعُ فيه: «أمَّا بَعْدُ، فإنَّه لم يَمْنَعْنِي أنْ أَكْتُبَ إِلَيْكَ أَنْ تَتَـزَايَدَ مِمَّا أَنْتَ فيه إلاَّ كَـرَاهِيَةُ أنْ أُعِيْنَكَ على مَعْـصِيَةِ اللهِ، واعْلَمْ أَنِّي أَرْتَعُ في حَسَنَاتِكَ كَمَا تَرْعَى الشَّاةُ الخَضِرَ، والسَّلام»[4].

وقَالَ رجلٌ للفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ: إنَّ فُلانًا يَغْتَابُنِي. قَـالَ: «قَدْ جَلَبَ لَكَ الخَيْرَ جَلْبًا»[5].

وقَالَ عبدُ الرَّحمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ: «لولا أَنِّي أَكْرَهُ أنْ يُعْصَى اللهُ، تَمَنَّيْتُ أَلاَّ يَبْقَى في هذا المَصْرِ أحَدٌ إلاَّ وَقَعَ فِيَّ وَاغْتَابَنِي؛ فَأَيُّ شَيْءٍ أَهْنَأُ مِنْ حَسَنَةٍ يَجِدُهَا الرَّجُلُ في صَحِيفَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَمْ يعملْهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِهَا»[6].

---

(١) الأكلة: دَاءٌ يقَعُ في العُضْوِ، فَيَأْتَكِلُ مِنْهُ.
(٢) «الإحياء» (٣/ ١٤٠).
(٣) المرجع السَّابق (٣/ ١٥١).
(٤) «ترتيب المدارك» (١/ ٤٥٩).
(٥) «حِلْيَةُ الأولياء» (١٠٤).
(٦) «صفة الصَّفْوَة» (٤/ ٥ - ٦).

قَالَ الشَّاعِرُ:

يُشَارِكُكَ المُغْتَابُ في حَسَنَاتِهِ ... ويُعْطِيكَ أَجْرَيْ صَوْمِهِ وصَلاَتِهِ
وَيَحْمِلُ وِزْرًا عَنْكَ ضَنَّ بحمله ... عَنِ النُّجُبِ[1] مِنْ أَبْنَائِهِ وبَنَاتِهِ
فلا تَعْجَبُوا مِنْ جاهلٍ ضَرَّ نَفْسَهُ ... بإِمْعَانِهِ، في نفعِ بَعْضِ عُدَاتِهِ
ويَحْمِلُ مِنْ أَوْزَارِهِ وذُنُوبِهِ ... ويَهْلِكُ في تَخْلِيصِهِ ونَجَاتِهِ[2]

■ ما موقفُ مَنْ سَمِعَ الغِيْبَةَ؟:

على مَنْ سَمِعَ الغِيْبَةَ أَنْ يَرُدَّهَا، وَيَنْصَحَ قَائِلَها، فإنْ لم يقبلِ المغتابُ منه النَّصيحةَ، وَجَبَ عليه أنْ يُفارِقَ ذلك المجْلِسَ، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ، وَإِنْ خَذَلَهُ خَذَلَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتَهُ.

فَعَنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ، وأبي طَلْحَةَ بنِ سَهْلٍ -رضي الله عنهما- قالا: قالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «ما مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا في مَوْضِعٍ يُنْتَهَكُ فيه حُرْمَتُهُ، ويُنْتَقَصُ فيه مِنْ عِرْضِهِ. إلا خَذَلَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنِ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا في مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فيه مِنْ عِرْضِهِ، ويُنْتَهَكُ فيه مِنْ حُرْمَتِهِ - إلاَّ نَصَرَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ»[3].

وَعَنْ أبي الدَّرْدَاءِ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أخيه، رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يومَ القيامةِ»[4].

---

(١) النُّجُب: جمعُ نجيبٍ، وهُوَ الكَرِيمُ، وبَابُهُ ظَرُفَ.
(٢) «إرشاد العباد» (ص١٠٤).
(٣) رواه أبو داودَ - واللَّفظ له - (٤٨٨٤)، وأحمدُ (٤/ ٣٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٦٩٠).
(٤) رواه التِّرمذيُّ (١٩٣١)، وأحمدُ (٦/ ٤٥٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٢٦٢).

وعن أسماءَ بنتِ يزيدَ الأنْـصاريَّةِ -رضي الله عنها- عَنِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرْضِ أخيهِ بالغَيْبةِ، كان حقّاً على اللهِ أنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ»[(١)].

وَعَن عِتْبَانَ بْنِ مَالكٍ الأَنْصَارِيِّ -رضي الله عنه- في حديثِهِ الطَّويلِ المشهورِ قَالَ: قَامَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- يُصَلِّي، فَقَالُوا: «أَيْنَ مَالِكُ بن الدُّخَيْشِنِ -أَوِ ابْنُ الدُّخْشُنِ-؟». فقال بَعْضُهم: «ذلك مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ!». فقالَ رسول اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «لا تَقُلْ ذلكَ؛ ألاَ تَرَاهُ قَدْ قال: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، يريدُ بذلك وَجْهَ اللهِ؟!». قال: «اللهُ ورسولُهُ أعلمُ»، قالَ: «فإنَّا نَرَى وَجْهَهُ ونصيحتَهُ إلى المنافقين». فقالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ على النَّارِ مَنْ قال: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، يَبْتَغي بذلك وَجْهَ اللهِ»[(٢)].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالكٍ -رضي الله عنه- في حديثِهِ الطَّويلِ في قصَّةِ توبتِهِ قالَ: قالَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- وهو جالسٌ في القَوْمِ بتَبُوكَ: «ما فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مالكٍ؟». قال رجلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ: «يا رسولَ اللهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، والنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ[(٣)]». فقال له مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ -رضي الله عنه-: بِئْسَ ما قُلْتَ!، واللهِ -يا رسولَ اللهِ- ما عَلِمْنا عليه إلاَّ خيراً». فَسَكَتَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-»[(٤)(٥)].

---

(١) رواه أحمدُ (٦/ ٤٦١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٢٤٠).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٢٥)، (١١٨٦)، و(٥٤٠١) و(٦٩٣٨)، ومسلمٌ (٣٣).

(٣) عِطْفَيْهِ: جانبيه. والعبارة كنايةٌ عَنِ الخُيَلاءِ والعُجْبِ والكِبْرِ.

(٤) رواه البخاريُّ (٤٤١٨)، ومسلمٌ -واللَّفظ له- (٢٧٦٩).

(٥) قال النَّوويُّ -يرحمه الله-: «ينبغي لِمَنْ سَمِعَ غِيبَةَ مسلمٍ أنْ يَرُدَّها، ويَزْجُرَ قائلَها، فإنْ لم يَنْزَجِرْ بالكلامِ زَجَرَهُ بيدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ باليدِ ولا باللِّسانِ، فارق ذلك المجلسَ، فإنْ سمع غِيبَةَ شَيْخِهِ، أو غيره مِمَّنْ له عليه حقٌّ، أو من أهلِ الفَضْلِ والصَّلاحِ -كان الاعتناءُ بما ذكرناه أكثرَ». «الأذكار» (ص٢٩٤).

قَالَ أبو الحَسَنِ بْنُ الحارثِ الهاشميُّ:

وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قَبِيحِ الكَلا ... مِ كَصَوْنِ اللِّسانِ عَنِ النُّطْقِ بِهْ
فَإنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ القَبِيـ ... ـحِ شَرِيكٌ لقَائِلِهِ فَانْتَبِهْ [(١)]

■ *مَا يُبَاحُ مِنَ الغِيْبَةِ؟:*

قَالَ النَّوويُّ - يرحمه اللهُ -: «اعْلَمْ أَنَّ الغِيْبَةَ تُبَاحُ لِغَرَضٍ صَحِيحٍ شَرْعِيٍّ، لا يمكنُ الوصولُ إليه إلاَّ بها، وهي سِتَّةُ أَسْبَابٍ:

الأوَّلُ - التَّظلُّمُ: فَيَجُوزُ للْمَظْلُومِ أَنْ يَتَظَلَّمَ إِلَى السُّلطانِ، والقَاضِي، وغيرهما ممَّنْ له وِلايةٌ، أو قُدْرَةٌ على إِنْصَافِهِ مِنْ ظَالِمِهِ، فَيَقُولُ: ظَلَمَنِي فُلانٌ بكذا.

الثَّاني - الاستعانة على تغييرِ المنكَرِ: وردِّ العَاصِي إِلَى الصَّوَابِ، فَيَقُولُ لمن يرجو قُدْرَتَهُ على إزالة المنكر: فُلانٌ يَعْمَلُ كَذا، فَازْجُرْهُ عنه، ونحو ذلك، ويكُونُ مَقْصُودُهُ التَّوصُّلَ إلى إِزَالَةِ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ ذلكَ كَانَ حَرَامًا.

الثَّالثُ - الاستفتاء: فيقول لـلمُفْتي: ظَلَمَني أبي - أو أخي، أو زوجي، أو فُلانٌ - بكذا، فهل له ذلك؟، وما طريقي في الخَلاَصِ منه، وتحصيلِ حقِّي، ودَفْعِ الظُّلْمِ؟، ونحو ذلك، فهذا جائزٌ للحاجةِ، ولكنَّ الأَحْوَطَ والأفضلَ أنْ يقولَ: ما تقولُ في رَجُلٍ - أو شَخْصٍ، أو زَوْجٍ - كَانَ من أمره كذا؟؛ فإنَّه يَحْصُلُ به الغَرَضُ مِنْ غَيْرِ تعيينٍ، ومع ذلك فالتَّعيينُ جائزٌ.

الرَّابع - تحذيرُ المسلمين من الشَّرِّ ونصيحتُهُمْ: وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٨٤).

منها: جَرْحُ المَجْرُوحين مِنَ الرُّوَاةِ والشُّهُودِ، وَذَلِكَ جَائِزٌ بإجْمَاعِ المسلمينَ، بَلْ وَاجِبٌ للحَاجَةِ.

ومنها: المُشَاوَرَةُ في مُصَاهَرَةِ إنْسَانٍ، أو مُشَارَكَتِه، أو إيدَاعِه، أو مُعَاملته، أو غَيْرِ ذَلِكَ، أو مُجَاوَرَتِهِ، ويَجِبُ على المُشَاوَرِ ألاَّ يُخْفِي حَالَهُ، بَلْ يَذْكُرُ المساويَ التي فيه بنيَّةِ النَّصِيحَةِ.

ومنها: إذَا رَأَى مُتَفَقِّهًا يترددُ إلى مُبْتَدِعٍ، أو فَاسِقٍ، يَأْخُذُ عَنْهُ العِلْمَ، وَخَافَ أَنْ يَتَضَرَّرَ المُتَفَقِّهُ بِذَلِكَ، فَعَلَيْه نصيحتُهُ ببيانِ حاله، بشَرْطِ أنْ يَقْصِدَ النَّصِيحَةَ، وَهَذَا مِمَّا يُغْلَطُ فِيه، وقَدْ يَحْمِلُ المُتَكَلِّمَ بذلكَ الحَسَدُ، ويُلَبِّسُ الشَّيطانُ عليه ذَلِكَ، ويُخَيِّلُ إليه أنَّهُ نَصيحةٌ، فَلْيَتَفَطَّنْ لِذَلِكَ.

ومنها: أنْ يكُونَ لَهُ وِلاَيَةٌ لا يقومُ بِهَا عَلَى وَجْهِهَا: إمَّا بألاَّ يكُونَ صَالِحًا لَهَا، وَإِمَّا بِأَنْ يكُونَ فَاسِقًا، أو مُغَفَّلاً، ونَحْوَ ذَلِكَ، فَيَجِبُ ذِكْرُ ذَلِكَ لِمَنْ له عليه وِلاَيَةٌ عَامَّةٌ؛ لِيُزِيلَهُ ويُوَلِّيَ مَنْ يُصْلِحُ، أو يَعْلَمَ ذلك منه لِيُعَامِلَهُ بِمُقْتَضَى حَالِه، ولا يَغْتَرَّ بِهِ، وأَنْ يَسْعَى في أَنْ يَحُثَّهُ على الاسْتِقَامَةِ، أو يَسْتَبْدِلَ بِه.

الخَامِسُ - أنْ يكونَ مُجَاهِرًا بِفِسْقِهِ، أو بِدْعَتِهِ: كالمُجَاهِر بِشُرْبِ الخَمْرِ، ومُصَادَرَةِ النَّاسِ، وأَخْذِ المَكْسِ [١]، وجِبَايَةِ الأَمْوَالِ ظُلْمًا، وتَوَلِّي الأمورِ الباطلَةِ، فَيَجُوزُ ذِكْرُهُ بِمَا يُجَاهِرُ بِهِ، ويَحْرُمُ ذِكْرُهُ بِغَيْرِهِ مِنَ العُيُوبِ، إلاَّ أَنْ يكُونَ لِجَوَازِهِ سَبَبٌ آخَرُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ.

---

(١) المَكْس - بالفتح -: ما يُؤْخذُ من أموال النَّاس على هيئة ضَرِيْبة.

السَّادس - التَّعريف: فَإِذَا كَانَ الإِنْسَانُ مَعْـرُوفًا بِلَقَبٍ: كالأَعْمَشِ، والأَعْرَجِ، والأَصَمِّ، والأَعْمَى، والأَحْوَلِ، وَغَيْرِهِمْ - جَـازَ تعريفُهُمْ بِذَلِكَ، ويَحْرُمُ إطلاقُهُ على جِهَةِ التَّنْقِيصِ، وَلَوْ أَمْكَنَ تَعْرِيفُهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ أَوْلَى.

فَهَـذِه ستَّـةُ أَسْبَابٍ ذَكَـرَهَا العُلَمَاءُ، وأَكْـثَرُهَا مُـجْمَعٌ عَلَيْه، وَدَلائِـلُهَا مِنَ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مشهورةٌ»[1]. ثُمَّ سَاقَ - يرحمه اللهُ - تلك الأَدلَّةَ.

■ **قلتُ: هذا هُو الضَّابطُ لمن توافر فيه العلم والقصد، وقَدْ جَمَعَهَا النَّاظمُ بقولِه:**

القَـدْحُ ليس بِغِـيْـبَـةٍ فِي سِـتَّـةٍ: ■ مُـتَظَلِّمٍ، ومُـعَـرِّفٍ، ومُـحَـذِّرِ
ومُـجَـاهِرٍ فِـسـقًـا، ومُسْتَـفْتٍ، ومَنْ ■ طَلَبَ الإِعَـانَةَ في إِزَالَةِ مُنْكَرِ[2]



(١) «رياض الصَّالحين» (ص٤٥ - ٥١).
(٢) «العقيدة الطَّحاويَّة» (ص٣٤).

الآفَـةُ الثَّانيةُ

النَّمِيمَةُ

النَّميـمَةُ مِنْ أَخطَرِ آفَـاتِ اللِّسَانِ، وتُطْلَقُ فـي الغالبِ عَلَى قَـوْلِ إنْسَانٍ في إِنْسَانٍ، مثل أن يقولَ: قَـالَ فيكَ فُلانٌ كَذَا وكَذَا، ولَيْسَتْ مخـصوصةً بهذَا، بَلْ حَدُّهَا كَشْـفُ مَا يُكْرَهُ كَشْفُـهُ، سوَاءً أكَانَ مِنَ الأَقْوَالِ أَوِ الأَعْمَـالِ، حتَّى لَوْ رآه يَدْفِنُ مالاً لنفسهِ فذكره فهو نمَّامٌ[١].

وَعَدَّهَا بعـضُهم مِنْ أَنْوَاعِ السِّـحْرِ؛ لأَنَّهـا تُشَارِكُ السِّـحْرَ في التَّفْـريقِ بَيْنَ النَّاسِ، وتَغْييرِ قُلُوبِ المتحابِّين، وتَلْقِيحِ الشُّرُورِ[٢].

قَالَ يحيى بْنُ أَكْثَمَ: «النَّمَّامُ شَرٌّ مِنَ السَّاحِرِ، ويعـملُ النَّمَّامُ في سَاعَةٍ مَا لا يَعْمَلُ السَّاحِرُ في شَهْرٍ»[٣].

ويُقَال: «عملُ النَّـمَّامِ أَضَرُّ مِنْ عَـمَلِ الشَّيْطَانِ؛ لأَنَّ عَـمَلَ الشَّيْطَانِ بالخَـيَالِ والوَسْوَسَةِ، وعَمَلَ النَّمَّامِ بالمواجَهَةِ والمُعَايَنَةِ»[٤].

وإليكَ ـ أخي في الله ـ قِصَّـةً تحكي شَـرّاً مِنْ شُرُورِ النَّمِيمَـةِ الكُبْرَى، وأثرًا مِنْ آثَارِهَا السَّيِّئَةِ.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٧٤).
(٢) انظر «فتح المجيد» (ص٣٢٥).
(٣) و (٤) «تنبيه الغافلين» (ص٨٩).

رُوِيَ عن حمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ أنَّه قال: «بَاعَ رَجُلٌ عَبْـدًا، وَقَالَ لِلْمُشْـتَرِي: مَا فِـيهِ عَيْبٌ إلاَّ النَّمِـيمَةَ، قَـالَ: قَدْ رَضِيتُ، فَـاشْتَرَاهُ، فَـمَكَثَ الغُلامُ أيَّامًـا، ثُمَّ قالَ لزوجَـةِ مَوْلاهُ: إنَّ سَـيِّـدِي لا يُحِبُّكِ، وهـو يُريدُ أنْ يَتَسَـرَّى[1] عَلَيْكِ، فَـخُذِي المُوسَى[2]، واحْلِقِي مِنْ شَعْرِ قَفَاهُ عِنْدَ نَوْمِهِ شعرات؛ حَـتَّى أَسْحره عَلَيْهَا فَيُحِبُّكِ، ثُمَّ قَالَ لِلزَّوْجِ: إنَّ امْـرَأَتَكَ اتَّخَذَتْ خَلِيلاً، وَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَكَ، فَـتَنَاوَمْ لَهَا[3]؛ حَتَّى تَعْرِفَ ذَلِكَ، فَـتَنَاوَمَ لَهَا، فَجَاءَتِ المَرْأَةُ بالمُوسَى، فَظَنَّ أَنَّهَـا تُرِيدُ قَتْلَهُ، فَقَـامَ إِلَيْهَا فَقَتَلَهَا، فَجَاءَ أَهْلُ المَرْأَةِ فَقَتَلُوا الزَّوْجَ، وَوَقَعَ الْقِتَالُ بَيْنَ القَبِيلَتَيْنِ»[4].

قال الشَّاعرُ:

فَمنْ أَجْلِ وَاشٍ[5] كاشحٍ[6] بنَميمةٍ ▫▪▫ مَـشَى بَيْنَنَا صَـدَّقْـتَـهُ لَمْ تـكذبِ
وقَطَعْتَ حَبْلَ الوَصْلِ عَنَّا، ومَنْ يُطعْ ▫▪▫ بذي وُدِّه قَـوْلَ المُحَـرِّشِ[7] يُعْـتَـبِ

▪ الباعثُ على النَّميمَةِ:

يَبْعَثُ على النَّميمةِ أمورٌ، منها:

١ ـ إِرَادَةُ السُّوءِ بِالمَحْكِي عَنْهُ.

---

(١) **يَتَسَرَّى عَلَيْكِ:** يَتَزَوَّجُ أَمَةً يُسِرُّهَا وَيَسْتُرُهَا عَنْكِ.
(٢) **المُوسَى:** آلة الحَلْقِ.
(٣) **تَنَاوَمْ لَها:** تَظَاهَرْ لَهَا بالنَّوْمِ.
(٤) «الإحْيَاء» (٣/ ١٥٤).
(٥) **واشٍ:** الذي يُزَيِّنُ الحديثَ بِالكَذِبِ؛ لِيَسْعَى بَيْنَ النَّاسِ بِالإِفْسَادِ.
(٦) **كاشح:** مُضْمِر العداوة، وبَابُهُ قَطَعَ.
(٧) **المُحَرِّش:** السَّاعي بين النَّاس بالإفساد لتغيير قُلوبهم وتقاطعهم.

٢ - الحُبُّ للمحكي عنه (وهذا في ظَاهِرِ الأمْـرِ، وَإِلاَّ فَإِنَّ مَنْ يُحِبُّ إِنْسَاناً على الحقيقة فَإِنَّهُ لا يُبْلِغُهُ ما يَسُوءُهُ).

٣ - الفَرَحُ بالخَوْضِ في البَاطِلِ[1].

قَالَ الشَّاعِرُ:

تَنَحَّ عَنِ النَّمِيمَةِ واجْتَنِبْهَا ▫▪▫ فَإِنَّ النَّمَّ يُحْبِطُ كُلَّ أَجْرِ
يُثِيرُ أُخُو النَّمِيمَةِ كُلَّ شَرٍّ ▫▪▫ ويَكْشِفُ للخَلائِقِ كُلَّ سِرٍّ
وَيَقْتُلُ نَفْسَهُ وسِوَاهُ ظُلْمَاً ▫▪▫ وليس النَّمُّ مِنْ أَفْعَالِ حُرٍّ[2]

▪ حُكْمُ النَّميمةِ:

النَّميمَةُ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، فهي مُحَرَّمَةٌ بِإِجْمَاعِ المُسلمِينَ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ على تحريمِهَا الدَّلائِلُ الشَّرْعِيَّةُ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ[3].

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وتعالى-: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (سورة القلم:١١).

ثُمَّ قَالَ: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ (سورة القلم:١٣).

قَالَ عبدُ اللهِ بن المبارك: «الزَّنِيم: وَلَدُ الزِّنَى الَّذي لا يَكْتُمُ الحديثَ، وأَشَارَ بِهِ إِلَى كُلِّ مَنْ لَمْ يَكْتُمِ الحديثَ، وَمَشى بالنَّميمَةِ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ وَلَدُ زِنَى استنباطًا مِنَ الآيَةِ الكَرِيمَةِ»[4].

---

(١) انظر «الزَّواجر» (ص٣٩٦).
(٢) «موارد الظَّمآن» (٣/ ٣٨٥).
(٣) انظر «الأذكار» (ص٢٨٩)، و«الكبائر» (ص ١٦٠)، و«الزَّواجر» (ص٣٩٥).
(٤) «مكاشفة القلوب» (ص٤٥٣).

وقالَ اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَيْلٌ[1] لِّكُلِّ هُمَزَةٍ[2] لُّمَزَةٍ[3] ﴾ (سورة الهمزة: ١).

وقالَ أكثرُ المُفَسِّرينَ في قولِهِ - تعالى -: ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ (سورة المسد: ٤).

قَالُوا: إنَّ الحَطَبَ أرادَ به النَّميمَةَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ النَّميمَةُ حَطَبًا؛ لأَنَّها سَبَبٌ للعَدَاوَةِ والقِتَالِ، فَصَارَ بمنزِلَةِ إيقَادِ الحَطَبِ[4].

وعن حُذَيفةَ -رضي الله عنه- قالَ: قَالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «لا يدخلُ الجنَّةَ نَمَّامٌ»[5].

وعن ابن عبَّاسٍ -رضي الله عنهما- أنَّه قَالَ: «مَرَّ النَّبيُّ - ﷺ - على قَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إنَّهما لَيُعَذَّبانِ، وما يُعَذَّبانِ في كبيرٍ» ثُمَّ قالَ: «بَلَى، أمَّا أحَدُهما فكان يَسْعَى بالنَّميمةِ، وأمَّا الآخرُ فكان لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِه»[6].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُود -رضي الله عنه- قالَ: إنَّ محمَّدًا - ﷺ - قَالَ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ ما العَضْهُ؟[7]، هي النَّميمةُ القَالَةُ[8] بَيْنَ النَّاسِ»[9].

---

(١) وَيْلٌ: أيْ وعيدٌ ووبالٌ.

(٢) الهَمَّاز: هو الذي يَعيبُ النَّاسَ، ويطعنُ عليهم بالفعلِ والإشارةِ.

(٣) اللَّمَّاز: هو الذي يَعيبُ النَّاسَ بقولِه.

(٤) «تنبيه الغافلين» (ص٨٩).

(٥) رواه البخاريُّ (٦٠٥٦)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (١٠٥). وهنا فائدةٌ مُهِمَّةٌ حول هذا الحديث: قال ابن حجر ـ يرحمه الله ـ: «أي: في أوَّل وَهْلة كما في نظائره»، «الفتح» (١٠/ ٤٧٣).
قُلْنا: هذا مذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعة، فإنَّهم لا يُكَفِّرون أحدًا من أهل القبلةِ بشيءٍ من المعاصي ما لم يَسْتَحِلَّهُ، إلاَّ ما خصَّه الدَّليلُ.

(٦) رواه البخـاريُّ ـ واللَّفظ له ـ (٢١٦) و (٢١٨) و(١٣٦١) و(١٣٧٨) و(٦٠٥٢) و (٦٠٥٥)، ومسلمٌ (٢٩٢).

(٧) العَضْهُ - بِزِنَةِ الوَجْهِ -: مَصْدَر عَضَهَهُ عَضْهًا: أي رَمَاهُ بالعَضْه. ورُوِيَ العِضَةُ: بزنة العِدَة، وهي الكذبُ والبُهْتَانُ، وقَدْ أَطْلَقَها على النَّميمة؛ لأَنَّهَا لا تَنْفَكُّ من الكَذبِ والبُهْتَان غَالبًا، وجمعُ عِضَةٍ عِضُونَ.

(٨) القالة: كَثْرَةُ القول، أو إيقاع الخُصومةِ بَيْنَ النَّاسِ.

(٩) رواه مسلمٌ (٢٦٠٦).

وعن أبي مالك الأشْعَريِّ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟». قالوا: «بَلَى». قالَ: «المشَّاءُونَ بالنَّمِيمَةِ، المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأحِبَّةِ، البَاغُونَ للبراءِ والعَنَتَ[1]»[2].

قَالَ قتادةُ -يرحمه اللهُ-: «ذُكِرَ لنا أنَّ عذابَ القبرِ ثلاثةُ أثلاثٍ: ثُلُثٌ منَ الغِيْبَةِ، وثُلُثٌ منَ النَّمِيمَةِ، وثُلُثٌ منَ البَوْلِ»[3].

أخي، النَّمَّامُ ينبغي أنْ يُبْغَضَ، ولا يُوثَقَ بقَوْلِه، ولا بصَدَاقَتِه؛ لأنَّهُ لا يَخَافُ ربَّهُ -جَلَّ وعَلاَ-، فَدَيْدَنُهُ إيقاعُ العداوةِ والبَغْضَاءِ، وإحْلالُ التَّدَابُرِ والتَّفرُّقِ مكَانَ المحبَّةِ والاجْتِمَاعِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

تَمَشَّيْتَ فينا بالنَّميمةِ، وإنَّما ▫▪▫ تُفَرِّقُ بَيْنَ الأصْفِياءِ النَّمائِمُ

وَمَا زِلْتَ مَنْسُوبًا إلى كُلِّ آفَةٍ ▫▪▫ ومَا زالَ منسوبًا إليكَ الملائِمُ

لأنَّك لَمْ تَنْدَمْ لشَرٍّ فَعَلْتَهُ ▫▪▫ وما تَأْتِ مِنْ خَيْرٍ فَإنَّكَ نَادِمُ[4]

سَعَى رَجُلٌ بزِيَادِ الأعْجَمِ إلى سُلَيْمَانَ بن عَبْدِ الملِكِ، فجَمَعَ بَيْنَهُمَا لِلْمُوَافَقَةِ، فَأَقْبَلَ زيادٌ على الرَّجُلِ، وقالَ:

فَأَنْتَ امْرُؤٌ إمَّا ائْتَمَنْتُكَ خالِيًا ▫▪▫ فَخُنْتَ، وإمَّا قُلْتَ قولاً بلا عِلْمِ

فأنت مِنَ الأمْرِ الذي كان بَيْنَنَا ▫▪▫ بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الخِيَانَةِ وَالإثْمِ[5]

---

(١) العَنَتُ -بفتحتين-: الإثم، وبابه طَرِبَ.
(٢) رواه أحمد في «المسند».
(٣) «الإحياء» (٣/ ١٤٠).
(٤) «روضة العقلاء» (ص١٧٧).
(٥) «الإحياء» (٣/ ١٥٤).

ومَنْ نَمَّ لك اليومَ نَمَّ عليكَ غداً.

قال الحَسَنُ البَصْرِيُّ - يرحمه اللهُ -: «مَنْ نَمَّ إليك نَمَّ عليك»[1].

قالَ الشَّاعرُ:

لا تَقْبلَنَّ نَمِيْمَةً بُلِّغْتَهَا ❖ وتَحَفَّظَنَّ مِنَ الَّذي أَنْبَاكَهَا[2]

إنَّ الَّذي أَهْدَى إليكَ نَمِيمَةً ❖ سَيَنُمُّ عَنْكَ بِمِثْلِهَا قَدْ حَاكَهَا[3][4]

وقالَ آخرُ:

مَنْ نَمَّ في النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُهُ ❖ على الصَّديقِ، ولمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيهِ

كَالسَّيْلِ باللَّيلِ لا يَدْري بِهِ أَحَدٌ ❖ مِنْ أَيْنَ جَاءَ، وَلا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ؟

فالوَيْلُ للعَهْدِ منه، كيف يَنْقُضُهُ؟! ❖ والوَيْلُ للوُدِّ منه، كيف يُفْنِيهِ؟![5]

قالَ بعضُهم: «لو صَحَّ ما نَقَلَهُ النَّمَّامُ إليكَ، لكَانَ هو المُجْتَرِئُ بالشَّتْمِ عليكَ، وَالمَنْقُولُ عَنْهُ أولَى بحِلْمِكَ؛ لأنَّه لم يُقَابِلْكَ بشَتْمِكَ»[6].

قالَ الشَّاعرُ:

دَعْ عَنْكَ ذِكْرَ فُلانةٍ وفُلانٍ ❖ واجْنُبْ لما يُلْهي عَنِ الرَّحْمَنِ

واعْلَمْ بأنَّ الموتَ يأتي بَغْتَةً ❖ وجميعُ ما فَوْقَ البَسِيطَةِ فانِ

فإلى متَى تَلْهُو وقلبُكَ غافلٌ ❖ عَنْ ذِكْرِ يَوْمِ الحَشْرِ والميزانِ؟![7]

---

(١) المرجع السَّابق (٣/ ١٥٣).

(٢) أنباكها: أخبرك بها.

(٣) حاكها: نَسَجَهَا، وبابُهُ قَالَ.

(٤) «موارد الظَّمآن» (٣/ ٣٨٦).

(٥) «روضة العقلاء» (ص١٧٧).

(٦) «الإحياء» (٣/ ١٥٤).

(٧) «شذرات الذَّهب» (٥/ ٤١٥).

▪ كيف نتعاملُ مع النَّمَّام؟:

قالَ الإمامُ النَّوويُّ ـ يرحمه الله ـ: «وكُلُّ مَنْ حُمِلَتْ إليه نميمةٌ، وقيل له: فلانٌ يقول فيك كذا ـ عليه ستَّة أمورٍ:

الأوَّل ـ ألاَّ يُصَدِّقَهُ؛ لأنَّ النَّمَّامَ فاسقٌ.

الثَّاني ـ أنْ يَنْهَاهُ عَنْ ذلك وينصحَهُ، ويُقَبِّحَ له فِعْلَهُ.

الثَّالث ـ أنْ يُبْغِضَهُ في الله - تعالى -؛ فَإِنَّهُ بَغِيضٌ عِنْدَ الله - تعالى -، وَيَجِبُ بُغْضُ مَنْ أَبْغَضَهُ اللهُ - تعالى -.

الرَّابع ـ ألاَّ يَظُنَّ بِأَخِيهِ الغائبِ السُّوءَ.

الخامس ـ ألاَّ يَحْمِلَهُ ما حُكِيَ له على التَّجَسُّسِ، والبَحْثِ عَنْ ذَلِكَ.

السَّادس ـ ألاَّ يَرْضَى لنفسِهِ ما نهى النَّمَّامَ عنه، فلا يَحْكِي نَمِيمَةً عنه، فيقول: فلانٌ حكَى كذا، فيصير به نمَّامًا، ويكون آتيًا ما نَهَى عنه»[1].

وقَدْ ضرَبَ لنا السَّلَفُ أروعَ الأمثلةِ في تعامُلِهِم مع النَّمَّام، وإليك بعضًا منها:

روي أنَّ سليمانَ بن عبدِ الملك كان جالسًا وعندَه الزُّهْريُّ، فجَاءَهُ رجلٌ، فقال له سليمانُ: بَلَغَنِي أنَّكَ وَقَعْتَ فيَّ، وقُلْتَ كذا وكذا، فقالَ الرَّجلُ: ما فعلتُ ولا قلتُ. فقالَ سليمانُ: إنَّ الذي أَخْبَرَنِي صادقٌ. فقَالَ له الزُّهْريُّ: لا يكونُ النَّمَّامُ صَادِقًا. فقالَ سُليمانُ: صدقتَ، ثُمَّ قالَ للرَّجُلِ: اذْهَبْ بِسَلامٍ[2].

---

(١) «شرح مسلم» (٢/ ١١٣)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٧٣) نقلاً عن أبي حامدِ الغزاليِّ.
(٢) «الإحياء» (٣/ ١٥٣)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص١٧٤).

ورُوِيَ عن عُمَرَ بن عبدِ العزيزِ ـ يرحمه اللهُ ـ أنَّه دَخَلَ عليه رَجُلٌ، فَذَكَرَ له عن رجلٍ شيئًا، فـقَالَ له عُمَرُ: إنْ شِئْتَ نَظَرْنَا في أَمْرِكَ، فَـإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فأنت مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الآية: ﴿ إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (سورة الحجرات:٦). وإن كُنْتَ صَادقًا فأنتَ من أهلِ هذه الآيَةِ: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ (سورة القلم:١١). وإنْ شِئْتَ عَفَوْنا عَنْكَ؟. فقالَ: العَفْو ـ يا أمير المؤمنين ـ لا أعودُ إليْه أبدًا[(١)].

وَرُوِيَ عَن عليٍّ بن أبي طالبٍ -رضي الله عنه- أنَّ رجُلاً سَعَى إليه برجلٍ، فقَالَ له: يا هذا، نَحْنُ نَسْـأَلُ عـمَّا قُلْتَ، فَـإِنْ كُنْتَ صَـادِقًـا مَقَـتْنَاكَ، وإنْ كُنْتَ كَـاذِبًا عَاقَبْنَاكَ، وإنْ شِئْتَ أنْ نقيلَكَ أَقَلْنَاكَ؟. فَقَالَ: أَقِلني يا أميرَ المؤمنين[(٢)].

وَقَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ الله بن عُمَرَ ـ وكَانَ أميرًا ـ: بلَغَنِي أنَّ فُلانًا أَعْلَمَ الأميرَ أنِّي ذَكَرْتُهُ بسُوءٍ. قَالَ: قَدْ كَانَ ذلك. قَالَ: فَأَخْـبِرْني بِمَا قَالَ لك؛ حتَّى أُظْهِرَ كذِبَهُ عِنْدَكَ؟. قَالَ: ما أُحِـبُّ أنْ أَشْتِمَ نَفْسِي بِلِسَانِي، وحـسبي أنِّي لمْ أصدِّقْهُ فـيما قَالَ، ولا أقطع عنكَ الوِصَالَ[(٣)].

وقالَ رجلٌ لعَمْرِو بن عُبَيْد: إنَّ الأَسواريَّ ما يزالُ يذكرُكَ في قَصَصِه بشرٍّ. فقالَ له عَمْرٌو: يا هذا، ما رعيتَ حقَّ مُجَالَسَةِ الرَّجُلِ حيثُ نَقَلْتَ إلينا حديثَهُ، ولا أدَّيتَ حقِّي حِيْنَ أعلمتني عن أخي ما أكرَهُ، ولكنْ أعـلِمْهُ أنَّ الموتَ يَعُمُّنا، والقبرَ يَضُمُّنا، والقيامةَ تَجْمَعُنَا، والله -تعالى- يَحْكُمُ بيْنَنَا، وهو خيرُ الحاكمين[(٤)].



---

(١) و(٢) و(٣) «الإحياء» (٣/١٦٦).
(٤) المرجع السَّابق (٣/١٦٧).

الآفـة الثَّالثة

الكَـــذِبُ

الكذب: هو الإخبـارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِـلافِ الوَاقِعِ، ولَيْسَ الإخْبـارُ مقصـوراً على القَوْلِ، بَلْ قَدْ يكُونُ بالفِعْلِ: كَالإشَارَةِ باليَدِ، أو هَزِّ الرَّأْسِ، وقَدْ يكُونُ بالسُّكُوتِ[١].

وهو صفـةٌ ذميمـةٌ، وعملٌ مـرذولٌ، فهو مِنْ خِـصَالِ النِّفَـاقِ، ومن شُعَبِ الكُفْرِ، بَلْ إنَّ الكُفْرَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِهِ، فالكَذِبُ جِنْسٌ، والكُفْرُ نوعٌ تحته[٢].

والكَذِبُ مُحَرَّمٌ بإجْمَاعِ الأُمَّةِ.

قال النَّوويُّ ـ يرحمه الله ـ: «قد تَظَاهَرَتْ نصوصُ الْكِـتَابِ والسُّنَّة على تحريمِ الكذبِ في الجُمْلَةِ، وهُوَ من قـبائِحِ الذُّنُوبِ، وفَوَاحِشِ الـعُيُوبِ، وإِجْمَـاعُ الأُمَّةِ مُنْعَقِدٌ على تحريمِهِ مَعَ النُّصُوصِ المتظاهرةِ»[٣].

قَـالَ النَّبيُّ - ﷺ - مُـحَـذِّرًا مِنَ الكَذِبِ: **«وإيَّاكُمْ والكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْـدِي إلى الفُـجُـورِ، وإِنَّ الفُـجُـورَ يَهْـدِي إلى النَّارِ، ومـازال الرَّجُلُ يَكْذِبُ، وَيَتَـحَـرَّى الكَذِبَ، حتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»**[٤].

---

(١) انظر «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٦٢).
(٢) انظر «الأخلاق والسِّير» (ص١٤٦).
(٣) «الأذكار» (ص٣٢٤).
(٤) تقدَّم تخريجه، واللَّفظ هنا لمسلم.

وعن مُعَاوِيَةَ بن حيدةَ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ -ﷺ- يَقُولُ: «وَيْلٌ للذي يُحَدِّثُ بالحديثِ لِيُضْحِكَ به القومَ فيكذبُ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ»[1].

وعن أبي هريرةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ الله -ﷺ- قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[2].

وعن سَمُرَةَ بن جُنْدبٍ -رضي الله عنه- في حديثِ رُؤْيَا النبيِّ -ﷺ- أنَّه قَالَ: «لكنِّي رأيت الليلةَ رَجلين، أَتَيَانِي فَأَخَذَا بيدي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ، فإذا رجلٌ جالسٌ، ورجلٌ قائمٌ بيدهِ كَلُّوبٌ[3] من حديدٍ، يُدْخِلُهُ في شِدْقِهِ، حتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ[4]، ثُمَّ يَفْعَلُ بشِدْقِهِ الآخرِ مِثْلَ ذلك، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هذا، فيعودُ فيصنعُ مِثْلَهُ. قلتُ: ما هذا؟!. قالا: انطلقْ ...»، وفي آخرِ الحديثِ قَالَ -ﷺ- للرَّجلين: «طَوَّفْتُمَانِي الليلةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ. قالا: نَعَمْ، أمَّا الذي رأيتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فكذَّابٌ، يُحَدِّثُ بالكَذْبَةِ فَتُحْمَلُ عنه، حتَّى تَبْلُغَ الآفاقَ[5]، فَيُصْنَعُ به ما رأيتَ إلى يومِ القيامةِ...»[6].

والْكَذَّابُ مَنْزُوعُ الثِّقَةِ، كَمَا قِيلَ:

إذا عُرِفَ الإنْسَانُ بالكَذِبِ لَمْ يَزَلْ ... لَدَى النَّاسِ كذَّابًا، ولو كَانَ صَادِقا
فَإِنْ قَالَ لم تُصْغِ لَهُ جُلَسَاؤُهُ ... وَلَمْ يَسْمَعُوا مِنْهُ، ولو كان ناطِقا[7]

---

(١) رواه أَحْمَد (٥/٣)، وأبو داودَ (٤٩٩٠)، والتِّرمذي (٢٣١٥)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٧١٣٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٣) و (٢٦٨٢) و (٢٧٤٩) و(٦٠٩٥)، ومسلمٌ (٥٩).

(٣) الكَلُّوب: واحد الكَلاَليب، وهو حديدةٌ يُعَلَّقُ عليها اللَّحمُ، ويُرْسَلُ في التَّنُّور.

(٤) القَفَا: مُؤَخَّرُ العُنُقِ، يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، وَالجَمْعُ قُفِيٌّ، وأَقْفَاءٌ، وأَقْفِيَةٌ.

(٥) الآفاق: النَّوَاحِي، والمُفْرَدُ أُفُقٌ - بضمتَّين وقد تُسكَّنُ الفَاءُ -.

(٦) رواه البخاريُّ (١٣٨٦) و (٦٠٩٦) و(٧٠٤٧).

(٧) «جواهر الأدب» (ص٧١٣).

وقَالَ آخرُ:

حَسْبُ الكَذُوبِ مِنَ الْبَلِيـ ■ ـيَّةِ بَعْضُ مَا يُحْكَى عَلَيْهِ
مَهْمَا سَمِعْتَ بِكِذْبَةٍ ■ مِنْ غَيْرِهِ نُسِبَتْ إِلَيْهِ[1]

والكَذَّابُ مَهِينُ النَّفْسِ، لَيْسَ لَهُ مُرُوءَةٌ، ولا يَسُودُ ولا خيرَ فيه، كما قِيلَ:

لا يَكْذِبُ المَرْءُ إلاَّ مِنْ مَهَانَتِهِ ■ أو فِعْلِهِ السُّوءَ، أو مِنْ قِلَّةِ الأَدَبِ
لَبَعْضُ جِيفَةِ كَلْبٍ خَيْرُ رَائِحَةٍ ■ مِنْ كِذْبَةِ المَرْءِ في جِدٍّ وفي لَعِبِ[2]

وقَالَ آخرُ:

ومَا شَيءٌ إذا فكَّرتَ فِيْهِ ■ بِأذهبَ لِلمُرُوءَةِ والجَمَالِ
مِنَ الكَذِبِ الذي لا خَيرَ فِيْهِ ■ وأَبعَدَ بِالبَهَاءِ مِنَ الرِّجَالِ[3]

قالَ الماورديُّ - يرحمه اللهُ -:

«والكَذِبُ جِمَاعُ كُلِّ شرٍّ، وأَصْلُ كُلِّ ذمٍّ لسُوءِ عَوَاقِبِه، وخبثِ نَتَائِجِه؛ لأَنَّه يُنْتِجُ النَّمِيمَةَ، والنَّميمَةُ تُنتِجُ البَغْضَاءَ، والْبَغْضَاءُ تَئُولُ إِلَى العَدَاوَةِ، وليسَ مَعَ العَدَاوَةِ أَمْنٌ وَلا رَاحَةٌ؛ ولذلكَ قِيلَ: مَنْ قَلَّ صِدْقُهُ قَلَّ صَدِيقُه»[4].

قَالَ الشَّاعرُ:

نَعَمْ نَعَمْ إنَّمَا النَّمَّامُ ذُو ضَرَرٍ ■ لَكِنَّمَا الكَاذِبُ الجَانِي أَشَدُّ ضَرَرْ
أخُو النَّمِيمَةِ إنْ يَسْمَعْ يَنِمَّ، ومَنْ ■ يَكْذِبْ يَقُلْ مَا يَشَا قولاً بغَيرِ أَثَرْ
لِذَاكَ لي حِيلَةٌ فِيمَنْ يَنِمُّ، ومَا ■ لي حِيلَةٌ في كَذُوبٍ مِلءُ فِيهِ شَرَرْ[5]

---

(١) «عيون الأخبار» (٢/ ٤٢٦).
(٢) المرجع السابق (ص٧١٢).
(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٦١).
(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٦٢).
(٥) «جواهر الأدب» (ص٧١٢).

■ **ما يجوز من الكذب:**

قَالَ النَّوويُّ - يرحمه اللهُ -:

«فكُلُّ مقصود مَحْمُود يُمْكِنُ تحصيلُهُ بغَيْرِ الكَذِبِ يَحْرُمُ الكَذِبُ فيه، وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ تحصيلُهُ إلاَّ بِالكَذِبِ جَازَ الكَذِبُ، ثُمَّ إِنْ كَانَ تحصيلُ ذَلِكَ المَقْصُودِ مُبَاحًا، كَانَ الكذبُ مُبَـاحًا، وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا كَـانَ الكَذِبُ وَاجِبًا، فَإِذَا اخْـتَفَى مسلمٌ مِنْ ظَالِمٍ يُرِيدُ قتله، أو أَخْذَ ماله، وسُئِلَ إِنْـسَانٌ عنه - وَجَبَ الكَذِبُ بإِخْفَائه، وكذا لَوْ كَانَ عِنْدَهُ وَدِيعَةٌ، وأَرَادَ ظَالِمٌ أَخْذَها، وَجَبَ الكَذِبُ بإخْـفَائِهَا، والأَحْوَطُ في هَذَا كُلِّه أنْ يُوَرِّيَ، ومعنى التَّورِيَةَ: أنْ يَقْصِدَ بِعِبَارَتِه مَـقْصُودًا صَحِيحًا ليسَ هُوَ كَاذِبًا بـالنِّسْبَةِ إِلَـيْهِ، وَإِنْ كَانَ كَـاذِبًا في ظَاهِرِ اللَّفْظِ، وبالنِّسْـبَةِ إِلَى مَـا يَفْهَـمُهُ الْمُخَاطَبُ، ولو تَرَكَ التَّوْرِيَةَ، وأَطْلَقَ عبارةَ الكَذِبِ، فَلَيْسَ بِحَرَامٍ في هَذَا الحَالِ.

واستَدَلَّ العُلَمَاءُ بِجَوَازِ الكَذِبِ فِـي هَذَا الحَالِ بحديثِ أُمِّ كُلْثُومٍ - رضي الله عنها - أَنَّهَا سَـمِـعَتْ رسـولَ الله - صلى الله عليه وسلم - يَقُـولُ: «**لَيْسَ الكذَّابُ الذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي**[1] **خيراً، أو يقولُ خيراً**»[2].

زاد مسلمٌ في رِوَايَةٍ: «قَالَتْ أُمُّ كُلْثومٍ: **ولم أسمَعْهُ يُرَخِّصُ في شيءٍ ممَّا يقولُ النَّاسُ إلاَّ في ثلاثٍ، تعني: الحَرْبَ، والإصلاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وحديثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وحديثَ المرأةِ زوجَها**»[3].

---

(١) فيَنْمي خيراً: أي يُبْلِغُ خبراً فيه خيرٌ وَصَلاحٌ.
(٢) رواه البخاريُّ (٢٦٩٢)، ومسلمٌ (٢٦٠٥).
(٣) «رياض الصَّالحين» (ص٤٦٠).

فالكَذِبُ عَلَى طَرِيقِ التَّوْرِيَةِ والتَّعْرِيضِ جَائِزٌ للضَّرُورَةِ والحَاجَةِ، كَمَا سُئِلَ رسولُ اللهِ -ﷺ- وَقَدْ تَطَرَّفَ بِرِدَاءٍ، وَانْفَرَدَ عَنْ أَصْحَابِهِ، فقالَ له رَجُلٌ: ممَّنْ أَنْتَ؟. قالَ: «مِنْ ماءٍ». فَوَرَّى عَنِ الإِخْبَارِ بنَفْسِهِ بأَمْرٍ يُحْتَمَلُ، فظَنَّ السَّائلُ أنَّه عَنَى الْقَبيلَةَ المَنْسُوبَةَ إِلى ذَلِكَ، وَإِنَّما أرادَ رسولَ اللهِ -ﷺ- أنَّه مِنَ الماءِ الَّذي يُخْلَقُ مِنْهُ الإِنْسَانُ، فَبَلَغَ ما أحبَّ مِنْ إِخْفَاءِ نَفْسِهِ، وَصَدَقَ في خَبَرِهِ[١].

وكَالَّذي حُكِيَ عَنِ أَبي بكرٍ الصِّدِّيق -رضي الله عنه-: أَنَّهُ كَانَ يَسِيرُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- حِينَ هَاجَرَ مَعَهُ، فَتَلَقَّاهُ العَرَبُ، وهُمْ يعرفونَ أبا بكرٍ، ولا يعرفونَ رسولَ اللهِ -ﷺ-، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَنْ هَذَا؟. فيقولُ: **هادٍ يهديني السَّبيلَ**. فيظُنُّونَ أَنَّهُ يَعْنِي هدايةَ الطَّرِيقِ، وَهُوَ إِنَّمَا يُرِيدُ هِدَايَةَ سَبِيلَ الخَيْرِ، فَيَصْدُقُ في قَوْلِهِ، ويُوَرِّي عَنْ مُرَادِه[٢].

وَكَانَ إبراهيمُ النَّخَعِيُّ إِذَا طَلَبَهُ مَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَخْرُجَ إليهِ وَهُوَ في الدَّارِ، قَالَ لِلْجَارِيَةِ: «قُولِي لَهُ: اطْلُبْهُ في المَسْجِدِ، ولا تقولي له: ليسَ ها هنا»؛ كي لا يكونَ كذَّابًا[٣].

وكانَ الشَّعبيُّ إذا طُلِبَ في المنزِلِ وهو يكْرَهُهُ، خَطَّ دَائِرَةً، وقَالَ لِلْجَارِيَةِ: «ضَعِي الأُصْبَعَ فيها، وقُولِي: ليسَ ها هنا»[٤].

---

(١) و (٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٦٥).
(٣) و (٤) «الإحياء» (٣/ ١٣٧).

وَقَدْ بَوَّبَ البُخَارِيُّ في «صَحِيحِهِ» بَابًا: المعاريضُ مَنْدُوحةٌ[١] عَنِ الكَذِبِ، ومِمَّا أَوْرَدَ تحتَهُ حديثَ أَنَسٍ -رضي الله عنه- قَالَ: «مَاتَ ابْنٌ لأَبِي طَلْحَةَ، فَقَالَ: كَيْفَ الغُلامُ؟. قالَتْ أمُّ سُلَيْمٍ: هَدَأَتْ نَفْسُهُ، وأرجو أنْ يكونَ قَدِ اسْتَرَاحَ. وظَنَّ أنَّهَا صَادِقَةٌ»[٢].

وقالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ -رضي الله عنه-: «إنَّ في المعَاريضِ مَا يكْفِي أنْ يَعِفَّ الرَّجُلُ عَنِ الكَذِبِ»[٣].

وَهَذَا كُلُّه في مَوْضِعِ الحَاجَةِ، فَأَمَّا في غَيْرِ مَوْضِعِ الحَاجَةِ فلا؛ لأَنَّ هَذَا تَفْهِيمٌ لِلْكَذِبِ، وإنْ لَمْ يكنِ اللَّفْظُ كَذِبًا فهو مكروهٌ على الجُمْلَةِ[٤].

وأخيرًا قالَ مُحَمَّدُ بْنُ عبد الله البغداديُّ:

إذا مَا المَرْءُ أخْطَأَهُ ثَلاثٌ ... فَبِعْهُ ولو بكفٍّ مِنْ رَمَادِ
سَلامَةُ صَدْرِهِ، والصِّدْقُ مِنْهُ ... وكِتْمَانُ السَّرائرِ في الفُؤَادِ[٥]



(١) مَنْدُوحَةٌ: سَعَةٌ.
(٢) رَواهُ البُخَارِيُّ في كتاب الأدب، باب (١١٦).
(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٦٥).
(٤) «الإحياء» (٣/ ١٤٩).
(٥) «روضة العقلاء» (٥٣).

الآفَـةُ الرَّابعـة
اللَّـعْـنُ

اللَّعْنُ: هو الطَّرْدُ والإبْعَـادُ عَنْ رَحْـمَةِ الله، وَمِنْ صِـفَـاتِ المُؤْمِنِ ألاَّ يكُونَ لَعَّانًا، ولا طَعَّانًا، ولا فَاحِشًا، ولا بَذِيئًا، إنَّمَا ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ وَأَخْلاقِ الفُسَّاقِ ناقصي الإيمان[(١)].

فَـعَنِ ابْنِ مَسْـعُود -رضي الله عنه- قَـالَ: قَالَ رَسُـولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «**لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ، وَلا اللَّعَّانِ، وَلا الفَاحِشِ، والبَذِيِّ**»[(٢)].

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّـحَّـاكِ -رضي الله عنه- قَـالَ: قَالَ رَسُـولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «**لَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ**»[(٣)].

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: «**لا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أنْ يَكُونَ لَعَّانًا**»[(٤)].

وَعَنْ سَمُرَةَ بن جُنْدُب -رضي الله عنه- قَـالَ: قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «**لا تَلاَعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ، ولا بِغَضَبِهِ، ولا بِالنَّارِ**»[(٥)].

---

(١) «آفات اللِّسان» (ص ١٤٠).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (١٩٧٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٣٨١)، و«الصَّحيحة» (٣٢٠).
(٣) رواه البخاريُّ (٦٠٤٧) و (٦١٠٥) و (٦٦٥٢)، ومسلمٌ (١١٠).
(٤) رواه مسلمٌ (٢٥٩٧).
(٥) رواه أبو داودَ (٤٩٠٦)، والتِّرْمِـذِيُّ (١٩٧٦)، وحسَّنه الألبـانيُّ في «صحـيح الجامع» (٢/ ٧٤٤٣)، و«الصَّحيحة» (٨٩٠).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «لا يكونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ، ولا شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيامةِ»[(١)].

وَقَدْ جَاءَ الحَدِيثُ الصَّحِيحُ أَنَّه مَنْ لَعَنَ شيئًا ليس له بأَهْلٍ رَجَعَتْ عليه اللَّعْنَةُ، حَتَّى لَوْ كَانَ المَلْعُونُ الرِّياحَ المُسَخَّرَةَ.

فَعنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما-: أنَّ رَجُلاً نَازَعَتْهُ الرِّيحُ رِدَاءَهُ عَلَى عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ فلَعَنَها، فَقَالَ النَّبيُّ - ﷺ -: «لا تَلْعَنْهَا؛ فإنَّها مأمورةٌ، وإنَّه مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْس لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ»[(٢)].

واللَّعْنُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ حَتَّى لِلْحَيَوَانِ.

فَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ -رضي الله عنهما- قالَ: بَيْنَما رسولُ اللهِ - ﷺ - في بَعْضِ أسفارِهِ، وامرأةٌ مِنَ الأنصارِ على نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رسولُ اللهِ - ﷺ -، فَقَالَ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا؛ فَإِنَّها مَلْعُونَةٌ». قال عِمْرَانُ: «فَكَأَنِّي أَرَاهَا الآنَ تَمْشي في النَّاسِ، ما يَعْرِضُ لها أَحَدٌ»[(٣)].

وعَنْ أبي بَرْزَةَ -رضي الله عنه- قال: بَيْنَما جاريةٌ على ناقةٍ، عليها بعضُ مَتَاعِ القومِ، إذْ بَصُرَتْ بالنَّبيِّ - ﷺ -، وتَضَايقَ بهِمُ الجَبَلُ، فقالتْ: «حَلِ[(٤)] اللَّهُمَّ الْعَنْهَا!». قال: فقال النَّبيُّ - ﷺ -: «لا تُصَاحِبْنَا ناقةٌ عليها لَعْنَةٌ». وفي روايةٍ: «لا تُصَاحِبُنا رَاحِلَةٌ عليها لَعْنَةٌ مِنَ اللهِ»[(٥)].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٥٩٨).

(٢) رواه أبو داودَ (٤٩٠٨)، والتِّرمذيُّ (١٩٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٧٤٤٧)، و«الصَّحيحة» (٥٢٧).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٥٩٥).

(٤) حَلْ: كلمة زَجْرٍ للإبلِ واستحثاثٍ.

(٥) رواه مسلمٌ (٢٥٩٦).

الآفَةُ الخامسةُ

السُّخْرِيَة

السُّخْرِيَّةُ لا تَصْدُرُ إلاَّ مِنْ إنْسَانٍ مُمْتَلِئٍ بمساوئ الأَخْلاق، مُتَّصِفٍ بكُلِّ خُلُقٍ ذميمٍ، أمَّا الرَّجُلُ المُتَخَلِّقُ بِجَمِيلِ الأَخْلاقِ، وكَرَائِمِ الخِصَالِ فهو بمنأىً عَنْ ذَلكَ، وكَيْفَ يَسْخَرُ منَ الآخَرِينَ وَهُوَ يعلمُ أنَّ اللهَ -عَزَّ وجَلَّ- نَهَى عنِ السُّخْرية بالمؤمنينَ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائلٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ[1]﴾ (سورة الحجرات: ١١).

قَالَ ابنُ كثيرٍ - يرحمه اللهُ - في تفسيرِ هَذِهِ الآيَة: «يَنْهَى - تعالى - عَنِ السُّخْرِيَّة بِالنَّاسِ، وَهُوَ احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبتَ في الصَّحيحِ عَنْ رَسُولِ الله - ﷺ - أنَّهُ قَالَ: «الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ»[2]. والمرادُ مِنْ ذَلكَ احتقارهم واستصغارهم، وَهَذَا حَرَامٌ؛ فَإنَّهُ قَدْ يكُونُ المُحْتَقَرُ أَعْظَمَ قَدْرًا عِنْدَ اللهِ - تَعَالَى -، وأَحَبَّ إليه مِنَ السَّاخِرِ منه المُحْتَقِرِ لَهُ»[3].

وبَوَّبَ البُخَارِيُّ فِي «صحيحه» باب قول الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾. إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

---

(١) جاء تخصيصُ النِّساء في الآيةِ بالذِّكْرِ تحذيرًا من سُخْرِيَّةِ بَعْضِهِنَّ من بَعْضٍ؛ لأنَّ السُّخْرِيَّةَ شائعةٌ فيهنَّ أكثرَ من الرِّجالِ.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) «تفسير ابن كثيرٍ» (٤/ ٢٠٥).

■ وأوردَ تحتَ هذا الباب حديثين:

أحدهما - حديث عَبْد الله بْن زَمْعَة -رضي الله عنه- قَالَ: «نَهَى النَّبيُّ - ﷺ - أَنْ يَضْحَكَ الرَّجُلُ مِمَّا يَخْرُجُ مِنَ الأَنْفُسِ»[(١)] .

والثَّاني - حديث ابنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قالَ: قالَ النَّبيُّ - ﷺ - بِمنىً: «فإنَّ اللهَ حَرَّمَ عليكم دِمَاءَكُمْ، وأموالَكُمْ، وأعراضَكُمْ كَحُرْمَةِ يومِكُمْ هَذَا، في شَهْرِكُمْ هَذَا، في بَلَدِكُمْ هَذَا»[(٢)] .

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ : أَيْ عَسَى أَنْ يكُونَ المسخورُ منْهُ خيرًا منَ السَّاخرِ كَمَا هو الحالُ والواقعُ، فَإِنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وتعالى - يقولُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات١٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: سُئِلَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟». قَالَ: «أَتْقَاهُمْ للهِ»[(٣)] .

وَعَنْ سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعديِّ -رضي الله عنه- أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رجلٌ على رسولُ اللهِ - ﷺ -، فَقَالَ لرجلٍ عندَهُ جالسٍ: «ما رأيُك في هذا؟» . فقَالَ: «رَجُلٌ من أَشْرَافِ النَّاسِ، هذا - واللهِ - حريٌّ إنْ خَطَبَ أنْ يُنْكَحَ، وإنْ شَفَعَ أنْ يُشَفَّعَ». قال: فَسَكَتَ رسولُ اللهِ - ﷺ -. ثُمَّ مَرَّ رجلٌ، فقالَ له رسولُ اللهِ - ﷺ -: «ما رأيُك في هذا؟» . فَقَالَ: «يا رسولَ اللهِ، هذا رجلٌ مِنْ فُقَراءِ المسلمين، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ ألاَّ يُنْكَحَ، وإنْ شَفَعَ ألاَّ يُشَفَّعَ، وإنْ قال ألاَّ يُسْمَعَ لقولِهِ». فَقَالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «هذا خيرٌ مِنْ مِلْءِ الأرضِ مِثْلَ هذا»[(٤)] .

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٤٢)، وفي رواية: ثُمَّ وَعَظَهُمْ في الضَّرطة، فقال: «لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُهُمْ مِمَّا يخرجُ منه؟» .
(٢) رواه البخاريُّ (١٧٤٢) و(٤٤٠٣) و(٦٠٤٣) و(٦٧٨٥).
(٣) رواه البخاريُّ (٣٣٥٣) و(٣٣٧٤) و(٣٣٨٣) و(٤٦٨٩) و(٣٤٩٠) ومسلمٌ (٢٣٧٨).
(٤) رواه البخاريُّ (٥٠٩١) و(٦٤٤٧). والحديث محمولٌ على أنَّ هذا الفقيرَ خيرٌ في دينه من هذا الرَّجل الذي هو من أشراف النَّاس. انظر «الفتح» (١٣/ ٥٨).

الآفَـةُ السَّادسَةُ

البَذَاءَةُ والتَّفَحُّشُ في القولِ

الرَّجُلُ المتخلِّقُ بالأخلاقِ العاليَةِ يُنَزِّهُ لِسَانَهُ مِنَ الفُحْشِ، ويُطَهِّرُهَا مِنَ الْبَذَاءَةِ، ودَنِيءُ الأَخْلاقِ تَفْلُتُ الأَلْفَاظُ البَذِيئَةُ منه غَيْرَ عَابِئٍ بمواقِعِهَا وآثَارِهَا.

والتَّفَحُّشُ في الكَلامِ يأتي على مَعَانٍ، فقد يأتي بمعنى السَّبِّ والشَّتْمِ، وقَوْلِ الخَنَا، كما في حديثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو -رضي الله عنهما- قالَ: «لم يَكُنِ النَّبيُّ -ﷺ- فاحشاً، ولا مُتَفَحِّشاً، وكانَ يقولُ: «إنَّ مِنْ خِيَارِكم أَحْسَنَكُم أخلاقاً»»[1].

وقد يأتي بمعنى التَّعدِّي في القولِ والجوابِ، كما في حديث عائشةَ -رضي الله عنها- قالتْ: أتى النَّبيَّ - ﷺ - أُنَاسٌ مِنَ اليهودِ، فقالوا: «السَّامُ[2] عليك يا أبا القاسم!». قال: «وَعَلَيْكُمْ». قالتْ عائشةُ: قلتُ: «بَلْ عليكُمُ السَّامُ والذَّامُ[3]!». فقالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «يا عائشةُ، لا تكوني فاحشةً». فقالتْ: «ما سَمِعْتَ ما قالوا؟!». فقال: «أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عليهم الذي قالوا؟، قلتُ: وعليكم»[4].

---

(١) تقدَّم تخريجه.
(٢) السَّامُ: الموْتُ.
(٣) الذَّامُ: الْعَيْبُ.
(٤) رواه البخاريُّ (٢٩٣٥) و (٦٠٢٤) و(٦٠٣٠) و(٦٢٥٦) و(٦٣٩٥) و(٦٤٠١) و(٦٩٢٧)، ومسلمٌ - واللَّفظ له - (٢١٦٥).

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أنَّ رسـولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قالَ: «المُسْتَبَّانِ ما قَالا، فعلى البادئِ، ما لم يَعْتَدِ المظلومُ»[(١)].

ومعنى الحديث: أنَّ المتشاتمين الذين يَسُبُّ كُلٌّ منهُمَا الآخرَ يكُونُ إثْمُهُمَا على الَّذي ابتدأَ بالشَّتْمِ، ما لَمْ يَعْتَدِ المظلومُ بأنْ سبَّـهُ أكثرَ وأفحشَ منْهُ، أَمَّا إذَا اعْتَدَى كَانَ إثْمُ مَـا اعْتَـدَى عليه، والبـاقِي عَلَى البَادِئِ، والحَاصِـلُ إذا سَبَّ كُلٌّ واحد الآخرَ فـإثْمُ ما قـالا على الَّذي بدأَ بالسَّبِّ، وهَذَا إذَا لم يَعْـتَدِ ويتجَـاوزِ المظلومُ الحَدَّ؛ واللهُ أعلمُ[(٢)].

والتَّفحُّشُ فِي القَوْلِ مَنْهِيٌّ عنه حتَّى لِلْحَيَوَانِ.

فَعَنْ زيدِ بن خـالدٍ قالَ: قَـالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «لا تَسُبُّوا الدِّيكَ؛ فإنَّه يُوقِظُ للصَّلاةِ»[(٣)].

قالَ الشَّاعرُ:

احْفَظْ لسَانَكَ إنْ لقِيْتَ مُشَاتمًا ... لا تَجْـرِيَنَّ مَعَ اللَّئِـيمِ إذا جَـرَى
مَنْ يَشْتَرِي عِرْضَ اللَّئِيمِ بِعِرْضِهِ ... يحوي النَّدامةَ حِين يَقْبِضُ ما اشترى[(٤)]

وعلى المرْءِ ألاَّ يَسْتَسْهِلَ الألفاظَ القبيحةَ؛ حتَّى لا يكونَ أهْلاً لمقتِ اللهِ إيَّاهُ، واستِخْفَافِ النَّاسِ بشَخْصِهِ، والألفاظُ القَبِيحَةُ كثيرةٌ[(٥)].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٥٨٧).
(٢) انظر «عون المعبود» (١٣/ ٢٣٧).
(٣) رواه أبو داودَ (٥١٠١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٧٣١٤).
(٤) «روضة العقلاء» (ص٢١١).
(٥) انظر «معجم المناهي اللَّفظية» فهو كتابٌ يطابق اسمه مسمَّاه.

قالَ النَّوويُّ - يرحمه اللهُ -: «ومنَ الأَلْفَاظ المذمومَة المستعملَة في العَادَة قَوْلُ الشَّخصِ لمن يُخَاصِمُهُ: يا حِمَارُ، يا تَيْسُ[1]، يا كَلْبُ، ونَحْوَ ذلك، فهذا قبيحٌ من وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ كَذِبٌ، والآخَرُ أَنَّهُ إيذاءٌ»[2].

قَالَ الشَّافعِيُّ:

أُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ جُهْدِي ▫▪▫ وَأَكْرَهُ أَنْ أَعِيبَ، وأَنْ أُعَابا
وَأَصْفَحُ عَنْ سِبَابِ النَّاسِ حِلْمًا ▫▪▫ وشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوَى السِّبَابا
ومَنْ هَابَ الرِّجَالَ تَهَيَّبُوهُ ▫▪▫ ومَنْ حَقَرَ الرِّجالَ فلنْ يُهَابا[3]

وشريفُ النَّفْسِ لا يُجَارِي أَصْحَابَ الخَلاعَةِ والبذَاءَة، ويُحافظُ على مُرُوءَتِه صِيَانَةً لنَفْسِه، فَقَدْ قيلَ: «احتمالُ السَّفيهِ خيرٌ منَ التَّحَلِّي بصورَتِه، والإغْضَاءُ عَنِ الجَاهِلِ خيرٌ منْ مُشَاكَلَتِه»[4].

وقَالَ ابنُ المُقَفَّع: «واعلمْ أنَّكَ ستُبْتَلَى من أقوامٍ بسَفَه[5]، وأنَّ سَفَهَ السَّفيه سَيُطْلِعُ لَهُ منْكَ حقْدًا، فَإِنْ عَارَضْتَهُ، أَوْ كَافَأْتَهُ بالسَّفَه، فَكَأَنَّكَ قَدْ رَضيتَ ما أتَى به، فأَحْبَبْتَ أَنْ تَحْتَذيَ عَلَى مثَاله، فَإِنْ كَانَ ذَلكَ عنْدَكَ مَذْمُومًا، فَحَقِّقْ ذمَّكَ إيَّاهُ بترك مُعَارَضَته، فَأَمَّا أَنْ تَذُمَّهُ وتَمْتَثِلَه[6] فليسَ في ذلكَ لَكَ سَدَادٌ[7]»[8].

---

(١) التَّيْسُ: منَ المَعْزِ، والجمعُ تُيُوسٌ، وأَتْيَاسٌ.
(٢) «الأذكار» (ص٣١٤).
(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥٢).
(٤) المرجع السَّابق (ص٢٥٣).
(٥) السَّفَهُ - بفتحتين -: ضدُّ الحلْم.
(٦) تمتثله: تحتذيه وتسلك طريقه.
(٧) السَّداد: الصَّوَاب.
(٨) «الأدب الصَّغير والأدب الكبير» (ص١٢٣).

قالَ أبُو الأسْوَد الدُّؤَلِيُّ:

فـاتركْ مُـجَـاراةَ الـسَّـفِـيـةِ؛ فَـإنَّهـا ... نَدَمٌ وغِبٌّ[1] - بَعْـدَ ذَاكَ - وَخِـيـمُ

فَإذَا جَرَيْتَ مَعَ السَّفِيهِ كَمَا جَرَى ... فَكِلاكُـمَـا فـي جَـرْيِهِ مَـذْمُـومُ[2]

وقال آخـرُ:

لا تُرْجِـعَنَّ إلى السَّـفـيـهِ خِطَابَهُ ... إلاَّ جَـوَابَ تحـيَّـةٍ حـيَّـاكَـهَـا

فـمـتى تُحَـرِّكْـهُ تُحَـرِّكْ جِـيْـفَـةً ... تَـزْدَادُ نَتْنًا إنْ أرَدْتَ حَـرَاكَـهَـا[3]



(١) الغِبُّ - بالكسر - : العاقبة.
(٢) «جواهر الأدب» (ص٦٦٣).
(٣) «الحلم» (ص٣٢).

الآفَةُ السَّابعةُ

شَهَادَةُ الزُّور

شَهَادَةُ الزُّورِ أَمَارَةٌ على ضعَةِ[١] النَّفْسِ، وَحَقَارَةِ الشَّأْنِ، وَسُقُوطِ الهِمَّةِ، وَالقِحَةِ[٢]، وَسَفَهِ العَقْلِ، وَخُبْثِ الطَّوِيَّةِ[٣]، وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ قَطْعِ وَشَائِجِ المحَبَّةِ، ونَقْضِ عُرَا الأُخُوَّةِ، وَإِيقَاعِ العَدَاوَةِ والبَغْضَاءِ، وَإِحْلالِ التَّدَابُرِ والتَّفَرُّقِ مكَانَ المحبَّةِ والاجتماعِ.

أَبَعْدَ الصَّفَاءِ ومَحْضِ الإِخَاءِ ▫▪▫ يقيمُ الجَفَاءُ بنا يَخْطُبُ؟!

وقَدْ كَانَ مَشْرَبُنا صَافيًا ▫▪▫ زمانًا، فهَلْ كَدَّرَ المَشْرَبُ؟!

والأَصْلُ في الزُّورِ تَحْسِينُ الشَّيْءِ، ووَصْفُهُ بخلافِ صِفَتِه، فهو كُلُّ باطلٍ، سواءً كَانَ ذَلكَ شِرْكًا، أَوْ غنَاءً، أو كَذبًا، أو غَيْرَهُ، وكُلّ ما لَزِمَهُ اسْمُ الزُّورِ؛ لأنَّ اللهَ عَمَّ في وَصْفِه عبَادَ الرَّحْمَنِ أَنَّهم لا يَشْهَدُونَ الزورِ، فَلا ينبغي أنْ يَخُصَّ مِنْ ذَلكَ شيئًا إلاَّ بِحُجَّةٍ[٤].

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وتَعَالى -: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (سورة الفرقان: ٧٢).

---

(١) الضَّعَةُ - بفتح الضَّاد وكسرها -: الحقارة، وبابه ظَرُفَ.
(٢) القَحَة - بفتح القاف وكَسْرِهَا -: قِلَّةُ الحَيَاءِ، وبابُهُ ظَرُفَ.
(٣) الطَّوِيَّة - بالفتح -: الضَّمير.
(٤) «جامع البيان» (١٩/ ٣١) بتصرُّف.

قَالَ العلاَّمَةُ ابنُ سَعْدِيٍّ - يرحمه اللهُ - في تفسيرها: «أي لا يَحْضُرون الزُّورَ: أي القولَ والفعلَ المحرَّمَ، فيجتنبونَ جَميعَ المجالسِ المُشْتَمِلَةِ على الأَقْوَالِ المُحَرَّمَةِ، أو الأَفْعَالِ المحرَّمَةِ: كالخَوْضِ في آياتِ اللهِ، والجدالِ الباطلِ، والغيبَةِ، والنَّميمَةِ، والسَّبِّ، والقَذْفِ، والاسْتِهْزَاءِ، والغِنَاءِ المحَرَّمِ، وَشُرْبِ الخَمْرِ، وفُرُشِ الحريرِ، والصُّوَرِ، ونَحْوِ ذَلِكَ، وإِذَا كَانُوا لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ، فمن بابِ أَوْلَى وأَحْرَى ألاَّ يقولُوهُ ويَفْعَلُوهُ.

وَشَهَادَةُ الزُّورِ دَاخِلَةٌ في قَوْلِ الزُّورِ، تَدْخُلُ في هَذِهِ الآيَةِ بالأَوْلَوِيَّةِ»[1].

وقالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ** ﴾ (سورة الحج: ٣٠).

قالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ - يرحمه اللهُ - في تفسيرِ قَوْلِهِ - تعالَى -: ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ : «أَيْ: جَمِيعَ الأَقْوَالِ المحرَّمَاتِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ قَوْلِ الزُّورِ الَّذِي هُوَ الكَذِبُ، وَمِنْ ذَلِكَ شَهَادَةُ الزُّورِ»[2].

وَشَهَادَةُ الزُّورِ مِنْ أَكْبَرِ الكبائرِ.

فعَنْ أبي بكرةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: **«أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟». قلنا: «بَلَى، يا رسولَ اللهِ». قال: «الإشراكُ باللهِ، وعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ - وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ فَقَالَ - أَلاَ وقولُ الزُّورِ، وشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلا وقولُ الزُّورِ، وشَهَادَةُ الزُّورِ». فما زالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْنَا: لا يَسْكُتُ**[3].

---

(١) «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص٥٨٧).
(٢) المرجع السَّابق (ص٥٣٨).
(٣) تقدَّم تخريجه، واللَّفظ للبخاريِّ.

■ أَضْرَارُ شَهَادَةِ الزُّورِ:

لشَهَادَةِ الزُّورِ أَضْرَارٌ كَثِيرَةٌ، فمنها:

١ ـ تَضْلِيلُ الحَاكِمِ عَنِ الحَقِّ، والسَّبَبُ في الحُكْمِ بالبَاطِلِ، وَلِذَلِكَ قَالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وإنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إليَّ، ولعلَّ بعضَكُمْ أنْ يكونَ أَلحَنَ بحُجَّتِهِ[1] مِنْ بَعْضٍ، فأقضيَ على نَحْوِ مَا أَسْمَعُ»[2].

٢ ـ الظُّلْمُ لمن شَهِدَ له؛ لأَنَّهُ سَاقَ إليه ما ليسَ بِحَقٍّ بِسَبَبِ شهادةِ الزُّورِ، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، ولذَلكَ قالَ ـ ﷺ ـ: «إنَّكُم تختصمونَ إليَّ، ولعلَّ بعضَكُمْ أَلحَنُ بحُجَّتِهِ مِنْ بعضٍ، فمن قَضَيْتُ له بحقِّ أخيه شيئًا، فإنَّما أقطعُ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ؛ فلا يَأْخُذْها»[3].

٣ ـ الظُّلْمُ لِمَنْ شَهِدَ عليه، فَيَتَعَرَّضُ الشَّاهِدُ لدَعْوَةِ المشهودِ عَلَيْهِ بغيرِ الحَقِّ ظُلْمًا، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ، كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثٌ لا تُرَدُّ دعوتُهُمْ ... ـ وذكر منهم ـ دَعْوَةُ المظلومِ، يرفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الغَمَامِ، وتُفْتَحُ لَهَا أبوابُ السَّماءِ، ويقولُ الرَّبُّ: وعِزَّتي وجلالي، لأنصرنَّكِ ولو بَعْدَ حينٍ»[4].

---

(١) أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ: أَعْلَم وأفطن لها، من اللَّحَنِ ـ بفتحتين ـ وهُوَ الفِطْنَةُ، وبَابُهُ فَرِحَ.

(٢) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ (٢٤٥٨) و(٢٦٨٠)، (٦٩٦٧) و(٧١٦٩) و(٧١٨١) و(٧١٨٥)، ومسلمٌ (١٧١٣) عن أمِّ سَلَمَةَ.

(٣) التَّخريج السَّابق.

(٤) رواه أبو داودَ (٥/ ٥٧٨)، وانظر «جامع الأصول» (٤/ ١٤٥).

وقالَ آخـرُ:

لا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا ... فَالظُّلْمُ آخِرُهُ يَأْتِيكَ بِالنَّدَمِ
تنامُ عَيْنَاكَ والمظلومُ مُنْتَبِهٌ ... يدعو عليك، وعَيْنُ اللهِ لم تَنَمِ

٤ ـ قَدْ يَطْلُبُ منه اليمينُ على صحّةِ شَهَادَتِه، فيتعرَّض لغضبِ اللهِ ومَقْتِه، قالَ رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ: «مَنِ اقْتَطَعَ[1] حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بيَمِينِه، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ له النَّارَ، وحَرَّمَ عليه الجنَّةَ». فقالَ له رجلٌ: «وإنْ كان شيئًا يسيراً، يا رسولَ اللهِ؟». قال: «وإنْ كان قَضِيباً مِنْ أَرَاكٍ[2]»[3].

٥ ـ تَخْلِيصُ المجرمينَ مِنْ عُقُوبَةِ الجريمةِ.

٦ ـ تَزْكِيَةُ المشهودِ لَهُ، وهو ليسَ أَهْلاً لِذَلِك[4].

(١) اقتطع: أَخَذَ.
(٢) الأَرَاك: شَجَرٌ معروفٌ يُسْتَاكُ بأعوادِه، واحدهُ أَرَاكَةٌ.
(٣) رواه مسلمٌ (١٣٧) عن أبي أُمامةَ.
(٤) انظر «مجلّة البحوث»، بحثٌ قدَّمه الشيخُ عبدُ اللهِ القصير بتصرُّفٍ..

الآفَـةُ الثَّامنةُ

إِفْشَـاءُ الأَسْـرَارِ

إِفْشَاءُ الأَسْـرَارِ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الخِيَـانَةِ، وَقَلَّ أَنْ تَجِدَ رَجُلاً وَفِيّـاً يَفْشِي أَسْرَارَهُ، وَأَسْرَارَ الآخرِينَ.

والسِّرُّ: هُوَ مَا يَقَعُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ صَاحِبِكَ، فَـلا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُبِينَهُ لأَحَدٍ، سَوَاءً قَالَ لَكَ: لا تُخْـبِرْ بِهِ أَحَـدًا، أَوِ الْتَفَتَ في حَـالِ حَدِيثِهِ خَـشْيَـةَ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ يَسْـمَعُ، أَوْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لا يُحِبُّ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْـهِ أَحَـدٌ غَيْـرَكَ، أَوْ أَخْـبَرَكَ بِأُمُـورٍ يَسْتَحِي مِنْ ذِكْرِهَا.

فَعَنْ جَـابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ -رضي الله عنه- قَالَ: قَـالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالحَدِيثِ، ثُمَّ الْتَفَتَ، فَهُوَ أَمَانَةٌ**»[1].

وَعَنْ أَبِي سعيدٍ الخُدْرِيِّ -رضي الله عنه- قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ منزلةً يومَ القيامةِ الرَّجلَ يُفْضِي إلى امرأتِهِ[2]، وتُفْضِي إليه، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّها[3]**»[4].

---

(١) رواه أبود داودَ (٤٨٦٨)، والتِّـرمذيُّ (١٩٥٩)، وأحمـدُ (٣/ ٣٢٤)، وحسَّنه الألبـانيُّ في «صحـيح الجامع» (١/ ٤٨٦)، و«الصَّحيحة» (١٠٩٠).

(٢) **يُفْضي إلى امرأتِهِ:** من الإفضاء، وهو مباشَرَةُ البَشَرَة، وهو هنا كنايةٌ عن الجمَاع.

(٣) **ثُمَّ يَنشرُ سرَّها:** أي يذكرُ تفاصيلَ ما يقعُ حالَ الجمَاعِ، وَقَبْلَهُ من مُقَدِّمَات الجِمَاعِ، وهو من الكبائرِ.

(٤) رواه مسلمٌ (١٤٣٧).

وَعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- أنَّ عُمَرَ -رضي الله عنه- حِينَ تَأَيَّمَتْ[(١)] بِنْتُهُ حَفْصَةُ، قالَ: «لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ - رضي الله عنه - فَعَرَضْتُ عليه حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: إنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بنتَ عُمَرَ؟. قَالَ: سَأَنْظُرُ في أَمْرِي. فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ ثُمَّ لَقِيَنِي، فَقَالَ: قَدْ بَدَا لِي أَلاَّ أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا. فَلَقِيتُ أبا بكرٍ - رضي الله عنه -، فَقُلْتُ: إنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ؟. فَصَمَتَ أبو بَكْرٍ - رضي الله عنه -، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شيئًا!. فَكُنْتُ عليه أَوْجَدَ[(٢)] منِّي على عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ، ثُمَّ خَطَبَهَا رسولُ اللهِ - ﷺ -، فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيَنِي أبو بَكْرٍ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عليَّ حَفْصَةَ، فلم أَرْجِعْ إِلَيْكَ شيئًا؟. فَقُلْتُ: نَعَمْ. قال: إنَّه لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ إلاَّ أنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ أنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لأُفْشِيَ سِرَّ رسولِ اللهِ - ﷺ -، ولو تَرَكَهَا النَّبِيُّ - ﷺ - لقَبِلْتُها»[(٣)].

وَعَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ -رضي الله عنه- قَالَ: «أَتَى عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - وأنا ألعبُ مَعَ الغِلْمانِ، فسلَّم علينا، فَبَعَثَني إلى حاجةٍ، فأبْطَأْتُ على أُمِّي، فلمَّا جِئْتُ قالتْ: ما حَبَسَكَ؟. قلتُ: بَعَثَنِي رسولُ اللهِ - ﷺ - لحَاجةٍ. قَالَتْ: ما حاجتُهُ؟. قلتُ: إنَّها سِرٌّ. قالتْ: لا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رسولِ اللهِ - ﷺ - أحداً». قَالَ أَنَسٌ: «واللهِ، لو حدَّثْتُ به أحداً لحدَّثْتُكَ يا ثابتُ»[(٤)].

جَزَاهُمُ اللهُ عَنْ دِيْنِ الرَّسولِ فما ... أَحْلَى مآثِرَهُمْ في سَالِفِ الحِقَبِ!
لولا لطائفُ صُنْعِ اللهِ ما نَبَتَتْ ... تِلْكَ المكارمُ في لَحْمٍ، ولا عَصَبِ

---

(١) تأيَّمَتْ: أي صارت بلا زواج.
(٢) أَوْجَد: أشدّ غضبًا.
(٣) رواه البخاريُّ (٥٠٠٤) و(٥١٢٢) و(٥١٢٩) و(٥١٤٥).
(٤) رواه مسلمٌ (٢٤٨٢)، وأخرجه البخاريُّ (١١/ ٦٩) بلفظ: «أَسَرَّ إليَّ النَّبيُّ - ﷺ - سِرّاً، فما أخبرتُ به أحداً بعدَهُ، ولقدْ سألَتْني أمُّ سُلَيم فما أخبرتُها به».

والحازمُ يستعينُ على إنجَاحِ أَعْمَالِه بالكِتْمَانِ.

قالَ رسولُ الله - ﷺ -: «استعينوا على إنجاحِ الحوائجِ بالكِتْمَانِ؛ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ»[(١)].

قَالَ ابْنُ حِبَّانَ - يرحمه اللهُ -: «والحازِمُ يَجْعَلُ سِرَّهُ في وِعَاء، ويَكْتُمُهُ عَنْ كُلِّ مُسْتَوْدَعٍ، فَإِن اضْطَرَّهُ الأَمْرُ وَغَلَبَهُ، أَوْدَعَهُ العَاقِلَ النَّاصِحَ لَهُ؛ لأَنَّ السِّرَّ أَمَانَةٌ، وَإِفْشَاؤُهُ خِيَانَةٌ، والقَلْبُ لَهُ وِعَاؤُهُ، فَمِنَ الأَوْعِيَةِ مَا يَضِيقُ بِمَا يُودَعُ، وَمِنْهَا مَا يَتَّسِعُ لِمَا اسْتُودِعَ»[(٢)].

قَالَ الشَّاعِرُ:

عليكَ بكَتْمِ السِّرِّ في كُلِّ حَالةٍ ▫▪▫ فَقَدْ جَاءَ في الأَخْبَارِ مِنْ أَلْفِ حُجَّة
إِذَا دَخَلَ اثْنَانِ الحَدِيثَ فَسِرُّهُ ▫▪▫ يَشِيعُ، وصَمْتُ المَرْءِ أَعْظَمُ حِكْمَةٍ[(٣)]

وَقَالَ آخَرُ:

سَأَكْتُمُهُ سِرِّي، وَأَحْفَظُ سِرَّهُ ▫▪▫ وَلا غَرَّنِي أَنِّي عَلَيْهِ كَرِيمُ
حَلِيمٌ فَيَنْسَى، أَوْ جَهُولٌ يُشِيعُهُ ▫▪▫ وَمَا النَّاسُ إِلاَّ جَاهِلٌ وَحَلِيمُ[(٤)]

وَكِرَامُ النَّاسِ يَقْضُونَ هَذَا الحَقَّ، فَتَتَّسِعُ صُدُورُهُمْ لأَسْرَارِهِمْ، وَأَسْرَارِ الآخَرِينَ، كَمَا قِيلَ: «قُلُوبُ الأَحْرَارِ قُبُورُ الأَسْرَارِ».

---

(١) تقدَّم تخريجه.
(٢) «روضة العقلاء» (ص١٨٩).
(٣) «جواهر الأدب» (ص٧١٨).
(٤) «عيون الأَخْبَارِ» (١/ ٨٥).

وكما قال الشاعر:

لا يَكْتُمُ السِّرَّ إلاَّ مَنْ لَهُ شَرَفٌ ◆ والسِّرُّ عِنْدَ كِرامِ النَّاسِ مَكْتُومُ
السِّرُّ عِنْدِي في بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ[1] ◆ ضَلَّتْ[2] مَفَاتِيحُهُ، والبابُ مَخْتُومُ[3]

ومَنْ أَطْلَعَ النَّاسَ عَلَى أَسْرَارِه وأَسْرَارِ غَيْرِه، هَانَ عَلَيْهِمْ وأَذَاعُوهُ، ولا يَفْعَلُ ذَلكَ إلاَّ حَقِيرُ النَّفْسِ، والحَازِمُ يَتَفَطَّنُ حَتَّى للطُّرُقِ الخَفِيَّةِ التي يُسْتَخْرَجُ بِهَا ما عِنْدَهُ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يَظْفَرَ أَحَدُهُمْ بِأَرَبِه.

قَالَ العَلاَّمَةُ عَبْدُ الرَّحمَنِ بن سَعْدِيٌّ - يرحمه اللهُ -: «كُنْ حَافِظًا للسِّرِّ، مَعْرُوفًا عِنْدَ النَّاسِ بِحِفْظِه؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا عَرَفُوا منْكَ هذه الحَالَ أَفْضَوا إليكَ بِأَسْرَارِهِمْ، وَعَذَرُوكَ إِذَا طَوَيْتَ عَنْهُمْ سِرَّ غَيْرِكَ الَّذِي هُمْ عليه مُشْفِقُونَ، وخُصُوصًا إِذَا كَانَ لَكَ اتِّصَالٌ بِكُلِّ أَحَدٍ منَ المُتعادين، فَإِنَّ الوَسَائِلَ لاسْتِخْرَاجِ مَا عِنْدَكَ تَكْثُرُ وتَتَعَدَّدُ مِنْ كُلٍّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ، فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ يَظْفَرَ أَحَدٌ منهم بِشَيْءٍ مِنْ ذَلكَ تَصْرِيحًا أَوْ تَعْرِيضًا، وَاعلَمْ أنَّ للنَّاسِ في اسْتِخْرَاجِ ما عِنْدَ الإِنْسَانِ طُرُقًا دَقِيقَةً، وَمَسَالكَ خَفِيَّةً، فَاجْعَلْ كُلَّ احْتِمَالٍ - وَإِنْ بَعُدَ - عَلَى بَالِكَ، ولا تُؤْتَ مِنْ جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِكَ؛ فإِنَّ هَذَا مِنَ الحَزْمِ، واجْزِمْ بِأَنَّكَ لا تَنْدَمُ عَلَى الكِتْمَانِ، وإِنَّمَا الضَّرَرُ والنَّدَمُ فِي العَجَلَةِ والتَّسَرُّعِ، والوُثُوقِ بِالنَّاسِ ثِقَةً تَحْمِلُكَ عَلَى مَا يَضُرُّ»[4].

قال مسكين الدارمي:

أُوَاخِي رجالاً لَسْتُ أُطْلِعُ بَعْضَهُمْ ◆ على سِرِّ بَعْضٍ غَيْرَ أنِّي جِمَاعُهَا
يَظَلُّونَ شَتَّى في البِلادِ، وسِرُّهُمْ ◆ إِلَى صَخْرَةٍ أَعْيَا الرِّجَالَ انْصِدَاعُهَا[5]

---

(١) الغَلَقُ - بفتحتين -: المِغْلاق، وهو ما يُغْلَقُ بِهِ البَاب.
(٢) ضَلَّتْ: ضَاعَتْ.
(٣) «روضة العقلاء» (ص١٩١).
(٤) «الرِّياض النَّاضرة» (ص٢١٠).
(٥) «عيون الأَخْبَار» (١/ ٨١).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَثِقُ بِكُلِّ أَحَدٍ، فَيُفْضِي إِلَيْهِمْ بِأَسْرَارِهِ، فَإِذَا انْتَشَرَ الخَبَرُ وذَاعَ - وكُلُّ سِرٍّ جَاوَزَ الاثنينِ شَاعَ - لامَ مَنْ أَذَاعَهُ وأَفْشَاهُ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ -رضي الله عنه-: «مَا وَضَعْتُ سِرِّي عِنْدَ أَحَدٍ، فَلُمْتُهُ عَلَى أَنْ يُفْشِيَهُ؛ كَيْفَ أَلُومُهُ وقَدْ ضِقْتُ بِهِ؟!»[1].

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ - يرحمه اللهُ -:

إذا المَرْءُ أَفْشَى سِرَّهُ بلسانِهِ ... ولامَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ، فهو أَحْمَقُ
إذا ضَاقَ صَدْرُ المَرْءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِهِ ... فَصَدْرُ الَّذي يُسْتَوْدَعُ السِّرَّ أَضْيَقُ[2]

وَقَدْ يَكُونُ للمَرْءِ صديقٌ هو مُسْتَوْدَعُ أَسْرَارِهِ، فَتَدْعُوهُ الحَاجَةُ لِكَتْمِ السِّرِّ عَنْهُ خَوْفًا أَنْ يَنْتَقِلَ السِّرُّ إِلَى صَدِيقٍ آخَرَ، وفي هذا المعنى يَقُولُ الشَّاعِرُ:

إِذَا مَا كَتَمْتُ السِّرَّ عَمَّنْ أَوَدُّهُ ... تَوَهَّمَ أَنَّ الوُدَّ غَيْرُ حَقِيقِ
وَلَمْ أُخْفِ عَنْهُ السِّرَّ مِنْ ظِنَّةٍ[3] بِهِ ... ولكنَّني أَخْشَى صديقَ صديقي[4]

والرَّجُلُ الكَرِيمُ المُتَخَلِّقُ بِمَحَاسِنِ الأَخْلاقِ وَجَمِيلِ العَادَاتِ يَحْفَظُ أَسْرَارَ إِخْوَانِهِ، حَتَّى وَلَوْ تَصَرَّمَ حَبْلُ المَوَدَّةِ بَيْنَهُمَا، كَمَا قِيلَ:

لَيْسَ الكَرِيمُ الَّذي إنْ زَلَّ صَاحِبُهُ ... بَثَّ الَّذي كَانَ مِنْ أَسْرَارِهِ عَلِمَا
بَلِ الكَرِيمُ الَّذي تَبْقَى مَوَدَّتُهُ ... وَيَحْفَظُ السِّرَّ إنْ صَافَى وإنْ صَرَمَا[5]

---

(١) «روضة العقلاء» (ص١٨٨).
(٢) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص٩٢).
(٣) الظِّنَّة - بكسر الظَّاء -: التُّهَمَةُ - بفتح الهاء -.
(٤) «رسائل الإصلاح» (٢/ ١٧).
(٥) «عين الأدب والسِّياسة» (ص٧٠).

الآفَةُ التَّاسعَةُ

المَـدْحُ المَذْمُومُ

المَدْحُ: نَقِيضُ الهِجَاءِ، وَهُوَ حُسْنُ الثَّنَاءِ. وقيل: هُوَ الوَصْفُ الجَمِيلُ، وَعَدُّ المَآثِرِ[(١)].

وَقِيلَ: هُوَ وَصْفُ المَحَاسِنِ بِكَلامٍ جَمِيلٍ[(٢)].

والمذموم منه: هُوَ مَا انْعَـدَمَتْ فِيهِ ضَـوَابِطُ المَدْحِ المُبَاحِ، فَـانْعَدَمَ فِيـهِ الصِّدْقُ، أَوْ صَاحَبَهُ النِّفَاقُ، أَوِ اتُّخِذَ مِهْنَةً للتَّكَسُّبِ، وَزَادَ المَمْدُوحَ بَطَرًا، وَتَكَبُّرًا، وَظُلْمًا، وَرِثَاءً.

وَهَذَا النَّوْعُ هُوَ الَّذِي عَنَاهُ الرَّسُولُ -ﷺ- في حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ -رضي الله عنه- قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ -ﷺ- رَجُلاً يُثْنِي على رَجُلٍ، ويُطْرِيهِ في مَدْحِهِ، فقال: «أَهْلَكْتُمْ ـ أو قَطَعْتُمْ ـ ظَهْرَ الرَّجُلِ!»[(٣)].

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: أَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ -ﷺ-، فَقَالَ: «وَيْلَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِكَ!» مرارًا ثُمَّ قال: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ - لا مَحَالَةَ - فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلانًا، واللهُ حَسِيبُهُ، ولا أُزَكِّي على اللهِ أحدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وكَذَا، إنْ كان يعلمُ ذلك منه»[(٤)].

---

(١) «لسان العرب» (٢/ ٥٨٩ - ٥٩٠)، و«تاج العروس» (٧/ ١١١).

(٢) «مُعْجم مقاييس اللُّغة» (ص٣٠٨٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٦٦٣) و(٦٠٦٠)، ومسلمٌ (٣٠٠١).

(٤) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ (٢٦٦٢) و(٦١٦٢)، ومسلمٌ (٣٠٠٠).

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ - يرحمه اللهُ -: «حَاصِلُ النَّهْيِ عَمَّنْ أَفْرَطَ فِي مَدْحِ آخَرَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، وَلَمْ يَأْمَنْ على المَمْدُوحِ العُجْبَ لظَنِّهِ أَنَّهُ بِتِلْكَ المَنْزِلَةِ، فَرُبَّمَا ضَيَّعَ العَمَلَ، والازْدِيَادَ مِنَ الخَيْرِ اتِّكَالاً عَلَى مَا وُصِفَ بِهِ، وَلِذَلِكَ تَأَوَّلَ الْعُلَمَاءُ فِي الحَدِيث: «احْثُوا فِي وُجُوهِ المَدَّاحِينَ التُّرَابَ»[1] أَنَّ المُرَادَ مَنْ يَمْدَحُ النَّاسَ فِي وُجُوهِهِمْ بِالبَاطِلِ»[2].

قَالَ الشَّاعِرُ:

يَا جَاهِلاً غَرَّهُ إِفْرَاطُ مَادِحِهِ ▫▪▫ لا يَغْلِبَنْ جَهْلُ مَنْ أَطْرَاكَ عِلْمَكَ بِكْ

أَثْنَى وَقَالَ بِلا عِلْمٍ أَحَاطَ بِهِ ▫▪▫ وأنتَ أَعْلَمُ بِالمَحْصُولِ مِنْ رَيَبِكْ

وَمِنْ خِلالِ مَا سَبَقَ عَرَفْنَا أَنَّ المَذْمُومَ مِنَ المَدْحِ هُوَ الَّذِي يَعُودُ بِالفِتْنَةِ عَلَى المَمْدُوحِ، أَوْ فِيهِ مُجَازَفَةٌ أو إِفْرَاطٌ، أَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، بَلْ كَانَ المَمْدُوحُ لا يَزْدَادُ بِهِ إِلاَّ كَمَالاً، أو يَنْشَطُ عَلَى فِعْلِ الخَيْرِ، والازْدِيَادِ مِنْهُ، أو الدَّوامِ عليه - فَهَذَا مَحْمُودٌ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ، فَعِنْدَمَا قَصَّتْ حَفْصَةُ رُؤْيَا أَخِيهَا عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - على النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لو كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ». قَالَ سَالِمٌ: «فَكَانَ عبدُ اللهِ - بَعْدَ ذلكَ - لا يَنَامُ مِنَ اللَّيلِ إلاَّ قَليلاً»[3].

فَهَذَا المَدْحُ مِنَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - كَانَتْ ثَمَرَتُهُ عَظِيمَةً لِلْمَمْدُوحِ، حَيْثُ أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْداً بِقِيَامِ اللَّيْلِ، حتَّى إِنَّه كَانَ لا يَنَامُ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً.

---

(١) رواه مسلمٌ (٣٠٠٢) عن المِقْدَاد.

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٤٧٧).

(٣) رواه البخاريُّ (١١٢٢) و(١١٥٧) و(٣٧٣٩) و(٣٧٤١) و(٧٠١٦) و(٧٠٢٩) و(٧٠٣١)، ومسلمٌ (٢٤٧٨)، (٢٤٧٩).

قَالَ النَّوويُّ - يرحمه اللهُ -: «قَدْ جَاءَتْ أَحَاديثٌ كَثِيرَةٌ في الصَّحيحين بالمَدْحِ فِي الوَجْهِ، وقالَ العُلَمَاءُ: وطريقُ الجَمْعِ بَيْنَهَا أَنَّ النَّهْيَ مَحْمُولٌ عَلَى المُجَازَفَةِ في المَدْحِ، والزِّيَادَةِ في الأَوْصَافِ، أَوْ عَلَى مَنْ يُخَافُ على فِتْنَتِهِ مِنْ إِعْجَابٍ ونَحْوِهِ، إِذَا سَمِعَ المَدْحَ.

وأَمَّا مَنْ لا يخاف عَليه لِكَمَالِ تَقْوَاهُ، ورُسُوخِ عَقْلِهِ، ومَعْرِفَتِهِ، فَلا نَهْيَ في مَدْحِهِ في وَجْهِهِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فيه مُجَازَفَةٌ، بَلْ إِذَا كَانَ يَحْصُلُ بِذَلِكَ مَصْلَحَةٌ: كَنشطه للخَيْرِ، والازْدِيَادِ منه، أو الدَّوَامِ عليه، والاقْتِدَاءِ بِهِ - كَانَ مُسْتَحَبًا، واللهُ أَعْلَمُ»[1].

فَعَلَى المَادِحِ ألاَّ يَمْدَحَ أيَّ شَخْصٍ بِأَكْثَرَ مِمَّا فِيهِ، فَقَدْ قَالَ أَحَدُ السَّلَفِ: «لا تَمْدَحْ أَحَدًا بِأَكْثَرَ مِمَّا فِيهِ؛ فَيَكُونَ ما زِدْتَهُ نَقْصًا لَكَ».

وعلى المَمْدُوحِ أَنْ يُرَاقِبَ نَفْسَهُ مِنَ العُجْبِ، وَمِنْ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ، وليدعُ بهذا الدُّعَاءِ: «**اللهُمَّ، اغفرْ لي ما لا يعلمون، ولا تُؤَاخِذْني بما يقولون، واجْعَلْني خيراً ممَّا يَظُنُّون**»[2].



(١) «شرح مسلم» (١٨/ ١٢٦).
(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٤٧٨) نقلاً عن البيهقيِّ في «الشُّعب» (٤/ ٢٢٨) منسوبة لأبي بكرٍ الصِّدِّيق، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (٥٨٥).

الخاتمة

وَختَامًـا فَإِنَّ الكَمَالَ عزيزٌ، وبلوغه بـعيدُ المنال، مُعْجِـزُ الدَّرْك، فَمَنْ وَجَدَ خَلَلاً أَوْ نَقْصًا، فَنَحْنُ نُنَاشِـدُهُ اللهَ في إِصْلاحه، وأَدَاء حقِّ النَّصيحَة فـيه، وغفر اللهُ لَمَنْ تَجَاوزَ عَنِ الزَّلاَّتِ والهنَات، وَالْتَمَسَ لِيَ العُذْرَ في النَّقْصِ والتَّقْصِير.

إِنْ تَجِـدْ عَـيْـبـاً فَـسُـدَّ الخَلَلا ▫▪▫ جَلَّ مَنْ لا عَـيْبَ فِـيـهِ وعَـلاَ!

وَأَجِدُنِـي مُضطَرّاً لأَنْ أَقُـولَ مَا قَـالَ مَنْ قَبْلِي: «هَذَا جُـهْدُ المُقِلِّ، وَحِـيلَةُ المُفْلِس، حَـذَّرَ فيه منَ الدَّاء، وَإِنْ كَـانَ منْ أَهْله، وَوَصَفَ فيـه الدَّوَاءَ، وَإِنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى تَنَاوله لظُلْمه وجَهْله، وَهُوَ يَرْجُو أَكْرَمَ الأَكْرَمينَ، وَأَرْحَمَ الرَّاحمينَ أَنْ يَغْفرَ لَهُ غَيَّهُ لنَفْسه بنَصيحَته لعبَاده، وَاللهُ المُسْتَعَانُ».

فَإِنْ كُنْتَ - أَخِي القَارِئ - ممَّنْ خَصَّهُمُ اللهُ بحفْظ الجَميلِ، فَأَقَلُّ الجَميلِ في حقِّ كَاتبِ هَذه السُّطُور «حَفظَهُ اللهُ بطَاعَته!»، أو «رَحمَهُ اللهُ، وغَفَرَ لَهُ ولوالدَيْه!».

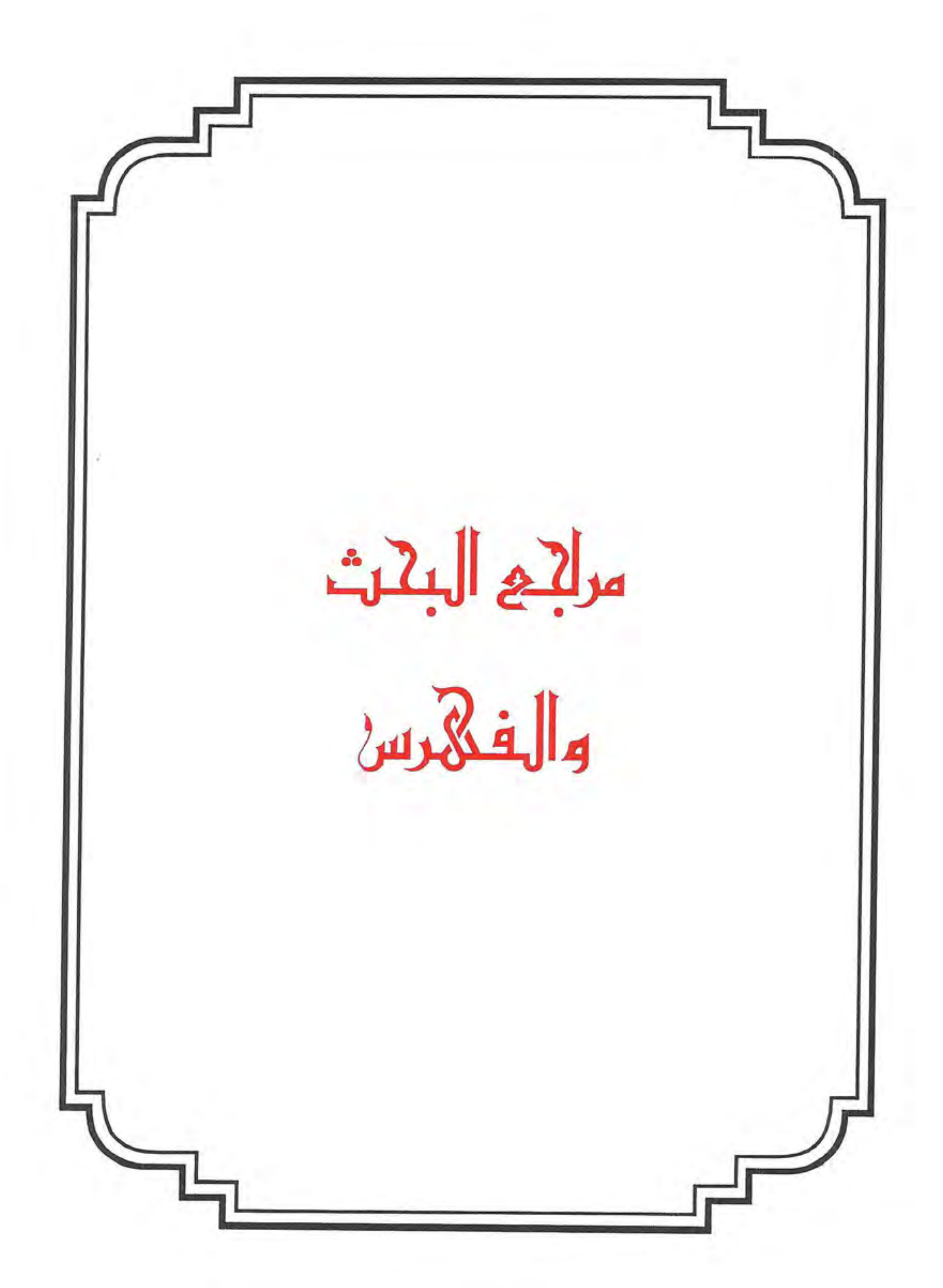
وَأَستَوْدِعُكَ - أخي - بِهَذَا الدُّعَاءِ:

بَقِـيْتَ مَـدَى الدَّهْرِ، وَعِلْمُكَ رَاسِخٌ ▫▪▫ وخَـيْـرُكَ مَـمْـدُودٌ، وَلَيْلُكَ عَـامِـرُ

يَوَدُّ سَنَاكَ البَـدْرُ، والبَـدْرُ زَاهِرٌ ▫▪▫ ويَقْفُو نَدَاكَ البَحْرُ، والبَحْرُ غَامِرُ

وهُنِّئْتَ أيَّامًـا تَوَالَى نَشَـاطُهَـا ▫▪▫ كمـا تَتَوَالى في العُقُودِ الجَوَاهِرُ

وآخرُ دعْوَانَا أنِ الحَمْدُ لله ربِّ العَالمينَ



مراجع البحث والفهرس

مراجع البحث

- القرآن الكريم.
- «أبجد العلوم» لصدِّيق حسن خان.
- «إحياء علوم الدِّين» لأبي حامد الغزاليِّ.
- «الأخلاق والسِّير» لابن حَزْم الأندلُسيِّ.
- «الآداب الشَّرْعيَّة والمنح المرعيَّة» لابن مُفْلح الحَنْبَلِيِّ.
- «أدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» لأبي الحسن الماوَرْدِيِّ.
- «الأدَب الصَّغير والأدب الكبير» لابن المُقفَّع.
- «الأدب المفرد» للبخاريِّ.
- «الأذكار» للنَّوَوي.
- «إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد» لعبد العزيز السلمان.
- «إرواء الغليل» للألبانيِّ.
- «الاستقامة» لابن تيمية.
- «الإصابة» لابن حجر العسقلانيِّ.
- «آفات اللسان» للقحطانيِّ.
- «إقتضاء الصِّراط المستقيم» لابن تيمية.
- «أقوالٌ مأثورة» لمحمَّد لطفي الصَّبَّاغ.
- «الألفيَّة في الآداب الشَّرعيَّة» لأبي عبد الله محمَّد بن عبد القوي.
- «إنباه الرُّواة علَى أنباء النُّحاة» للقفطي.
- «البداية والنِّهاية في التاريخ» لابن كثير الدِّمشقيِّ.
- «بذل المجهود» لخليل السَّهارنفوي، تعليق الكاندهلوي.
- «برُّ الوالدَيْن» للحنَّاوي.

- «برُّ الوالدَيْنِ» للطَرْطوسيِّ.
- «بصائر ذوي التمييز» للفَيْرُوزأَبَادِي.
- «بلوغ الأماني».
- «بهجة المجالس وأنيس المقيم والمسافر» لأبي عبد الله الأثريِّ.
- «بهجة المجالس» لابن عبد البَرِّ.
- «البيان والتبيين» للجاحظ.
- «تاج العروس لمحمَّد مرتضى الزَّبيديِّ.
- «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي.
- «تُحفة الأحوذي» لأبي العلي عبد الرَّحمن المباركفوري.
- «تخريج الإحياء» للحافظ العراقيِّ.
- «تخريج المشكاة» للألبانيِّ.
- «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك» للقاضي عِياض.
- «تسلية أهل المصائب» لأبي عبد الله النبجيِّ.
- «التعريفات» للجُرجانيِّ.
- «تفسير البحر المحيط» لأبي حيَّانَ الأندلُسيِّ.
- «تفسير الطَّبريِّ».
- «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير الدِّمشقيِّ.
- «تفسير القرطبي».
- «التفسير القيِّم» لابن قيِّم الجوزيَّة.
- «التفسير الكبير» للرَّازيِّ.
- «تنبيه الغافلين» لأبي اللَّيث السَّمَرقنديِّ.
- «تهذيب الأخلاق» للجاحظ.
- «تهذيب التَّهْذيب لابن حجر العسقلانيِّ.
- «تهذيب مدارج السَّالكين» لابن قيِّم الجوزية، تهذيب عبد المنعم العزِّي.
- «التَّوقيف على مهمَّات التعاريف» للمنَّاوي.

- «تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان» لابن سَعْدِيٍّ.
- «جامع الأصول» لابن الأثير.
- «جامع البيان لابن جرير الطَّبَرِيِّ.
- «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحَنْبليِّ.
- «الجرح والتَّعديل» لأبي محمد الرَّازيِّ.
- «الجواب الكافي لمن سأل عن الدَّواء الشَّافي» لابن قيِّم الجوزيَّة.
- «جواهر الأدب» لأحمد الهاشميِّ.
- «كتاب الحلم» لابن أبي الدُّنيا.
- «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» لأبي نعيم الأصبهانيِّ.
- «حياة الحيوان» للجاحظ.
- «الداء والدواء» لابن قيِّم الجوزية.
- «دلائل النُّبُوَّة» لأبي نعيم الأصبهانيِّ.
- «ديوان أبي الطَّيِّب المُتنبِّي».
- «ديوان أبي فراس الحَمْدانيِّ».
- «ديوان حسَّان بن ثابتٍ الأَنْصاريِّ».
- «ديوان الإمام الشَّافعيِّ» تحقيق البقاعي.
- «ديوان عبده محمَّد العماد» (مخطوط).
- «ديوان المثاني» لعبد الوهَّاب عزَّام.
- «الرَّحيق المختوم» لصفيِّ الرحمن المباركفوري.
- «رسائل الإصلاح» لمحمد الخضر حسين.
- «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» لابن حبَّانَ البُسْتيِّ.
- «رياض الصَّالحين» للنَّوَوِيِّ.
- «الرِّياض النَّاظرة والحدائق النَّيِّرَة» لابن سَعْدِيٍّ.
- «زاد المعاد في هَدْي خير العباد» لابن قيِّم الجَوْزيَّة.
- «الزَّواجر» لابن حجر الهَيْتَمِيِّ.

- «السِّلْسِلَة الصَّحيحة» للألبانيِّ.
- «السِّلْسِلة الضَّعِيفة» للألباني.
- «السُّنن» لأبي داودَ السِّجِسْتَانِيِّ.
- «السُّنَن» للتِّرمِذيِّ.
- «السُّنن» للنَّسَائِيِّ.
- «السُّنن» لابن ماجة القزويني.
- «السُّنن» لأبي محمَّد الدَّارميِّ.
- «سِير أعلام النُّبلاء» للذَّهَبِيِّ.
- «شذَرات الذَّهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحَنْبلِيِّ.
- «شرح حديث «ما ذئبان جائعانِ» لابن رجبِ الحَنْبلِيِّ.
- «شرح حماسة أبي تمام» للتَّبْرِيزيِّ.
- «شرح السُّنَّة» للبَغَوِيِّ.
- «شرح سنن أبي داودَ معالم السُّنن» للخطَّابِي.
- «شرح العقيدة الطَّحَاوِيَّة» لابن أبي العز الحَنَفِي.
- «شرح مسلم» للنَّوَوِيِّ.
- «شرح المواهب اللدُنيَّة» للزُّرْقانِيِّ.
- «شُعب الإيمان» للبيهقيِّ.
- «شفاء العليل» لابن قَيِّم الجَوزِيَّة.
- «الشَّوْقيَّات» لأحمد شوقي.
- «الصِّحاح» لأبي نَصْر الجوهريِّ.
- «صحيح البخاريِّ» .
- «صحيح مسلم».
- «صحيح ابن حبَّانَ» للألبانيِّ.
- صحيح الأدب المفرد» للألبانيِّ.
- «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» للألبانيِّ.

- «صحيح الجامع» للألباني.
- «صحيح سنن ابن ماجة» للألباني.
- «صحيح سنن أبي داود» للألباني.
- «صحيح سنن التِّرْمِذِيِّ» للألباني.
- «صفة الصَّفْوَة» لابن الجوزي.
- «صيد الخاطر» لابن الجوزي.
- «العقد الفَرِيد» لأحمد بن عبده ربه القُرطُبِي.
- «كتاب الضُّعَفَاء» للعقيلي.
- «عدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين» لابن قيِّم الجوزيَّة.
- «عشرون قصيدةً في الزُّهد» جمع محمد سيِّد أحمد.
- «العقيدة الطَّحاويّة» لأبي جعفر الطَّحاوي.
- «عمل اليوم واللَّيلة» لابن السُّنِّي.
- «عون المعبود شرح أبي داود» للعظيم آبادي.
- «عين الأدب والسِّيَاسة» لعليِّ بن هُذَيْلٍ.
- «عيون الأخبار» لابن قُتيبة الدِّينوري.
- «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» للسفاريني.
- «الغوامض والمبهمات» لابن بشكوال.
- «مجموع فتاوى ابن تيميَّةَ» جمع عبد الرَّحمن بن قاسم وابنه محمد.
- «فتح الباري» لابن حجرٍ العسقلانيِّ.
- «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» لعبد الرَّحمن بن حسن آل الشَّيْخ.
- «فتح المغيب» للسَّخَاوي.
- «فقه الأخلاق والمعاملات بين المؤمنين» لأبي عبد الله مصطفى العَدَوِي.
- «كتاب الفنون» لابن عقيلٍ الحَنْبلِيِّ.
- «الفوائد» لابن قَيِّم الجوزيَّة.
- «القاموس المحيط» للفيروزأبادي.

- «قضاء الحوائج» لابن أبي الدُّنيا.
- «الكبائر» للذَّهبيّ.
- «كشف الأستار» للبزَّار.
- «كشف الخفاء» للعجلونيّ.
- «الكليات» للكفويّ.
- «لسان العرب» لابن منظور.
- «مجلة البحوث».
- «مجمع الزوائد» للهيثمي.
- «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة المقدسي.
- «مدارج السَّالكين» لابن قيِّم الجوزيّة
- «المدخل» لابن الحاج.
- «المروءة الغائبة».
- «المروءة وخوارمها» لمشهور بن حسن آل سليمان.
- «مساوئ الأخلاق» للخرائطيّ.
- «المستدرك» للحاكم.
- «المسند» للإمام أحمد.
- «المصنَّف» لابن أبي شيبة.
- «المُعْجَم الأوسط» للطَّبرانيّ.
- «المُعْجم الكبير» للطبرانيّ.
- «مُعْجم مقاييس اللُّغة» لابن فارس.
- «مفتاح دار السَّعادة» لابن قَيِّم الجَوزيَّة.
- «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدُّنيا.
- «مكارم الأخلاق» لابن تيميَّة، تحقيق وإعداد عبد الله بدران ومحمد عمر الحاجي.
- «مكارم الأخلاق» لابن عُثَيْمِين، إعداد وترتيب خالد أبو صالح.
- «مكارم الأخلاق» للخرائطيّ.

- «مكارم الأخلاق» لسليم الهلاليِّ.
- «مكاشفة القلوب» لأبي حامدٍ الغزَاليِّ.
- «منظومة الأدب».
- «منهاج القاصدين» لابن الجوزيِّ.
- «منهج السُّنَّة النَّبويَّة» لابن تيمية.
- «موارد الظَّمآن لدروس الزَّمَان» لعبد العزيز السَّلمان.
- «نظرة النَّعيم» لمجموعة علماء.
- «نفح الطِّيب» للمقريِّ.
- «النُّونيَّة» لابن القَيِّم بشرح هرَّاس
- «هداية المُسترشدين» للحارث المحاسبي.
- «الهديَّة الإسلاميَّة».
- «الهمَّة العاليَّة» لمحمد بن إبراهيم الحمد.
- «كتاب الورع» لابن أبي الدُّنيا.
- «وفيَّات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمَان» لابن خَلِّكان.



فهرس

■ المُقَدِّمَةُ ٥
■ تَعْرِيفُ الأَخْلاق ٧
■ الأخْلاقُ بَيْنَ الطَّبْعِ والتَّطبُّعِ ٩
■ أهميَّة الأخْلاق: ١١
١ ـ أنَّها امتثالٌ لأمر الله - سبحانه وتعالى - ١٣
٢ ـ أنَّها طاعةٌ لرسولُ الله ﷺ ١٣
٣ ـ أنَّها سببٌ لمحبَّة الله سبحانه وتعالى ١٣
٤ ـ أنَّها سببٌ لمحبَّة رسول الله ﷺ ١٣
٥ ـ أنَّها أعظمُ سببٍ لدخول الجنَّة بَعْدَ تقوى الله - تعالى - ١٤
٦ ـ أنَّ كمال الدِّين ـ بَعْدَ التَّوحيدِ ـ في حُسْنِ الخُلُقِ ١٤
٧ ـ أنَّها أثقلُ شيءٍ في الميزانِ ١٤
٨ ـ أنَّها عبادةٌ عظيمةٌ ١٤
٩ ـ حصولُ الخيريَّة ١٥
١٠ ـ أنَّها مِنْ خَيْرِ أعمال العبادِ ١٥
١١ ـ أنَّها سببٌ لتعميرِ الدِّيار، وزيادةِ الأعمارِ ١٥
١٢ ـ أنَّها مِنْ أعمال أهلِ الجنَّة ١٦
١٣ ـ أنَّها سببٌ في تأييد الله ونَصْرِه ١٦
■ أسْبَابُ اكْتِسَابِ مَكَارِمِ الأَخْلَاق: ١٩
١ ـ الإخلاصُ ٢١
٢ ـ العلم ٢٣
٣ ـ العقيدة الصحيحة ٢٦
٤ - النَّظر في كتاب الله - تعالى - ٣٢

٥ ـ التَّأسِّي بالنَّبيِّ - ﷺ - ٣٤
٦ ـ الدُّعاء ٣٧
٧ ـ العمل الصَّالح ٤٠
٨ ـ الرُّفْقَةُ الصَّالحة ٤٤
٩ ـ المحاسبة ٥٣
١٠ ـ المجاهدة ٥٧
١١ ـ الاستفادةُ منَ الآخرين ٥٩
١٢ ـ عُلُوُّ الهمَّة ٦٢
١٣ ـ النَّظرُ في عَواقبِ سُوْءِ الخُلُقِ ٦٨
■ صُورٌ من الأَخْلاق: ٧١
١ ـ الحيـاء ٧٣
٢ ـ بِرُّ الوَالدَيْنِ ٨٤
٣ ـ صِلَةُ الرَّحِمِ ٩٥
٤ ـ حُسْنُ الجـوارِ ١٠٤
٥ ـ حُسْنُ السَّمْتِ ١١٠
٦ ـ الوَقَـارُ ١١٤
٧ ـ الرِّفْـقُ ١١٦
٨ ـ الرَّحمة ١٢١
٩ ـ التَّواضُعُ ١٢٦
١٠ ـ الحِـلْمُ ١٣٨
١١ ـ الكَـرَمُ ١٥٧
١٢ ـ إكرامُ الضَّيفِ ١٨٢
أدبُ الضِّيافة ١٩٣
١٣ ـ المُـرُوْءَةُ ١٩٦
١٤ ـ الصَّبْرِ ٢٠٢
١٥ ـ الانتصارُ ٢٢٧

١٦ ـ الإنصافُ ٢٣٥
١٧ ـ المُدَاراةُ ٢٤١
١٨ ـ الصِّدقُ ٢٤٦
١٩ ـ حُسْنُ الظَّنْ ٢٥٠
٢٠ ـ تَجَنُّبُ الغَضَبِ ٢٥٣
٢١ ـ تَجَنُّبُ الحقْدِ ٢٦١
٢٢ ـ تَجَنُّبُ الحَسَدَ ٢٦٦
٢٣ ـ غَضُّ البَصَرِ ٢٨٠
٢٤ ـ الغَيْرَةُ ٢٨٣
٢٥ - عَدَمُ الانشغالِ بعُيُوبِ النَّاسِ ٢٨٨
٢٦ ـ حفْظُ اللِّسَانِ ٢٩١
٢٧ ـ تَجَنُّبُ آفاتَ اللِّسانِ، ومنها: ٢٩٦
(أ) الغيْبَــةُ ٢٩٦
(ب) النَّميمَـةُ ٣٠٦
(جـ) الكَـذِبُ ٣١٤
(د) اللَّعْـنُ ٣٢٠
(هـ) السُّخْريةُ ٣٢٢
(و) البَذَاءةُ والتَّفَحُّشُ في القَـوْلِ ٣٢٤
(ز) شَهَادَةُ الزُّورِ ٣٢٨
(حـ) إفْشَاءُ الأَسرارِ ٣٣٢
(ظـ) المَدْحُ المَذْمُومُ ٣٣٧
الخَاتِمَةُ ٣٤٠
المَرَاجعُ ٣٤١
الفِهْرِسُ ٣٥٠



فاكس: ٢٤٣٣٢٤٩
محمول: ٠١٠١٩٠٠٠٣٨٠

من إصداراتنا
لأبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

* فن الحوار.
* التاج المفقود.
* طريقنا للقلوب.
* نعمة الأخوة.
* ملك القلوب.
* منتقى الأشعار.
* تسهيل البلاغة.
* منتقى الفوائد١ /٢.
* كيف تنال محبة الله.
* منتقى الأمثال.
* الخطاب البليغ في جماعة التبليغ.
* الصحيح من الأثر في خطب المنبر.
* حادي الصديق إلى بيت الله العتيق.
* الأخلاق بين الطبع والتطبع.
* المنتقى من الأحاديث القدسية.
* نزهة الأحباب شرح منظومة الاداب.
* تحفة الخطيب (أصول الخطابة - آدابها - صفات الخطيب).
* رسالة إلى ولدي.. من تصاحب؟.
* صلاة المسلم فضائل وأحكام.
* تهذيب الآداب الشرعية.
* ظلمات الظلم.

التوزيع في القاهرة: العربية للتوزيع خلف الجامع الأزهر
شارع الإمام محمد عبده - أول درب الأتراك - ت: ٠٠٢٠٢/٢٥١٢٠٦٢١

داركم المتميزة



دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤١١٩١٠ - ٠٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com
دار القمة لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي